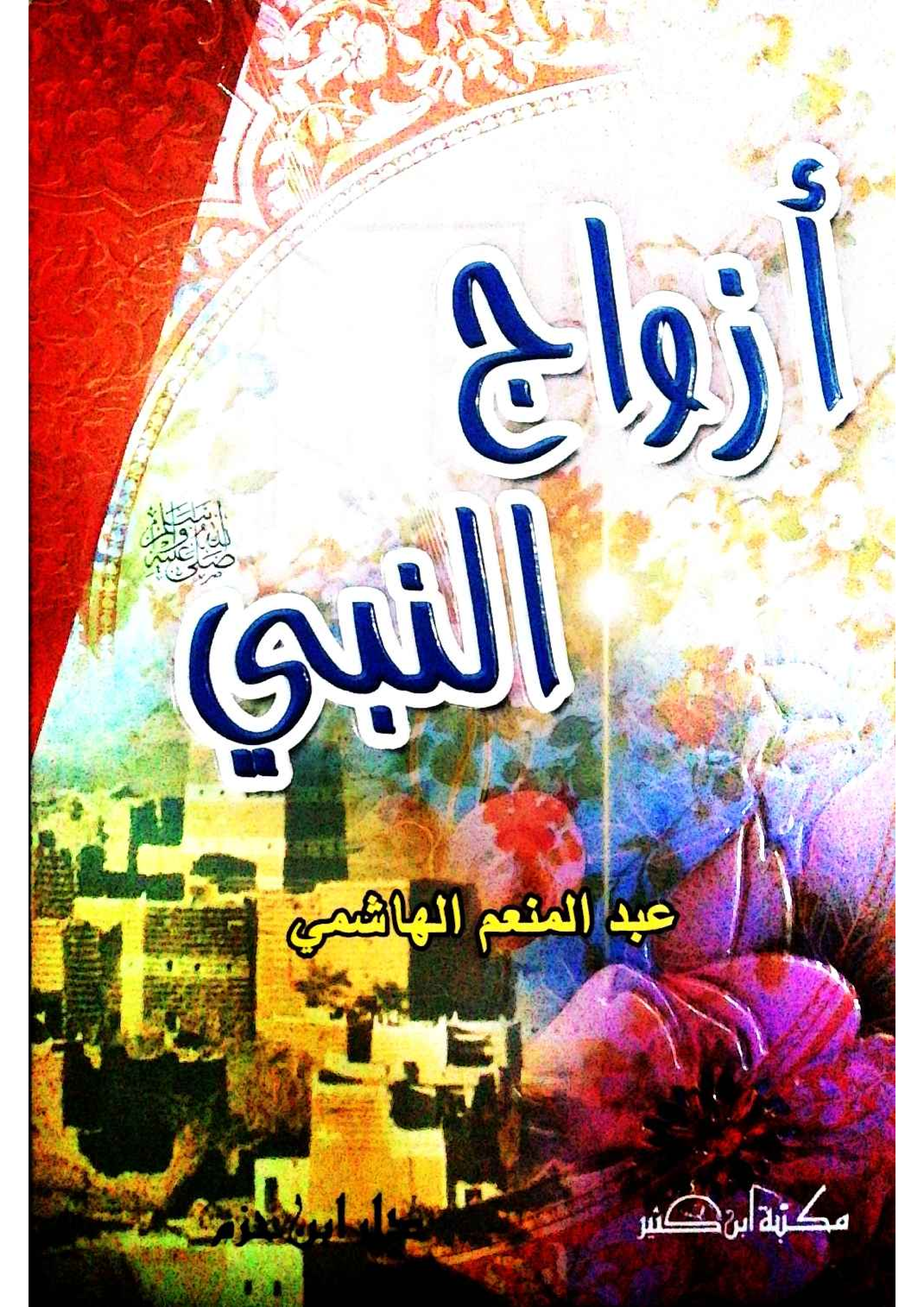

أزواج النبي
صلى الله عليه وسلم
عبد المنعم الهاشمي
مكتبة ابن كثير

أزواج النبي ﷺ

عبدالمنعم الهاشمي



دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

ISBN 9953-81-087-7



الكويت - حولي : 32012 - ص.ب : ١١٠٦
تلفون : ٢٦٣١٢٩٨ - فاكس : ٢٦٥٧٠٤٦

دار ابن حزم

بيروت - لبنان - ص.ب : 14/6366
هاتف وفاكس : 701974 - 300227 (009611)
البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb
الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الإهـداء

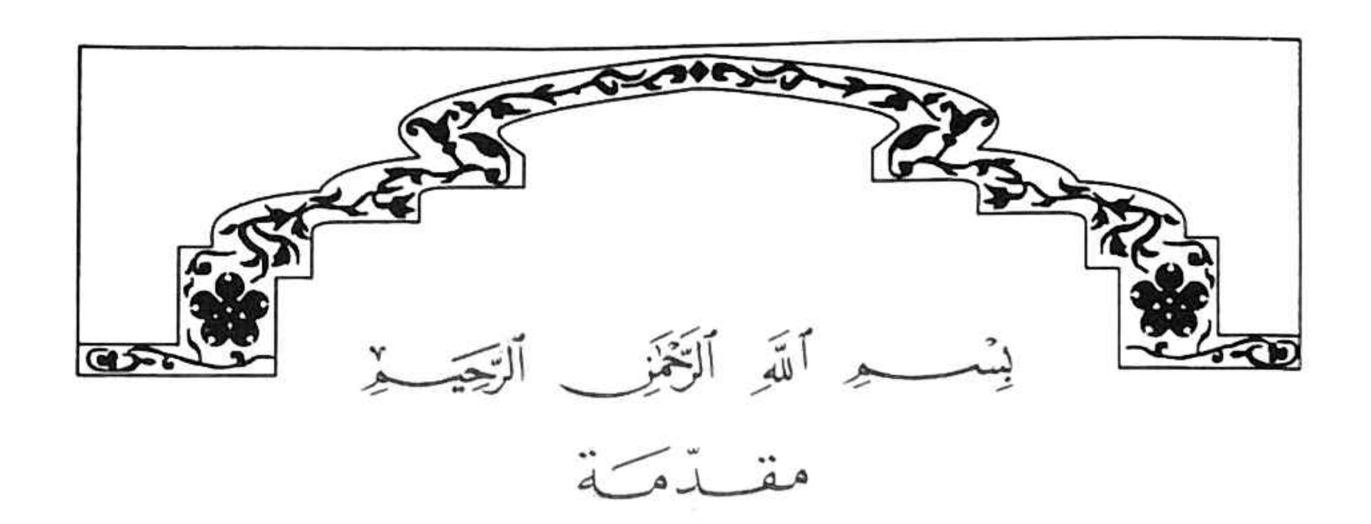
إلى كُلّ نساء المسلمين وبناتهم...

إلى كل من يحب أهل البيت ونساء النبي ﷺ...

أهدي لهم صورة من قريب، عن أشرف وأطهر نساء الأرض رضوان الله عليهن، واللاّئي قال فيهنّ ربّ العزّة: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾.

عبدالمنعم الهاشمي





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة

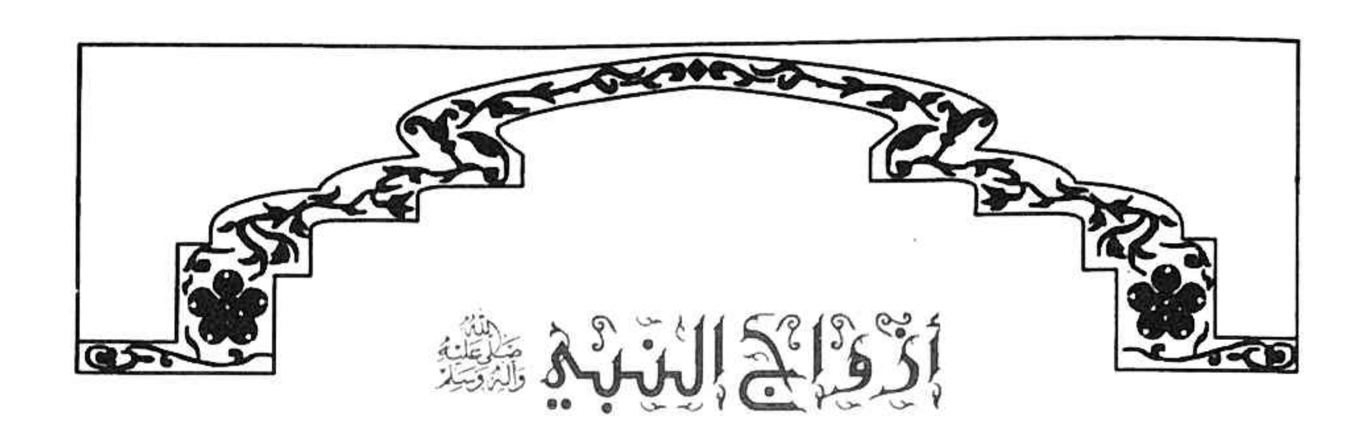
الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

وبعد..

هذه السيرة العطرة كَتَبَ فيها قبلي الكثير من العلماء الأجلاء، وأخلصوا الهدف والغرض، وسيكتب فيها من بعدي الكثير ما دام الإسلام يهتف على وجه الدنيا. وكل من كتب، وكل من سيكتب، يعرف قيمة هذه السيرة العطرة، ولولا أن أفئدة المسلمين تهوى وتميل إلى هؤلاء النسوة الطاهرات، زوجات أشرف الأنبياء محمد ﷺ، ما هوى كاتب أن يخطّ بقلمه ويعتزّ بأنه كتب هذه السيرة.

وقد كان منهجي في الكتابة عنهن تقديم القدوة الحسنة، والنموذج الأمثل الذي عاش في مدرسة النبوة، وتربّى في أحضان الوحي، وعاش أيام النبي ﷺ العظيمة، أيام النبي ﷺ الخاصة في بيته والعامة بين النّاس، وفي سيرة أزواج النبي الطاهرات صورة مشرقة حاول القلم أن يرسم ملامحها لتكون متعة للقارىء، وبهجة للمحب، أسأل الله أن يتقبل عملنا هذا بقبول حسن.

عبدالمنعم الهاشمي
القاهرة - هاتف: ٦٣٣٨٩٨٥
أغسطس ٢٠٠٢م



تزوّج النبي ﷺ نساءه المشهورات المتفق عليهن وهن ست قرشيات:

١ - خديجة بنت خويلد، وينتهي نسبها إلى قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي.

٢ - عائشة بنت أبي بكر الصديق، وينتهي نسبها إلى تيم بن مرة بن كعب بن لؤي.

٣ - وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وينتهي نسبها إلى عدي بن كعب بن لؤي.

٤ - وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وينتهي نسبها إلى قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي.

٥ - وأم سلمة بنت أمية، وينتهي نسبها إلى مرة بن كعب بن لؤي.

٦ - وسودة بنت زمعة بن قيس، وينتهي نسبها إلى عامر بن لؤي.

فهؤلاء الست قرشيات من قبيلة قريش، ينتهي نسبهن إلى لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة.

- وأربع عربيات من غير قريش، من حلفائهم وهن:

١ - زينب بنت جحش - ينتهي نسبها إلى أسد بن خزيمة.

٢ - وميمونة بنت الحارث الهلالية وينتهي نسبها إلى قيس بن عَيْلان.

٣ - وزينب بنت خزيمة الهلالية، وينتهي نسبها إلى قيس بن عيلان.

٤ - وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية المصطلقية.

- وواحدة من بني إسرائيل وهي:

١ - صفية بنت حيي بن أخطب من بني النضير.

وهؤلاء المشهورات من نسائه دخل بهن، وهن متفق عليهن، لم يختلف عليهن اثنان.

مات عنده منهن ﷺ اثنتان، خديجة بنت خويلد وزينب بنت خزيمة(١).

❀ ❀ ❀

معنى أمهات المؤمنين

يقول الصالحي: «يعني أمهات المؤمنين في تعظيم الحرمة، وتحريم نكاحهن على التأبيد، فهن كالأمهات، لا في النظر إليهن والخلوة بهن، فإن ذلك حرام في حقهن كما في الأجانب، ولا يقال لبناتهن أخوات المؤمنين، ولا لإخوانهن وأخواتهن أخوال المؤمنين وخالاتهم(١).

جاء هذا التفسير للبغوي(٢) من تفسير الآية الكريمة: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

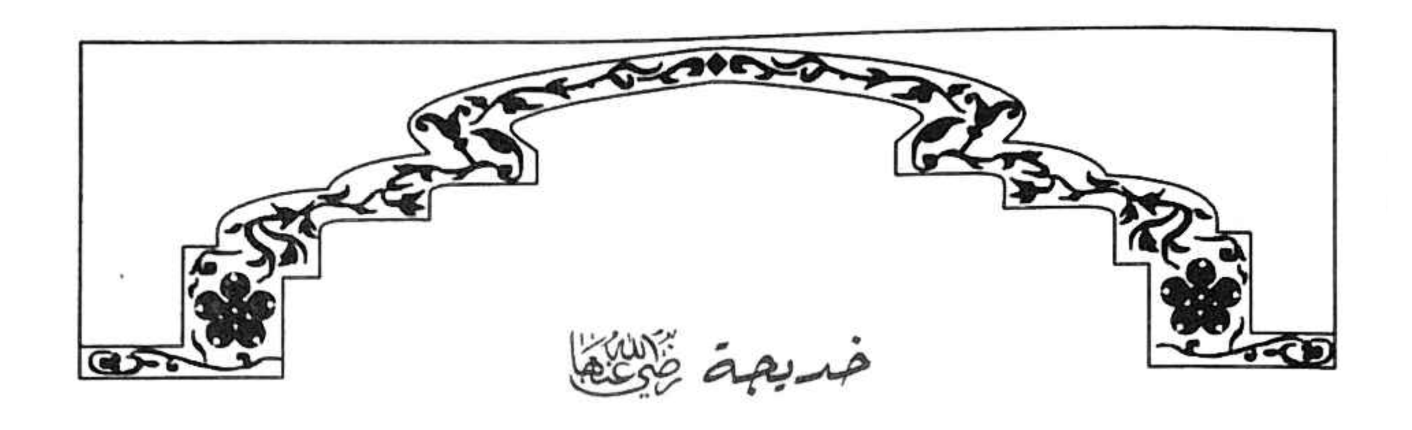
فقد تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر وهي أخت عائشة رضي الله عنها. وتزوج العباس أم الفضل أخت ميمونة، ولم يقل: هما خالتا المؤمنين. ويقال لأزواج النبي ﷺ: أمهات المؤمنين، الرجال دون النساء، وذلك أن امرأة قالت لعائشة: يا أمة، فقالت: «لست لك بأم إنما أنا أم رجالكم»(٣).

---

(١) انظر أزواج النبي للصالحي.

(٢) انظر تفسيره ٣/٥٠٧.

(٣) انظر طبقات ابن سعد جـ٨ ص٦٤: ٦٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/٧٠.



خديجة رضي الله عنها

- **«والله ما أبدلني الله خيراً منها: آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الولد دون غيرها من النساء»** [الرسول ﷺ].

- «ما غرت على أحدٍ من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاءً، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: إنّها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد».

[عائشة الصديقة].

- «هي ممن كمل من النساء، كانت عاقلة جليلة، دينة مصونة كريمة».

[الإمام الذهبي].

- **«بشرها رب العزة على لسان جبريل ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب».**

[من حديث الرسول ﷺ].

- أول المؤمنات إسلاماً، وأم أولاد النبي ﷺ.

- «سيدة نساء العالمين، القرشية الأسدية، وهي ممن كَمُل من النساء، كانت عاقلة جليلة، دينة مصونة كريمة، من أهل الجنة».

[الذهبي في سير أعلام النبلاء][1].

(١) انظر سير أعلام النبلاء مجلد ٢ ترجمة ١٦ ص١٠٩.

١ ـ طاهرة في الجاهلية

إن هذه السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي، أَوْسَطُ نساءِ قُريشٍ نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، وأحرصهن على التزام جانب الأمانة، والاحتفاظ بسياج العفّة والكرامة. أولاها قومها ـ لهذه الصفات ـ من نفوسهم مكانة أي مكانة، وَبَوَّؤوها بينهم مرتبة عظيمة[١].

هذه صورة مجملة عن شخصية خديجة ومكانتها، ولكن لا بد لهذه الشخصية من جذور اجتماعية كانت تعيشها، فهل كانت مثل كل نساء قريش في الجاهلية؟ أم هي نسيج آخر من النساء، حتى قيل فيها إنها «مِمّن كمل من النساء»؟؟

وإذا كنا نبحث عن جذور سيدة النساء، فإن هناك مشهداً دقيقاً، مكانه عند الكعبة، وزمانه قبل بعثة النبي ﷺ، يقول هذا المشهد:

اجتمعت نساء مكة ذات يوم بالمسجد الحرام يحتفلن بعيد من أعيادهن، وذلك حين كان دين أهل مكة الشرك بالله، وحين كان بيت الله الحرام مرتعاً ومأوى وموئلاً لأصنام قريش، ومسرحاً لأوثانها، ففي جوف الكعبة صنم قريش الشهير «هُبَلُ»، ومن حولها عدد كبير من الأصنام والأوثان المتعددة الأسماء، والتي تأخذ أشكالاً متجانسة.

ومرّ رجل غريب عن قريش، قيل: إنه يهودي، مرَّ بهؤلاء النسوة، وَهُنَّ في اجتماعهن هذا يحتفلن بعيدهن، وكان من بينهن الشابات، ومن بينهن العجائز المسنّات، وتمهل الرجل في سيره يتأمل منظرهن هذا، ومن حولهن الأصنام والأوثان، ثم طافت به خواطر رسمت على شفتيه ابتسامةً، فلم يملك نفسه، فتكلّمَ، ووجّه حديثه إلى النسوة جميعهن قائلاً: يا معشر نساءِ قريش، إنّه يوشك أن يبعث فيكن نبي قَرُبَ وجوده، فأيتكن استطاعت أن تكون زوجاً له فلتفعل[٢].

---

(١) السيرة لابن هشام.

(٢) ابن إسحاق في سيرة ابن هشام.

قطع اليهودي بكلامه هذا على النساء حديثهن، ونظرن إلى الرجل الغريب في دهشة واستعجاب، ثم نظر بعضهن إلى بعض متسائلات:

من هذا الرجل الغريب الذي يوجه إلينا هذا الكلام؟!! وما الذي يقصده من وراء قوله هذا؟!

وكان جواب بعضهن لبعض، بعد أن تفرسن في وجهه: إنَّه رَجُلٌ يهوديٌّ غريب عن الديار!! فكل رجال مكة يَعرفهن النساء.

وقالت إحداهن: وما قَصَد بقوله هذا إلا الاستهزاء بنا، وتعييب آلهتنا، وَهَبَّ النساء يسببن الرجل ويشتمنه، وزاد بعضهن فأخذن يحصبنه بالحصى، ويرجمنه بالأحجار، حتى ولّى بعيداً عنهن.

ويروي المؤرخون أنه قال: «إنه يوشك أن يبعث فيكن نبي، فأيتكن استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل، فحصبه النساء، وقَبَّحنه، وأغلظن له»[(١)].

فعلت النساء المجتمعات هذا بالرجل إلا سيدةً واحِدةً منهن، أغضت عن قوله، وانصرفت نَفْسُها عن إيذائه..

ولم يثر ما كان من هذه السيدة الدهشة ولا العجب بين صاحباتها، ولم يَدَعْنَها لانتقادها، أو التعرض للومها أو الانتقام منها، أو النيل من قدرها، فهن جميعاً يعرفن قدر خديجة بنت خويلد، وهي بدورها لم تجارِهنّ فيما قلن وفيما فعلن باليهودي الذي توهّمن أنه يوجه لهن إهانة ويسخر منهن، وما كان ذلك لأنها تدين بدين غير دينهن، ولا لأنها كانت متهمة في دينها الذي تدين به قريش كلها، رجالها ونساؤُها، ولكن لأنها كانت فيهن ذات مكانة سامية ومنزلة رفيعة، لا يتطرق إليها الشك في عقيدتها، ولها بينهن منزلة عالية لا يرقى إليها انتقادهُن، لأنها صاحبة سَمْتٍ متزن، ووقار واحتشام، ومركز اجتماعي كبير، يجمع بين النسب والمال، لا تتمتع به امرأة أُخرى من نساء قريش على وجه العموم.

---

(١) نص الرواية في السيرة.

ولربما انصرفت النساء إلى المنازل والديار مثنى وجماعات، وقد نسين حديث اليهودي، وانصرف عن ذهنهن، وخرج من موضع اهتمامهن ولربما أيضاً ما لفت نظرهن في الأمر كله أن خديجة انفردت بعدم التعرض لليهودي بقول أو فعل، وهذه شيمة الطاهرة كما كان يحلوا لهم أن يسمّونها، أو سيدة نساء قريش.



٢ ـ الأصول والنسب وزواج الجاهلية

ولربما نترك هذا الحديث عن مشهد قد يكون له دور في سياق عرضنا لسيرتها، ونغوص في الجاهلية عن أصول السيدة خديجة، ونتحدث عن والدها خويلد بن أسد، رجل من أشراف قريش، ومن كبار رجالها، بل ومن وجهائها المعروفين، وقد استشهد المؤرخون على مكانته ووجاهته بأنه كان في الوفد الذي أرسلته قريش إلى اليمن ليهنىء ملكها العربي سيف بن ذي يزن، عندما طرد الأحباش من بلاده وبلاد العرب في اليمن، وانتصر عليهم، وكان ذلك بعد عام الفيل بعامين، وقد تكوّن وفد قريش من: عبدالمطلب بن هاشم جدّ النبي ﷺ، وأمية بن عبدشمس، وخويلد بن أسد والد خديجة في عدد من وجوه قريش من أهل مكة، فأتوه بصنعاء في قصر له، يقال له: غمدان[(١)].

وفي حرب الفجار التي دارت بين قريش وحلفائها من كنانة من جهة، وبين قيس عَيْلان من جهة ثانية، وكان عُمر النبي ﷺ بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة وقيل أنه كان ابن عشرين سنة[(٢)]، وسمّيت الفجار لأنه وقع فيها قتال في الأشهر الحرم، وشهد النبي ﷺ بعض أيامها، وقال عليه السلام بعد ذلك: «**كنت أنبل على أعمامي**» أي أردّ عنهم نبل عدوهم إذا

(١) أخبار مكة للأزرقي جـ١ ص١٤٩.

(٢) السيرة النبوية جـ١ ص١٦٨.

رموهم بها[1]، في هذه الحرب مات خويلد بن أسد والد خديجة.

أمّا أمها فهي فاطمة بنت زائدة بن الأصم، يمتد نسبها إلى لؤي بن غالب الذي تنتسب إليه قريش، وبه تلتقي بنسب النبي ﷺ.

وقد تزوجت خديجة قبل أن تتشرف بالزواج بالرسول ﷺ، وكان أول أزواجها عتيق بن عائذ المخزومي، مات عنها، ثم تزوجت أبو هالة بن زرارة التميمي، حليف بني عبدالدار، ومات عنها، وأنجبَتْ منه هند بن أبي هالة رضي الله عنه، وهو ربيب النبي ﷺ، فقد نشأ وتربى وترعرع في حجر النبي ﷺ.

وبعد موت زوجها الثاني انصرفت عن الزواج، ورفضت أن تتزوج ممن تقدموا لخطبتها وكانوا كُثُراً من سادة قريش ورجالها الأشراف، وقد عرضوا عليها الأموال لشرفها ومالها وجمالها رضي الله عنها، وقد قُدّر لها من الله أن تُعْرض عن الزواج رغم ما كان من مغريات السادة والأغنياء والأشراف، وكأنها أعرضت عن الزواج كي يكون لها شرف الزواج من النبي ﷺ.

وانصرفت رضي الله عنها إلى التجارة وتنمية مالها بالحلال، وقد كانت مهنة التجارة هي المهنة التي اشتهر بها القرشيون، والتي أشار إليها القرآن في قوله عز وجل: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾[2].

❀ ❀ ❀

٣ ـ عود على بدء

نعود إلى مشهد الكعبة واليهودي، فقد عادت خديجة رضي الله عنها بعد انفضاض الحفل، وقد تملّك فكرها ما سمعته من اليهودي الغريب أثناء اجتماعها مع نساء قريش بالحرم الشريف، ولربما كان تفكيرها يختلف عن

(١) السيرة النبوية.

(٢) سورة قريش كاملة.

تفكير صاحباتها، ومما يؤكد ذلك ما ذكر عنها أنها: ممن كَمُلَ من النساء، فلم يكن كلام اليهودي بالشيء المستهان به كما فكرت صاحباتها، ولم تأخذه خديجة على سبيل الاستهزاء بهن، والسخرية منهن، وتعييب آلهتهن، بل انصرف فكرها إلى شيء آخر أخذ منها حيزاً من التفكر والتدبر، ولعل ما تسمعه من ابن عمها ورقة بن نوفل كوّن عندها فكرة تصديق حديث هذا اليهودي، وقد كانت تسمع من ورقة شيئاً يقبله العقل والمنطق، وترى في حال قومها ما لا يقنع عاقل أو متعقل.

وقد كان ورقة بن نوفل يعيب على قريش دائماً عبادتهم للأصنام وسجودهم للأوثان، وخروجهم على الدين القويم، دين أبويهم إبراهيم وإسماعيل، الذي دعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، واسترجعت في ذهنها ما كانت تسمعه من ورقة بن نوفل ابن عمها عن قرب بعث رسول من سلالة إسماعيل، يدعو إلى ما كان يدعو إليه إبراهيم وإسماعيل.

ولكن من هو ورقة هذا الذي يؤثّر في ابنة عمه خديجة بنت خويلد كل هذا التأثير؟ حتى جعل له في نفسها احتراماً، فترجع إليه في هذا الشأن كثيراً؟

وورقة بن نوفل يستحق كل هذا القدر من خديجة، فهو الذي رفض أن يساير قومَهُ في عبادة الأصنام، والشرك بالله، فاتبع دين إبراهيم حنيفاً، لا يشرك بالله أحداً، وحرّم على نفسه الخمر، واجتنب الميسر، وصار يفتدي الموؤودة من ماله؛ فإذا ما سمع أن أباً يريد قتل ابنته لفقر أو لخشية عارٍ، تَقَدَّمَ إليه، فكفلها عنه، حتى إذا ما شبت ورغب الأب فيها أعادها إليه.

ولما لم يجد ورقة ما يدله ويرشده إلى تعاليم الأديان الصحيحة تهوّد، ثم تنصَّر، وبذلك استطاع أن يدرس الأديان، فدرس التوراة والإنجيل، ونقل عنهما إلى العربية ما استطاع أن يفهم ويستخلص ويمكن نقله، وأخذ ذلك من عمره الكثير إلى أن أصبح شيخاً مُسنّاً.

لذلك أصبح ورقة هو الشخص الذي يمكن لخديجة أن تسأله فيما يشغل بالها من أمور الدين والتدين وأخبار الأولين، وكان أمر هذا اليهودي

الذي تحدث بما تحدث به في الكعبة هو الشغل الشاغل لها، فعرضته على ورقة بن نوفل ابن عمها.

انصرفت خديجة إلى تجارتها، وشُغلت عن هذا الأمر، وكذلك انصرفت لمشاغلها عن زيارة ورقة بن نوفل، وذلك بما كان يشغل حياتها من مهام ومشاغل.

والحق أن خديجة في هذه الأيام كانت لا بد أن تُشْغَل عن كل هذا، فقد كانت سيدة ذات مال وفير، تستثمره في التجارة كباقي قومها من قريش، حيث كان عماد حياتهمُ التجارة، وقوام معاشهم الخروج بأموالهم ومتاجرهم في رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام.

وخديجة منذ مات عنها زوجاها اللذان تزوجت بهما الواحد بعد الآخر:

- **أولهما**: عتيق بن عائذ المخزومي الذي أنجبت منه هِنْداً بنت عتيق.

- **ثانيهما**: أبو هالة بن زرارة التميمي الذي أنجبت منه هند بن أبي هالة، فكانت خديجة تُكْنى أم هند وقد خلفا لها ما خلفا من المال.

وإذا عدنا إلى الزوج الثاني أبو هالة.. وهو «النباش بن زرارة التميمي»، نجده أنه كان رجلاً شهماً كريماً، مقداماً، ملأ الأسماع بكرمه، وشجاعته. وكان النباش بن زرارة التميمي، كثير المال، واسع التجارة، فشاركته خديجة رضوان الله عليها الرأي، كما كانت تشارك زوجها الأول عتيقاً. وقد دأبت في أن تشير عليه ويُشير عليها، وأظلّت بيتهما السعادة، وبدأ الناس ينظرون إلى هذا البيت، ويرون فيه أحسن البيوت رفاهية وسعة في العيش وحسناً في التدبير، وينظرون إلى عمل هذا الزوج، فيرون فيه أحسن الأعمال، حتى إنه إذا ذكرت البيوت وخير النساء، كان اسم خديجة بنت خويلد وزوجها النباش بن زرارة التميمي أول بيت يُضْرَبُ بِهِ المثلُ.

ومرّ عام جميل، رفرفت فيه السعادة على هذا البيت، فكانت رابطة

الولد، الذي يحبه العرب، ويكثرون زواج النساء من أجله، ويحزنون من أجله إذا افتقدوه، ويفرحون في وجود الولد والذرية.

وأنجبت خديجة ابنها «هالة» ابن النباش بن زرارة التميمي، فسعدت به وأصبح قرة عين لها، فقامت على رعايته أحسن رعاية.

ومرت الأيام سعيدة هانئة إلى أن فاجأ خديجة حادث أحزنها حزناً شديداً، لقد مات النباش بن زرارة التميمي.

وكان موت أبي هالة، جرحاً غائراً في نفس خديجة، أسبل على وجهها المشرق، وثغرها الباسم خطوطاً من الحزن، وعلاماتٍ من اللوعة والحرقة، ورغم أن أبا هالة تركَ لها ثروة كبيرة إلا أنها لم تلتفت إلى هذه الثروة، وزهدت في هذه الحياة التي لا يدوم لها حال، ولا تبقى على سعادة أنشأتها النفوس المطمئنة، ولكن كل هذا محكوم بقدر الله وقدرته ومشيئته.

وكان والدها خويلد يواسيها في محنتها، كما كانت أمها كذلك، وكم حاول الرجل وزوجه أن يخرجا فتاتهما من هذا البؤس الذي خيّم عليها، إلاّ أنهما كانا يجدان صعوبة في الأمر ولكنهما كانا لا يستسلمان لذلك ويعاودا الكرّة مرّة أُخرى.

وقد كان حديثهما ينصب على أطفالها الصغار هالة وهند، فالأُم لهما بمثابة الأمل الباقي بعد اليتم الذي أصابهما من جراء فقدان الآباء.

كانت دعوة الأب والأم لخديجة أن تخرج من حزنها وبؤسها لكي تستطيع القيام بمهام الأمومة، فترعى أبناءَها، فمن للأبناء بعد الأُم يفيض عليهم بالحنان.. هكذا ظل الأب والأم إلى أن تركت خديجة أحزانها وانتظمت في دائرة الحياة بحلوها ومرّها، لا شيء يعنيها سوى رعاية أطفالها والعمل على تربيتهم.

وبعد أن اشتد عود الأبناء، وجدت الكثير من رجال قريش وأشرافها يتقدمون الواحد تلو الآخر لخطبتها، وكلهم كان حريصاً على نكاحها لو قَدَر

على ذلك، وقد طلبوها وبذلوا الأموال لها[1]، لشرفها وجمالها ومالها؛ وقابلت ذلك كله بالرفض والعزوف عن الزواج، وكأنها كانت قد استقبلت إلهاماً من الله عز وجل أن ترد كل هؤلاء الذين جاؤوا لخطبتها، وتعرض عنهم، لتتشرف بعد ذلك بالزواج من النبي ﷺ.

وقد شغلت نفسها عن كل هذا بالنظر إلى مالها، وقررت أن تستثمره وتنميه بالعدل والحلال وذلك من خلال مهنة التجارة التي دأبت قريش على الامتهان بها، حتى انتظمت من أجل هذه المهنة رحلتين: إحداهما تتجه صوب الشمال إلى بلاد الشام وسُمّيت برحلة الصيف، والأخرى تتجه صوب الجنوب وسميت برحلة الشتاء، كما جاء في قول الله عز وجل: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾[2].

ولعل هذه المهنة تُناسب الرجال دون النساء، فلم يكن في استطاعة خديجة أن تخرج على رأس تجارتها ومالها، ولكنها كانت تستعين بالرجال لكي يعملوا في تجارتها، فتستأجرهم لهذا الغرض.

وقد جاء في كتب السيرة أن خديجة كانت امرأة تاجرة، ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريشاً قوماً تجاراً[3].

والمضاربة المقصودة هنا هي عقد بين خديجة صاحبة المال، والطرف الآخر الذي يقوم بالعمل على تجارتها، على أن يكون الربح بينهما، وهذه المضاربة نوع من التعامل أقرّه الإسلام بشروط معروفة[4].

وكانت خديجة إلى جانب عفتها وشرفها وطهارتها، امرأة ذات جلد

---

(١) سبل الرشاد في سيرة خير العباد ٢/٢٢٣.
(٢) سورة قريش الآيات كاملة.
(٣) سيرة ابن هشام جـ١ ص١٧٠.
(٤) انظر كتب الفقه الإسلامي.

وقوة وعزيمة، فاستطاعت أن تحافظ على أصل مالها، وزادت عليه زيادة كبيرة.

وقد صرفت خديجة وقتها في تدبير شؤونها، بمشورة أخيها، وبمعاونة بعض أقاربها، ووقفت حياتها لعمل البر وإغاثة الملهوف.

وقد قال عنها السُهيلي: خديجة بنت خويلد، تُسمّى الطاهرة في الجاهلية والإسلام، وكانت تسمى سيدة نساء قريش(١).

وكانت خديجة تدعى في الجاهلية الطاهرة(٢).

وقد وصفها الذهبي رحمه الله، فقال في سِيَرِه: وهي ممَّن كمُل من النساء، كانت عاقلة جليلة، ديِّنة مصونة كريمة(٣).

وشُغلت خديجة رضوان الله عليها بما شُغِلَ بِهِ أَهْلُ مكَّةَ، فقريشٌ تُعدُّ عيرها للخروج في التجارة، في رحلة الشتاء والصيف كما ذكرنا، وتُعِدّ خديجة أيضاً تجارتها التي تخرجها في رفقة قافلة قريش، وتتخير أجيراً ماهراً أميناً لكي يخرج للإتجار بمالها.

❁ ❁ ❁

أين محمد 

ترى أين محمد ﷺ من كل هذا؟ لقد كان عليه السلام غارقاً في حياة التفكير والتأمل مع قليل من العمل في رعي الغنم، ولكن ليست هذه بالحياة التي تدر على صاحبها الرزق، أو تفتح أمامه أبواب اليسر والمال. إلا أن محمداً ما كان يهتم لذلك أو يُعنَى به، وقد ظلّ طوال حياته أشد النّاس زهداً في المادة ورغبة فيها، فكان لا يحتاج من الحياة إلى أكثر مما يقيم به

(١) انظر الروض الأنف ٢١٥/١.
(٢) انظر الاستيعاب ١٨١٧/٤، والإصابة جـ٦٠٥/٧، وأسد الغابة ٧٨/٧.
(٣) سير أعلام النبلاء ١٠٩/٢.

صُلبه، فهو القائل عليه الصلاة والسلام: «**نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نُشبع**».

أليس هو الذي عُرِفَ عنه كل حياته حرصه على شظف العيش ودعوة النّاس إلى الاستمتاع بخشونة الحياة؟ والذين يتوقون إلى المال ويلهثون في طلبه إنما يبتغونه لإرضاء شهوات لم يعرف محمد ﷺ طوال حياته شيئاً منها.

فالإنسان الذي فقد أباه وهو ما يزال جنيناً في بطن أمه، ثم ماتت أمه وهو في طفولته المبكرة، ثم مات جده، ليس في حاجة إلى ثروة من المال يتمتع بها وكان عمه أبو طالب الذي تولى رعايته بعد جده، رجلاً فقيراً كثير العيال، لذلك رأى أن يجد لابن أخيه سبباً للرزق أوسع مما يجيئه من أصحاب الغنم.

وكان أبو طالب بطبعه برّاً عطوفاً، فشمل ابن أخيه بعطفه وتولاه برعايته، وأسبغ عليه من حنانه وحبه، حتى بلغ مبلغ الشباب، وقضى محمد فترة طفولته وصباه في منأى عن عبث الأطفال، وهذر الصبيان، فإذا شاء وشارك أقرانه في لعب فإنه يبتعد عن مشاكستهم وخصامهم، وإذا اجتمع هو وأتراب في مَجْمَع لَهْوٍ كان بينهم هو العفيف الخفيف الظل المؤدب الخلوق. حتى إنه عليه السلام خطا نحو الشباب وقد اجتنب الهَزْلَ والعبث، معصوماً من زلاته ونزواته، فلم تعرف قريش يوماً عنه أنه مال مع غواية، أو لان لمغريات الشباب وما كانوا يعبثون فيه من سهر في مجالس لهوهم وجنوحهم.

لذلك فقد عُرِفَ أنه صاحب فضيلة سامية، وخلق عظيم، وأمانة هي صفة ألصقوها به مع الصدق وسمُّوه الصادق الأمين.

كان صلوات الله وسلامه عليه سامياً في عفته، مشهوداً له في صدقه وأمانته، فإذا كان سموه في العفة، وشهادة أهل مكة له بالصدق والأمانة، فلا عجب إذاً ما اشتهر بينهم «بالصادق الأمين».

ومحمد ﷺ منذ أن كان طفلاً إلى أن صار فتىً يافعاً وشاباً، كان

سامياً في عفته، عَلَماً في صدقِهِ، مثالياً في أمانته.

وكان أبو طالب، رغم ما كان لقبيلته وأهله من بني هاشم من المجد والسؤدد، ورغم ما كان لأبيه عبدالمطلب من مكانة ومجد، إلا أنّه كان رجلاً قليل المال، يعمل في التجارة ليكسب رزقه ورزق أولادِهِ، ولكن فقره لم يمنعه من رعاية ابن أخيه محمد، ولم يمنعه أيضاً أن يكون سيداً في بني هاشم، مطاع بينهم، يكنّ له أهل مكة الاحترام والإجلال، في الوقت الذي ضعفت فيه رئاسة بني هاشم، وخاصة بعد وفاة عبدالمطلب جد النبي ﷺ.

وفي حدود موارده وإمكاناته رعى أبو طالب ابن أخيه محمداً ﷺ، وكان يراقب في إعجاب ودهشة ما يتدرَّج إليه الغلام من نمو سريع في الجسم، واتساع كبير في العقل، وتفتح ملحوظٍ في المدارك، حتى أصبح محمد الصغير، والذي لم تتجاوز سنُّهُ الثانية عشرة، أصبح يجد فيه عمه أبو طالب الصديق الوفي، والصاحب المخلص، والناصح الأمين، والرفيق المشير، صاحب الرأي الناضج، والفكر الثاقب، الذي يفوق في فكره على رجال عصره.



رحلة الشام الأولى

ومن رعاية أبي طالب، وحبه لابن أخيه، فقد أحب أبو طالب محمداً كحب عبدالمطلب له، أحبه حتى كان يقدمه على أبنائه، وكان يجد فيه من النجابة والذكاء والبرّ وطيب النفس ما يزيده به تعلقاً.

ومن رعاية أبي طالب لابن أخيه أنه حينما أراد أن يخرج يوماً في تجارة له إلى الشام حين كان محمد في الثانية عشرة من عمره، ولم يفكر أبو طالب في اصطحاب محمد خوفاً عليه من وعثاء السفر واجتياز الصحراء، لكن محمداً أبدى رغبة صادقة في مصاحبة عمه الذي لم

يستطع أن يردَّ ابن أخيه، فكان أن وافق أبو طالب نزولاً على رغبة محمد ﷺ.

وصحب أبو طالب محمداً في رحلة من رحلات الصيف إلى الشام، وفي بصرى من أرض الشام حطَّ تجار قريش رحالهم، بالقرب من صومعة راهب اسمه بَحِيرَا، اعتادوا أن ينزلوا بجواره كلما أتوا بصرى.

وأولم بحيرا وليمة دعا إليها رجال قُريش، وما كان يفعل ذلك من قبل، فهو أولم لهم على غير عادة مِنْهُ، فلما فرغ التُّجار من طعامِهِم، وتفرقوا هُنا وهُناك، أقبل الرّاهِبُ بحيرا على محمد يقولُ لَهُ: يا غلام؛ أسألك باللات والعُزَّى إلاً ما أخبرتني عما أسألك عَنْهُ.

فرفض محمد ﷺ أن يجيب الراهب، لأنّه أقسم له باللاّت والعزى، وقال له: لا تسألني باللاّتِ والعُزّى.

فغيّر الراهب كلامَهُ، واستحلفه بالله أن يجيبه عما يَسْأَل.

فاستجاب له محمد ﷺ، وقال له: سَلْني عما بدا لك أن تسأل عنه.

فسأل الراهب بحيرَا محمداً ﷺ عما أراد أن يسأله عنه، واستفهمه عن بعض عاداته وطباعه، وكان مُحمدٌ ﷺ يجيبُ.

ثم أَقْبَلَ عليهما أبو طالب، فسأل بحيرا أبا طالب: ما يكون لك هذا الغلام؟

قال أبو طالب: هو ابني.

قال بحيرا منكراً: ما هو ابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيّاً!

دهش أبو طالب لما يعلمه بحيرا من أمر محمدٍ، وقال: إِنه ابن أَخي.

فسأَل بحيرا: وَأَبُوهُ؟

قال أبو طالب: مات وهو جنين في بطن أُمه.

قال بحيرا: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى دياره، واحذر عليه من

يهود، فوالله لئن رَأوهُ وَعَرَفُوا منه ما عَرَفْتُ ليبغُنَّ به شرّاً، فإنّ ابن أخيك هذا كائن له شأنٌ عظيمٌ[1].

وعادت قافلة قريش إلى ديارها، بعد أن باعت واشترت، وفي ركابها أبو طالب وابن أخيه محمدٌ ﷺ، وكان أبو طالب لا يكِنّ عن التفكير فيما قاله له الراهِبُ بحيرا من شأن ابن أخيهِ، وهو في دهشة وَعَجَبٍ.

كان ذلك في سن الثانية عشرة حيث محمد ﷺ الغلام الصغير القليل التجربة في الحياة.

مرت الأيام، أيام محمد عليه الصلاة والصلام، وتتابعت السنون، وأبو طالب يلحظه بعناية ما بعدها عناية، وَيَكْلؤهُ برعاية ما بعدها رعاية، وقول الراهب بحيرا لا يزال يتمثّلُ بخاطِره بين الحين والحين.

أما محمد ﷺ فقد عادَ من رحلته هذه يستعرض ما رأى من مشاهد، ويفكر فيما سمع من أحاديث وأقوال، ويتأمل فيما مرَّ به من أُناسٍ وأقوامٍ يدينون بديانات متعددة، ويعبدون آلهة متعددة.

في هذه الرحلة وقعت عينا محمد ﷺ على جمال الصحراء وأراضيها الشاسعة الفسيحة، وتعلقت عيناه بالنجوم اللاّمعة في السماء الصافية البديعة، وجعل عليه السلام يمرُّ بمدين ووادي القرى وديار ثمود، وتستمع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب وأهل البادية عن هذه المنازل وأخبارها، وماضيها وما فيها من أنباء الأولين.

وفي هذه الرحلة وقف في بلاد الشام عند الحدائق الغنّاء اليانعة التي أنسته حدائق الطائف وما يروى عنها، والتي تبدت له جنات إلى جانب جَدْب الصحراء المقفرة والجبال الجرداء فيما حول مكة.

وفي الشام كذلك عرف محمد ﷺ أخبار الروم ونصرانيتهم، وسمع

---

(١) انظر السيرة الحلبية «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون» لبرهان الدين الحلبي ج٣ ط دار إحياء التراث/ بيروت من ص١١٧ وما بعدها، وسيرة ابن هشام، والسيرة في تاريخ الإسلام للذهبي.

عن كتابهم، وسمع أيضاً عن العداوة التي كانت بين الفرس والروم، وانتظار كل منهما فرصة سانحة للوقيعة بالآخر والقضاء عليه، وقد كان صراعهما ممتداً لزمن طويل، والحرب بينهما سجال.

وبعد أن استعرض محمد ﷺ كل هذا ساءَلَ نفسه قائلاً: مَنْ مِنْ هؤلاء النّاس وهذه الأقوام على خطأ؟ ومن منهم على صواب؟

ولئن كان بعدُ في الثانية عشرة من عمره، لقد كان له من عظمة الروح، وذكاء القلب ورجحان العقل، ودقة الملاحظة وقوة الذاكرة، وما إلى ذلك من صفاتٍ حباهُ بها الله سبحانه وتعالى تمهيداً للرسالة العظيمة التي أعَدّهُ لها ما جعله ينظر إلى ما حوله نظرة فاحصة، فهي نظرة الفاحص المحقق، فلا يستريح إلى كل ما يسمع ويرى، فيرجع إلى نفسه يسائلها: أين الحق من ذلك كله؟

واستغرق محمدٌ ﷺ الصغير السِّنّ، الكبير العَقْلِ، استغرق في التفكير والتأمل، يحاول أن يخرُجَ من هذا التيه المُظْلم إلى نورِ المعرفة والهدى والحق.

فهؤلاء قومه يُشْركون في عبادة الله أصناماً، ويملؤون بيت اللَّهِ أوثاناً، ويقصدون إلى الطواغيت يزورونها، ويطوفون بها، ويحجون إليها كما يطوفون بالكعبة، وكما يَحُجُّ سائِرُ العربِ إلى بيت اللَّهِ..

لقد عزّ على نفس محمد ﷺ أن يسجد للأصنام كما يسجد قومه، وأَنِفَ من ذلك أنفة شديدة، ولم ترتض نفسه أن يقسم بطاغوتَي اللاتِ والعزى كما كان الكفار يقسمون.

كان ينتابه إحساس شديد بأن ما يفعله قومه هو الضلال بعينه، والكُفر وحده. وكان يؤمن أنَّهم فيما يأتونَهُ مخطئون.

وهكذا راح محمدٌ ﷺ، وهو لا يزال بعد طفلاً حدثاً، يفكر ويتأمل باحثاً عن الحقيقة التي لم يحاول أن يبحثَ ويُنَقِّبَ عنها غير عَدَدٍ قليلٍ جداً من الرجالِ. وانقطع محمد عن لعبِ الأطفال، وانقطع للتفكير والتأمل.

ومما زاده انصرافاً إلى هذا التفكير وذاك التأمل اشتغاله برعي الغنم سِني صباه تلك، فقد كان يرعى غنم أهله، ويرعى غنم أهل مكة، وكان يذكر رَعْيه إياها مغتبطاً فيقول ﷺ: **«ما بعث الله نبياً إلا وقد رعى الغنم»**. ويقول ﷺ: **«بعث موسى وهو راعي غنم، وبعث داود وهو راعي غنم، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلي بالجياد»**.

وراعي الغنم الذكي القلب يجد في فسحة الجو الطلق أثناء النهار وفي تلألؤِ النجوم إذا جن عليه الليل موضعاً لتفكيره وتأمله، يسبح منه في هذه العوالم، يبتغي أن يرى ما وراءها، ويلتمس في مختلف مظاهر الطبيعة تفسيراً لهذا الكون وخَلْقه؛ وهو يرى نفسه ما دام ذكي الفؤاد عليم القلب، بعض هذا الكون غير منفصل عنه، أليس هو يتنفس هواءه ولو لم يتنفسه قضى نحبه؟.

وهذا التفكير والتأمل من شأنهما صرف صاحبهما عن التفكير في شهوات الدنيا والسمو به عنها بما يظهران له من كاذب زخرفها.

لذلك ارتفع محمد ﷺ في أعماله وتصرفاته عن كل ما يمس هذا الاسم الذي أطلق عليه بمكة وبقي له: أنه «الأمين» صلوات الله وسلامه عليه.

ومما يدل على ذلك ما روته كتب السيرة[1]، وما حدَّث عنه هو عليه الصلاة والسلام، من أنه كان يرعى الغنم مع زميل له، فحدثته نفسه يوماً أن يلهو كما يلهو الشباب، فأفضى إلى زميله هذا ذات مساء أنه يودُّ أن يهبط إلى مكة يلهو بها لهو الشباب في جُنح الليل، وطلب لذلك منه أن يقوم على حراسة أغنامه ريثما يعود، لكنه ما أن بلغ أعلى مكة حتى استرعى انتباهَه عرس زواج وقف عنده، ثم ما لبث أن نام.

ونزل مكة ليلة أُخرى لهذه الغاية، فامتلأت أذناه بأصوات موسيقية بارعة كأنما هي موسيقى السماء، فجلس يستمع ثم نام حتى أصبح، وماذا

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ـ السيرة الحلبية ـ تاريخ الطبري.

عسى أن تفعل مغريات مكة بقلب مهذب ونفس كلها تفكير وتأمل!!

ماذا عسى أن تكون هذه المغريات التي وصفنا، والتي لا يستريح إليها من يكون دون محمد ﷺ سموّاً بمراحل كثيرة! لذلك أقام بعيداً عن النقص، لا يجد لذّة يذوقها أطيب لنفسه من لذة التفكير والتأمل.

وحياة التأمل والتفكير وما يستريح إليه من عمل بسيط كرعي الغنم، ليست بالحياة التي تدر على صاحبها أخلاف الرزق، أو تفتح أمامه أبواب اليسار. وما كان محمد ﷺ يهتم لذلك أو يعنى به، وقد ظل طوال حياته عليه الصلاة والسلام أشد النّاس زهداً في المادة ورغبة فيها. وكيف يقبل عليها وقد كان الزهد بعض طبعه؟!

وكان محمد ﷺ لا يحتاج من الحياة إلى أكثر مما يقيم صُلبه!!! أليس هو القائل: «**نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نُشبع**»!

أليس هو الذي عُرِف عنه كل حياته حرصه على شظف العيش، ودعوة الناس إلى الاستمتاع بخشونة الحياة، وبعدهم عن اللذة، بل اللذة في الزهد. هذه هي كل تداعيات رحلة الشام الأولى.



رحلة الشام الثانية

ظلَّ أبو طالب يرعى محمداً صبيّاً، ويلحظه شابّاً، ويحرص على ألا يعرضه لما يمكن أن يلحق به ضرراً، أو يناله منه أذىً؛ وهو يتمثَّلُ قول الراهِبِ بَحيرا له بشأن ابن أخيه، إذ قال يحذره: احذر عليه يهود.

ولكن إلى متى تظل هذه العناية من جانب أبي طالب لابن أخيه محمد؟ وإلى متى يظل حرص أبي طالب على ألا يفترق محمد عنه؟ أو يظل بالقرب منه؟ إلى متى يستمر كل هذا؟ ولم يكن من الممكن مع ضروريات العيش ومطالب الحياة من بلد مثل مكة تعتمد في معاشها على التجارة!!

لم يكن من الممكن أن يستمر هذا الحال طويلاً: فأبو طالب - إلى جانب سدانته للكعبة - يعمل في التجارة بين اليمن والشام، كما يعمل كثيرٌ غيره من رجال قريش، فأكثر أهل مكة بين خارج في مال له، أو أجير في مال غيره. فلا بد - إذن - أن يكون لمحمدٍ ﷺ نصيب فيما يشتغل فيه قومه سعياً وراء رزقه ومعاونة لعمه.

ولكن أبا طالب كان لا يزال يخاف على محمد ﷺ مغبة من يلتقي بهم من يهود، إذا ما سافر في صحبة قافلة من قوافل التجارة، ويخشى أن يناله أذى منهم كما حذره بحيرا.

وفي الوقت الذي كان فيه محمد ﷺ قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره، وكان ذكياً، متوقد القريحة، متفتح المدارك، لا يصدر منه عمل إلا عن حكمة وَرويّةٍ، ولا يخشى عليه من اندفاع أو غفلةٍ؛ ومع أَن أبا طالب كان ينوء بحاجات أسرته، وتُعييه مطالب أولاده، فقد تردد طويلاً قبل أن يقول لمحمد:

يا ابن أخي؛ أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنون منكرةٌ، وليس لنا مالٌ ولا تجارةٌ، وهذه عير قومك قد حَضَر خروجها إلى الشام، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها لفضلتك على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك وأمانتك، وإن كنت أكره أن تأتي الشام، وأخاف عليك يهود. وقد بلغني أنها استأجرت رَجُلاً ببكرين، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته، فهل لك في أن أكلمها؟[1]

أجاب محمد ﷺ في أدب جم: ما أحببت يا عمي.

مضى أبو طالب من فوره إلى خديجة بنت خويلد، وقال لها: هل لك يا خديجة أن تستأجري محمداً؟

---

(١) انظر المصادر التالية: سيرة ابن هشام رحلة الشام، تاريخ الطبري، الكامل في التاريخ، السيرة الحلبية.

قالت خديجة مرحبةً بهذا العرض: لو سألت ذلك يا أبا طالب لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألته للقريب الحبيب الأمين؟!

وعاد العم إلى ابن أخيه يذكر له الأمر ويقول له:

ـ هذا رزق ساقه الله إليك.

وهكذا شاءت قدرة الله لمحمد أن يخرج في تجارة خديجة.

فقد فرحت خديجة لرغبة محمد ﷺ في الخروج في تجارتها، وسرها ذلك سروراً كبيراً وقالَتْ: ما علمت أنّه يُريد ذلك.

وأرسلت خديجة إلى محمد تستدعيه للخروج في تجارتها، وتقول: دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك؛ وسأعطيك ضعف ما أعطي رجلاً آخر من قومك[1].

وأخبر محمد ﷺ عمه بما بَعَثَتْ خديجة إليه بصدده، ففرح أبو طالب فرحاً شديداً بنجاح مساعيه في خروج محمد لتجارة خديجة بنت خويلد.

أما قريش فقد تهيأت عيرها للخروج إلى الشام، وتهيأ محمد كذلك للخروج على تجارة خديجة، وأَتى أبو طالب إلى غلام خديجة: «ميسرة» وهو المصاحب لمحمدٍ ﷺ في سفرِهِ يوصيه بابن أخيه، وكذلك خرج أعمام محمد ﷺ الآخرون يوصون رجال القافلة به خيراً.

وودّع أبو طالب وإخوته محمداً ﷺ، وهم يتمنون له رحلة طيبة، وتوفيقاً وربحاً وفيراً. ومضت القافلة في طريقها إلى رحلة الصيف ميممة نحو الشمال، فاجتازت بمحمدٍ ﷺ الطريق الذي اجتازه مع عمه في رحلته الأُولى، حتى أتت بُصْرَى بالشام، وكان ميسرة في هذه الرحلة لمحمدٍ التابع المُخلِصَ المحبَّ المطيعَ، وكَان رجال القافلة له أحسن الرفاق، وخير الأَصحاب.

وبعد أن وصلت القافلة إلى الشام، انصرف كل رجل من رجالها إلى

---

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ١.

ما جاء به من بيع ومقايضة وشراءٍ، وكذلك راح محمدٌ يتصرف فيما معه من متاجر وبضائع، فباع واشترى وقايض واستبدل، متبعاً في ذلك ما عُرِفَ عنه من تعقل وحكمة، ورزانةٍ ودرايةٍ.

وكان لأمانته ونزاهته، ولملاطفتِهِ وتواضعه، وترفقه بالنّاس، وحسن معاملته لكل من يتصل به من التجار والعملاء؛ أثر كبير في نفوسهم، فأحبه كل من اتصل به، ورغب في معاونته كل من عامله.

من خلال هذا التعامل الأمين السامي، ربحت تجارة خديجة على يد محمد ﷺ ضعف ما كانت تربح، وجلب لخديجة من متاجر الشام وبضائعها أكثر مما كانت وفوق ما كانت تتصور أو تُقَدِّرْ.

ولم يتخلَ محمد ﷺ عن خلوته بنفسه للتأمل والتفكر، في أمر الدنيا والناس، وفيما يمر به من مفارقات بين الناس وبعضهم في معتقداتهم ودياناتهم.

أما عن ميسرة غلام خديجة وصاحب محمد ﷺ في هذه الرحلة، فإنه رأى من ساعات الخلوة والتأمل التي يجب أن يخلوها محمد ﷺ ما يدعوه إلى احترام هذه الرغبة لديه، فلم يحاول ولو مرة واحدة أن يقتحم على محمد خواطره، ولم يفكر مرَّةً أن يقطع عليه خياله، فحسبه من هذا الرفيق المخلص الأمين أنّه ربح لسيدته ضعف ما كان يربح غَيْرُهُ، ممن كانت تستأجرهم ليتجروا لها في مالها، وكَفاهُ أَنَهُ قَدْ أتى لها من أجود بضائع الشام وأحسنها بكل ما هو جديد ورابح.

خَلا محمدٌ ﷺ إلى نفسه ذات يوم يفكر ويتأمَّلُ، وكان جالساً تحت شجرة عظيمة السَّاقِ، كثيرة الفروع، ممتدة الظِّلِّ، ومَيْسَرةُ شغل نفسه بإعداد بعض لوازم تجارتهما ولوازم إبلهما.

وفي هذه اللحظات وجد ميسرة نفسه أمام راهب من رهبان أحد الأديرة القريبة، واسمه نَسْطورُ، وكان على معرفة بميسرة من قبل، لِتَرَدُّدِ ميسرَةَ على هذا المكانِ في تجارةِ سيدتِهِ كُلَّ صَيْفٍ.

وسأل نسطُورُ مَيْسَرةَ: من الذي يَصْحَبُكَ يا مَيْسَرَةُ؟

قال ميسرةُ: شابٌ من قريشٍ!

سأل الراهِبُ: ما الذي رأيت من صفته؟

قال مَيْسَرةُ: رأيت من صفاته الأمانَةَ والنزاهَةَ ودماثَةَ الخُلُقِ، وجلوسه الساعات هكذا كما تراه غارقاً في بحارِ التفكير، هائماً بروحه في فُسْحاتِ الفضاء، له سَبَحاتٌ تُشْبِهُ سبحاتِ العابدين[1].

فسأل نسطور ميسرة في لهفةٍ: وما شكل عينيه؟

قال ميسرة: واسع العينين أدعجهما، يشوب بياضَهُما من الجوانب حُمرةٌ خفيفة، تزيد في قُوةِ جاذبيتهما وذكاءِ نظرتهما أهدابٌ طوالٌ سود حوالِكُ.

فقال نسطور لميسرة، وهو يسير إلى حيث يجلس محمدٌ ﷺ:

يا ميسرة؛ إن من يجلس بجوار هذه الشجرة، وتُظِلُّهُ هذه الغمامة المنخفضةُ، وصفاته كما تَصِفُ ـ ليس إلاَّ نبيّاً ـ!

وأقبل نسطور على محمد وتقدم منه يسأله في أديانِ قومِهِ، يُحاوِلُ أن يعرف إلى أي مَدىً يؤمن محمدٌ ﷺ بها، ويحترم طقوسها، ويتبع تعاليمها، فعرف من محاجَّةِ محمدٍ له فيها أنه لا يؤمن بها، وأَنَّهُ يعيب على قومه اتباعهم لتعاليمها، وبذلك انصرف نسطور وقد تأكد لديه ما كان يود أن يعرفَهُ.

أمَّا ميسرة فقد تملكته الدهشةُ وأخذه العجب، لِمَا رأى ولِمَا سمع!

أثار قول نسطور دهشة ميسرة، لقد قال نسطور: إنّ من كانت صفاته صفات محمد، وجلس تحت هذه الشجرة، وظلّلته هذه الغمامة ليس إلا نبيّاً من الأنبياء!!

---

(١) تاريخ الطبري، السيرة الحلبية ج٣ سيرة ابن هشام.

أيكون محمد نبيّاً حقاً؟ لقد لحظ ميسرة هذه الغمامة التي تظلل محمداً منذ غادر مكة، ورأى كيف كانت تلقي عليه بظلها فتحميه من حرارة الشمس، شمس الصحراء التي تشوي الوجوه، وتلطف له وهج الهجير الذي تصطلي القافلة بناره، وتقاسي من نفحه طول الطريق ما تقاسي.

إذن فمحمد نبيّ كما قال نسطور، أحقاً ما يقوله نسطور؟ هذا الذي رآه وأحسَّ به ميسرة.

وانحدرت القافلة عائدة إلى مكة، بعد أن باع واشترى رجالها وصرّفوا بضاعتهم، وأتموا عمل رحلة الصيف على الوجه الأكمل.

ولم تخل الرحلة الطويلة من مشاكل تعترض القافلة، فقد تأخر بعيران من جمال خديجة بنت خويلد، بل وكادا أن يعجزان عن المسير نهائياً، ورغم ما بذل ميسرة من محاولات لحملها على إكمال المسير، ومصاحبة الركب، إلاّ أنهما تعثرا عن المسير، وكانا في المؤخرة، وخشي ميسرة نتائج هذا الأمر، فأسرع إلى محمد ﷺ يخبره خبر البعيرين ويستشيره في أمرهما، فتوجه مُحمدٌ إلى البعيرين ومسح أخفافهما بيدِهِ، ثم أمسك بمقوديهما وقادَهما، فسارا خِفافاً نِشاطاً، كأن لم يكن بهما شيء يعوقهما.

كل هذه الأشياء لفتت نظر ميسرة إلى محمد، وزاد إعجابه به، بل وزاد إجلاله واحترامه له، فوق ما كان يجله ويحترمه.

فلما بلغت القافلة مرَّ الظهران في طريق عودتهما، وقد قَرُبت من مكة قال ميسرة: يا محمد؛ أسرع إلى خديجة فأخبرها بما منحها الله على وجهكَ من الربح الوفير.

ترك محمد القافلة من ورائه، وأسرع نحو مكة ليبشر خديجة بما أفاء الله عليها من ربح.

كانت ساعة من ساعات الظهيرة التي يشتد فيها قيظُ مكة وحرُّها، وتلفحها فيها ريح من لهيب ونار، حين دخل محمد ﷺ مكة، وكانت خديجة تجلس مع بعض صويحباتها يَسْمُرْنَ في مكان عال بمنزلها، يَسْتشرفن

الفضاء ويستروحن بعض الوقت، وخديجة تسرح ببصرها بين الحين والآخر فيما يمتد أمامها من صحراء، ويرتفع إزاءها من جبال، قد تسلطت عليها شمس حامية محرقة، وبينما هي تشخصُ البصر، وتحد النظر إلى راكب قد أقبل نحو مكة على بعير قد أظلته غمامَةٌ تسبح فوقه بمقدار عدو البعير، وحدت خديجة نظرها في هذا الراكب تحاول أن تتعرف ما شأنه، فما إن قَرُبَ من منازل مكة حتى تبينته، فإذا به محمد ﷺ يسارع العدو ببعيره نحو منزلها.

وأسرعت خديجة بالنزول لملاقاة محمد ﷺ والترحيب بعودته، وكان لقاؤهما الذي شرح فيه محمد بعبارة فصيحة بليغةٍ ما كان من تفاصيل رحلته، وبيّن لها ما باعَ واشترى، وعرَّفها مقدار ما أفاءَ الله عليه من ربح فيما عهدت إليه به من أمَانَةٍ.

واستمعت خديجة إلى محمد ﷺ مسرورةً معجبةً مأخوذةً، فقد لحظت بإعجاب جمال حديثه، وفصاحة لسانه، وحمدت فيه أمانته ونزاهته، والصدق في القول والفعل.

وحين نظرت خديجة فيما جاءَها من ربح وفير على يد محمد ﷺ، فاق ما كان يأتيها على يد من استأجرتهم من قبله في تجارتها، تأثرت كثيراً، وقدّرت هذا الأمر تقديراً كبيراً في نفسها.

أما محمد ﷺ فقد انصرف من دار خديجة قاصداً الكعبة ليطوف بها، وليطمئن بني هاشم وخاصة أعمامه على سلامة عودته.

وجاء ميسرة إلى سيدته خديجة وقد تبعته الإبل التي تحمل مالها وتجارتها وأبدت أحمال هذه الإبل ما قاله محمد ﷺ لخديجة من قبل.

وجلست خديجة تستمع من ميسرة أخبار محمد ﷺ في هذه الرحلة والتي جاءت بالكثير الذي يثير الدهشة والعجب في نفوس سامعيها، فقد قص ميسرة على مَوْلاته خديجة ما كان من محمد ﷺ فقد كان صادقاً وأميناً في تجارته، حريصاً على أموالها كل الحرص.

وقص ميسرة عليها ما كان من الراهب نسطور، وما تحدث به عن محمد ﷺ، وأعلمها كيف تخلف البعيران وكاد يفقدهما لتعثرهما في المشي مما أصابهما من مرض وإجهاد، وأن محمداً أعاد لهما نشاطهما وخفتهما حينما مسح بيده أخفافهما.

وأخبرها أيضاً بأمر الغمامة التي أظلت النبي ﷺ من حرارة الشمس ووهجها الشديد.

انصرف ميسرة بعد أن أفضى لسيدته خديجة بكل أخبار محمد ﷺ التي جعلت خديجة تفكر ملياً في أمر هذا الشاب الذي أدهشها في كل تصرفاته، وأخذها بما لديه من صدق وبلاغة وجمال حديث وعزة نفس.

واسترجعت خديجة حديث ابن عمها ورقة بن نوفل، واسترجعت أيضاً ما قاله اليهودي يوم كانت مع صويحباتها يحتفلن بعيدٍ لهن بالكعبة، والذي قال فيه عن قرب مبعث نبي من قريش يدعو إلى التوحيد بالله عز وجل.

وفكرت خديجة في أن تُطلع ورقة بن نوفل على هذه الأخبار التي حملها ميسرة عن رحلة محمد ﷺ إلى الشام، لكي ينير لها ما حُجِبَ عنها، ويبين لها حقيقة الأمر جليةً، ويرشدها إلى الطريق الصحيح.

وأسرعت إلى دار ابن عمها ورقة فقصّت عليه كل ما سمعته، وصرحت له بما يشغل ذهنها وتفكيرها، وأعلمته بكل ما رأت وما سمعت عن محمدٍ.

واستمع ورقة بن نوفل إلى ابنة عمه خديجة باهتمام شديد، ولم ينكر شيئاً مما قالته عن محمد، بل إنه كان دقيقاً في قوله وردّه عليها حين قال:

إن كان هذا حقاً يا خديجة، فإن محمداً نبي هذه الأمَّةِ، فلقد عَرَفْتُ أنَّهُ كائن لهذه الأُمة نبي منتظر، وهذا هو زمانه الذي يبعث فيه.

أطرقت خديجة لحظة، ثم انصرفت من أمام ابن عمها ورقة بن نوفل عائدة إلى دارها بنفسٍ هادئة مطمئنة، والسؤال الذي يلح على خاطرها هو: أيكون محمد نبي هذه الأمة المنتظر كما يقول عنه ورقة بن نوفل؟

هذا هو الذي أعيى فكر خديجة وجعل روحها تهفو إلى هذا الفتى الصادق الأمين، الفصيح البليغ، الرؤوف بمن حوله، الرحيم في طبعه.

❊ ❊ ❊

خطبة مباركة

تاقت نفس خديجة إلى هذا الصادق الأمين، فقد رأته أميناً في القول والفعل، صادقاً في الحديث والمسلك، وكان إنصاتها له وهي مغتبطة برأيه، مأخوذة التفكير في الارتباط بهذا الفتى الذي اكتملت فيه الفتوة ورجاحة العقل والمروءة، عرفته أميناً على تجارتها فربحت، سمعته متحدثاً صادقاً فأصغت إليه، رأت فيه صفات عظيمة، فما إن رأته بديهة هابته، وشعرت أن من خالطه أحبه، فهو لطيف المحضر، وَصولُ الرحم، صدوق الحديث أميناً، صادق اللهجة، وفيّ الذّمة، لكأنما جبل من مكارم الأخلاق، فهي في دمه وتكوينه، لا من تعليمه وتدريبه.

وما إن مضى محمد ﷺ من عند خديجة حتى انقلبت غبطتها حباً جعلها وهي في الأربعين من سنها، وهي التي ردَّت مِنْ قَبْلُ أشراف قريش وأعظمهم حسباً ونسباً، هي هي التي تود أن تتزوج من هذا الشاب الذي نفذت نظراته ونفذت كلماته إلى أعماق قلبها، وتحدثت في ذلك إلى أختها على قول بعض الرواة، وإلى صديقتها نفيسة بنت منية على قول آخر.

وذهبت نفيسة دسيساً إلى محمد ﷺ فقالت له: ما يمنعك أن تتزوج؟

وقبل أن نكمل حديثنا نترك نفيسة بنت منية تروي قصة لقائها مع محمد ﷺ، قالت نفيسة:

كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة، جَلِدَة شريفة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهم مالاً، وكلُّ قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وبذلوا لها من الأموال، فأرسلتني دسيساً إلى محمد ﷺ بعد أن

رجع من عيرها من الشام، فقلت: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟

فقال: ما بيدي ما أتزوج به.

قلتُ: فإن كفيت ذلك، ودُعيت إلى المال والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟!

قال: فمن هي؟

قلت: خديجة.

قال: وكيف لي بذلك؟

قلت: عليَّ.

قال: فأنا أفعل.

فذهبت فأخبرتها.

فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوّجها فحضر، ودخل رسول الله ﷺ في عمومته، فزوجه أحدهم.

فقال عمرو بن أسد: هذا البضع لا يُقْرع أنفه.

وتزوجها رسول الله ﷺ، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة، وُلِدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة[1].

كان حديث نفيسة بنت منية هذا مفاجأة لمحمد ﷺ، فقد وثب إلى ذهنه أنّه أعجبهُ من خديجة أدبها وحزمها وعفتها، وكل ما لمسه فيها كان مصداقاً لما كان يسمعه عنها من قومها حيث كانوا يلقبونها بالطاهرة، ولكنه لم يخطر بباله أن يفكر في الزواج منها، لما يعلم من ردّها لأشراف قريش وأغنيائها، لذلك بادر نفيسة في أثناء حديثها معه فقال: ولكن كيف لي بذلك؟

فقالت نفيسة بثقة: الأمر علي لأنها تعرف من حرص خديجة على

(١) طبقات ابن سعد جـ١ ص١٣١ وما بعدها ط دار صادر بيروت.

الاقتران بمحمد ﷺ وها هي تشهد رغبة محمد في الارتباط بخديجة رضي الله عنها.

ولما عادت نفيسة إلى خديجة تطلعها على نتيجة مسعاها، وتعرّفها أن محمداً على استعداد للزواج منها والارتباط بها لو ارتضت هي ذلك.

وشاعت الفرحة في نفس خديجة التي صدت عن الزواج من قبل، ولكنها فرحت لزواجها من محمد ﷺ، وأرسلت إليه من يستدعيه لتسمعه رأيها في ذلك.

وكان محمد صلوات الله وسلامه عليه منذ تركته نفيسة بعد أن قالت له ما قالت بشأن خديجة لا يزال في عجب من حديثها، لا يصدق أن خديجة التي رفضت كبار رجال قريش ترتضيه زوجاً لها، وهو اليتيم الفقير، ولكن ها هو ذا أيضاً ميسرة غلام خديجة يكلمه عنها بما يؤيد قول نفيسة بنت منية، ثم ها هي إحدى الكاهنات تعترض طريقه وهو يسير بالقرب من منزل خديجة فتسأله: جئت خاطباً يا محمد؟!

فلما أجابها: كلا، قالت: ولِمَ؟ فوالله ما في قريش امرأة - وإن كانت خديجة - إلا وتراك كفؤاً لها.

وذهب محمد ﷺ إلى عمه أبي طالب ينبئه بنبأ خديجة، وبالطبع فإن الدهشة ستصيب أبا طالب عندما سمع هذا النبأ، ولكنه يعرف أن ابن أخيه ما اعتاد الكذب أبداً، وإنما هو الصادق دوماً، فهو يقول الحق والصدق ولا ينكرهما أبداً.

ولربما قال أبو طالب: عجباً أن ترد خديجة سيدةُ قريش ذوا المال والجاه وترتضي بمحمد زوجاً لها؟!

ولكن أبا طالب يعرف أن محمداً لو افتقر إلى المال، فإنه غنيٌّ في الشرف وغني في النسب، لذلك فلا غرابة في ذلك.

حقاً إن تكوين محمدٍ ﷺ يقول إنّه لا طمع له في مال، ولا حاجة به إلى المال.

هذا إلى جانب أوصافه الكاملة التي خلقه بها ربه فأحسن خلقه، فقد كان محمد ﷺ وسيم الطلعة، ربعة في الرجال، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، ضخم الرأس، ذا شعر رَجْلٍ، شديد سواده، مبسوط الجبين فوق حاجبين سابغين متوِّنين متَّصلين، واسع العينين أدعجهما، يشوب بياضهما في الجوانب حمرة خفيفة، وتزيد في قوة جاذبيتهما وذكاء نظرتهما أهداب طوال حوالك، مستوي الأنف دقيقه، مُفَلَّجُ الأسنان، كث اللحية، طويل العنق جميله، عريض الصدر، رَحْب الساحتين، أزهر اللّون، شتن الكفين والقدمين ـ أي غليظهما ـ يسير ملقياً جسمه إلى الأمام مسرع الخطى ثابتة، على ملامحه سيما التفكير والتأمل، وفي نظرته سلطان الأمر الذي يخضع النّاس لأمره.

فلا عجب وتلك صفته أن تجمع خديجة بين حُبِّه والإذعان له، ولا عجب أن تعفيه من كل شيء يخص أمور دنياها ليتفرغ لأمر رسالته.

أجمع محمد ﷺ وبني هاشم جمعاً وعزم على الذهاب إلى دار خديجة لطلب يدها، فذهب أبو طالب مع جمع من إخوته أعمام محمد ﷺ العباس وحمزة، وقيل: إنَّ أبا بكر كان حاضراً هذا اليوم المبارك.

ومن أهل خديجة اجتمع ورقة بن نوفل ابن عمها وعمها عمرو بن أسد، وأخيها عمرو بن خويلد وابن أخيها حكيم بن حزام وبعض نسوة بني هاشم، وخديجة.

في هذا الجمع طلب أبو طالب يد خديجة لابن أخيه محمد ﷺ من عمها عمرو بن أسد وأخيها عمرو بن خويلد ـ فقام أبو طالب خطيباً في جمع الأسرتين فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وأصل مَعَدٍّ، وعُنْصُرِ مضر، وجعلنا سدنة بيته، وسُوّاس حرمِهِ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبدالله لا يوزن برجلٍ إلا رجح عليه براً وفضلاً، وشرفاً وعقلاً، ومجداً ونبلاً، فإن كان في المال قل، فإن المال ظلٌّ زائل، وأمر حائل، وعاريةٌ مسترجعة، ومحمد مَنْ قد عرفتم قرابته، وقد خطب

خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله من مالي عشرين بَكْراً[١].

وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل.

عندئذ نهض ورقة بن نوفل، فقام خطيباً عن قوم خديجة، فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عدّدت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا تُنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من النّاس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليّ معاشر قريش بأني قد زوّجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبدالله على صداق ومهر.

وعندئذ نهض عم خديجة عمرو بن أسد، فأثنى على محمدٍ وقال: اشهدوا عليَّ يا معشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبدالله خديجة بنت خويلد.

وأعلن محمد ﷺ قبول هذا الزواج المبارك على الصداق الذي حدده أبو طالب عم النبي ﷺ وقدرُهُ عشرون ناقة.

ونحرت الذبائح بدار خديجة، وأُطعم الناس، وباتت الدار وكل من فيها فرِحٌ مستبشرٌ، وجواري خديجة يغنين ويضربن بالدفوف.

وقد ذكر مؤرخو السيرة أن خديجة أمرت جواريها أن يرقصن بالدفوف[٢].

وذبح أبو طالب ناقة من نوق محمد ﷺ، وأطعم الناس، وأقام محمد مع عمه حتى طعم، ثم ذهب إلى عروسه، فزفت إليه وزُفَّ إليها، فأقر الله عينه، وكانت وليمته لخديجة هي أول وليمة أولمها النبي ﷺ[٣].

زُفت سيدة قريش، إلى أمين وصادق قريش، وصارت خديجة زوجة

---

(١) انظر السيرة الحلبية جـ١، والسمط الثمين، والسيرة النبوية لابن هشام.

(٢) انظر السيرة الحلبية، جـ١ زواج محمد.

(٣) انظر كتابنا الحياة الاجتماعية في بيت النبي، فصل الزفاف عند نساء النبي ـ مكتبة مصر ـ القاهرة.

لمحمدٍ وأُختاً وأُمّاً له، فنال من حبها وحنانها ورعايتها ما كان يفتقر إليه منذ زمن بعيد.

وكانت أخلاق محمد ﷺ الصدق في القول والفعل، والأمانة في العمل، وقد تجنب عليه السلام مجالس الطرب والصخب والضجيج، ونزع إلى التأمل والوحدة.

عرفت خديجة كل هذا عن محمد ﷺ، فهي المرأة المجربة، الذكية الحكيمة، عرفت ميوله فمالت نحوها، وأدركت رغباته فحققتها له، وساعدته على نيلها، وبذلت كل جهدها لتحقق له ما يريد ويحب، وما يأمل وما يودّ، فظل محمد ﷺ كما كان قبل زواجه من خديجة يخرج إلى الجبال والصحراء حيث الفضاء الواسع الفسيح، والصحراء المترامية، والفضاء الطلق الذي يتناسب وروحه الطليقة، ونفسه الهائمة.

فكان عليه السلام يهيم في الفضاء بروحه ما شاء له أن يهيم، ويتأمل ما شاءَ أن يتأمل، إلا أنه رغم كل هذا كان قريباً من خديجة، فهو الزوج المحب، الكفء القدير، فرعى لها أموالها، وأشرك معه من رأى فيه الصدق والأمانة.

ومن هذا كله ندرك أن حياة محمد ﷺ مع خديجة كانت جميلة هانئة، حتى أضحى عيشهما معاً أهنأ عيش، وأكثره سعادة.

وأقام محمد ﷺ وقد أغناه الله بزواج خديجة في ذروة النسب وسعة المال، ففي خارج بيته كان أهل مكة جميعاً ينظرون إليه نظرة غبطةٍ وإكبار، وكان في شغل عن نظرتهم بما أسبغه الله عليه من فضله، وما يبشره به من زوجه خديجة من عقب صالح، فقد أنجبت خديجة لمحمد من البنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم وفاطمة، ومن البنين القاسم، وعبدالله، وكانت قابلتها فيهم جميعاً سلمى مولاة صفية بنت عبدالمطلب عمة النبي ﷺ وكانت المراضع تُعِدُّهُنَّ خديجة لأولادها قبل أن تلد.

وقد هنئت الأسرة السعيدة بسعادتها هذه رَدحاً من الزمن، فمحمد يخرج إلى غار بجبل حراء، على بعد فرسخين من شمالي مكة، ينفرد إلى

نفسه الأيام الطوال، والليالي العديدة، يقضي كل وقته في التأمل والتفكُّر في هذا الكون الواسع الفسيح، وقد ابتعد عن ضجيج الناس، وضوضاء الحياة، وتظل خديجة مع أولادها الصغار ترعَاهُمْ، وتحنو عليهم، حتى يعود محمد ﷺ من معتزله، فتسأله مشفقة حانية: أَأَنت بخير؟؟

فيجيب بنعم ويحمد الله؛ ثم يداعب بناته اللائي يتعلقن به، ويحببنه حبّاً شديداً، فيداعبهم، ويحنو عليهم، ويعدهم بما يستطيع تحقيقه لهم.

أما عن أهل مكة فلم ينقطع محمد ﷺ عن مخالطتهم، والأخذ معهم بنصيب في الحياة، وكانوا يومئذ في شغل بما أصاب الكعبة، فقد طغى عليها سيل عظيم انحدر من الجبال فصدّع جدرانها بعد توهينها، وكانت قريش من قبل ذلك تفكر في أمرها، فهي لم تكن مسقوفة وكانت لذلك عرضةً لانتهاب السارقين لما تحتويه من نفائس، ولكن قريشاً كانت تخشى إن هي شيدت بنيانها ورفعت بابها وسَقَفَتْها أن يصيبها من رب الكعبة شرٌّ أو أذى..

فلما طغى عليها السيل لم يكن بدٌّ من الإقدام ولو في شيء من الخوف والتردد. وصادف أن رمى البحر إذ ذاك بسفينة قادمة من مصر مملوكة لتاجر رومي اسمه «ياقوم» فحطمها، وكان «ياقوم» هذا بنَّاء على شيء من العلم بمهنة النجارة.

فلما سمعت قريش بأمره خرج الوليد بن المغيرة في نفر من قريش إلى جدة فابتاعوا السفينة من الرومي وكلّموه في أن يَقْدم معهم إلى مكة ليعاونهم في بناء الكعبة، وقَبِلَ «ياقوم»، وكان بمكة قبطي يعرف بنجر الخشب وتسويته، فوافقهم على أن يعمل لهم ويعاونه «ياقوم»[1].

ثم إن قريشاً اقتسمت جوانب أربعة، لكل قبيلة جانب تقوم بهدمه وبنائه، ولقد ترددوا في هدمها مخافة أن يصيبهم أذى، ثم أقدم الوليد بن

---

(1) انظر تاريخ الطبري، والأصنام لابن الكلبي، وأخبار مكة للأزرقي التي اعتمدنا القصة منها.

المغيرة في شيء من الخوف، فدعا آلهته وهدم بعض الجانب من الركن اليماني، وأمسى القوم ينتظرون ما الله فاعل بالوليد.

فلما أصبح ولم يُصِبه شيء أقدموا يهدمون وينقلون الحجارة، ومحمد ﷺ ينقل معهم، حتى انتهى الهدم إلى حجارة خضر، ضربوا عليها بالمعول فارتد عنها، فاتخذوها أساساً للبناء فوقه، ونقلت قريش أحجار الجرانيت الأزرق من الجبال المجاورة وبدأت في البناء، فلما ارتفع إلى قامة الرجل وآن أن يوضع الحجر الأسود المقدس في مكانه من الجانب الشرقي، اختلفت قريش أيهم يكون له فخار وضع الحجر في هذا المكان، واستحرّ الخلاف حتى كادت الحرب أن تنشب بسببه.

تحالف بنو عبدالدار وبنو عدي بأن يحولوا بين أية قبيلة وهذا الشرف العظيم، وأقسموا على ذلك جهد أيمانهم، حتى قرّب بنو عبدالدار حفنة مملوءة دماً وأدخلوا أيديهم فيه توكيداً لأيمانهم.

فلما رأى أبو أُميّة بن المغيرة المخزومي ما صار إليه أمر القوم، وكان أكبرهم سناً؛ شريفاً مطاعاً فيهم، قال لهم: اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل من باب الصفا.

فلما رأوا محمداً أوله من دخل قالوا: هذا الأمين رضينا بحكمه، وقصّوا عليه قصتهم، وسمع هولهم، ورأى العداوة تبدو في عيونهم، ففكر قليلاً: ثم قال: هلمُّوا إليَّ ثوباً، فأتي به؛ فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه، ثم حال ثم قال:

- ليأخذ كبير كل قبيلةٍ بطرفٍ من أطراف هذا الثوب، فحملوه جميعاً إلى ما يحاذي موضع الحجر مِنَ البناء، ثم تناوله محمد ﷺ من الثوب ووضعه في موضعه، وبذلك انحسم الخلاف، وانفضَّ الشَّرُّ، وأتمت قريش بناء الكعبة.

هذا هو محمد الزوج في خارج بيته وبين الناس، صادقاً وأميناً وقاضياً حكيماً.

أما في داخل بيته فظلت السعادة ترفرف عليه، ولكن هذه الفترات السعيدة، واللحظات الهنيئة التي كانت تهيِّؤها خديجة لزوجها بين أولاده لم تدم طويلاً، لأنه لم يلبث الزوجان أن احتسبا ولديهما: القاسم وعبدالله، عند الله، الواحد بعد الآخر.

وخيَّم الحزن على خديجة، وقاست لفقد ولديها من الألم والمرارة ما قاست، ولكنها لم تشْكُ ذلك كثيراً إلى زوجها، فقد كانت تعلم أنه يقاسي أكثر مما تقاسي، فهو ﷺ يقاصي فقد الأبناءِ كما قاسى فقد الآباء من قبل. وبذلت خديجة جهداً كبيراً، وعملت ما في وسعها للتخفيف عن محمدٍ ﷺ والتهوين عليه أمر وفاة ولديه، والتسرية عنه.

وكان أن زارها حكيم بن حزام ابن أخيها فدعاها لزيارته، فلما كانت هناك اصطحبت غلاماً جميلاً تبدو عليه آثارٌ من النعمة ورغد العيش فلما سألها محمد ﷺ عمن يكون هذا الغلام؟

قالت: وهبني إياه ابن أخي حكيم من رقيق أتى به معه من الشام.

قال محمد: والله لأجد في وجهه الكرم، وأرى في ملامحه مخايل الذكاء.

وسأل محمد ﷺ الغلام وهو يتأمَّل وَجْهَهُ في عطف وحنانٍ: ما اسمك يا بني؟

قال الفتى: اسمِي زَيْدُ بن حارِثَةَ.

قال محمدٌ لزوجته: يا خديجة، أَلاَ وهبتني إِيَّاهُ؟.

قالت خديجة: هو لك يا ابْنَ الْعَمِّ.

فأعتق مُحمدٌ الغلام بعد برهة من الزمن، وصيَّرَهُ منه بمثابة الابن.

وكانت هذه السَّنَةُ على أهل مكة سنةً معسرةً مُجدبةً، أرهقت فقراءَهم ونالت منهم، ولما كان أبو طالب رجلاً فقيراً رقيق الحال، وقد كثر عياله، مما جعله يعاني من ذلك عُسْراً وشدَّةً، فكلم مُحمدٌ ﷺ عمه العباس،

وكان من أيسر بني هاشم، في أن يكفل كل واحدٍ منهما ولداً من أولاد أبي طالب حتى تنفرج الأزمة، وعلى ذلك كَفَلَ العباس من أَوْلادِ أبي طالب جعفراً وكفل محمدٌ ﷺ علياً.

❁ ❁ ❁

في بيت الزوجية

وصارت خديجة لعلي وزيد، أحنى أم، تعمل على رعاية أولادها، وتحرص على راحة زوجها، وصار محمد ﷺ لعلي وزيد أكرم أبٍ، وهما أكرم أبناء وأبر أبناء.

وقد كانت خديجة رضوان الله عليها تتفانى في طاعة الرسول ﷺ وخدمته، وتهيئة كل أسباب السعادة والراحة له ﷺ.

وكانت رضوان الله عليها تتولّى خدمة النبي ﷺ بنفسها، ولا تكلف أحداً غيرها بذلك، ومما يدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي يقول فيه: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربِّها ومني، وبشِّرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نَصَب(١).

وقال الرواة: إن محمداً ﷺ دعاها إلى الإيمان، فأجابته، ولم تحوجه أن يصخب كما يصخب الزوج، إذا تغضبت عليه حليلته، ولا أن ينصب، بل أزالت عنه كل نصب، وآنسته من كل وحشة، وهوَّنت عليه كل مكروه، وأراحته بمالها من كل كد ونصب(٢).

وكان أبو طالب يحب أن يطمئن إلى مسيرة أُسرة ابن أخيه الفتية،

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) السهيلي في الروض الأنف جـ١ ص٢٧٩.

فيعرف هل هي تعيش في سعادة أم شقاء، وقد روي في ذلك عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان عند أبي طالب، فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة، فأذن له، وبعث بعده جارية يقال لها «نبعة» فقال لها: انظري ما تقول خديجة له.

قالت نبعة: فرأيت عجباً، ما هو إلا أن سمعت به خديجة، فخرجت إلى الباب، فأخذت بيده، فضمّته إلى صدرها ونحرها، ثم قالت: بأبي وأُمي، والله ما أفعل هذا لشيء، ولكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي سيبعث، فإن تكن هو فاعرف حقي ومنزلتي، وادع الإله الذي يبعثك لي.

قالت: فقال لها: **«والله لئن كنت أنا هو، قد اصطنعتِ عندي ما لا أضيّعه أبداً»**[١].

وقد كان رسول الله ﷺ كريماً في حُبِّه، فقد عرف مكانة زوجته العزيزة في قلبه، فبادلها حُبّاً بحب، وأفاض عليها من رحمته وحنانه وهو الرؤوف الرحيم، ولم يكن يوماً من الأيام فظاً غليظ القلب، بل كان رفيقاً حنوناً رقيقاً، وكان يدعو للرفق فيقول: **«ما كان الرفق في شيء إلا زانه»**.

ولم يتزوج الرسول ﷺ غير خديجة في حياتها، فحفظ نفسها، وصان قلبها من الغيرة عليه ﷺ، وهي التي قضى معها ما يزيد على العشرين عاماً زوجاً مُحباً لها.

وكان دائماً ما يذكرها بالحب والود والخير حتى بعد وفاتها، بل إنه عندما صرح بحبه لها اعتبر هذا رزقاً رزقه الله به، فقال: **«إني قد رزقت حبها»**[٢] وخطابه بهذه العبارة التي تدل على حبه لخديجة كان لعائشة زوجته رضي الله عنها.

وقد كانت خديجة البادئة بحب محمد ﷺ، وهي التي رغبت فيه وهو

---

(١) فتح الباري جـ٧ ص١٣٤.

(٢) صحيح مسلم.

الذي لا يرد لما فيه من صفات وأخلاق حميدة تفرّد بها حتى أن مرويات السيرة تقول في هذا الشأن أنه لما علمت خديجة برغبة النبي ﷺ بها أرسلت إليه وعرضت نفسها عليه، وبينت له الدوافع التي دعتها إلى الزواج به فقالت: يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك ووسطتك في قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك[1].

❀ ❀ ❀

في بيت خديجة

كان بيت النبي ﷺ وهو بيت خديجة حاضناً لرجلين وامرأة، تربى فيه كل منهم وعاش في صحبة النبي ﷺ وزوجه خديجة، وأول الرجال هو: هند بن أبي هالة الأسدي التميمي ربيب رسول الله ﷺ، ابن خديجة من أبي هالة التميمي، فقد أسلم هند وهاجر إلى المدينة المنورة، وشهد بدراً، وقُتِلَ يوم الجمل، وكان من رجال علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

كان هند رضي الله عنه ذا فصاحة وبلاغة، بارع في الوصف، ومن أجمل ما برع فيه في الوصف هو عباراته وجمله التي وصف بها رسول الله ﷺ، لأنه تربى في بيته وعاش في كنفه وتلقى رعايته عليه السلام، وقد وصفه للرسول ﷺ وصفاً محبباً لمن سمعه أو قرأه.

وقد ذكر الحسن بن علي رضي الله عنهما فقال: سألت خالي هند بن أبي هالة عن حِلْية رسول الله ﷺ، وكان وصّافاً، وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به، قال: كان رسول الله فخماً مفخّماً، يتلألأ وجهه تلألُوءَ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع، وأقصر من المشذب - وهو البائن الطول - عظيم الهامة، رَجل الشَّعر، إن انفرقته فَرِقَ[2]، وإلا فلا، يجاوز شعرهُ شحمة أُذُنه إذا هو وفر، أزهر اللون، واسع الجبين، أَزجَّ

---

(١) السيرة لابن هشام جـ١ ص١٧٣.

(٢) أي أن شعر رأسه ينفرق من ذات نفسه.

الحواجب[1]، سوابغ من غير قَرَنْ[2]، بينهما عرق يدره[3] الغضب، أقنى العِرنين[4]، له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشمّ[5]، كث اللحية، أدعج العينين[6]، سهل الخدين، ضليع الفم، أشنَبَ، مُفلّج الأسنان، دقيق المسرُبة[7].

كان عنقه جيد دمية في صفاء الفضة، معتدل الخَلْقِ بادناً متماسكاً سواءَ البطن والصدر، مشيح الصدر (أي معتدل) بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس (العظام)، أنورَ المتجرِّدِ، موصول ما بين اللَّبة والسّرة بشعر يجري كالخط، عاري الثديين ما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رَحْبَ الراحة، واسع الكفين والقدمين، سائل الأطراف سبط، خمصان الأخمصين، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء، إذا زال، زال تقلعاً، ويخطو تكفؤاً، ويمشي هوناً، ذَريعَ المشية كأنما ينحطُّ من صَبَبٍ[8]، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، مُعْظَم نظره الملاحظةُ، يسوق أصحابه (يمشي خلف أصحابه تواضعاً)، ويبدأ من لقيه بالسلام[9].

نجد من وصف هند بن أبي هالة معايشة عميقة لها خصوصيتها، مما يدل على كرم النبي ﷺ مع ربيبه هند، حتى إنه انقطع لرؤية حركاته وسكناته، مما يدل على طول مكوث هند إلى جوار النبي ﷺ وقتاً طويلاً، وما المكوث إلا حبّاً في النبي ﷺ، ولو كان النبي ﷺ فظاً غليظ القلب

---

(١) دقيق الحواجب مع غزارة شعرها وتقوسها.
(٢) كوامل من غير اتصال.
(٣) يدره: يحركه ويهيجه.
(٤) طويل الأنف مع دقّة أرنبته وحدَب في وسطه.
(٥) أشم: طويل قصبة الأنف.
(٦) أدعج العين: شديد سواد الحدقة مع شدة بياضها.
(٧) شعر الصدر النازل إلى السرة.
(٨) كأنه يمشي في أرض منحدرة.
(٩) شرح الشفا للقاري جـ٢.

لانصرف عنه هند بن أبي هالة، ولكنه الرسول الرؤوف الرحيم، الذي يفيض حُبّاً وحناناً.

وقد انضم إلى بيت خديجة فتى الإسلام الأول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فنشأ في رعاية النبي ﷺ وحبه، وأراد النبي ﷺ بهذا أن يحمل عبئاً عن عمه أبي طالب الذي حمله مسؤولية كفالته بعد وفاة جده عبدالمطلب، فكان عليه السلام وفياً لأهله ونسبِهِ وقرابته، كذلك كان علي رضي الله عنه وفياً للإسلام ولرسوله ﷺ، ولنسبه من بني هاشم وصهره محمد ﷺ أيضاً.

وجاء في السيرة[1]: إنه كان من نعمة الله عَلَى علي بن أبي طالب، ومما صنع الله به، وأراد له من الخير أنّ قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب كثير العيال فقال رسول الله ﷺ لعمه العباس، وكان ميسور الحال، ويعد من أغنى بني هاشم: يا عباس، إنّ أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب النّاس ما ترى من هذه الأَزمة، فانطلق بنا إليه، فلنخفف عنه من عياله..

فقال العباس: نعم.

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه.

فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما عقيلاً فاصنعا ما شئتما.

فأخذ رسول الله ﷺ عليّاً فضمَّه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه[2].

وقد تربى علي رضي الله عنه في بيت النبي ﷺ، فأخذ منه أخلاقه ﷺ، فلم يعرف عن علي رضوان الله عليه أنّه سجد لصنم، ولم يذكر له أبداً أنّه قدّر الأصنام وعظّمها، وعندما بلغ أشده وأصبح شاباً فتياً

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص٢٣٠.

(٢) المصدر السابق.

وفياً زوّجه ابنته السيدة فاطمة رضي الله عنها، وكان ذلك في السنة الثانية للهجرة بعد غزوة بدر.

أما النجم الثالث الذي لمع في بيت النبي ﷺ، فهو زيد بن حارثة، وهو هدية من هدايا السيدة خديجة للنبي ﷺ، وقد جاء في ترجمة زيد[1] أن خديجة لما رأت تعلق النبي ﷺ بزيد وحبه له، وكان في مِلكها، فوهبته له ﷺ، فكانت هي السبب فيما امتاز به زيد من السبق إلى الإسلام.

ولزيد قصة أوردتها مراجع السيرة، جاء فيها أن أصل زيد من عرب الشمال، سُبي من أُمه وهو صغير، كانت قد خرجت به لتزيره أخواله من قبيلة طيء، وبيع كما يباع الرقيق، فاشتراه حكيم بن حزام، ابن أخ السيدة خديجة بنت خويلد، ووهبه لعمته خديجة رضي الله عنها.

وقد أصاب أسرته وعلى الأخص والده حارثة حزناً شديداً، جعله يبحث عنه في كل مكان حتى وَجَده عند رسول الله ﷺ، وذلك قبل بعثة النبي ﷺ، فخيره عليه السلام بين أن يبقى عنده أو يذهب إلى أهله مع أبيه، فاختار البقاء مع رسول الله ﷺ، فتبناه النبي ﷺ حتى إنه كان يدعى: زيد بن محمد، حتى زوّجه رسول الله ﷺ ابنة عمته زينب بنت جحش، وقد لقي معارضة من أخيها عبدالله، لأنه مولى جاء من السبي والرقيق وهي قرشية هاشمية شريفة، فكان أن تزوجت ولم تستقر حياتهما الزوجية، وكلما غاضبها زيد أو غاضبته زينب جاء شاكياً للنبي ﷺ يقول له: «**أمسك عليك زَوْجك**».

ولما جاء الأمر من السماء بطلاق زينب من زيد وزواج محمد ﷺ منها في الآيات الكريمة من سورة الأحزاب، يقول فيها ربُّ العزة: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا

(١) ترجمة زيد بن حارثة في الإصابة جـ ٧ـ وانظر خديجة للأستاذ عبدالحميد طهماز سلسلة أعلام المسلمين ـ دار القلم دمشق.

وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾[1].

فلما تزوج النبي ﷺ زينب بعد أن طلقها زيد، قال الناس من الكفار تزوج زوجة ابنه، فنزل القرآن يصحح هذه المفاهيم التي سادت في الجاهلية في أمور النسب فقال عز وجل:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾[2].

ولذلك عاد الأمر إلى نصابه، وأصبح الناس ينادون زيد باسم أبيه زيد بن حارثة ومما يعرف عن زيد غير خلقه وتقواه وشهامته وشجاعته أنه كان من السابقين إلى الإسلام مع السيدة خديجة، وعلي، وأبي بكر، وعمر وغيرهم.

وقد زوّج النبي ﷺ خادمه ومولاه زيد بن حارثة فيما بعد حاضنته بركة بنت ثعلبة الشهيرة «بأم أيمن»، وأنجبت لزيد أصغر قائد على الإطلاق لجيش من جيوش المسلمين.

وكانت بركة حاضنة النبي ﷺ منذ عهد أبيه عبدالله، حضنت النبي ﷺ بعد وفاة أُمه وهو في السادسة من عمره، وكان الرسول ﷺ يقول عنها: «**أم أيمن أُمّي بعد أُمّي**»، وكان أبو بكر وعمر يزورانها.

فقد ذكر أنس بن مالك رضي الله عنه أن أبا بكر قال لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ: انطلق بنا إلى أُم أيمن رضي الله عنها نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما أتيا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ألا تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٧.

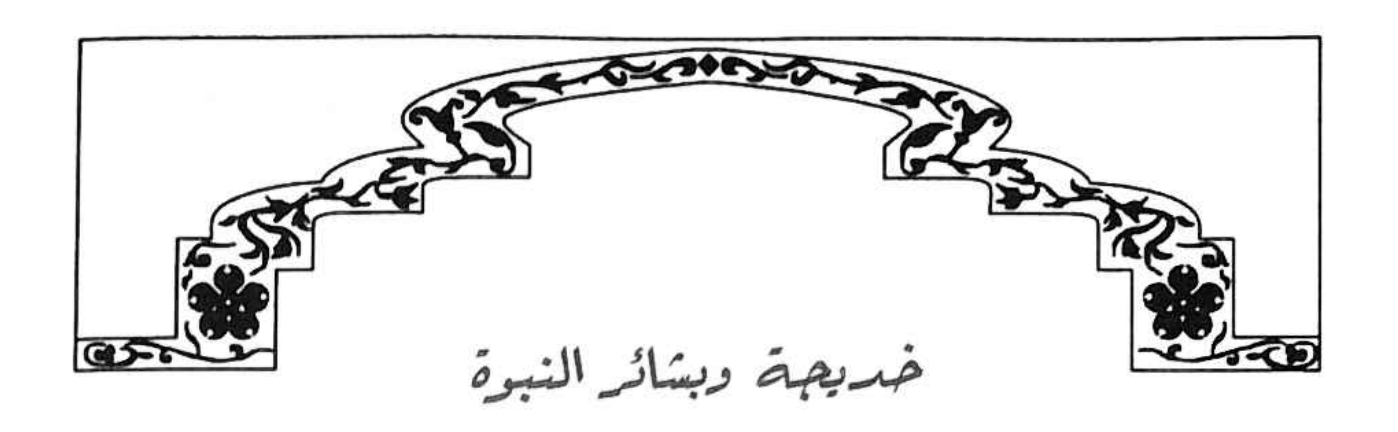
(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤، ٥.

قالت: بلى، إني لأعلم أن ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء.

فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها[1].



(١) أخرجه مسلم في صحيحه.



خديجة وبشائر النبوة

خمسة عشر عاماً مرت على هذا الزواج المبارك والرباط المقدس الذي ربط محمد ﷺ بخديجة رضوان الله عليها، فكانت خديجة تشد من أزر صاحبها محمد ﷺ وتساعده وتطمئنه إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك.

كان هذا الفعل الجميل، فعلاً جليلاً تقدمه خديجة لمحمد ﷺ، ولربما عجزت عن الإتيان به أكثر النساء إخلاصاً لأزواجهن، لطول فترته، وغرابة أمره، ويبدو أن خديجة كانت مؤمنة بصواب كل ما يأتي به محمد ﷺ، وهذا الإيمان هو الذي شجعها على أن تفعل ما فعلت، وتصبر عليه ما شاء له من الصبر.

كانت الوحدة والانقطاع عن الناس في غار للتعبد من أصعب الأمور التي تحملت خديجة آثارها، وهي الزوجة الأنثى التي أجمعت فطرتها على حب مكوث الزوج إلى جوارها.

وقد عاونت خديجة هذه الوحدة والانقطاع اللذان دأب محمد ﷺ عليهما، فكان إذا تغيب طويلاً في تعبده بالغار أرسلت إليه من يتفقد حاله، أو ذهبت إليه بنفسها لتراه وتطمئن نفسها برؤيته سليماً معافىً.

وكان إذا ما عاد إلى منزله بعد انقطاع تلقته بفيض حنانها، وغمرته بسيلٍ من عطفها وإشفاقها، فيجلس إليها يُسِرُّ إليها بما في داخل نفسه ويطلِّعها على ما يشعر به ويحسه، ويفضي إليها مخاوفه، فتمسح رأسه وتطمئنه، وتُسرّي عنه.

ويروي أصحاب السيرة ومنهم ابن سعد عن هشام عن عروة، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «**يا خديجة إني أرى ضوءاً، وأسمع صوتاً، لقد خشيت أن أكون كاهناً؟**».

فقالت: إن الله لا يفعل ذلك بك، إنّك تصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتصل الرَّحِمَ[1].

وكان إذا ما قال لها: «**يا خديجة، إني أرى أنواراً، وأسمع أصواتاً، وأخاف أن يكون بي لَمَّةٌ** - أي مسٌّ - **من الجِنّ، وأخشى أن أكون كاهناً**».

تقول خديجة رضي الله عنها لمحمد: يا محمدٌ؛ ما كان لمثلك أن يكون للشيطان عليه من سبيل.

وتمضي خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تقص عليه أمر محمد ﷺ فيقول مطمئناً: يا خديجة: ما أرى محمداً إلا نبي هذه الأُمة الذي بشَّرا به موسى وعيسى.

فتعود خديجة إلى دارها بروحٍ راضيةٍ، ونفس مستبشرةٍ، تواصل جهادها إلى جانب محمدٍ ﷺ معاونةً مشجعة.

وقارب محمد ﷺ أن يبلغ من عمرِهِ الأربعين، وعندئذ تبلَّجَتْ له الحقيقة في نومه رؤيا صادقة أنارت له حَالِكاتِ الظلام التي جاهد في اختراقها، وأضاءت له طريق الحقّ وسبيل الرشاد.

وقد جاء في الحديث الشريف عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: «أول ما بُدىء رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»[2].

عرف محمدٌ أن الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأنّه هو خالق

---

(١) انظر سبل الرشاد ٣٠٥/٢ وما بعدها.

(٢) الحديث رواه البخاري في أول ابتداء نزول الوحي.

الكون بما حوى، وأنه يجزي كلَّ امرىءٍ بعمله، وأدرك محمد مقدار ما وصل إليه قومه من ضلالٍ وبهتانٍ، ومبلغ ما حادوا عن الطريق السوي القويم.

واطمأنت نفس محمد ﷺ إلى ما وصل إليه من حقيقة بعد طُولِ المطاف في نشدانها، ولكن نفسه جزعت وارتاعت لما تبين له من مقدار الهوة التي يتردى فيها قومه الضالون.

وفيما هو مشغول بذلك، كان صدر خديجة الحنون الواسع هو الذي يركن إليه ويرتاح له، إذا ما أتعبه التساؤل، وأضناه التفكير، فمن غيرها يعرف ملامح محمد ﷺ وما تعبر عنه، وقسماته وما تشير إليه، إنه الفهم المشترك الذي ربط أم المؤمنين وسيدة نساء العالمين خديجة بنت خويلد بمحمد بن عبدالله ﷺ.

واستمرت رؤياه الصادقة أشهراً عديدة، وكلما رأى عليه السلام رؤيا قصها على السيدة خديجة رضي الله عنها فتثبته وتبشره.

فقد رأى عليه الصلاة والسلام مرَّةً في منامه أن سقف بيته نزعت منه خشبة، وأُدْخِلَ فيها سُلَّمٌ من فضة، ثم نزل إليه رجلان، فأراد أن يستغيث فمُنع من الكلام، فقعد أحدهما إليه والآخر إلى جنبه، فأدخل أحدهما يده في جنبه، فنزع ضلعين منه، فأدخل يده في جوفه، ورسول الله ﷺ يجد برْدَها، فأخرج قلبه فوضعه على كفه، فقال لصاحبه: نِعم القلب، قلبُ الرجل صالح، فطهَّر قلبه وغسله، ثم أدخل القلب مكانه، وردّ الضلعين ثم ارتفعا ورفعا سلمهما فإذا السقف كما هو.

فذكر ذلك لخديجة فقالت له: أبشر فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً، هذا خير فأبشر(١).

---

(١) ذكرت حادثة شق الصدر أنها حدثت في سن الرضاعة في مراضع بني سعد عن حليمة السعدية خلف الخيام ـ حينما كان يلعب مع صاحبه ـ انظر سيرة ابن هشام ـ البداية والنهاية وسبل الهدى والرشاد ٢/ ٣١٢ـ السيرة الحلبية ـ الخصائص الكبرى.

كانت هذه الرؤيا وغيرها من الرؤى لطفاً بالنبي ﷺ من ربه ورحمة به، فقد هيئته وأعدته لمرحلة نزول الوحي عليه وهو في اليقظة، وحبَّبَ الله إليه الخلوة والعزلة عن الناس، فكان عليه السلام يخرج إلى غار حراء يتعبد فيه ما شاء الله له أن يتعبد حتى إنه كان يقضي الليالي الطوال، وكان على خديجة أن تزوده بما يحتاج إليه من طعام وشراب، فإذا نفد طعامه وشرابه رجع عليه السلام إليها.

كانت خديجة رضوان الله عليها تحب كل ما يحبه رسول الله ﷺ، كان قلقها عليه وخوفها من إصابته بمكروه هو الذي يجعلها إذا ما تأخر عن العودة إليها ترسل إليه غلمانها وخدمها في طلبه والبحث عنه ﷺ، حتى إنه كانت تخرج معه في بعض الأحيان إلى غار حراء، فتصحبه في عزلته وتأمله، وقد روي أنّه ﷺ، خرج إلى غار حراء في بعض المرات ومعه أهله[1].

وكان كلما اقترب الموعد الذي قدّره رب العزة لبدء نزول الوحي والقرآن الكريم، زادت الأصوات التي كان يسمعها رسول الله ﷺ، وكان كلما سمع شيئاً أو رأى جديداً لجأ إلى خديجة رضوان الله عليها، فتثبته وتبشّره، فكان اختيار ربه وتقديره له في زواجه من خديجة عوناً له في هذه المرحلة الحرجة من حياته.

وها هو يخرج ويعود ليقص على خديجة كل يوم شيئاً جديداً مما يرى ويسمع، واستمر ﷺ يرى الضوء ويسمع الصوت، حتى جاءه مرة وعرّفه جبريل بنفسه من غير أن يراه، وقال له: يا محمد، أنا جبريل.

فعاد محمد ﷺ إلى خديجة، وقال: والله خشيت أن يكون هذا أمراً؛ فقالت له رضي الله عنها لكي تثبته وتزيل قلقه واضطرابه: معاذ الله!! ما كان الله ليفعل ذلك بك، إنَّك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢١٩/١.

حتى إنه أسمعه صوته مسلِّماً: السلام عليكم، فعاد إلى خديجة مسرعاً، فقالت: ما شأنك؟

فأخبرها: فقالت: أبشر فإن السلام خيراً.[1]

❊ ❊ ❊

نزول الوحي

- «زملوني، زملوني» [محمد ﷺ].

- «كلا، أبشر، والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكُلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة»[2] [خديجة بنت خويلد].

جاء شهر رمضان، وهلَّ هلاله في السماء، وفي رمضان كان محمد ﷺ يعتكف في غار حراء طيلة أيامه متعبداً، وأعدت خديجة لمحمد ﷺ ما اعتادت أن تُعِدَّ له من طعام وشراب يتزود منه عند جوعه وعطشه، ويعطي منه لمن يغدو عليه من المساكين.

واعتكف محمد ﷺ في الغار كعادته، وكعادتها أيضاً كانت خديجة ترسل برسلها إليه في الغار بين الحين والحين، يتفقدون حاله، ويحملون إليه ما تُزوده به من زاد.

وذات يوم سار رسل خديجة إلى محمد ﷺ في الغار يحملون إليه بعض الزاد، ولكنهم لم يجدوه هناك، فعادوا إلى خديجة يخبرونها الخبر.

وفي البداية ظنّت خديجة أنّ محمداً ﷺ في طريقه إلى منزله، وأَنه يطوف بالكعبة كعادته قبل حضوره إلى الدار، وإن كان من عادته ألاً يغادر الغار في شهر رمضان.

---

(١) الأستاذ عبدالحميد طهماز في كتابه خديجة - عن سبل الهدى والرشاد.

(٢) رواه البخاري.

طال انتظار خديجة لمحمد ﷺ، ولكنه لم يعد إلى داره، فأرسلت رسلها من جديد إلى الغار وإلى الكعبة يبحثون عنه، ولكن لم يعد إليها أحد منهم بما يحدد لها مكانه، ويطمئنها عليه، مما زاد في قلقها عليه، حتى قيل إنها توجهت إلى الغار بنفسها تبحث عنه، ولكنها لم تجد بالغار غير بعض المتاع القليل الذي كان يأخذه محمد ﷺ معه.

تُرى إلى أين ذهب محمد ﷺ؟ وماذا حدث معه؟

عادت خديجة بخفي حنين إلى دارها، وعادت في إرسال رسلها يبحثون عن محمد ﷺ دون يأس أو قنوط، وأوصتهم أن يبحثوا عنه في كل مكان يحيط بمكة، وبعثت بغلمانها يلتمسونه في بيوت بني عبدالمطلب لعله أن يكون هناك..

وبعد بحث وجهد جهيد، انقطعت خلاله كل أخبار محمد ﷺ، وبينما كانت خديجة في قلق على زوجها لم تعهد مثله من قبل، دخل عليها محمدٌ ﷺ يرتجف من هول ما حدث له.

عاد صلوات الله وسلامه عليه إلى خديجة يقول: «**زملوني زملوني**» فأسرعت خديجة فزملته، ودثّرته وهي تضمه إلى صدرها مشفقة أن يكون قد أصابه مرض، أو نزلت به حُمّى، فلما هدأ قليلاً، وخفّ عنه بعض الروع، وخفت عنه شدة الرجفة، سألته خديجة رضوان الله عليها: ما بك يا محمد؟!

فنظر إليها نظرة وقال: «ما الذي بي؟!».

ثم شرع يحدثها بما كان من أمره فقال ﷺ: كنت نائماً بغار حراء، فإذا بملك جميل الصورة قد تبدّى لي، وبيده صحيفة من ديباج، وسمعته يخاطبني قائلاً: اقرأ.

فأُخذت وقلت: ما أنا بقارىء.

فأحسست أن الملك يخنقني، ويضغطني ضغطاً شديداً، حتى حسبت أنه الموت، ثم أرسلني وقال لي: اقرأ.

فقلت: ما أنا بقارىء.

فأحسست مرة أخرى أن المَلَك يخنقني ويضغطني ضغطاً أشَدَّ من الأولى؛ ثم أَرْسَلَني وقال لي: اقرأ. وخشيت أن يعود معي مثل ما صنع بي فقلتُ: ماذا أقرأُ؟!

قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[1] فقرأت ما قرأه المَلَك، وقد نُقِش في قلبي، وطُبِعَ على صفحة فؤادي، فتركني الملك وانصَرَفَ[1].

وهببت قائماً، وقد تملكني الفزع، وتولاني الجزع، فأخذت ألتفت في أرجاء الغار فَزَعاً ورُعْباً أسأل نفسي: من الذي خاطبني؟! من الذي أقرأَني؟!

وغادرت الغار مسرعاً، وقد حسبت أنه قد لحقني مَسٌّ من الجن، وأصابني ما كنت أخاف وأخشى. وهِمت بين شعاب الجبل وأنا أتساءَل: من هذا الذي تمثل لي؟ أو ما الذي عنى بما أقرأني؟

وبينما أنا بوسط الجبل سمعت صوتاً يناديني: مُحمد، فرفعت رأسي، فرأيت الملك وقد تمثل لي في صورة رجل يناديني: يا محمد؛ أنت رسول الله وأنا جبريل.

فزاد رعبي، واشتد عليَّ الفزع، وَوَقَفَني الهلع، فلم أجد لنفسي مهرباً، فجعلت أدير رأسي يَمْنَةً ويسرة، أحاول أن أصرف عن ناظري صورة هذا الشخص الذي أمامي، ولكني كنت أَراهُ أينما وَلَّيتُ وجهي، وحيثما حولتُهُ!

وهكذا مضى وقت طويل على محمد ﷺ وهو يعاني من الرعب ما يعاني، ويقاسي من الخوف، حتى وصل إلى خديجة على هذه الحال.

---

(١) سورة العلق، الآيات: ١ ـ ٥. والقصة وردت في السيرة لابن هشام، وغيرها من كتب السير.

استمعت خديجة إلى محمد ﷺ وهو يقص عليها، وقلبها ينبض حبّاً لشخص محمد ولما يقول محمد ﷺ، وعقلها يتفتح على أمر عظيم قادم إلى بيت محمد ﷺ، واستمعت إليه وهو يفضي إليها بمخاوفه من أن يكون كاهناً تغشاه الجن، ولكن خديجة كانت قد أجلت وأكبرت في نفسها ما يقوله محمد ﷺ، ورسمت على وجهها ابتسامة السكينة والطمأنينة والثقة، وقالت في ثقةٍ وهدوء:

أبشر يا ابن عم، واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأُمة، والله لا يخزيك الله أبداً، وإنك لتصل الرَّحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكلَّ، وَتَقْري الضيف، وتعينُ على نوائب الحق.

أنزل كلام خديجة على نفس محمد ﷺ السكينة، فكان برداً وسلاماً، وحملت إليه الهدوء والاطمئنان، وأشاعت من روحه الرّاحة والاستبشار، فشكر لها حُسْنَ حديثها، وطيب منطقها فهدأت نفسه ونام مطمئناً، وقد بَشَّرته خديجة فزاد استبشاراً.

كان موقفاً عظيماً من خديجة، تحدث عنه الرواة فقالوا عنها في هذا الموقف: صدَّقته ﷺ في أول وهلة، ومن ثباتها في الأمر ما يدل على قوة يقينها، ونور عقلها، وصحة عزمها[1].

وما إن اطمأنت خديجة إلى سكينة محمد ﷺ وهدوئه وخلوده للراحة والنوم، حتى نهضت من فورها ولبست ملابسها، وقصدت ابن عمها ورقة بن نوفل فحدثته بما حَدَّثها به محمدٌ ﷺ، فما إن سمع منها ورقة ما قالت حتى قال بفرح:

قُدّوسٌ! قُدُوسٌ! ـ أي طاهرٌ طاهرٌ ـ والذي نفسُ ورقة بيده لئن كنتِ صَدَقتِني يا خديجةَ لقد جاءَهُ الناموس الأكبر الذي كان يأتي مُوسَى، وإِنّه لنبيُّ هذه الأُمَّةِ، فقولي له: فليثبت.

---

(١) ابن حجر في فتح الباري جـ٧/١٣٤.

وفي بعض الروايات قيل أن النبي ﷺ كان قد ذهب إلى ورقة مع صاحبه أبي بكر الصديق، قبل هذه المرّة أيضاً، ففيها أن النبي ﷺ قال للسيدة خديجة رضي الله عنها: «إني إذا خلوت وحدي أرى ضوءاً وأسمع نداءً: يا محمد أنا جبريل، وقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً!!».

فقالت خديجة: معاذ الله، ما كان الله ليفعل هذا بك، إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث.

فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه لها، وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل، فإنه رجل يقرأُ الكتب، فيذكر له ما يسمع.

فانطلقا، فقصّا عليه، فقال له ﷺ: «إذا خلوت وحدي سمعت نداءً خلفي: يا محمد أنا جبريل، فأنطلق هارباً!!».

فقال ورقة: سُبّوح، سُبّوح، وما لجبريل يذكر في هذه الأرض التي يعبد فيها الأوثان، جبريل أمين الله تعالى على وحيه بينه وبين رسله، لا تفعل إذا أتاك، فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فأخبرني[1].

وهذا يدل على أن ورقة كان يعلم أن النبي ﷺ سيخرج من قريش وأنه حينما حدّثه عما رآه تأكد من صدق علمه ومعرفته.

وجاء في البخاري: أن السيدة خديجة انطلقت بالنبي ﷺ إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى ابن عم خديجة، وكان امرءاً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيه جَذَعاً، ليتني أكون حيّاً إذ يخرجك قومك.

فقال ﷺ: **«أوَ مخرجي هم؟»**.

---

(١) سبل الهدى والرشاد ٣١٣/٢.

قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني قومك أنصرك نصراً مؤزراً.

ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي[١].

وبدأت خديجة تتابع هذه المشاهد المباركة في بيتها، فخطت مع أول نزول الوحي خطواتها الأُولى للإيمان والإسلام، ودفعها حب المعرفة والاستطلاع إلى المتابعة الحثيثة والسؤال الدائم للرسول ﷺ، فها هي تسأل رسول الله وتقول:

يا ابن عم! أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟

قال: «**نعم**».

قالت: فإذا جاءك فأخبرني به.

فجاءه جبريل، فقال رسول الله ﷺ: «**يا خديجة هذا جبريل قد جاءني**».

فقالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى، فقام رسول الله ﷺ فجلس على فخذها اليسرى.

فقالت: هل تراه؟

قال: «**نعم**».

قالت: فتحول فاقعد على فخذي اليمنى، فتحول الرسول ﷺ فجلس على فخذها اليمنى.

فقالت: هل تراه؟

فقال: «**نعم**».

قالت: فتحول فاجلس في حجري، فتحول رسول الله ﷺ فجلس في حجرها.

---

(١) اللفظ للبخاري والحديث متفق عليه.

قالت: هل تراه؟

قال: **«نعم»**.

فحسرت فألقت خمارها، ورسول الله ﷺ في حجرها ثم قالت: هل تراه؟

قال: **«لا»**.

قالت: يا ابن عم اثبت وأبشر، فوالله إنه مَلَكٌ، ما هذا بشيطان[(١)].

وقيل إن جبريل ظهر ظهوراً كاملاً في المرة الثانية لعودته لمحمد ﷺ، فذكر الرواة أن خديجة لما عادت إلى دارها، لتبشر محمداً بما بشرها به ابن عمها ورقة، فوجدته يرتجف، وقد تفصَّد جبينه بالعرق، ونال منه الجهد وهو يقرأ عن ظهر قلب:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ ﴾.

وجاء في الحديث عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**جاورت بحراء، فلما قضيت جِواري هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً، فأتيتُ خديجة فقلت: دثروني، دثروني، وصبوا علي ماءً بارداً**».

قال: «**فدثروني وصَبُّوا عليَّ ماءً بارداً، فنزلت** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾».

وفي رواية أخرى، قال ﷺ: «**بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء، قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي، فقلت: زملوني، زملوني، فزملوني، فأنزل الله:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ١ ص٢٢٣.

﴿الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤﴾ [سورة المدثر]، ثم حمي الوحي وتتابع»[1].

وذكرت السير أن خديجة قالت يومها: إذا جاءك فأخبرني، فلما عاود جبريل محمداً، أخبرها بمجيئه؛ فقالت له: ادنُ مني.

فدنا عليه السلام منها، فسألَتْهُ: أَتَرَاهُ؟ ـ وكانت هي لا تراه ـ.

قال: «**نعم**».

قالت: أدخل رأسك تحت ثيابي، ففعل.

فقالت: أتراه؟

قال: «**لا**».

قالت أبشر! هذا ملك، إذ لو كان شيطاناً لما استحيا وأخبرته بما قاله لها ابن عمها ورقة، وبما طلب منها أن تبلغه إياه.

ثم أعلنت إسلامها وإيمانها بنبوة محمد ﷺ، وتأكدت أن زوجها نبي هذه الأمة.

❀ ❀ ❀

في سبيل الدعوة

انتظر محمد ﷺ هداية الوحي ونزوله، لينير له سبيله، ويصلح شأن قومه فيقضي على جاهليتهم، ويهديهم بإذن ربهم إلى سواء السبيل.

وانتظرت خديجة أيضاً وحي الله إلى زوجها محمد ﷺ ليرشده إلى ما يفعل ويهديه إلى ما يتَّبعُ، ولكن جبريل الذي أنزله الله إليه، والذي أخبرها عنه ورقة أنه الناموس الذي أنزل على موسى، وطمأنته هي بأنه ملك، لم يتمثل له، ولم ينزله الله عليه بشيءٍ يوحيه إليه..!

---

(١) الحديث متفق عليه.

انتظر محمد كثيراً، وإذ بالوحي قد فتر، وإذ بجبريل لا يأتيه، وإذ ما حوله سكينة هادئة صامتة جعلته في وحدة من النَّاس ومن نفسه، وردّته إلى مثل مخاوفِهِ، قبل نزول الوحي، وقد روي أن خديجة قالت له: ما أرى ربك إلا قد قلاك.

وتولاه الخوف والوجل، مما جعله يمضي مرة أُخرى يصعد الجبال، وينقطع في غار حراء كي يرتفع بكل نفسه ابتغاء وجه الله عز وجل، ولربما كان يسأل ربه فيقول: لم قلاه بعد أن اصطفاه؟!

ولم تكن خديجة أقل منه إشفاقاً ووجلاً، ولربما تمنّى محمد ﷺ الموت صادقاً لولا أنه كان يشعر يقيناً بأن ما أمره به ربه سيكون حقّاً وصدقاً.

شعرت خديجة أن محمداً قد شغل باله لتأخير نزول الوحي من الله إليه، وأنّه قد اشتد به التفكير، وألحَّ عليه الهم، واستبد به القلق، وشاركت خديجة زوجها إحساسه وشعوره، وغالبت نفسها، وكبتت شعورها، وجعلت تطمئن محمداً، وتهوّن عليه الأمر، ومرت عليها الأيام والليالي، وزوجها يقضي أيامه ولياليه يسأل ربه ويدعوه، ويشتد على خديجة الحزن، حينما ترى محمداً حزيناً قد ضاق صدرُهُ، وقلقت نفسه ويتمنى الموت صادِقاً في سبيل الله.

وعادت خديجة رضي الله عنها إلى رعاية محمد ﷺ وهو في معتكفه في الغار يتعبد ويتحنث لله، واشتد عطفها عليه وهو يطوف بشعابِ الجبال ويعتلي رؤوسها ضَيّقَ الصَّدْرِ حائر الفكر.

وبينما خديجة في دارها ذات يوم، وقد استبد بها الحزن لما يلاقي زوجها من عذاب نفسي شديد إذ بمحمد ﷺ يدخل عليها بوجهٍ متهلل مستبشر، ونفس مطمئنةٍ راضيةٍ تنفرج شفتاه على ابتسامة حلوة رقيقة، فلا تكاد تراه حتى تهش له وتبش، فيسارع محمد إلى تبشيرها بمعاودة نزول الوحي وجبريل إليه؛ إذْ ذاك أقبلت خديجة على زوجها وقد انشرح فؤادها، واستخفها الفَرَحُ، تستمع إليه وهو يقول مطمئن النفس:

بينما أنا يا خديجَةُ برأس حراء، وقد اشتدَّ بِيَ الضيقُ، وقسا علي الفكر، إذ بجبريل قد ظهر أمامي يقرئني رسالة ربي إليّ.

نزل جبريل بقول الله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾[1].

هكذا كان الكرم الربّاني على محمد ﷺ، أن الله لم يترك محمداً أبداً ولم يَقله، فقال له: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾.. كما ظننت يا محمد وكما ظنت خديجة رضي الله عنها، بل شمله ربه برحمته وبعطفه وبكرمه، وأسبغ عليه نعمه، وأثلج صدر خديجة، وسكنت نفسها، واطمأن قلبها، وتبددت مخاوفها وقد تحقق لها ما كانت تريده لزوجها، ووَصَلَ الله لَهُ ما ظنت أنّه انقطع، وتتابع نزول الوحي على مُحَمّدٍ ﷺ يعلمه آيات الله.

أما محمد ﷺ فقد انجلت مخاوفه وزال كل روعه، وارتسمت على ثغره ابتسامة الرضا، وافترّت شفتاه عن معاني الحمد وآي التقديس والعبادة، لم يبقَ لما كانت تخشى خديجة من أن الله قلاه، ولم يبق لفزعه وهلعه موضع، بل تولاّه الله وتولاها برحمته الواسعة، وأزال كل خشية أو ريبة من نفسه، فلا خوف ولا قلق، ولكن حياة ودعوة إلى الله، وإلى وحدانيته عز وجل، فإليه العلي الكبير يسجد له من في السموات والأرض، هو وحده الحق وكل ما يدعون من دونه الباطل، إليه وحده يتوجه العقل والقلب، وبه وحده يجب أن تتعلق النفس، وفيه وحده يجب أن تفنى الروح.

وكقوله عز وجل: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾ الآخرة التي تحيط فيها النفس بكل الوجود في كمال وحدته، والتي يتناهى إليها المكان والزمان، وتُنسى فيها اعتبارات هذه الحياة الوضيعة الأُولى.

---

(١) سورة الضحى بأكملها.

والدين الذي أضاء بنوره روح محمد ﷺ، والذي ابتعثه من جديد ليفكر في الدعوة إلى ربِّه، هذا الدين الذي دعاه إلى طهارة ثيابه، وترك المنكر، هذا الدين الحنيف الذي جاء من أجله محمد دعاه إلى الصبر على ما يلاقي من الأذى في سبيل الدعوة إلى الحق، ودعاه إلى الناس إلى إنارة طريقهم بالعلم، ودعاهم إلى البعد عن نهر وتجريح مشاعر السائل ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ ولا يقهر يتيماً ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾.

يكفي محمداً أن ربه اصطفاه واختاره لكلمته ليتحدث عنها، ويكفيه أن الله وجده يتيماً فآواه في كفالة جدّه عبدالمطلب وعمه أبي طالب، وحسبه أنه وجده فقيراً فأغناه بأمانته ويسّر له خديجة شريكة صباه، وشريكة تعبده، بل وشريكة بعثه، فهي المحبة الناصحة الحنون، وحسبه أن ربه وجده ضالاً فهداه إلى دين الحق، والآن ليتجه محمد ﷺ إلى دعوة الحق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، لكل هذا فإن الله ما ودّع محمداً وما قلاه ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ الآية.

ونزل جبريل على محمد ﷺ يوماً وهو بأعلى مكة يعلمه الوضوء ويعلمه الصَّلاة. فتوضأ جبريل عليه السلام ومحمد ينظر إليه ليُريه كيف يتطهر للصلاة، فتوضأ محمد بعده كما رآه، وقام جبريل يصلي ومحمد ﷺ يصلي مثل صلاته.

وانصرف جبريل، وجاء محمدٌ ﷺ إلى خديجة يعلمها الوضوء والصلاة، فتوضأ أمامها كما توضأ أمامه جبريل، فتوضأت بعده خديجة كما توضأ، ثم قام محمد ﷺ فصلى وخديجة تصلي وراءه، كما صلى هو وراءَ جبريل. وشعر محمد ﷺ وخديجة بعد التطهر والصلاة براحة نفسيهما وجسديهما، جعلتهما يحمدان الله ويشكرانه على ما أولاهما من نعم.

وفيما محمد ﷺ وخديجة يصليان يوماً دخل عليهما عَليٌّ مفاجأة، فرآهما يركعان ويسجدان ويتلوان ما تيسر مما أوحاه الله يومئذ من القرآن، فوقف الفتى دَهِشاً حتى أتمّا صلاتهما، ثم سأل: لمن تسجدان؟

فأجابه محمد ﷺ: «**إنما نسجد لله الذي بعثني نبياً وأمرني أن أدعو الناس إليه**».

ودعا محمد ﷺ ابن عمه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى دينه الذي بَعثَ نبيه به، وإلى ترك وإنكار الأصنام أمثال اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، وتلا محمد ﷺ أمام علي وخديجة ما تيسر من القرآن، فَبُهِرَ علي بما سمع من جميل اللفظ والمعنى، وسحره جمال الآيات وإعجازها واستمهل ابن عمه حتى يشاور أباه، ثم قضى ليله مضطرباً، فلما أصبح أعلن إليهما أنه اتبعهما من غير حاجة لرأي أبي طالب وقال: لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب، فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله.

ودخل علي الإسلام، وكان رضي الله عنه أول صبي أسلم، ومن بعده أسلم زيد بن حارثة.

وعلّم محمدٌ ﷺ علياً الصلاة، وحفَّظه ما أُنزل عليه من آيات، ولم يُشاهد بعد ذلك محمدٌ ﷺ على صلاةٍ إلا وعليٌّ وراءه، وأسلمت بنات محمد ﷺ، وانتشر في الدار بين خدم خديجة وغلمانها أن محمداً قد اختاره الله نبياً ورسولاً.

وذات يوم قصدت جارية لحكيم بن حزام ابن أخي خديجة إلى دار خديجة في مطلب لها، وهناك رأت الخدم يتهامسون بأن محمداً بعثه الله رسولاً إلى خلقه، فسألت الجارية خديجة فأيدت لها صحة الخبر، ولكن الجارية التي لم تألف غير دين قومها، ولم تعرف غير عبادتهم، لم ترتح نفسها إلى هذا النبأ، ولم تطمئن إلى هذا الخبر، فعادت إلى مولاها حكيم بن حزام، ودخلت عليه وهو في مجلس مع أصحاب له تقول: إن عمتك خديجة تزعم في هذا اليوم أن زوجها نبيٌّ مرسل مثل موسى!

وكان بمجلس حكيم بن حزام حينئذ صديق محمد الحميم أبو بكر الصديق الذي كان يحب محمداً أصدق الحب، ويصدقه فيما يقول.

سمع أبو بكر نبأ بعث محمد ﷺ فانسل من المجلس، وقصد من فوره إلى دار محمد ﷺ يستفهمه الخبر، فقص عليه الخبر، ودعاه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان، وأفضى إليه بما رأى وبما أوحي إليه:

فلم يتردد أبو بكر في إجابة محمد ﷺ إلى دعوته، فآمن بها، وانشرحت نفسه للحق وعبادة الله وحده، وأذاع نبأ إيمانه بالله ورسوله بين أصحابه.

وسارت دعوة محمد ﷺ في الخفاء زمناً يستخفي المسلمون عن عيون ذويهم والملأ من المشركين، ويتخيرون الأماكن البعيدة المتخفية يتلون فيها آيات الله التي ينزلها الله على محمد ﷺ، ويخرجون إلى شعاب الجبال في سر من النّاس يؤدون الصلاة. وابتدأ أهل مكة من المشركين يشعرون بما يفعل المسلمون، فتربصوا بهم يحاولون كشف سرّهم، والاطلاع على أمرهم.

وعرف المشركون أن محمداً يدعو إلى دين الله وحده وينهى عن الشرك بالله ـ دين قومه ـ وكثر العجب بين قريش في أمر محمد ﷺ وكثر الجدل، وكثر اللغط؛ فريق يرى أن محمداً قد جُنَّ، وفريق آخر يرى أن محمداً قد أصيب بداء حب الشهرة والرغبة في الظهور!!

وجعل أبو بكر يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه، فتابعه على الإسلام عثمان بن عفان، وعبدالرحمن بن عوف وطلحة بن عبيدالله وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، ثم أسلم من بعد ذلك أبو عبيدة بن الجراح وكثيرون غيره من أهل مكة.

وكان المسلمون الأوائل إذا أسلم أحدهم ذهب إلى النبي ﷺ فأعلن إسلامه وتلقى عنه تعاليمه.

وكانوا يستخفون لعلمهم بما تضمر قريش من عداوة لكل خارج عن أوثانها، فكانوا إذا أرادوا الصلاة انطلقوا إلى شعاب مكة وصلّوا فيها. وظلوا على ذلك ثلاث سنوات، ازداد الإسلام فيها انتشاراً بين أهل مكة. ونزل على محمد ﷺ فيها من الوحي ما زاد المسلمين إيماناً وتثبيتاً، وكانت قدوة النبي ﷺ وأخلاقه خير ما يزيد الدعوة انتشاراً، فكان عليه السلام برّاً رحيماً، جمّ التواضع كامل الرجولية، عذب الحديث، محباً للعدل، يعطي كل ذي حق حقه، وينظر إلى الضعيف واليتيم وإلى البائس والمسكين نظرة، كلها الأبوة والحنان والعطف والمودة.

كل هذا جعل الذين آمنوا به وأسلموا له أحرص على إسلامهم وأشد يقيناً بإيمانهم، على ما في ذلك من إنكار ما كان عليه آباؤهم واحتمال تعرضهم لإيذاء المشركين ممن لم يدخل الإيمان في قلوبهم.

وقد آمن بمحمد ﷺ من تجار مكة وأشرافها من عرفت نفوسهم الطهر والنزاهة والمغفرة والرحمة، وآمن به كل ضعيف وكل بائس وكل محروم، وانتشر أمر محمد ﷺ بمكة ودخل الناس في الإسلام جماعات نساءً ورجالاً.

وكان لا بد أن يتحدث الناس عن دعوة محمد ﷺ، إلا أن أهل مكة بين قساة الأكبار ومن على قلوبهم أقفالها لم يعبؤوا ولم يهتموا من أول مرة وظنوا أن حديث محمد ﷺ وما يدعو إليه لا يزيد عن حديث الرهبان وأهل الحكمة مثل ورقة وأمية وغيرهم، وأن ذلك لن يتعدى حدوداً تشكل خطراً على أصنامهم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى.

ظلّت الدعوة سرّاً، تميل إلى الجهد لمدة ثلاث سنوات إلى أن جاء أمر الله عز وجل في قوله سبحانه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ الآية.

فكان على محمد ﷺ أن ينفذ أمر ربه سبحانه وتعالى، كان الأمر واضحاً قال فيه رب العزة في سورة الشعراء:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾(١).

دعا محمد عليه الصلاة والسلام عشيرته وأهله من بني عبدالمطلب إلى طعام في بيته، وحاول أن يحدثهم داعياً إياهم إلى الله، فقطع عمه أبو لهب حديثه واستنفر القوم ليقوموا، ودعاهم محمد ﷺ في الغداة كرّةً أخرى، فلما طعموا قال لهم:

«ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، قد جئتكم

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢١٤ ـ ٢١٦.

بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟»[1].

أعرض القوم عن محمد ﷺ وهموا بتركه، لكن علياً نهض وهو ما يزال صبياً صغير السن وقال: أنا يا رسول الله عونك، أنا حرب على من حاربت.

فابتسم بنو هاشم وتعجب بعضهم، وجعل نظرهم ينتقل من أبي طالب إلى ابنه علي، ثم انصرفوا مستهزئين.

أحست خديجة بالخطر الذي ينتظر محمداً الزوج الرقيق صلوات الله وسلامه عليه، وأحست بالخطر الذي ينتظر دعوته الحنيفية، ورسالته العظيمة، فإذا أهل بيته قد قابلوه بمثل هذا الإعراض فما بال قريش وغيرها.

ولكن محمداً لم يلق بالاً لموقف بني هاشم، وانتقل على الفور بدعوته من عشيرته الأقربين إلى أهل مكة جميعاً، فصعد جبل الصفا يوماً ونادى: **«يا معشر قريش»**.

قالت قريش: محمد على الصفا يهتف، وأقبلوا عليه يسألونه الخبر؟

قال عليه السلام: **«أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقون؟»**.

قالوا: نعم، أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط.

قال: **«فإني نذير بين يدي عذاب شديد، يا بني عبدالمطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زُهرة، يا بني تَيم، يا بني مخزوم، يا بني أُسد، إِنَّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً، إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله»** أو كما قال ﷺ.

فنهض أبو لهب عم النبي ﷺ وكان رجلاً بديناً سريع الغضب فصاح: تبّاً لك سائر هذا اليوم، ألهذا جمعتنا؟!

---

(١) انظر تاريخ الإسلام للذهبي السيرة النبوية.

كانت هذه الكلمات المغضبة أول سهم يُصوب إلى الرسول ﷺ، فجاء الوحي ونزل القرآن الكريم يقول: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾[١].

ولقي محمد ﷺ منهم الإعراض عن دعوته، وزاد عمه أبو لهب، وزاد الأمر تعقيداً، فسفّههُ، وخاشنه، وحقّرَهُ، وناصبه العداء، وكانت دار أبي لهب مجاورة لدار محمد، فلاقى محمد ﷺ وخديجة من بذاءة أبي لهب، ومن سفاهة امرأته أم جميل الشيء الكثير، فكان أبو لهب يأتي بالأقذار والأوساخ فيلقي بها على باب محمدٍ، وكانت امرأته أُم جميل تحمل العوسج والشوك فترمي به في طريق رسول الله ﷺ فما يزيد محمد وهو يرى هذا الفعل من عمه وزوجته على أن يقول: أي جوار هذا يا بني عبدالمطلب؟!!

أما خديجة فما كان منها إلا أن تأمر غلمانها برفع الشوك والأقذار التي يلقي بها أبو لهب وزوجته في طريق زوجها محمد ﷺ.

وكانت بنات رسول الله ﷺ اللائي رُزِقهن من نصيب أبي العاص بن الربيع ابن أخت خديجة، وَعُقِدَ لرقية وأم كلثوم لعتبة وعتيبة ابني أبي لهب عم محمد، وبقيت فاطمةُ الصغيرة[٢]، وما نَحْسَبُ إلا أنها قد ادُّخِرَتْ من يومئذ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ولما أظهرت بنات الرسول ﷺ إسلامهن، وعادى أبو لهب ابن أخيه محمد ﷺ أمر ولديه عتبة وعتيبة أن يَرُدّا ابنتي محمد عليه، وكانَ ولداه لم يدخلا بهما بعد. وتردد عتبة في تنفيذ هذا الأمر حتى تكاثر عليه قومه عارضين عليه الزواج مِمَّن يتخيرها من بنات قومه بدلاً من رقية، فتخيّر بنت سعيد بن العاص، وطلق هو وأخوه ابنتي محمد.

وسنتحدث عن بنات النبي ﷺ واحدة تلو الأخرى في سيرة أمهن الطيبة المباركة.

---

(١) سورة المسد، الآيات: ١ ـ ٣.

(٢) سنتحدث عنهن في صفحات قادمة.

كانت هذه هي بداية التحدي الذي واجه خديجة في حياتها، فقد مسّ الصراع بناتها، ولكن الله سيختار لهن فيما بعد خير الأزواج.

والحق يقال فإن الصراع بدأ شاملاً وحصلت المواجهة بين محمد ﷺ وهؤلاء الذين أغلقوا قلوبهم، وقد لاقى المسلمون بعد أن جهر محمد بدعوته، لاقوا من قومهم من الاضطهاد والإساءة والتعذيب الشيء الكثير الذي دعا محمداً إلى أن يشير على أتباعه بأن يبتغوا في أرض الله مهرباً مما هم فيه من عذاب.

بدأ محمد ﷺ يتحدث عن أصنام قريش بأنها لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً، وهم مع ذلك يبدونها دون أن يطلبوا إليها ما يثبت أُلوهيتها؛ ولو أنهم طلبوه لظلت خشباً أو حجارة لا حياة فيها ولا حركة لها، لا تستطيع لنفسها ضرّاً ولا نفعاً، ولا تستطيع إذا حطمها محطم عن نفسها دفعاً.

وبادأهُمْ محمد ﷺ بذكر آلهتهم، وكان من قبل لا يذكرها، وعابها، وكان من قبل لا يعيبها، هنالك عظم الأمر على قريش وحزّ في صدورهم، وبدؤوا يفكرون التفكير الجدّ في أمر هذا الرجل وما هو لاقٍ منهم وما هم لاقون منه. لقد كانوا إلى يومئذ يسخرون منه، ويقولون إنه ساحر، وكان حديثهم عنه هو سمرهم في دار الندوة، أما وقد حقَّر من شأن آلهتهم وسخر مما يعبدون، وتحدث بسوء عن هُبل واللات والعزى، فإن لهم معه شأن آخر.

واتجه تفكيرهم إلى عمه أبي طالب، فهو لم يدخل في دين الله، إلا أنه يعد الحامي الأول لابن أخيه، فمشى رجال من أشراف قريش، وفي مقدمتهم أبو سفيان بن حرب، فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلَّل آباءنا، فإما أن تكفَّه عنّا، وإما أن تخليَ بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلاف فسنكفيكه[1]. فردّهم أبو طالب ردّاً جميلاً.

---

(١) انظر تاريخ الطبري جـ٢، سيرة ابن هشام جـ١.

ومضى محمد ﷺ في دعوته نشطاً جاداً، وأخذ أتباعه يزدادون يوماً بعد يوم، مما أثار حفيظة قريش ثانية فذهبوا إلى أبي طالب مرة أُخرى ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة، وكان أفهر فتى في قريش وأجمله، وطلبوا إليه أن يتخذه ولداً ويسلمهم محمداً، فأبى.

ومضى محمد ﷺ في دعوته، وعادت قريش إلى أبي طالب مرة ثالثة وقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنّاً وشرخاً ومنزلة فينا، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تُنهِهِ عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا، من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعَيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين (١).

وعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم تسمح له نفسه ونسبه أن يسلم ابن أخيه إلى هؤلاء. فبعث إلى ابن أخيه محمد ﷺ فقص عليه رسالة قريش وقال له: فابق عليَّ وعلى نفسك ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق.

ولكن محمداً ﷺ كان حازماً في موقفه، حاسماً في رده على رسالة هؤلاء، لكنه مشفق على عمه لعدم إدراكه أن هذا الأمر قد أمضاه الله ولا رادّ لأمر الله، فالحديث فيه أمر قد انتهى، فالتفت محمد ﷺ إلى عمه وقد امتلأت نفسه بالإيمان، وبقوة الإرادة والعزيمة، وقال له في حسم وحزم: **«يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»** (٢).

اهتز أبو طالب لما سمع من جواب ابن أخيه، ووقف مبهوتاً من إصرار وقوة محمد الذي وضع حياته في كف رسالته ودعوته، وقام محمد ﷺ من أمام عمه وقد خنقته العبرة مما فاجأه به عمه، وإن لم يَدُرْ في خلده لحظة شك أو ريب في الطريق الذي يسلكه والدعوة التي وهب نفسه لها، ولكن أبا طالب استوقفه وقد أخذته الحمية وقال له:

---

(١) سيرة ابن هشام.

(٢) انظر سيرة ابن هشام جـ١.

اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه أبداً[1].

خرج أبو طالب فجمع بني هاشم وبني عبدالمطلب وأعلمهم بقول ابن أخيه وبموقفه، وحديثه عنه يتدفق بروعة ما شهد، وجلال ما شعر به، وطلب إليهم أن يمنعوا محمداً من قريش، فاستجابوا له جميعاً إلا أبا لهب فإنه صارحهم بالعداوة وانضم إلى خصومهم عليهم، وهم لا ريب قد منعوه متأثرين بالعصبية، وبالخصومة القديمة بين بني هاشم وبني أمية.

اعتصم محمد ﷺ بقومه من أذى قريش، وكانت خديجة هي عصامه من الهموم، فقد كانت رضوان الله عليها وزير صدق، تسري عنه كل همّه، وتقوي فيه كل عارض ضعف يمر به من أعدائه، كل ذلك كان بصدق إيمانها وعظيم حبها لمحمد ﷺ.

وقد لاقى المسلمون بعد أن جهد محمد ﷺ بدعوته، من قولهم من الاضطهاد والإساءة والتعذيب الكثير الكثير، فدعاهم عليه السلام أن يبتغوا في الأرض مهرباً مما هم فيه من عذاب، ولما سألوه: إلى أين نذهب يا رسول الله؟

عندئذٍ نصحهم أن يذهبوا إلى بلاد الحبشة المسيحية، وقال لهم: **«فإن بها ملكاً لا يُظْلَمُ عنده أَحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»**.

وخرج فريق من المسلمين عند ذلك إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم، وكان عثمان وزوجته رقية بنت محمد من أوائل المهاجرين إلى أرض الحبشة، وودع محمد ﷺ وخديجة ابنتهما الرقيقة المهاجرة مع زوجها فراراً من ظلم قومها، وظل محمد ﷺ بعد ذلك يسأل عن أخبار ابنته وزوجها ليطمئن نفسه ويطمئن خديجة الأُم الرؤوم التي لم تكن لتدخر وسعاً في خير أولادها وراحتهم.

---

(١) المصدر السابق.

وظلت زينب مع زوجها أبي العاص بن الربيع، فقد كان رغم شركه وإصلاحها رجلاً وفياً كريم النفس، أبى أن يفارق زينب حين سار إليه قومه يطلبون منه أن يفارقها نكايةً في محمدٍ، وأن يزوجوه أي فتاة يشاء من فتيات قريش فقال: لا والله، إني لا أفارق صاحبتي، وما أُحِبُ أن لي بامرأتي امرأة من قريش.

أما قريش فقد طاردت الذين خرجوا مهاجرين إلى الحبشة، وبعثوا رجلين إلى النجاشي ومعهما الهدايا النفيسة ليقنعوه بأن يرد المسلمين من مواطنهم إليهم، والحبشة ونجاشيها كانوا نصارى، فلا خوف لقريش من النجاشي وأهل الحبشة على أن يتبعوا محمداً ﷺ.

وحاول الرسولان أن يقنعا النجاشي برد المهاجرين إلى قريش فقالا: أيها الملك إنّه قد أتى إلى بلدك غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه[1].

ولكن النجاشي رفض أن يرد إليهم المسلمين حتى يسألهم ويسمع ما يقولون، وبعث في طلبهم، فلما جاؤوا سألهم: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟

فوقف جعفر بن أبي طالب وقال ردّاً على قول النجاشي وممثلاً للمسلمين المهاجرين:

أيها الملك، كنا قوم جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفته، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة

---

(١) السيرة لابن هشام. هجرة الحبشة.

الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك.

فقال النجاشي: وهل معك مما جاء به عن الله من شيء تقرؤه عليّ؟

قال جعفر: نعم، وتلا عليه سورة مريم من أولها إلى قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾[1].

تأثر البطارقة والنجاشي لما سمعوا الآيات من جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى يخرج من مشكاة واحدة.

ثم نظر إلى عمرو بن العاص وصاحبه رسولا قريش وقال لهما: انطلقا والله لا أسلمهم إليكما.

ولما كان الغد عاد عمرو بن العاص إلى النجاشي فقال له: إن المسلمين يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه، فلما دخلوا عليه قال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا، يقول هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

---

(١) سورة مريم، الآيات: ٢٩ ـ ٣٣.

فأخذ النجاشي عوداً وخط به على الأرض وقال ـ وقد بلغت به المسرة أكبر مبلغ ـ: ليس بين ديننا ودينكم أكثر من هذا الخط.

وتبين للنجاشي بعد سماع الفريقين قريش والمسلمين أن هؤلاء المسلمين يعترفون بعيسى ويقرّون النصرانية ويعبدون الله وحده، ووجد المسلمون في جوار النجاشي أمناً ودعةً حتى رجعوا إلى مكة المرة الأولى ومحمد ما يزال بها، حين بلغهم أن خصومة قريش قد هدأت، ولكنهم رأوا الحال على ما هو عليه، فعادوا في هجرة ثانية إلى الحبشة، وكانت هجرة الحبشة هجرتان.



المقاطعة

تعرضت الدعوة والنبي ﷺ إلى محنة شديدة، إذ إن قريش لما رأت أصحاب رسول الله ﷺ الذين هاجروا إلى الحبشة، قد نزلوا بلداً أصابوا فيه أمناً وقراراً، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه وحماه، وأن عمر بن الخطاب قد أسلم، وقد أعز الله به الإسلام، وكان عمر رجلاً قوياً امتنع واحتمى به أصحاب رسول الله ﷺ وبحمزة عم النبي ﷺ، وجعل الإسلام ينتشر بين القبائل.

لكل هذا أجمعت قريش واتفق رأي سادتها على قتل رسول الله ﷺ، وقالوا: قد أفسد علينا آباءنا ونساءنا، فقالوا لقومه: خذوا منا ديَةً مضاعفة، وليقتله رجل من غير قريش، ويريحنا وتريحون أنفسكم، فأبى قومه بنو هاشم من ذلك، وظاهرهم بنو عبدالمطلب بن عبد مناف.

فلما عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد منعه قومه، أجمعوا على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب، وكتبوا كتاباً تعاقدوا فيه، ألا ينكحوهم، ولا ينكحوا إليهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً، ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل، ثم

علقوا صحيفة المقاطعة في جوف الكعبة. وأكدوا على أنفسهم، وقطعوا عن بني هاشم وبني المطلب الأسواق، ولم يتركوا طعاماً ولا إداماً ولا بيعاً إلا بادروا إليه واشتروه دونهم.

وانحاز أبو طالب إلى شِعْب له في مكة، وانحاز معه بنو هاشم وبنو المطلب إلا أخاه أبا لهب، وكان أبو طالب طوال مكوثهم في الشعب يأمر النبي ﷺ أن لا ينام في فراشه خوفاً عليه، ويأمر أحد أبنائه أن ينام على فراش رسول الله ﷺ[1].

ظلت الصحيفة التي تعاقدت قريش فيها على مقاطعة محمد وحصار المسلمين نافذة لمدة ثلاث سنوات متتابعة، احتمى محمد ﷺ وأهله وأصحابه خلالها في شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة، يعانون الحرمان ألواناً، ولا يجدون في بعض الأحايين وسيلة إلى الطعام يدفعون بها جوعهم، ولم يكن يتاح لمحمد ولا للمسلمين الاختلاط بالنّاس والتحدث إليهم إلا في الأشهر الحرم، حين يفد العرب إلى مكة في مواسم الحج، وحين تضع الخصومات أوزارها، فلا قتل ولا تعذيب ولا اعتداء ولا انتقام، في هذه الأشهر كان محمد ﷺ ينزل إلى العرب يدعوهم إلى دين الله ويبشرهم بثوابه وينذرهم عقابه، وكان ما أصاب محمداً من الأذى في سبيل رسالته ودعوته العظيمة شفيعاً عند كثيرين، حتى إنهم لما سمعوا بذلك ازداد عطفهم عليه ﷺ، وهذا الحصار الذي فرضته عليه قريش وقدر النبي ﷺ، وأصحابه على احتماله صبراً في سبيل رسالته ودعوته ومبادئه، جعل كثيراً من القلوب ترنو إليه.

عانى المسلمون في الشعب من قلّة المؤن والطعام، حتى كان ﷺ يقوم من الليل إلى الصلاة يسمع بكاء الأطفال من شدة الجوع، وقد قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: كنا قوماً يصيبنا ظَلَفُ العيش بمكة مع رسول الله ﷺ وشدته، فلما أصابنا البلاء اعترفنا لذلك ومرَنّا عليه وصبرنا له، ولقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بمكة خرجت من الليل أبول، وإذا أنا

(١) انظر السيرة لابن هشام.

أسمع بقعقعة شيء تحت بولي، فإذا قطعة جلد بعير فأخذتها فغسلتها، ثم أحرقتها، فوضعتها بين حجرين ثم استفّها، وشربت عليها الماء، فقويت عليها ثلاثاً[(١)].

وقد شاركت السيدة خديجة في دفع مضار هذه المحنة عن زوجها محمد ﷺ وعن المسلمين، وانضمت إليه في شعب أبي طالب، وتحملت معه ما تحمل من الجهد والعناء والجوع، وبذلت رضي الله عنها مالها لتؤمن ما تستطيع من الطعام للمسلمين خلال سنوات المقاطعة، واستعانت بهذا الأمر بابن أخيها حكيم بن حزام رضي الله عنه، وكان حينئذ لا يزال على شركه لم يدخل الإسلام بعد[(٢)].

وبالرغم من أنه كان على شركه وعدم دخوله الإسلام كان يشتري الطعام ويرسله إلى عمته السيدة خديجة ليلاً، وفي إحدى المرات لقيه أبو جهل، وكان معه غلام يحمل قمحاً، يريد عمته خديجة بنت خويلد، وهي عند رسول الله ﷺ ومعه في الشعب، فأمسك به وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة.

فجاء أبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد، فقال: ما لك وله؟

فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم!!

فقال أبو البختري: طعام كان لعمته عنده بعثت إليه، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خلِّ سبيل الرجل.

فأبى أبو جهل حتى تشاجر ونال كل منهما من صاحبه، فأخذ أبو البختري لَحْي بعير وضربه به فشَجَّه، ووطئه وطئاً شديداً[(٣)].

---

(١) انظر حياة الصحابة للكاندهلوى ٣١٢/١.

(٢) عاش حكيم بن حزام مائة وعشرين سنة، ستين في الجاهلية وستين في الإسلام، أسلم بعد فتح مكة، كان سخياً لا يعرف الشح يهدي مائة بدنة وألف شاة ويعتق مائة عبد، وقد كرّمه النبي ﷺ يوم الفتح فأمر المنادي بأن ينادي «**من دخل دار حكيم فهو آمن**»، انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء، وحياة الصحابة جـ٢، الإصابة.

(٣) سيرة ابن هشام جـ٢.

قد وصف ابن عباس رضي الله عنه مشقة الحصار فقال: حُصرنا في الشعب ثلاث سنين، وقطعوا عنا الميرة، حتى إنَّ الرجل ليخرج بالنفقة، فما يبايع حتى يرجع، حتى هلك من هلك[1].

على أن طول الزمن وكثرة ما أصاب المسلمين من عنت قريش، وهم أهلوهم وإخوانهم وأصهارهم وأبناء عمومتهم، جعل كثيرين يشعرون بفدح ما ارتكبوا من ظلم وقسوة، فلولا أن كان من أهل مكة رجال لديهم على المسلمين عطف، كانوا يحملون إليهم الطعام في الشعب الذي احتموا به لهلكوا جوعاً، ومنهم هشام بن عمرو الذي يعد من أحسن قريش في موقف بائسٍ كهذا، وهو يعد أكثر النّاس عطفاً على المسلمين، كان هشام يأتي بالبعير وقد حمّله طعاماً فيسير به في جوف الليل، حتى إذا استقبل فم الخليج خلع خطامه ثم ضرب على جنبه فيدخل البعير الشعب عليهم.

ولما ضاق بما يحتمل محمد ﷺ وأصحابه من الأذى صدراً، مشى إلى زهير بن أمية، وكانت أُمه عاتكة بنت عبدالمطلب، فقال: «يا زهير: أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك بني عبدالمطلب حيث قد علمت، لا يبتاعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم؟! أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً؟».

وتعاهد الرجلان على نقض الصحيفة، على أن يستعينوا على ذلك بغيرهم يقنعونهم به سرّاً، واتفق معهما المطعم بن عدي أبو البختري بن هشام وزمعة ابن الأسود، وأجمع الخمسة أمرهم وتعاهدوا على القيام في أمر الصحيفة حتى ينقضوها[2].

وغدا زهير بن أمية فطاف بالبيت سبعاً، ثم نادى في النّاس: يا أهل

---

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، لمحمد بن يوسف الشامي، تحقيق مصطفى عبدالواحد.

(٢) انظر سيرة ابن هشام جـ٢، تاريخ الطبري جـ٢، حياة محمد للدكتور هيكل. وغيره بتصرف في صياغ النص.

مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم؟! والله لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

وما كاد أبو جهل يسمعه حتى صاح به: كذبت، والله لا تُشَقُّ.

فتصايح زمعة وأبو البختري والمطعم وهشام بن عمرو كلهم يكذّبون أبو جهل ويؤيدون زهيراً.

وأدرك أبو جهل أن الأمر قضي بليل، وأن القوم اتفقوا عليه، وأن مخالفتهم قد تثير شرّاً، فأوجس خيفةً وتراجع، وقام المطعم ليشق الصحيفة فوجد الأرضة قد أكلتها إلا فاتحتها ـ باسمك اللهم ـ.

وبذلك أتيح لمحمد ﷺ وأصحابه أن يعودوا من الشعب إلى مكة، وأن يبيعوا قريشاً ويبتاعوا منها، وإن بقيت علاقة الفريقين كما كانت وبقي كل منهم متحفزاً ليوم ينتصر فيه الآخر.

❀ ❀ ❀

في وداع خديجة

وكان خروج النبي ﷺ ومن معه من محنة الحصار في السنة العاشرة من البعثة قبل الهجرة إلى المدينة المنورة بثلاث سنين.

خرج محمد ﷺ وخديجة إلى بيتهما لينعما فيه ببعض الراحة بعد طول مجاهدة وطول عناءٍ، ولكن لم يتهيأ لمحمد ﷺ أن ينعم بهذه الراحة إلى جانب زوجه، فلم تلبث خديجة التي وهن منها الجسم أن مَرِضَتْ، واشتد بها المرض حتى كان محمد ﷺ وهو يسهر إلى جانبها ليرعاها ويقوم على خدمتها يتألم لألمها ولربما يقول ما معناه: «**بالكُره مني ما يجري عليك يا خديجة، وقد يجعل الله في الكُرْهِ خيراً كثيراً**».

وظل محمد ﷺ إلى جانب خديجة يسهر على راحتها، يذكرها بما وعدها الله به في الجنة من نعيم، وبما أعده لها من قصر من قصب لا

صخب فيه ولا نصب، حتى فاضت روحها الكريمة إلى ربها ومن حولها زوجها الحبيب ﷺ الذي علا قلبه الحزن، وأربع بنات بازّات تفيض عيونهن بالعبرات، وتمتلىء قلوبهن بالأسى والحسرة.

وهناك بالحجون حيث دفنت خديجة، نزل محمد ﷺ إلى قبر زوجته وبيده الشريفة دفنها، وقام بتسوية التراب على قبرها.

هكذا ماتت خديجة الزوجة الحنون الودود، التي بسطت لزوجها من روحها، وأولته حبها وعطفها، وشملته برعايتها طول سني وحيه وجهاده التي عاشتها معه.

حزن محمد ﷺ على خديجة حُزْناً أزعج المسلمين، فخافوا من الحزن على نبيهم الرؤوف الرحيم، فقد وَجَدَ بها وبفقدانها وجداً جعل المسلمين يفكرون فيما يجب عليهم أن يفعلوه للتسرية عنه، وتخفيف الحزن عليه.

وسارت إلى محمد ﷺ خولة بنت حكيم تقول: يا رسول الله، كأني أراك قد دخلتك خَلَّةٌ لفقد خديجة.

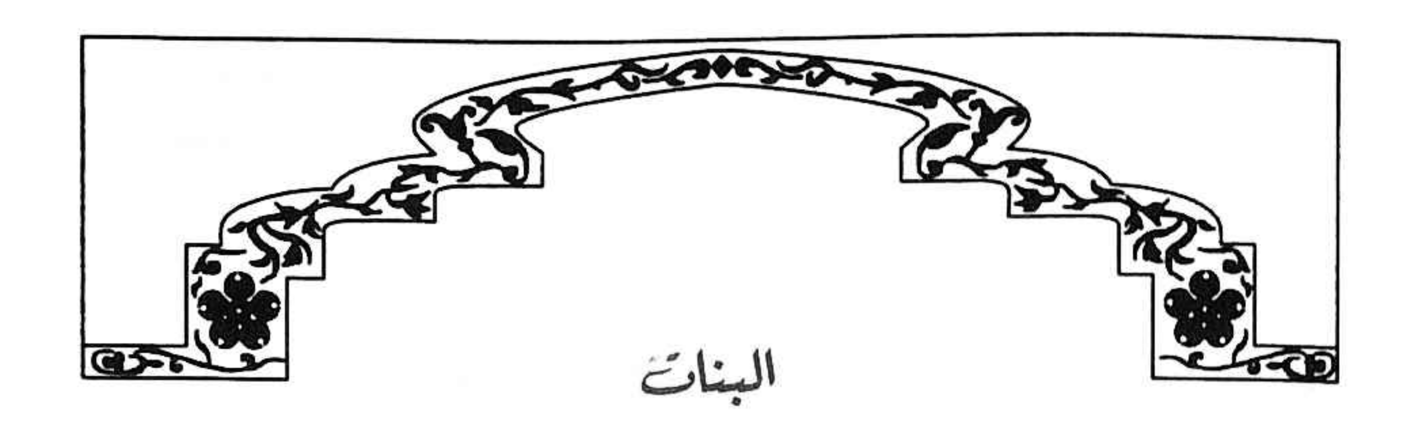
قال: «**أجل، كانت أم العيال، وربة البيت**».

قالت خولة: يا رسول الله لِمَ لا تتزوج من تعوضك عن خديجة بعد حنوها وعطفها.

قال: «**ومن تعنين يا بنت حكيم؟**».

فذكرت له سودة بنت زمعة كي يتزوجها، التي آمنت بمحمد واتبعته، مات عنها زوجها بعد أن عادت وإياه من هجرة الحبشة.





البنات

تحدثنا عن الأم وسيرتها العظيمة، ولكننا لا ننسى ما أنجبت من بنات هن رياحين البيت النبوي الكريم، وهن: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة ولنبدأ سيرتهن مع أمهن خديجة رضي الله عنها.



زينب

زينب بنت رسول الله ﷺ، هي أكبر بناته، ولدت ولرسول الله ﷺ ثلاثون سنة، وماتت سنة ثمان من الهجرة في حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاة أمها خديجة بنت خويلد[1].

بلغت زينب رضي الله عنها مبلغ النساء، فإذا بخالتها هالة بنت خويلد تقبل على دار أختها خديجة، وأفضت هالة لخديجة بأنها ترغب في خطبة زينب لابنها أبي العاص بن الربيع القرشي العبشمي.

وكان أبو العاص بن الربيع أخاً لرسول الله مصافياً له، وكان يقال لأبي العاص: الأمين، وكان رسول الله ﷺ يكثر غشيان أبي العاص في منزل أُمه هالة بنت خويلد[2].

(١) أسد الغابة جـ٧ تراجم النساء ترجمة رقم ٦٩٦٤ طبعة العلمية بيروت.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٣/٢٩٠.

سمعت خديجة أختها هالة جيداً وأخبرت رسول الله ﷺ **فأثنى على** أبي العاص، وبارك هذه الخطوبة.

وبارك رسول الله ﷺ هذا الزواج، وسعد البيت المحمدي كله، خديجة الأم، ورقية وأم كلثوم وفاطمة الأخوات، وهالة بنت خويلد الخالة البارة، وزينب العروس، وأبي العاص فتى قريش الأمين، الذي قال عنه رسول الله ﷺ: **«حدثني فصدقني، وعدني فأوفى، والله ما ذممناه صهراً»**.

وكان الزفاف المبارك، فقد زُفَّتْ زينب إلى أبي العاص بن الربيع، وكانت هدية الأم خديجة لابنتها زينب قلادة عزيزة على نفسها، فطوقت جيد زينب العروس بها فزادت في جلوتها، مما أثلج صدر أبي العاص بن الربيع، فقد نظر إلى خالته خديجة وهو ممتن لها امتناناً شديداً.

وقد ذكر ابن سعد أن أبا العاص بن الربيع تزوج بزينب قبل النبوة، قال عنها الذهبي(١): أسلمت وهاجرت قبل إسلام أبي العاص بست سنين.

ولكن كيف كانت قصة إسلام أبي العاص بن الربيع وزوجته زينب؟

عندما بلغ النبي ﷺ سن الأربعين نزل عليه الوحي، وأمره ربه بتبليغ الرسالة للناس كافة، وممن أسلمن بناته رضوان الله عنهن، فكلهن أدركن الإسلام وأسلمن، وكن من السابقات إلى الإسلام، وزينب أكبرهن سارعت إلى الإيمان والإسلام.

ولما أسلمت زينب وانتظمت في قافلة الإسلام دعت زوجها أبو العاص بن الربيع للإسلام، وحدثته عن رسالة محمد ﷺ، وأخبرته بإسلام وإيمان أمها خديجة وشهادتها بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلى العالمين.

وشأنها كشأن أي زوجة تحب أن تضع زوجها على طريق الخير لحبها له وعطفها عليه، فإن زينب كانت تدعو الله أن يشرح قلب زوجها أبو

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٢٤٦ ترجمة ٢٨.

العاص إلى الإيمان، فقد أيقنت أن هذا الطريق هو طريق السعادة والاستقامة، وفي محاولاتها هذه كانت تشعر أن في قلب زوجها رغبة شديدة للإيمان، فهو يعرف محمد ﷺ الصادق الأمين، ويعرف أنه لا يقول إلا صدقاً ـ وكأن أبو العاص يقول لها ـ: والله، ما أبوك محمد عندي بمتهم وليس أحب إليَّ من أن أسلك معك يا حبيبة في شعبٍ واحد؛ ولكن أكرهُ لك أن يقال: إن زوجك خذل قومه وكفر بآبائه إرضاء لامرأته.

لم تيأس زينب من نصح زوجها، ولم تتوقف عن نصحه، بينما كان الإسلام ينتشر هنا وهناك، وتتابع دخول الناس في الإسلام جماعات ووحداناً، وهاجر الرسول ﷺ، بعد أن شهد موقفاً رائعاً من أبي العاص يدل على صدق معدنه ونبل أخلاقه، فقد دعا الكفار أبا العاص وقالوا له: فارق صاحبتك بنت محمد، ونحن نزوجك أي امرأة شئت من قريش.

فجاء ردُّهُ حاسماً قائلاً: لا والله إذاً، لا أفارق صاحبتي وما أحب أن لي بامرأتي امرأة من قريش[1].

وفي المدينة لحق النبي ﷺ بأصحابه هناك، بينما ظلت زينب في مكة، مع زوجها أبو العاص بن الربيع، وظلت قلقة إلى أن جاءتها الأخبار أن محمداً ﷺ في منعة بين أتباعه من الأنصار والمهاجرين.

وجاء يوم بدر، وخرج أبو العاص مع من خرج إلى غزوة بدر، وفي ذلك يقول الذهبي: إن أبا العاص شهد بدراً مشركاً، فأسره عبدالله بن جبير الأنصاري.

وقال الرسول ﷺ: **«استوصوا بالأسرى خيراً»**.

وكان أبو العاص أسيراً مع جند المسلمين من الأنصار، فأكرموا مثواه، وعرفوا مكانه في بيت رسول الله ﷺ وقد تحدث أبو العاص بن الربيع عن إكرام المسلمين له فقال: كنت مع رهط من الأنصار ـ جزاهم الله خيراً ـ، كنا إذا تعشينا أو تغدينا، آثروني بالخبز، وأكلوا التمر، والخبز معهم قليل،

---

(١) تاريخ الطبري جـ٢ ص٤٢. ط دار إحياء التراث بيروت.

والتمر زادهم حتى إنَّ الرجل لتقع في يده الكسرة فيدفعها إليّ[1].

ولربما يدل هذا النص الذي نقلناه عن ابن عساكر على أن أبا العاص شغل فكره خلق أصحاب هذا الدين الحنيف، فوقر الإسلام قلبه قبل أن يفصح عنه.

أما زينب رضي الله عنها فقد بلغها الخبر الحزين، وشهدت عودة أشراف قريش مهزومين مطأطئي الرؤوس ففرحت، فكانت ما بين قلقها وحزنها على زوجها وفرحتها لانتصار محمد ﷺ على زعماء الكفر والشرك، وكان أبو العاص واحداً من سبعين أسيراً، وقد استعد أهلوهم لدفع فديتهم ولم تجد زينب ما تملكه لفداء زوجها سوى قلادة الزفاف التي أهدتها إليها أمها خديجة، فأعطتها لأخيه عمرو بن الربيع ليفتدي بها زوجها، وخرج عمرو إلى المدينة، وأمام الرسول ﷺ وقف وفي يده قلادة زينب رضي الله عنها، فطافت ذكريات خديجة في هذا المكان الطاهر، وتوجه الرسول ﷺ إلى أصحابه بالحديث وقال لهم: «**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا**».

قالوا: نعم يا رسول الله.

فأطلقوا أبا العاص بن الربيع وردّوا إلى زينب متاعها، وأخذ عليه رسول الله ﷺ العهد بأن يخلي سبيل زينب وكانت من المستضعفين من النساء، ففعل ووفى بما وعد[2].

عاد أبو العاص إلى مكة، ولقي زوجته زينب، وسعدت الأسرة بعودة الأب، ولكن أبا العاص تذكر عهده لرسول الله ﷺ، فأمر زينب أن تتجهز للعودة إلى المدينة، فخافت زينب بطش الكفار حتى إنَّ هند بنت عتبة لما سألتها قائلة: يا ابنة محمد، بلغني أنك تودين الرحيل، واللحوق بمحمد؟

فخافت زينب، ولكن هند ثبتت في نفسها الطمأنينة: أي ابنة العم، لا

---

(١) مختصر تاريخ دمشق.

(٢) سير أعلام النبلاء جـ٢ ترجمة ٢٨ ص٢٤٦.

تفعلي ذلك، ولا تكذبيني، فإن كانت لك حاجة أو متاع أو ما يرفق بك في سفرك، أو مال تبلغين به إلى أبيك، فإن عندي حاجتك، فلا تستحي مني، فإن ما بين الرجال لا يتعدّاهم إلى النساء، وإن أولى الناس بإسعادك ابنة عمك[1].

وبرغم صدق مشاعر هند إلاّ أن زينب ظلت حذرة، ولكنها واصلت استعدادها للسفر، ولما فرغت من تجهيز متاعها، جاء كنانة بن الربيع أخو أبي العاص زوجها وحملها على بعير في هودج، وأخذ سلاحه وخرج بها جهاراً نهاراً من مكة، وعلمت قريش بذلك، فخرج فرسانها يطاردون ركب زينب، ولحقوا بها عند بئر معروف يقال له: ذي طوى، وكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن المطلب، ونافع بن عمرو، فروعها هبار عندما نخس البعير برمحه، فانتفض كنانة بن الربيع وأخذ وضع القتال قائلاً: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت به سهماً، فتراجع الناس خوفاً منه وقال أبو سفيان لكنانة: أيها الرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك.

فكف كنانة، فأقبل عليه أبو سفيان وقال له: أيها الرجل، إنك لم تُصِبْ، ولم تحسن، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية جهاراً في وضح النهار، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد أبيها بالأمس القريب، فيظن الناس أنك خرجت بابنته علانية أنّ ذلك على ذل أصابنا، وأن ذلك منا وهن وضعف، ولعمري ما لنا في حبسها عن أبيها من حاجة، وما فيها من ثأر نثأره، ولكن ارجع اليوم، حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدث الناس أنا رددناها، فإذا كان الليل، سُلَّها سرّاً، وأخرجها خفية، وألحقها بأبيها، وإذ ذاك لا يكون عليك أو علينا حرج.

ففعل، ثم خرج بها ليلاً، بعد ليال، فسلمها إلى زيد وصاحبه، فقدما بها على النبي ﷺ فأقامت عنده[2].

---

(١) انظر تاريخ الطبري جـ٢.

(٢) انظر النص كاملاً في المغازي (تاريخ الإسلام للذهبي ص٦٨ و٦٩). ط دار الكتاب العربي بيروت.

وكان الرسول ﷺ قد استكتم أبو العاص على عهده له بإرسال زينب، وبعث زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار، وقال لهما: كونا ببطن ياجج، حتى تمر بكما زينب، فتصحبانها حتى تأتياني بها، وذلك بعد بدر بشهر[1].

وبذلك عادت زينب إلى عرين الإسلام، إلى المدينة المنورة في جوار الإسلام والإيمان.

ويمضي الذهبي[2] في سرد رواية إسلام أبي العاص بن الربيع زوج زينب رضي الله عنها فيقول: فلما كان قبل الفتح، خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام بماله وبمال كثير لقريش، فلما رجع لقيته سرية فأصابوا ما معه، وأعجزهم هارباً، فقدموا بما أصابوا، وأقبل أبو العاص في الليل حتى دخل على زينب، فاستجار بها فأجارته، وجاء في طلب ماله، فلما خرج النبي ﷺ إلى صلاة الفجر فكبّر وكبّر الناس معه، صرخت زينب من صُفَّة النساء وقالت: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع.

وبعث النبي ﷺ إلى السرية التي أصابوا ماله فقال: «**إن هذا الرجل منّا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً، فإن تُحسِنوا وتردوا عليه الذي له، فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحق به**».

قالوا: بل نرده، فردوه كله.

ثم ذهب به إلى مكة، فأدّى إلى كل ذي مال ماله، ثم قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد عندي منكم مال؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناه وفياً كريماً، قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أني أردت أكل أموالكم[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تاريخ الإسلام ـ المغازي ص٧٠.

(٣) المصدر السابق ص٧٠.

خرج أبو العاص قاصداً المدينة المنورة مهاجراً، وقد امتلأت نفسه بالإيمان، وتاقت إلى الشهادة أمام رسول الله ﷺ، ولما بلغ المدينة اتجه إلى رسول الله ﷺ فاستقبله المسلمون بالترحاب، وسرت زينب رضي الله عنها سُروراً عظيماً بعودة زوجها، ورد عليه النبي ﷺ زينب على النكاح الأول، ولم يحدث شيئاً[1].

واجتمع شمل أبي العاص وزوجته وأبنائه علي بن أبي العاص الذي يقال أن رسول الله أردفه وراءه يوم الفتح، وقال الذهبي: أظنه مات صبياً[2].

وانتظمت أسرة أبي العاص في دار النبي ﷺ وفي مسجده صلوات الله وسلامه عليه، وقبل الفتح، وفي السنة الثامنة من هجرة الرسول ﷺ مرضت زينب، وعانت من الوهن والمرض كثيراً، وفي المدينة توفيت وغسلتها أم عطية الأنصارية، وصلى عليها الرسول ﷺ في مسجده، ثم شيعها إلى مثواها الأخير في البقيع، ونزل قبرها وهو محزون، فلما خرج سري عنه، وقال: **«كنت ذكرت ضعفها، فسألت الله تعالى أن يخفف عنها ضيق القبر وغمه، ففعل وهو عليها»**[3].



رقية بنت رسول الله ﷺ

أمها خديجة بنت خويلد، ويرتبط زواجها بقصة إسلام عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وقد ذكر أن رسول الله ﷺ كان قد زوج ابنته رقية من عتبة بن أبي

---

(١) حديث ابن عباس انظر أبو داود في الطلاق، باب إلى مت ترد عليه امرأته إذا أسلم - وجاءت في السيرة جـ٣ ص٦٠.

(٢) سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٢٤٦ ترجمة زينب رقم ٢٨.

(٣) أسد الغابة جـ٧ ترجمة ٦٩٦٤.

لهب، وزوّج أم كلثوم من عتيبة، فلما نزلت سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾.

قال لهما أبوهما أبو لهب، وأمهما أم جميل بنت حرب بن أمية حمالة الحطب: فارقا ابنتي محمد. ففارقاهما قبل أن يدخلا بهما كرامة من الله تعالى لهما، وهواناً لابني أبي لهب[1].

أما قصة زواجها من عثمان رضي الله عنهما يتحدث عنها عثمان بن عفان رضي الله عنه فيقول: فوالله ما كان أسرع من أن مرّ رسول الله ﷺ ومعه علي بن أبي طالب يحمل ثوباً، فلما رآه أبو بكر، قام إليه، فسارّه في أذنه بشيء، فجاء رسول الله ﷺ فقعد قبل عليٍّ، فقال: «**يا عثمان، أجب الله إلى جنته، فإني رسول الله إليك وإلى خلقه**».

قال عثمان: فوالله ما تمالكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية بنت رسول الله ﷺ.

وكان يقال: أحسن زوج رآه إنسان، رقية وزوجها عثمان[2].

فرفرفت السعادة على بيت عثمان ورقية رضي الله عنهما، وأنجبا غلاماً سمياه عبدالله، كان يكنى به عثمان، فبلغ الغلام ست سنين فنقر عينه ديك، فورم وجهه ومرض ومات، وكان موته في جمادى الأولى سنة أربع، وصلى عليه رسول الله ﷺ، ونزل أبوه عثمان في حفرته[3].

---

(١) أسد الغابة جـ٧ تراجم النساء ترجمة رقية رقم **٦٩٢٩** ص١١٤، والإصابة ت١١١٨٧ والاستيعاب ت٣٣٨٩.

(٢) المصادر السابقة.

(٣) أسد الغابة جـ٧ ص١١٥ ترجمة رقية رقم **٦٩٢٩**.

هاجر عثمان ورقية مع المسلمين إلى الحبشة في هجرتهم الأولى، وكان الرسول ﷺ يشتاق إليهم، وقد حدّث النضر بن أنس عن أبيه أنس قال: خرج عثمان مهاجراً إلى الحبشة، ومعه زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ، فاحتبس خبرهم عن النبي ﷺ فكان يخرج فيسأل عن أخبارهما، فجاءته امرأة فأخبرته أنها رأتهما، فقال النبي ﷺ: **«صحبهما الله، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام»**(١).

عادت رقية من هجرة الحبشة، واستقر بها المقام مع زوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه بالمدينة. وانتظمت في المجتمع الإسلامي بالمدينة، وما هي إلا شهور عدة حتى أصيبت بمرض الحصبة ولزمت الفراش، بينما كان منادي الجهاد ينادي بالخروج إلى بدر لقتال الكفار المشركين وأمر رسول الله ﷺ صهره عثمان رضي الله عنه أن يبقى إلى جوار زوجته في مرضها.

امتثل عثمان رضي الله عنه لأمر النَّبي ﷺ، وبقي إلى جوار زوجته التي اشتد عليها المرض، ودنا منها الموت، فتوفيت، وكانت أول من لحق بأمها خديجة من بناتها، ولم يشهد رسول الله ﷺ دفنها.

وحزن عثمان حزناً شديداً لفراق زوجه رقية التي شاركته الإسلام والهجرة إلى الحبشة في سبيل دعوة أبيها وإيمان زوجها وحبها لدينها وصدق إسلامها.

وفيما هم يسوون التراب على قبرها أقبل زيد بن حارثة مبشراً بنصر بدر وسلامة المسلمين، وهزيمة المشركين، وأسر أبطالهم وصناديدهم، ووقف الرسول ﷺ على قبر ابنته في البقيع يدعو لها كما كان يدعو لموتى المسلمين.

❋ ❋ ❋

(١) المصدر السابق ص١١٥.

أم كلثوم

ولدت أم كلثوم رضي الله عنها قبل البعثة، وأسلمت مع أمها خديجة رضي الله عنها.

وقد ذكر المفسرون: أن أم كلثوم أسلمت حين أسلمت أمها، وبايعت رسول الله ﷺ مع أخواتها حين بايعه النساء، وهاجرت إلى المدينة حين هاجر رسول الله ﷺ[1].

وجاء في أسد الغابة[2]: قال الزبير: أم كلثوم أسن من رقية ومن فاطمة، وخالفه غيره، والصحيح أنها أصغر من رقية، لأن رسول الله ﷺ زوج رقية من عثمان، فلما توفيت زوّجه أم كلثوم، وما كان ليزوج الصغرى ويترك الكبرى.

وكان رسول الله ﷺ قد زوج رقية وأم كلثوم من عتبة وعتيبة ابني أبي لهب، فلما أنزل الله عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ قال أبو لهب لابنيه: رأسي من رؤوسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد.

قالت أم جميل أمهما حمالة الحطب بنت حرب بن أمية لابنيها: إن رقية وأم كلثوم قد صبئتا، فطلقاهما، ففعلا، فطلقاهما قبل الدخول بهما.

وكان عتبة سهلاً في طلاق رقية دون أن يتعرض بأذى لأسرة النبي ﷺ، أما عتيبة زوج أم كلثوم، فإنه أقسم بأنه سيؤذي محمداً في ربه، وفي شخصه، فبعد أن طلق أم كلثوم جاء إلى النبي ﷺ وقال: كفرت بدينك، وفارقت ابنتك، لا تحبني ولا أحبك. ثم سطا على رسول الله ﷺ فشق قميصه، فقال النبي ﷺ: **«اللهم ابعث عليه كلباً من كلابك»**.

وكانت دعوة محمد ﷺ مستجابة، فقد افترسه أسد وهو في تجارة في الشام وفي ذلك قال أبو لهب: قد عرفت أنه لا ينفلت من دعوة محمد[3].

---

(١) انظر القرطبي جـ١٤ ص٢٤٢.

(٢) ترجمة أم كلثوم رقم ٧٥٨١ جـ٧ تراجم النساء ص٣٧٤.

(٣) انظر السيرة الحلبية جـ١.

وقد حضرت أم كلثوم حصار قريش لبني هاشم في شعب أبي طالب.

وحضرت وفاة أمها خديجة بعد عشر سنين من بعثة النبي ﷺ، وبعد وفاة أختها رقية حزن عثمان حزناً شديداً وبكى، فقال رسول الله ﷺ: **«ما يبكيك؟»**.

قال عثمان رضي الله عنه: أبكي انقطاع صهري منك.

فقال عليه السلام: **«يا عثمان، هذا جبريل عليه السلام يأمرني عن الله عز وجل أن أزوجك أختها أم كلثوم على مثل صداقها وعلى مثل عشرتها»**(١) فزوجه إياها.

ويوم زواجها قال الرسول ﷺ لأم أيمن حاضنته: هيئي ابنتي أم كلثوم وزفيها إلى عثمان، وخففي بين يديها بالدف، ففعلت، فجاءها النبي ﷺ بعد الثالثة فدخل عليها فقال: **«يا بنية، كيف وجدت بعلك؟»**.

قالت: خير بعل.

فقال عليه السلام: **«أما إنه أشبه الناس بجدك إبراهيم، وأبيك محمد صلى الله عليهما»**(٢).

وقد سمي عثمان بذي النورين لأنه تزوج ابنتي رسول الله ﷺ رقية، فلما ماتت تزوج أم كلثوم.

كانت حياة أم كلثوم في بيت زوجها عثمان تملؤها السعادة والهناء على مر ست سنوات هي عمر زواجهما المبارك، وفي شهر شعبان سنة تسع من الهجرة، أحست أم كلثوم بالمرض والوهن، وظلت تعالج المرض، ولكنه اشتد عليها فصعدت روحها الطاهرة إلى بارئها.

فغسلتها أسماء بنت عميس وجدتها صفية بنت عبدالمطلب عمة

---

(١) أسد الغابة ص٣٧٥ ترجمة أم كلثوم رقم ٧٥٨١ جـ٧ طبعة العلمية.

(٢) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر جـ١ دار الفكر دمشق جـ١١٧/١٦ وما بعدها.

النبي ﷺ وأم عطية الأنصارية، وصلى عليها رسول الله ﷺ ودفنت في البقيع.

ويروي أنس بن مالك أن النبي ﷺ جلس على قبرها وعيناه دامعتان، فقال: **«هل منكم رجل لم يقارف الليلة؟»**.

قال أبو طلحة: أنا.

قال: **«انزل»**. فنزل في قبرها ونزل معه العباس، وعلي بن أبي طالب والفضل بن العباس وغيرهم، ولما وضعت في القبر تلا رسول الله ﷺ قول الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[1].

❋ ❋ ❋

فاطمة الزهراء

فاطمة بنت رسول الله ﷺ، قال عنها الذهبي[2]: سيدة نساء العالمين في زمانها، البضعة النبوية، والجهة المصطفوية، بنت سيد الخلق رسول الله أبي القاسم محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشية الهاشمية، وأم الحسنين، مولدها قبل المبعث بقليل، وصحب مولدها حادث عظيم هزَّ أرجاء مكة من أقصاها إلى أدناها، وكاد يشعل الحرب بين قبائلها وبطونها، وهذا الحادث يتعلق بتجديد بناء الكعبة المشرفة، فقد صح عزم قريش على تجديد بنائها لما أصابها من أمطار وسيول كادت أن تقوض جدرانها.

وتم البناء، وما إن ارتفع البناء ووصلوا إلى موضع الحجر الأسود حتى اختلفوا فيمن ينال شرف حمله، وكادت الفتنة والحرب أن تشتعل.

---

(١) سورة طه، الآية: ٥٥. انظر الكامل في التاريخ، ومختصر تاريخ دمشق، وأسد الغابة ترجمة ٧٥٨١.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي جـ٢ ص١١٨ ترجمة فاطمة رقم ١٨.

وبعد تفكير تقدم أمية بن المغيرة المخزومي، أحد عقلائهم فقال لهم: اجعلوا بينكم حكماً يقضي بينكم فيما تختلفون فيه، وهو أول من يدخل باب هذا المسجد الحرام.

فوافق الجميع وظهر من باب الكعبة النبي ﷺ، فلما رأوه فرحوا وقالوا: هذا الأمين محمد بن عبدالله.. رضينا بحكمه.

واستمع الرسول إلى قصة خلافهم، فطلب ثوباً، ثم بسطه ووضع الحجر الأسود فيه، ثم قال: ليأخذ كل قبيلة بناحيةٍ من الثوب ثم ارفعوه جميعاً، فحملوه حتى وصلوا إلى مكانه، فحمله الرسول ﷺ بيديه الشريفتين ووضعه في مكانه.

وفرحت قريش جميعها، واستبشر أهل مكة، وأنشد الشعراء شعراً بعد هذا الحادث العظيم، ومنهم أبو وهب المخزومي فقال:

تشاجرت الأحياء في فصلِ خطّهِ ... جرت بينهم بالنحس من بعد أَسعَدِ
تلاقوا بها بالبغض بعد مودة ... وأوقد ناراً بينهم شرَّ موقِدِ
فلما رأينا الأمر قد جَدَّ جدّهُ ... ولم يبق شيء غير سل المهند
رضينا وقلنا العدل أول طالع ... يجيءُ من البطحاء على غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمد ... فقلنا رضينا بالأمين محمد[1]

عاد النبي ﷺ إلى داره بعد هذا الحادث، وعند دخوله داره بُشِّرَ بمولودته فاطمة رضي الله عنها.

وتمتعت السيدة فاطمة بطفولتها، فقد كانت حبُّ البيت كله، الأب الكريم والأم الحنون وأخواتها الثلاث زينب ورقية وأم كلثوم.

ونشأت رضوان الله عليها على العفة، وعزة النفس، وحب الخير وحسن الخلق، لأنها كانت تستقي كل هذا من أبيها نبي هذه الأُمة، وأمها سيدة نساء العالمين خديجة بنت خويلد.

---

(١) السيرة لابن هشام.

كانت في الخامسة من عمرها حين نزل الوحي على رسول الله ﷺ.

وشهدت أمها وهي تؤازر النبي ﷺ وتقول له: والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرَّحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

وشهدت حصار المسلمين في شعب أبي طالب، وما كادت تخرج من محنة الحصار الشديد حتى فوجئت بمرض أمها ولزومها الفراش فانخلع قلبها، وروعت بوفاة الأم الحبيبة خديجة رضوان الله عليها، وقد عاشت فاطمة فترة مكة وهي الثلاثة عشرة عاماً التي سبقت الهجرة تواجه المحن والمصاعب.

وقد شهدت ميلاد الإسلام، وإيذاء المشركين، وهجرة رقية إلى الحبشة مع زوجها عثمان، وحصار شعب أبي طالب ووفاة أمها خديجة.

وشهدت أباها رسول الله ﷺ، وقد وضع عليه المشركون ما جعلها تبكي، وتنفض التراب والأذى عن النبي ﷺ بينما يقول لها: «**يا بنية لا تبكِ، فإن الله مانع أباك**».

ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، كانت فاطمة وأم كلثوم فقط هما اللتان يمكثان في بيت النبي ﷺ، فقد هاجرت رقية مع عثمان إلى الحبشة وبقيت زينب في دار زوجها أبي العاص بن الربيع في مكة، وهاجر الأب الحنون، وماتت الأم خديجة ودفنت بالحجون. وشعرت فاطمة بمسؤولية كبيرة تجاه أبيها رسول الله ﷺ بعد وفاة أمها.

وما إن وصل النبي ﷺ إلى المدينة حتى أرسل رسولاً من رجاله فصحب نساء البيت النبوي إلى المدينة، وقد أوردت كتب السيرة: أن فاطمة الزهراء لقيت في طريق الهجرة بعض الأذى، فقد طارد بعض مشركي قريش الركب المهاجر، ولحق الحويرث بن نقيذ القرشي الركب، ونخس بعير فاطمة وأم كلثوم فرمى بهما إلى الأرض - ولكنهما تابعا رحلة الهجرة - وبقي الحويرث بن نقيذ منبوذاً من الإسلام والمسلمين إلى يوم الفتح، فقد

كان أحد ستة نفر أمر الرسول بقتلهم، فقتله عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه[1].

❊ ❊ ❊

الزواج المبارك

جاء علي رضي الله عنه يطلب يد فاطمة على استحياء وقد علم أن رسول الله ﷺ رد أبا بكر وعمر وقال لكل واحد منهما: «**أنتظر بها القضاء**» فوافق النبي ﷺ بعد أن استشار فاطمة في علي، وعلي ربيب البيت المحمدي، ولما بدأ النبي ﷺ إجراءات هذا الزواج المبارك سأل علياً قائلاً: «**هل عندك من شيء؟**».

قال علي: كلا يا رسول الله.

فقال عليه السلام: «**وأين درعك الحطمية؟**».

فقال علي: عندي.

قال ﷺ: «**فأعطها إياها**».

دفع علي بالدرع، فبيعت بالسوق بأربعمائة درهم، فأمره ﷺ أن يجعل ثلثها في الطيب، وثلثها في المتاع.

ثم قال النبي ﷺ لأنس بن مالك رضي الله عنه انطلق وادعُ لي أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير. فجاؤوا جميعاً فلما جلسوا قال النبي ﷺ: «**يا علي اخطب لنفسك**».

فقال علي: الحمد لله شكراً لأنعمه وأياديه، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تبلغه وترضيه، وهذا محمدٌ رسول الله زوجني ابنته فاطمة على صداق مبلغه أربعمائة درهم، فاسمعوا ما يقول واشهدوا.

---

(1) أنساب الأشراف ١/٤٥٩.

وقف الرسول ﷺ خطيباً وقال: «**الحمد لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المطاع لسلطانه، المهروب إليه من عذابه، النافذ أمره في أرضه وسمائِه، الذي خلق الخلق بقدرته، وميزهم بأحكامه، وأعزهم بدينه، وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ**.

إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسباً لاحقاً، وأمراً مفترضاً، وحكماً عادلاً، وخيراً جامعاً، أوشج بها الأرحام، وألزمها الأنام، فقال الله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾[(١)].

وأَمْرُ الله يجري إلى قضائه، وقضاؤه يجري إلى قدره، ولكل أجل كتاب، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من علي، وأشهدكم أني زوجت فاطمة من عليّ على أربعمائة مثقال فضة، إن رضي عليّ بذلك على السنة القائمة، والفريضة الواجبة، فجمع الله شملهما، وبارك لهما، وأطاب نسلهما وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة، ومعادن الحكمة، وأمنَ الأُمة، أقول هذا وأستغفر الله لي ولكم».

فقال علي مبتهجاً مسروراً: رضيت يا رسول الله، وخرّ ساجداً شكراً لله عز وجل، فلما رفع رأسه قال رسول الله ﷺ: «**بارك الله لكما وعليكما، وأسعد جدّكما، وأخرج منكما الكثير الطيب**».

ثم أمر الرسول ﷺ لأصحابه بالتمر، فأطعموا ودعوا للزوجين بكل خير[(٢)].

ودخل على فاطمته الصغيرة الأثيرة إلى نفسه فوجدها تبكي، فقال: «**ما لك تبكين يا فاطمة، فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علماً، وأفضلهم حلماً، وأوّلهم سِلْماً**»[(٣)].

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٤.

(٢) أسد الغابة جـ٧ تراجم النساء ترجمة فاطمة رقم ٧١٨٣، والإصابة ت١١٥٨٧.

(٣) أسد الغابة ص٢١٦ جـ٧ ترجمة فاطمة.

جهزت فاطمة جهازاً متواضعاً قالت عنه كتب السيرة أنه لم يكن غير سرير، ووسادة من أدم حشوها ليف، وإناء يغسِل فيه، وسقاء ومنخل ومنشفة، وقدح، ورحى للطحين، وجرتان.

وبنى علي بفاطمة وزفت إليه وقال رسول الله ﷺ: «**يا علي لا بد للعروس من وليمة**».

فقال سعد بن معاذ رضوان الله عليه: عندي كبش، وجمع له جماعة من الأنصار أصوعاً من ذرة، وأولم رسول الله ﷺ وقال لعلي: «**لا تحدث شيئاً حتى تلقاني**».

فدعا رسول الله ﷺ بماءٍ فتوضأ منه ثم أفرغه على عليّ وقال: «**اللهم بارك فيهما، وبارك عليهما وبارك لهما في نسلهما**»[(١)].

ثم قال رسول الله ﷺ بعد أن نضح من الماء على رأس فاطمة وصدرها: «**اللهم إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم**».

ونادى عَلَى عليّ وقال له: «**ادخل بأهلك باسم الله والبركة**».

وانتظمت حياة فاطمة في بيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه، الذي كان بعيداً عن دور النبي ﷺ وفكّر النبي ﷺ أن يجعل بيت فاطمة إلى جواره، وكان يجاوره حارثة بن النعمان الأنصاري، فكلمه رسول الله ﷺ أن يترك له منزله لفاطمة.

فجاء إلى رسول الله ﷺ يقول: هذه منازلي، وهي أقرب بيوت بني النجار بك، وإنما أنا ومالي لله ولرسوله، والله يا رسول الله للذي تأخذ مني أحب إلي من الذي تدع.

فقال رسول الله ﷺ: «**صدقت وبارك الله عليك**»، ثم حوّل رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء، إلى بيت حارثة لتكون ملاصقة لحجراته الشريفة[(٢)].

---

(١) أسد الغابة جـ٧ النساء ترجمة ٧١٨٣ فاطمة ص٢١٦.

(٢) الطبقات لابن سعد جـ٨ سيرة فاطمة.

وعاشت فاطمة في رحاب الحضرة النبوية الشريفة يطوف عليها أبوها غداة وعشية، حتى أنجبا ابنيهما الحسن والحسين رضوان الله عليهما.

كان النبي ﷺ يفيض حناناً على فاطمة وأبنائها وزوجها، وكان يدعو لهم، وكان يدخل عليهم، وعندما يخرج يكون البشر على وجهه الكريم فلما سئل في ذلك قال: «**وما يمنعني وقد أصلحت بين أحب اثنين لي**».

وذات يوم علم النبي ﷺ أن علياً يريد أن يتزوج على فاطمة، فبلغ ذلك الخبر النبي ﷺ - قيل - عن طريق فاطمة لما علمت أن علياً سيخطب ابنة أبي جهل بن هشام المخزومية واسمها جويرية فقالت لأبيها:

- يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح بنت أبي جهل.

فخرج إلى الناس وصعد المنبر وقال: «**إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا علي بن أبي طالب، فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما ابنتي بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما أذاها**»(١).

وأنجبت فاطمة من علي رضي الله عنهما غير الحسن والحسين فتاة جميلة أسمتها زينب، وهي التي أطلق عليها فيما بعد «عقيلة بني هاشم» والعقيلة هي الشريفة في قومها، ثم رزقت فاطمة من علي بفتاة أخرى وأسمتها أم كلثوم تيمناً باسم أختها أم كلثوم رضوان الله عليها، كما سمت زينب من قبل.

وتزوج عبدالله بن جعفر بن أبي طالب من زينب بنت علي رضي الله عنها، وتزوج عمر بن الخطاب من أم كلثوم بنت علي رضي الله عنها فأنجبت منه زيداً ورقية.

---

(١) أخرجه أحمد ٣٢٨/٤، ورواه مسلم في فضائل الصحابة **٢٤٤٩** باب مناقب فاطمة رضي الله عنها.

ولما نزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1] كان النبي ﷺ يمر ببيت فاطمة إذا خرج لصلاة الفجر[2] ويقول: «**الصلاة يا أهل بيت محمد** ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أقبلت فاطمة تمشي، كأنّ مشيتها مشية رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام: «**مرحباً بابنتي**»، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسرّ إليها حديثاً فبكت، ثم أسر إليها حديثاً فضحكت، فقالت عائشة: ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن، فسألتها عما قال، فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ، فلما قبض سألتها، فأخبرتني أنه أسر إليها فقال: «**إن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة مرة وإنه عارضني العام مرتين، وما أراه إلا وقد حضر أجلي، وإنك أول أهلي لحوقاً بي، ونعم السلف أنا لك**». فبكيت، فقال: «**ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين**»[3].

مات النبي ﷺ، فحزنت فاطمة حزناً شديداً وبكت على فراق والدها، وكان الرسول ﷺ قبل موته قد بشرها بأنها أول أهله لحوقاً به، وبعد مضي ستة أشهر على وفاة النبي ﷺ مرضت فاطمة الزهراء وانتقلت إلى جوار ربها، وصعدت روحها الطاهرة إلى بارئها حيث التقت بروح أبيها وأمها وأخواتها في عليين، وما أدراك ما عليون، وصلى عليها زوجها علي بن أبي طالب والعباس رضي الله عنهما، ودفنت في البقيع في ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدى عشرة للهجرة وهي ابنة تسع وعشرين سنة، رحم الله فاطمة، ورحم الله خديجة سيدتا نساء العالمين.



---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٢) أخرجه الترمذي في السنن ٣٢٨/٥ كتاب تفسير القرآن حديث رقم ٣٢٠٦.
(٣) أخرجه البخاري في الصحيح ٢٤٧/٤ ـ ٢٤٨، كتاب المناقب وأخرجه الترمذي في السنن ٦٥٨/٥، كتاب فضل فاطمة بنت محمد حديث رقم ٣٨٧٣.

مرت السنون ذوات العدد، بعد وفاة خديجة وهاجر محمد ﷺ إلى المدينة، وتزوج بالكثيرات بعد خديجة، منهن الصغيرة، ومنهن الجميلة، ومنهن ذات الحسب والنسب والجاه، ولكنه لم ينسَ خديجة، خديجة التي وسع قلبها الطاهر أن يغدق عليه من الحب والعطف والحنان ما قام له مقام حب الأم والزوجة والأخت وعطفهن وحنانهن، خديجة التي وقفت بجانبه تشد أزره وتشجعه وتهون عليه كل ما يلاقي من قومه في سبيل رسالته العظيمة من اضطهاد وأذى.

وقد أجمل المؤرخون سيرتها في كلمات تجمل فضائلها ونسبها وحسبها وفضلها فيقول الذهبي[1]: مناقبها جمة، وهي ممن كمل من النساء، كانت عاقلة جليلة دينة مصونة كريمة، من أهل الجنة، وكان ﷺ يثني عليها، ويفضلها على سائر أمهات المؤمنين ويبالغ في تعظيمها.

ولما أتت إليه بالغار معها إناءٌ فيه إدام ـ أو طعام، أو شراب ـ قال جبريل: فإذا أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب[2].

ورغم أن السيدة خديجة رضي الله عنها قد رحلت فإن رسول الله ﷺ لم ينسَ زوجته الأولى خديجة حتى إن السيدة عائشة رضي الله عنها كانت تقول وهي تعترف بغيرتها من خديجة: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة

---

(١) رواه البخاري في مناقب الأنصار وفي التوحيد، ورواه مسلم برقم ٢٤٣٢، ٢٤٣٣، والنسائي في فضائل الصحابة.

إلا خديجة، فيقول: «**إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد**»[١].

وذات يوم استأذنت هالة بنت خويلد ـ أخت خديجة ـ على رسول الله ﷺ فتذكر استئذان خديجة فارتاع لذلك، فقال: اللهم هالة، فغِرت، فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيراً منها.

فأجابها النبي ﷺ على الفور قائلاً: «**والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء**»[٢].

تحدث الرسول ﷺ عن فضائل زوجته خديجة فقرن بينها وبين السيدة مريم بنت عمران في الفضل والخير، فجاء في الحديث الشريف عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد**»[٣].

وقد تحدث العلماء أن الرسول ﷺ أراد أنهما خير من تحت السماء وفوق الأرض من النساء، والضمير الأول في «نسائها» يعود على الأُمة التي عاشت فيها مريم، فكأنه قال خير نسائها أي نساء زمانها، وكذلك الثاني يعود على الأمة التي عاشت فيها خديجة.

وقد تحدث النووي فقال: في هذه الأحاديث دلالة لحسن العهد، وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والمعاشر حيّاً أو ميّتاً، وإكرام معارف ذلك الصاحب[٤].

وقد كان رسول الله ﷺ يرعى حسن العهد، ويحفظ الود، ودليل

---

(١) صحيح البخاري.
(٢) فتح الباري ١٣٧/٧.
(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم.
(٤) فتح الباري ١٣٧/٧.

ذلك أنه بقي يذكر زوجته خديجة بعد وفاتها طوال حياته، وظل عليه السلام يحفظ ودها ويرعى حرمة عشرتها، ويكرم صدائقها وأقاربها.

وفي الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة يقول: «**أرسلوا إلى أصدقاء خديجة**» قالت: فأغضبته يوماً، فقلت: خديجة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إني قد رزقت حبها**»[(١)].

ولذلك كانت عائشة تقول: ما غرت من امرأة ما غرت من خديجة من كثرة ذكر النبي ﷺ لها[(٢)].

ولعل ما يلفت النظر أن النبي ﷺ لم يتزوج امرأة قبلها ورزقه الله منها الولد، ولم يتزوج عليها أبداً، ولا تسرى إلى أن ماتت، فحزن لفراقها، ولذلك فقد خصها رب العزة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب[(٣)].

ولعل أكثر الرواة عن وفاء الرسول ﷺ للسيدة خديجة رضي الله عنها هي السيدة عائشة أم المؤمنين لغيرتها من خديجة التي اعترفت بها لكثرة ذكر النبي ﷺ لها، ومما روت عائشة مما يدل على تكريم الرسول ﷺ لزوجته خديجة رضي الله عنها. قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة لم يكد يسأم من ثناءٍ عليها واستغفارٍ لها، فذكرها يوماً، فحملتني الغيرة، فقلت: لقد عوضك الله من كبيرة السن، فرأيته غَضِبَ غضباً، أسقطت في خلدي، وقلت في نفسي: اللهم إن أذهبت غضب رسولك عني لم أعد أذكرها بسوء.

فلما رأى النبي ﷺ ما لقيتُ قال: «**كيف قلت؟ والله لقد آمنت بي إذ**

---

(١) انظر صحيح مسلم.

(٢) أخرجه الشيخان البخاري، ومسلم برقم **٢٤٣٥** من فضائل الصحابة، الترمذي **٣٨٧٥** في المناقب.

(٣) سير أعلام النبلاء جـ٢ ترجمة خديجة ص١١٠ ترجمة رقم ١٦.

كذّبني النّاس، وآوتني إذا رفضني الناس، ورزقت منها الولد وحرمتموه مني».

قالت: فغدا وراح عليَّ بها شهراً[(١)].

وتعدد عائشة رضي الله عنها المواقف والمشاهد التي تدل على حب الرسول ﷺ لزوجه خديجة رضي الله عنها، فتقول: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ: «**من أنتِ؟**».

قالت: أنا جثامة المزينة.

فقال: «**بل حسانة المزينة، كيف أنتم، كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟**».

قالت: بخير، بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

فلما خرجت، قلت: يا رسول الله، تُقْبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ قال: «**إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإنَّ حسن العهد من الإيمان**»[(٢)].

وينضم أنس بن مالك خادم الرسول ﷺ وصاحبه الوفي إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في الحديث عن وفاء الرسول ﷺ لزوجه خديجة سيدة نساء العالمين فيقول أنس: كان رسول الله ﷺ إذا أُتي بشيء يقول: «**اذهبوا إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة**»[(٣)].

ومرت السنون ذوات العدد، ومحمد ﷺ لا ينثني عن ذكر خديجة، وقد تحدث اللفظ النبوي عن حبه لخديجة فنجده ينطق بوفاء نادر لخديجة تحدث فقال:

- «**إني رزقت حبها**».

---

(١) ترجمة خديجة في سير أعلام النبلاء جـ٢ ص١١٢ رقم ١٦.

(٢) فتح الباري ١٠/٣٦٥.

(٣) الصالحي في كتابه أزواج النبي ص٦٢ طبعة دار ابن كثير دمشق.

- **«خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة»**.

- **«اذهبوا إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة»**.

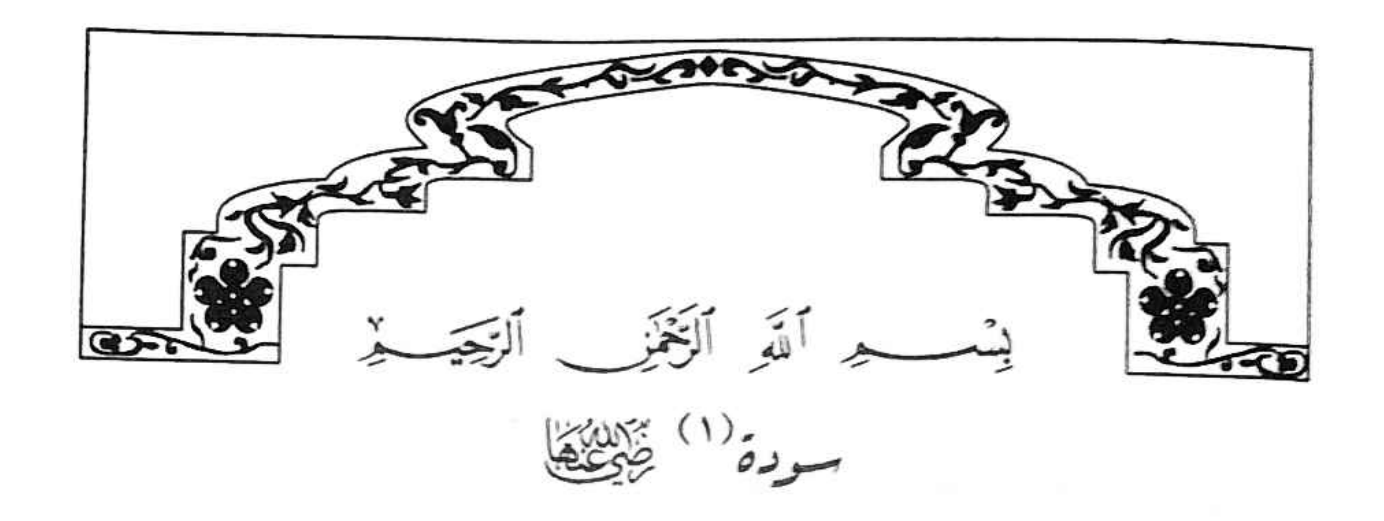
بهذا الوفاء ذكر المصطفى ﷺ عهد خديجة طوال حياته، فكان يقول: **«إني لأحب حبيبها»**.

سلام على خديجة في بيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

سلام على خديجة خير نساء العالمين وسيدة نساء العالمين.

تمت





سودة(1) رضي الله عنها

قالت سودة: يا ابن العم؛ لقد رأيت الليلة في منامي كأن رسول الله قَدْ وَطِىءِ عنقي، فما تفسير ذلك.

فقال السكران بن عمرو زوج سودة بنت زمعة: إن صدقت رؤياك يا سودة، فسوف أموت أنا ويتزوجك رسول الله. [انظر سير أعلام النبلاء للذهبي].



١ ـ الدهشة في تأويل الرؤيا

دهشت سودة من تأويل زوجها السكران بن عمرو لرؤياها، وأنكرت نفسها هذا التفسير، واستبعدته من الذاكرة تماماً، ولم تعلق على قول زوجها بشيءٍ، ومن ثَمَّة لم تُلقِ بالاً بعد ذلك إلى ما رأت في منامها، إذ جَالَ بخاطرها أن ذلك شيءٌ بعيدٌ، أو هو شيءٌ مستحيل، فأنى لسودة بنت زمعة أن تقرن نفسها برسول الله ﷺ وهي المهاجرة مع زوجها بالحبشة فراراً من اضطهاد المشركين للمسلمين بمكة أن تعودَ إليها لتتزوج من رسول الله ﷺ

---

(١) ترجمة سودة في سير أعلام النبلاء ج٢، وطبقات ابن سعد ج٨، والسيرة لابن هشام.

زوج خديجة سيِّدة نساء قريش كما فُسِّرت الرؤيا من زوجها.

وهل يعقل أن يتزوج محمد ﷺ وخديجة على قيد الحياة أم أولاده وبناته؟؟

كانت سودة إذ ذاك بالحبشة مهاجرةً مع زوجها السكران بن عمرو، وكانا ضمن جماعة كبيرة من المسلمين، أشار عليهم الرسول ﷺ أن يبتغوا في أرض الله مَهْرَباً، عسى أن يكون لهم في ذلك فرجٌ مما هم فيه من إيذاء المشركين لهم، فلما سألوه: إلى أين نذهب يا رسول الله؟

نصح لهم محمد ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، لأن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدقٍ.

عندئذ خرج قوم من المسلمين مهاجرين إلى أرض الحبشة، من بينهم:

- سودة بنت زمعة وزوجها السكران بن عمرو.
- وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان وزوجها عبيدالله بن جحش.
- وأم سلمة هند بنت أمية وزوجها عبدالله بن أسد (أبو سلمة).
- وأسماء بنت عميس وزوجها جعفر بن أبي طالب.. وغيرهم.

هاجر هؤلاء مُسْتَخفين من أَعدائهم المشركين، مخلفين من ورائهم ديارهم وقومهم وعشيرتهم وأموالهم، وجاوروا نجاشي الحبشة المسيحي، فلقوا في جواره خير جوارٍ.

أغاظت هذه الهجرة قريش، وتمّت في قلبها الحقد على هؤلاء، فلم ترضَ عنها خوفاً من أن يجد المسلمون في الخارج من يؤازرهم، ويمد يد المساعدة إليهم في الوقت الذي تريد هي أن تفتنهم فيه عن دينهم وتردهم إلى دينها دين الشرك بالله.

بعثت قريش من أجل ذلك رسلاً إلى نجاشي الحبشة، تطلب منه أن يرد عليها المسلمين اللاجئين إلى جوارِهِ، ولكن نجاشي الحبشة أبى أن يُسَلِّمَ المسلمين إلى أعدائهم من قريش، ورد الرسل شرَّ ردٍ.

وبقي المسلمون في الحبشة في خير دار عند خير جار، ورغم طول الشُّقّة بينهم وبين ديارهم التي نشؤوا فيها، وبين أهليهم الذين رُبُّوا بينهم، كانوا بدينهم الذي هداهم الله إليه، وعقيدتهم التي اعتنقوها وارتاحوا إليها.

كانوا في حالة معنوية رائعة، ونفسية طيبة، وكان إخوانهم المسلمون المقيمون في مكة ينظرون إليهم نظرة إكبار وإجلال وإعجاب لما تكبَّدوه في سفرهم من متاعب، وقاسُوه من مشقة واغتراب في بلاد بعيدة.

وكان لهم في نفس النبي ﷺ من التقدير والمحبّة ما كان يَوَدُّ لو استطاع أن يكرمهم معه كُلَّ إكرامٍ.

ومرّت الأيام على مهاجري الحبشة وهم في ملجئهم الأمين هذا، حتى سارت إليهم الأخبار تحمل نبأ دخول أكثر أبناء قريش في الإسلام، واتباعهم دين الحق الذي يدعو محمد ﷺ إليه، حينئذ تشاور المهاجرون فيما يقررون ويتَّبعون:

أيعودون إلى بلادهم وديارهم؟؟ أم يبقون حيث هم حتى ينجلي الموقف، وتتحدّد الأوضاع؟؟

ورأى نفر من المهاجرين أنه ليس هناك ما يدعوهم إلى البقاء في الحبشة ما دامت قريش قد دانت بدينهم، واعتنقت الإسلام، وبذلك بَعُدَ عنهم اضطهادُها، ورُفِعَ عنهم أذاها، فقرروا أن يعودوا إلى قومهم ليقيموا بين عشيرتهم، وكان في هذا النفر السكران بن عمرو وزوجته سودة بنت زمعة (١).

❀ ❀ ❀

٢ ـ عودة إلى مكة

شد السكران بن عمرو وزوجته سودة الرحال من الحبشة إلى جزيرة العرب حيث مكة البلد الحرام، وفيما هم بطريقهم إلى مكة قابلتهم الأنباء

---

(١) الهجرة إلى الحبشة انظر سيرة ابن هشام جـ١.

تُعَرِّفهم أنّه لم يدخل في الإسلام من قريش غير نفر قليل خافت معه قريش استفحال الإسلام، فضاعفت إيذاءَها للمسلمين، وعملت على الحدُ من نشر الدعوة - دعوة محمد ﷺ - بأن كتبت صحيفة علقتها في جوف الكعبة آلت فيها على نفسها أن لا تتعامل مع بني هاشم الذين انضموا إلى محمدٍ، وأن لا يزوجوهم ولا يتزوجون منهم، وضربت عليهم حصاراً اقتصادياً، وحاصرتهم في شِعْبِ أبي طالب وذلك حتى تميت محمداً ﷺ ومن يناصرُهُ جوعاً.

وتشاور الوافدون من الحبشة فيما يفعلون..! أيعودُون من حيث أتوا؛ أم يدخلون مكة وفيها هذا الحصار على الرسول وآله، وبها هذا التضييق على المسلمين.

وقرّر بعضهم أن يدخل مكة، ويلاقي ما يلاقي الرسول ﷺ، ويعاني ما يعاني المسلمون رضوان الله عليهم.

وأمّا بعضهم الآخر فقد قرروا أن يكروا راجعين إلى الحبشة حيث مأمنهم، وكان ممن قرر الدخول إلى مكة السكران بن عمرو وزوجه سودة بنت زمعة، وهكذا دخل هؤلاء النفر العائدين من الحبشة إلى مكة، ليلاقوا ما يلاقي المسلمون بها من أذى وتعذيب، وكان ممن دخل مكة مع سودة وزوجها السكران بن عمرو: أم سلمة وزوجها أبي سلمة الذي دخل في جوار خاله أبي طالب، فحماه وآواه كما آوى ابن أخيه محمد ﷺ.



٣ - وفاة السكران

مضت الأيام، وقريش تحارب الإسلام والمسلمين، فيما كان المسلمون متمسكين بدينهم، ومر عام وعام ومرض السكران بن عمرو، وفيما كانت زوجته سودة تمرضه وتقضي له حاجاته، قالت: يا ابن العم، لقد رأيت الليلة في منامي كأن القمر قد انقضَّ عليّ من السماء وأنا

مضطجعةٌ، وسكتت سودة لحظةً ثم واصلت حديثها فقالت: فما تفسير ذلك يا ترى..؟!

وصمت السكران برهة يفكر في تأويل رؤيا زوجته، ويتأمل في تفسير معناها، وقد مرّت بخاطِرِهِ الرؤيا الّتي قصتها عليه زوجته سودة منذ أمد بعيدٍ، ثم قال: يا سودة؛ لا ألبث حتى أموت ويتزوجك رسول الله ﷺ.

مرة أُخرى دهشت سودة من تأويل زوجها لرؤياها، فأنكرت في نفسها هذا التأويل وهذا التفسير، وقد وثب إلى ذهنها ما كان من تفسير زوجها لرؤياها التي قصتها عليه قبل ذلك بوقت طويل، ولم تعلق سودة على قول زوجها بشيءٍ ولم تلق بالاً إليه.

وفي اليوم التالي كانت سودة تبكي زوجها السكران بن عمرو الذي مات، وجاءت صاحبات سودة يعزينها ويواسينها ويُخفِّفنَ عنها ما بها من أثر المصاب.

وكان من أهم الأحداث التي وقعت في تلك الفسحة من الوقت أيضاً وفاة أبي طالب عم رسول الله ﷺ الذي كفله صغيراً وآزَرَهُ كبيراً، وناصره على دعوته، وحماه من أذى المشركين.

وتبع وفاة أبي طالب، وفاة خديجة زوج رسول الله ﷺ التي صدقته وآمنت به، بل كانت أول من آمن به، وكانت له وزير صدق طولَ سني كفاحه وجهاده.

وكان حزن رسول الله ﷺ شديداً على عمه وزوجه، وكان حزنه الذي خيف منه عليه مما دعا أصحابه للتفكير فيما يجب أن يعملوه لتخفيف الحزن والوجد عنه.

❀ ❀ ❀

٤ ـ الزواج المبارك

أثمر تفكير الصحابة في التخفيف عن الرسول ﷺ أن سارت إليه خولة بنت حكيم زوجة عثمان بن مظعون أحد الذين هاجروا إلى الحبشة،

وأحد الذين عادوا منها، ودخلوا فيمن دخل إلى مكة، وقالت له: يا رسول الله، كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة.

فقال ﷺ: **«أجل، كانت أم العيال، وربّة البيت»**.

قالت خولة رضي الله عنها: يا رسول الله، لم لا تتزوج من تعوضك عن خديجة بعض حنوها وعطفها؟!

لله درُّك يا خولة، أحقاً سيجد محمدٌ ﷺ زوجةً تعوضه عن خديجة وعن بعض حنوها وعطفها؟! ومن تكون هذه الزوجة التي جاءت خولة إلى محمد ﷺ لتشير عليه بزواجها؟ أو هل تخيرتها خولة حقاً؟ أو جاءت إلى النبي ﷺ لتستشيره في أمر اختيارها..؟!

سأل محمدٌ ﷺ خولة: **«ومن تعنين يا أُم حكيم؟؟»**.

قالت خولة: إن شئت بكراً، وإن شئت ثيباً..

وسأل محمد ﷺ: **«فمن البكر؟»**.

قالت خولة: أحقُّ خلقِ الله بكَ.. عائشة بنت أبي بكر.

عائشة بنت أبي بكر الصديق.. تلك الطفلة الجميلة الذكيةُ المرحةُ بنت أعز أصدقاء محمد ﷺ، وأول من صدَّق به بعد آل بيته.

تلك الطفلة التي طالما داعبها محمد ﷺ ولاعبها فأدخلت إلى قلبه السرور بمرحها وخفة روحها، وأفعمت نفسه بالإعجاب لذكائها وفطنتها..!

ولكن عائشة لا تزال طفلة حدثة، فأنَّى لها أن تتزوج! وأنى لها أن تعوِّض محمداً في داره عن خديجة..؟

وسأل محمدٌ ﷺ خولة: **«ومن الثيب؟»**.

قالت خولة: سودة بنت زمعة، قد آمنت بك، واتبعتك على ما تقول، وقد مات عنها زوجها بعد أن عاد من هجرة الحبشة.

سودة بنت زمعة التي آمنت بمحمد ﷺ واتبعته، وهاجرت إلى الحبشة تقاسي المشاق والمصاعب، وتتحمل البعد عن الأهل والعشيرة في سبيل دين الله.

حقاً إن سودة لجديرة بكل تقدير واحترام وإكرام، وإن من حقها على رسول الله ﷺ أن يكرم مثيلاتها، لأنه الرسول الذي يعز عليه ويحز في نفسه العنت التي تلاقيه أمّته، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم.

أجاب محمد ﷺ عند ذلك خولة بنت حكيم قائلاً: «**اذهبي فاذكريها عَلَيَّ**».

وذهبت خولة إلى سودة في دار أبيها، فدخلت عليها تقول: ماذا أَدْخَلَ الله عليك من الخير والبركة!

فاستعجبت سودة من قول خولة وسألتها قائلة: وما ذاك؟!.

قالت خَوْلة: أرسلني رسول الله ﷺ لأخطبك عليه.

عندئذٍ جال في خاطر سودة ما كان يقوله لها زوجها السكران بن عمرو عن تفسير رؤياها التي كانت تقصها عليه، إِذَنْ فسيتحققُ لسودة تفسير الرؤيا التي ظنتها سودة حينئذ أوهاماً وأضغاث أحلام..!

أتتزوج سودة رسول الله ﷺ، وتحل محل خديجة سيدة نساء قريش؟!

إن سودة رضي الله عنها لم يكن لها بعد زوجها السكران أَرَبٌ في زواج، فهي امرأةٌ عاطلةٌ من الجمال، جاوزت السّن ـ سِنَّ الشباب ـ قد زاد وزنها وثقل، وترهّل جسمها، فمن لها برسول الله الذي تتمنى شرف الزواج منه ـ بلا شك ـ الكثيرات من فتيات قريش المسلمات ذوات الحسب والنسب والجمال والشباب...؟!!

ولكن هل ترفض سودة الشرف الذي يوليها إيّاه الرسول ﷺ، بإِرساله إليها من يخطبها عليه..؟!

لا، لن ترفض سودة هذا الشرف، ولن تضن على نفسها أن تكون قرينة لرسول الله ﷺ.

أجابت سودة خولة عما حملت إليها من خبر خطبة الرسول ﷺ بقولها: وددت ذلك.. اذهبي لأبي فاذكري ذلك له.

ودخلت خولة إلى زمعة بن قيس، وكان شيخاً كبيراً، قد غُشيَ بصره وعجز عن مغادرةِ داره، فألقت عليه بالتحية.

فقال: من هذه؟

قالت: خولة بنت حكيم.

قال: فما شأنك.

قالت: أرسلني محمد بن عبدالله أخطب عليه سودة.

قال: كُفْءٌ كريمٌ.. فما تقول صاحبتك (يعني سودة)..؟

قالت خولة: تحب ذلك.

قال: ادعيها إليَّ.

فلما دعت خولة سودة إلى أبيها، سأل زمعة ابنَتَهُ: أي بنية، إن هذه (يعني خولة) تزعم أن مُحَمَّدَ بن عبدالله أرسل يخطبك، وهو كفءٌ كريمٌ، أتحبين أن أزوجك منه.

أجابت سودة: نعم.

فقال زمعة لخولة: اذهبي إلى محمد فادعيه إلي.

خرجت خولة من بيت زمعة بن قيس إلى محمد ﷺ ودعته فعقد له زمعة على ابنته.

وأتمت خولة رضي الله عنها مسعاها في بيت أبي بكر الصديق تخطب عائشة البكر وعقد أبو بكر لمحمد ﷺ على عائشة[(١)].

وزفت سودة بنت زمعة إلى محمد ﷺ، أمّا عائشة فلم تزف إليه لحداثة سنها إلا بعد زمن من ذلك الحين.

❁ ❁ ❁

(١) انظر عائشة في هذا البحث.

٥ ـ في بيت محمد ﷺ

كانت سودة تعلم علم اليقين أنها لن تملأ من دار محمدٍ شيئاً من مكان خديجة رضوان الله عليها.

وهي تعلم كل العلم أيضاً أنها لن تأخذ من قلب محمد ﷺ ولا من نفسه شيئاً يشبه ما كان في قلبه ونفسه لخديجة، وإنما دخلت وهي تودُّ من صميم قلبها أن تعمل كل ما في وسعها لخدمة محمد والسهر على راحته، وهي كذلك تريد أن تعمل كل ما في وسعها لرعاية بناتِهِ.

فَحَسْبُها أنها زوجة رسول الله.. وأنها تسهر على راحة رسول الله، وتقوم برعاية بنات رسول الله..!

وشعرت سودة برفق محمد ﷺ بها، وأحسَّت رقته في معاملتها، وأدركت أنّه إذ يكرِّمها يكرِّمُ فيها إسلامَها وجهادها، ويكرِّم فيها إسلام مثيلاتها من نساء قريش المسلمات وجهادهن.

وأحست سودة رضي الله عنها أن محمداً ﷺ ـ وقد اطمأن إلى من يركن إليه في رعاية بناته وبيته ـ قد انصرف إلى التفرغ بجهاده الذي يجاهده في سبيل أداء رسالته.

ولكن قريشاً لم تترك محمداً، وكانت له بالمرصاد، فهي منذ أن مات أبو طالب، وماتت خديجة، وخيم الحزن والغم على قلب محمدٍ ﷺ ترى في ذلك فرصتها السانحة للنيل من محمدٍ ﷺ وتجد فيه لحظتها المواتية التي يجب عليها انتهازها للقضاء عليه.

فقد شنّ المشركون الحرب التي لا هوادة فيها على الرسول ﷺ وآذوه أذىً لا رحمة فيه، ولا شفقة معه، وبادروه بكل تسفيه، ونالوه بكل ما يكره، ولطالما سَمِعَتْ سودة رسول الله ﷺ وهو يردد آسفاً: **«والله ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»**.

لذلك فقد كانت مهمة سودة، ومهمة بنات محمد ﷺ معها هي أَنْ يُسَرِّين عن محمدٍ، وأن يعملن للتخفيف عنه.

وعلى هذا سار جهاد محمدٍ في سبيل دعوته حتى كانت هجرته من مكة إلى المدينة.

وقام النبي ﷺ أول وصوله إلى المدينة ببناء مسجده الشريف، وبني له خلف المسجد مساكن، وانتقل آل بيت رسول الله من مكّة إلى المدينة، وأقامت سودة بمسكن من هذه المساكن، ثم جاورتها من بعد ذلك عائشة التي كانت قد ينعت ودرجت نحو الصبا، فزفت إلى الرسول ﷺ.

وقابلت سودة ضرتها الصبية الفتية بترحابٍ، وفتحت لها من قلبها الواسع الحنون الكبير، وتحرت مرضاتها مرضاة لرسول الله ﷺ.

فقد كان لسودة قلبٌ طيبٌ، وروحٌ سمحةٌ، حتى إنَّها كانت لا تشعر مع طيبة قلبها، وسماحة روحها بحرج أو غضاضةٍ من أن تُعامل أو تخاطب من هم في مقام الأضدادِ بهذه الروح الطيبة السمحة.



٦ ـ سودة طيبة القلب

فحينما أتى الرسول ﷺ والمسلمون من غزوة بدر إلى المدينة منتصرين على أعدائهم المشركين من قريش.. ثم جيء بالأسرى الذين أسرهم المسلمون إلى المدينة، كانت سودة زوجة النبي ﷺ عند آل عفراءَ (من الأنصار) تواسيهم في مقتل رجلين من رجالهم في غزوة بدر.

فلما عادت إلى دارها، وجدت بناحية منها سهيل بن عمرو، وكان من أقربائها ومن أشراف قريش ومن كبار مشركيها، ومن أشدهم عداوة للرسول ﷺ، ومن أكثرهم إيذاءً للمسلمين، وقد شُدَّت يداه إلى عنقه ـ كما يفعل مع الأسير عادة ـ فلم تملك نفسها من أن تقول له: أبا يزيد أعطيتم بأيديكم..! ألاَ متم كراماً؟!!

ولم تكد سودة تنتهي من كلامها حتى سمعت صوت النبي ﷺ ينادي من داخل البيت يقول: **«يا سَوْدَةُ؛ أعلى الله ورسوله تحرضين؟»**.

فأجابت سودة الرسول ﷺ : يا رسول الله، والله الذي بعثك بالحق، ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعةً يداه إِلى عنقه أَنْ قلت ما قلت.

وهكذا كان حنان سودة وطيبة قلبها يرفرفان على كل من عرفته، ولا فرق بين المعرفة القريبة والبعيدة، ويشملان كل من اتصل بها، ولو لم يكن هناك من الدواعي والملابسات ما يُوجِبُ إظهار مثل هذه الطيبة، أو إبداء مثل هذا الحنان فهي مسرفة في حنانها، مبالغة في عطفها حتى على ضراتها، وحتى على أعداء دينها.



٧ ـ أهب ليلتي لعائشة

مرت السنون، وجاورت سودةُ في مساكن الرسول ﷺ ضرائر أخريات غير عائشة، وكان من هؤلاء الضرائر من هُنّ جميلات، ومن هُنَّ شابات، ومن هُنَّ غيورات، فَشَيَّعْنَ من بينهن شِيَعاً، وحزبن أحزاباً، كانت تارةً في صف عائشة رضي الله عنها التي يحبها الرسول ﷺ ويؤثرها، وتارة ضدها.

وظلت سودة إلى جانب عائشة تتحرى مرضاتها مرضاةً للرسول ﷺ، ولم تغير عادتها معها من يوم عرفتها ضَرَّةً.

كان الرسول ﷺ يوزع لياليه بين زوجاته، فيجعل لكل منهن لَيْلَةً، ويطوف عليهن كل يوم يسألهن حاجتهن، وينفق عليهن نفقةً عادلة متساوية. أَما عواطفه وأما قلبُهُ، فكانت زوجاته جميعاً يعلمن أَنَّ لعائشة منها الجانب الأوفر، والنصيب الأكبر، وكن يعلمن كذلك أن لسودة منها أصغر جانب وأقل نصيب.

وشعر النبي ﷺ أنه ـ وإن كان دائماً يعامل سودة معاملة رقيقة ـ كان قلبه وعواطفه معها ليس كما هما مع سائر زوجاته، وأن شعورَهُ إزاءَها ليس هو بالشعور الذي يرضيه أن يكنَّهُ لها، ويكن غيره لسائر زوجاته.

فكّر النبي ﷺ في هذه الحالة طويلاً، فرأى أن أَسلم ما يجب عليه أن يفعلَهُ، وأَعدل ما يلزمه أن يأْتيهُ ـ هو أن يعرض على سودة أن يسرُحها سراحاً جميلاً، وأن يطلقها حفظاً لشعورها واطمئناناً لقلبه وإراحة لضميره.

ولوّح النبي ﷺ لسودة بهذه الفكرة التي رآها مريحَةً لشعورِهِ الزوجيْ الفاتر نحوها، ثم تريَّثَ على سودة لتفكر فيما لوّح لها به، قبل أن يبادرها بما يَوَدُّ أن يعرضه عَلَيْها.

وهال سودة أن يفكر النبي ﷺ في طلاقها حفظاً لشعورِهَا وإراحةً لضميره نَحْوَها.

إنَّ سودة لم تكن في وقت ما تتطلَّعُ إلى أَن تنال من عواطف الرسول أكثر مما تنال الآن.. فحينما دخلت بيت الرسول ﷺ كانت تعلم علم اليقين أنَّها لن تملأَ من دار محمدٍ شيئاً من مكان خديجة، وكانت تعلم كل العلم أنّها لن تأخذ من قلب محمد ولا من نفسه شيئاً يشبه ما كان في قلبه ونفسه لخديجة.. بل كان حَسْبُها أن تكون زوجة لرسول الله ﷺ وحسبها أن تقوم على خدمته وتسهر على راحته.

تقدم العمر بسودة، وثقلت عن الحركة، وشاركتها في قلب الرسول، وفي نفسه زوجات أخريات ـ لا تطمع أن تنال من قلبه، ولا من نفسه أكثر مما كانت تنال من قبل، فحسْبها أنها زوجة نبي الأمة، وكفاها أنّها قرينة لرسول الله ﷺ.

وجاء النبي ﷺ يعرض على سودة ما فكر فيه، وما لوّح به من قبل، فقد استقر عليه رأْيَهُ.

إنها لحظات دقيقة بلا شك بالنسبة لمحمد ﷺ. ولحظات عصيبة لسودة بنت زمعة..

فمحمد الذي عرفت عنه الرحمة، وعَمُرَ قلبه بالحنان والشفقة ليجد بلا ريب عُسْراً وضيقاً في هذه المهمة التي يقوم بها إراحة لضميره، وإرضاءً لمشاعر سودَةَ.

وإن سودة رضوان الله عليها رغم طيبة قلبها وسماحة نفسها لتجد بلا جدال ألماً فيما يعرضه عليه الرسول ﷺ ، وحرجاً فيما اعترفت في نفسها أن تطلبه منه.

وتكلم محمدٌ ﷺ فيما جاءَ إلى سودة من أجله، وعرض عليها أن يمتعها ويسرحها سراحاً جميلاً، وصمتت سودَةُ، وقد عقدت هذه اللحظة العصيبة لسانها عن الكلام، وأسكتها الحياء والخجل من أَن تصرِّح بما كان في نيتها أن تصرح للرسول به، وسكت محمد ﷺ ينتظر ما تجيب به زوجته.

ومرَّت لحظاتٌ.. كانت بلا شك لحظاتٍ قاسيةً مريرةً على كل من هاتين النفسيتين النبيلتين السمحتين..!!

أعانك الله يا سودة.. وخارَ لك فيما اعتزمت أن تقولي..

وأحست سودة ببرودة الشيخوخة تناوش جسدها الثقيل. وهمت بأن تجيب، ولكن طال عذابها وطالت حيرتها ورسول الله إلى جانبها ينظر إليها صامتاً في إشفاق، إلى أن لاح لها خاطر سكنت به، لو رضي رسول الله ﷺ ، فقالت هادئة: أبقني يا رسول الله، وأهب ليلتي لعائشة، وإني لا أُريدُ ما تريدُ النساء[(١)].

يرعاك الله يا سودة ويباركك، ويعوضك خيراً فيما بذلت من نفسك في سبيل البقاء إلى جوار رسول الله ﷺ .

وأمسك محمد ﷺ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، أمسك سودة، ولم يطلقها وتصالحا على ذلك، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صُلْحاً، والصلح خير. وظل النبي ﷺ على رقته مع سودة وعلى رفقه بها يغازلها ويضاحكها، ويضحك أحياناً من مشيتها، وظلت سودة بروحها الطيبة السمحةِ تعمل ما في وسعها لإراحة الرسول ﷺ ، وإدخال السرور إلى قلبه.

❋ ❋ ❋

---

(١) انظر ترجمتها في سير أعلام النبلاء رقم ٤٠ جـ٢ ص٢٦٥.

مع الرسول ﷺ إلى النهاية

وها هي سودة تصلي خلف الرسول ﷺ ليلة، فطال ركوع الرسول ﷺ، وطال سجوده، وهي من خلفه تتبعه في صلاته، فلما أصبح الصباح أتت الرسول تقول: يا رسول الله، صليت خلفك الليلة، فركعت بي حتى أمسكت بأنفي مخافة أن يقطر الدَّمُ.

فضحك رسول الله من قولها ضحكاً كثيراً.

❊ ❊ ❊

٨ ـ في حجة الوداع

وحينما خرج رسول الله ﷺ بزوجاته جميعاً إلى مكة في حجة الوداع، وحينما حان وقت رمي الجمرات بمنى استأذنت سودة رسول الله ﷺ أن يسمح لها لثقل جسمها وبطء حركتها، أن ترمي بجمراتها قبل زحمة الناس فأذن لها، تقول عائشة رضي الله عنها: استأذنت سودة ليلة المزدلفة، أن تدفع قبل حطمة الناس، وكانت امرأة ثبطة ـ أي ثقيلة ـ فأذن لها، فدفعت قبل حطمة الناس، وأقمنا حتى أصبحنا نحن، ثم دفعنا بدفعه، فلأن أكون استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنته سودة أحب إليّ من مفروح به(١).

❊ ❊ ❊

٩ ـ وفاتها

وعمرت سودة بعد وفاة الرسول ﷺ سنين عدَّة، صرفتها في الصلاة والصوم والبر، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل إليها في مدة

(١) أخرجه البخاري ٤٢٣/٣، ومسلم ١٢٩٠، وأحمد ١٦٤/٦، والنسائي ٢٦٦/٥.

خلافته غرارَةً مملوءة بالدراهم فلما وصلتها سألت: ما هذه؟!

قيل لها: هذه دراهم.

قالت في دهشة: في غِرارة مثل التمر؟!!

وفتحت سودة الغرارة، وفرّقت ما فيها على الفقراء والمساكين، وقيل: إنها توفيت في آخر زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1].

وقيل إنها ناهزت الثمانين، وفي أقوال: المائة، رضوان الله عليها.

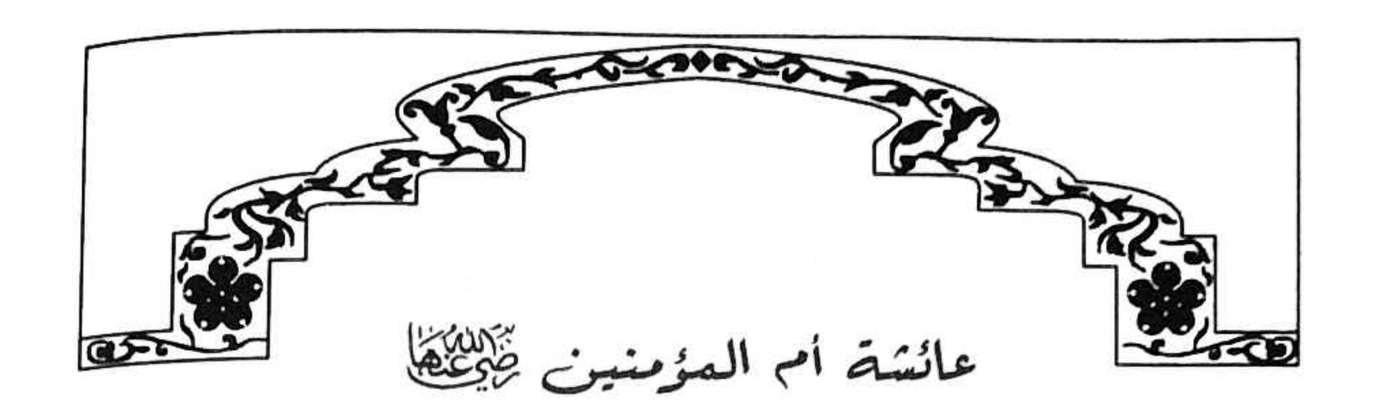
وفي وداعها نذكر موقفها الذي تحدثت عنه عائشة وكان هذا الموقف في سبيل الحفاظ على شرف البقاء في زمرة أمهات المؤمنين تقول عائشة: ما من امرأة أحبّ إليَّ أن أكون في مسلاخِها، من سودة بنت زمعة.. لما كبرت قالت: يا رسول الله قد جعلت يومي منك لعائشة[2].

رضي الله عن سودة بنت زمعة أُم المؤمنين طيبة القلب راضية النفس زوج رسول الله ﷺ.



(١) الإصابة ٢٣١/٤، وأنساب الأشراف ٤٠٧/١ وانظر سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٢٢٦.

(٢) رواه مسلم حديث رقم ١٤٦٣.



أقوال عن عائشة رضي الله عنها

- القرشية، التيمية، المكية، النبوية، أم المؤمنين، زوجة النبي ﷺ، أفقه نساء الأُمة على الإطلاق(١).

[الذهبي في مستهل ترجمتها]

- كانت امرأة بيضاء جميلة، ومن ثم يقال لها: الحميراء.

[الذهبي]

- «هذه زوجتك في الدنيا والآخرة».

[جبريل عليه السلام، وقد قاله للنبي ﷺ]

- «**يا عائشة، إن جبريل يُقرئك السلام**».

[محمد رسول الله ﷺ]

- ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط، فسألنا عائشة، إلاّ وجدنا عندها منه علماً.

[أبو موسى الأشعري رضي الله عنه]

- لم يتزوج النبي ﷺ بكراً غيرها، ولا أحب امرأة حبها.

[الذهبي في سير أعلام النبلاء]

❊ ❊ ❊

(١) سير أعلام النبلاء جـ٢ ص١٣٥ ترجمة رقم ١٩.

١ ـ مصابيح الظلام

كان لكل من قبائل قريش المقيمة بمكة اختصاص بأمر يتصل أول ما يتصل بمناصب الكعبة، وكانت قبيلة تيم بن مرة أحد بطون قريش المختصة بإحدى هذه المناصب، فكانت لها مناصب الديات والمغارم، وقد آل أمر الديات في الجاهلية إلى الصديق أبي بكر رضي الله عنه والد الصديقة عائشة رضي الله عنها، آل إليه هذا الأمر حين اشتدَّ ساعده، واستقام عوده، ونَفَرَ شبابه، فتولى الزعامة في قبيلته، لذلك كان إذا احتمل شيئاً منها فسأل قريشاً صدَّقوه، وأمضوا حماله من نهض معه وإن احتملها غيره خذلوه.

وقد كثرت المرويات في الإشادة بهذا البطن القرشي الذي تنتسب إليه عائشة البكرية القرشية، وهو بطن تيم بن مرة، كثرت الروايات التي أشادت بذكر تيم ومكانتها من قبائل العرب ـ روايات تقصها كتب المتأخرين ـ فذكروا أن المنذر بن ماء السماء طلب امرأ القيس بن حجْر الكندي فأجاره المعلَّى التيمي، فقال امرؤ القيس في ذلك:

أقرَّ حَشَا امرىء القيس بن حجْرٍ بنو تيم، مصابيح الظلام

ولهذا البيت سمي بنو تيم «مصابيح الظلام»[١].

وهذه الروايات تنسب إلى تيم من صفات الشجاعة والكرم والمروءة والنجدة وحماية الجار ما نجده في الأسرة البكرية، التيمية، القرشية، والتي نتمثلها في هذه السيرة بالقرشية الصديقة بنت الصديق.

❀ ❀ ❀

٢ ـ بنت أبي بكر

الصديقة عائشة بنت الصديق أبي بكر رضي الله عنهما.

عائشة بنت أبي بكر صاحب رسول الله ﷺ، وكلمة «صاحب» هذه

---

(١) انظر أنساب الأشراف للبلاذري ـ قريش جـ١ وأخبار مختلفة منه مثل (الأعياض).

هي صفة القرآن له، إذ يقول عز وجل حكاية عن رسول الله ﷺ: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وأبو بكر الصديق، رضي الله عنه الذي قال عنه النبي ﷺ: «**إنَّ أَمَنَّ الناس علي في ماله وصحبته أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن أخوة في الإسلام**»(١).

ولما سأل عمرو بن العاص الرسول عليه السلام: أي الناس أحبُّ إليك يا رسول الله؟

قال عليه السلام: «**عائشة**».

قال: فمن الرجال؟

قال: «**أبوها**».



٣ ـ الصديق في الجاهلية

اشتهر أبو بكر منذ الجاهلية بلقبه، وذلك أنه كان رئيساً من رؤساء قريش، وكانت إليه الأشناق ـ وهي الديات(٢) ـ فإذا تحمل دية أمضت قريش حمالته وقامت معه، وإذا تحملها غيره خذلوه ولم يصدقوه(٣).

ولم يكن أبو بكر مغلق الذهن، ولا وصفه أحد بهذه الصفة من محبيه أو شانئيه الذين يبغضوه، بل كان مشهوراً بالذكاء والفطنة، يلمح اللحن البعيد فيدركه، ويسبق الحاضرين إلى فهمه، والفطنة لموضع الإشارة فيه.

ولم يكن مغامساً للشهوات، بل كان يكره ما شاع منها بين الجاهليين

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

(٢) الديات: وهي حقوق الدماء بين الناس وتسمى الدية والفدوة.

(٣) أبو بكر الصديق للطنطاوي.

من ذوي الأقذار والأخطار، فلم يشرب الخمر، ولم يرتكب الدنس، ولم يشتهر قط بوصمة يعيبه بها من أسرعوا لمعاتبته يوم هجر الأصنام وعقيدة الجاهلية وجنح إلى عقيدة الإسلام، ولم يكن أبو بكر رضي الله عنه متعصباً للجاهلية وعبادتها، بل لعله كان مزدرياً لها مستخفاً بالأصنام وبأحلام عابديها، فهو لم يسجد لصنم قط[1].

وكان الصديق في الجاهلية من أنسب قريش وأعلمها بما كان فيها من خير أو شر، تاجراً موفقاً ذا خلق وفضل، محبباً في قومه لم يشرب خمراً، ولم يعبد صنماً، ولم يؤثر عنه ما يثلم شرفه أو ينتقص مروءته.

❀ ❀ ❀

٤ ـ صديقاً في الإسلام

الصديق هو الذي يواجه الشدائد والمحن، فهل كان أبو بكر رضي الله عنه صديقاً في مواجهة الشدائد بعد إسلامه، ولا نريد أن نتحدث عن المحن التي واجهها في حياة صاحبه محمد ﷺ ولكن الأشد مواجهةً وعنفاً كان بعد وفاته ﷺ وقد قال عز وجل في سورة الحجرات: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وكل شيء يدل على أن الله ـ عز وجل ـ قد اختار نبيه لجواره، وما زال من الأعراب مسلمون لم يدخل الإيمان في قلوبهم بعد، رأوا سلطاناً جديداً قد ظهر في الأرض، وأظل المدينة ومكة والطائف، وطالب الناس بأن يدينوا دينه، ويشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، ويؤدوا ما يفرض عليهم من الواجبات، ولو بقي النبي ﷺ فيهم أعواماً كثيرة أو قليلة لكان من الممكن أن تذعن لهذا الدين قلوبهم، كما أذعنت له ألسنتهم، ولكن الله آثر لنبيه الرحمة ورضوانه، ففارق هذه الدنيا

---

(١) انظر أنباء نجباء الأبناء.

راضياً مرضياً، وهنالك جاء دور الصديق عندما تكشفت قلوب المسلمين غير المؤمنين من العرب عن دخائلها، فأظهروا ما أظهروا من الردّة، وجعلوا يساومون في الزكاة وتقول وفودهم لأبي بكر: نقيم الصلاة، ولا نؤدي الزكاة، كان المال أحب إلى هؤلاء الأعراب من الدين، وكانت نفوسهم تأبى عليهم أن يؤدوا الزكاة إلى رجل لا يوحى إليه، ولا يأتيه خبر من السماء.

بل إن ظاهرة أُخرى دلت على أن فريقاً من العرب أشهروا الردة، لا لأنهم ضاقوا بالزكاة، أو آثروا المال على الدين، بل لأنهم نقموا على قريش أن تكون فيها النبوة، وأن يهيأ لها ما هيىء من هذا السلطان بما له من قوة وبأس، وبما فيه من سعة وسماحة. فظهر بينهم أمر جديد، وحدث طريف مبتكر، وهو التنبؤ وادعاء النبوة، فما ينبغي لقريش أن تستأثر من دونهم بالنبوة، وما ينبغي أن تختص وحدها بهذا السلطان تبسطه على الأرض.

وما أسرع ما ظهر التنبوء في ربيعة، وفي بني حنيفة منهم بخاصة[١]، فأعلن مسيلمة نبوته في اليمامة، وجعل يهذي بكلام زعم أنه كان يوحى إليه، وجعل يقول: لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها ولكن قريشاً قوم يظلمون[٢].

وظهر التنبوء في اليمن، فثار الأسود العنسي وأعلن نبوته، وركبه شيطان السجع، كما ركب مسيلمة.

وظهر تنبوء آخر في بني أسد، فأعلن طليحة الأسدي أنه نبي، وجعل يهذي لقومه، كما هذى صاحباه بالسجع، يزعم أنه يتنزل عليه من السماء.

ثم لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تنبأت امرأة في بني تميم، وهي سجاح التميمية، كانت نازلة في بني تغلب، فلما استأثر بها شيطان السجع أسرعت إلى قومها من تميم، فأغوت منهم خلقاً كثيراً[٣].

---

(١) انظر السيرة وفد بني حنيفة، وظهور مسيلمة الكذاب.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ـ السيرة النبوية.

(٣) إعجاز القرآن للرافعي ـ سجاح التميمية.

وكان انتشار هذا اللهب، وارتداد الكثرة الكثيرة من العرب محنة امتحن بها أبو بكر، وامتحن بها معه المسلمون بعد وفاة النبي ﷺ. وليس أصدق تصويراً لشخصية الرجل في ثباته للمحنة مهما تعظُم، ونفوذه من مشكلاتها مهما تتعقّد، وظهوره وانتصاره على هولها مهما يكن شديداً.

ولم يواجه أبو بكر رضي الله عنه في أول عهده بالخلافة ردّة المانعين للزكاة، وكُفر التابعين لمن تنبأ من الكذابين فحسب، وإنما واجه في الوقت نفسه تأهُبَ العرب من غير المسلمين بالشام للمكر به، والكيد له، والغارة عليه.

وقد واجه النبي ﷺ تحفُّزَ الرُوم في الشام على حدود الجزيرة العربية، وكانت له معهم خطوب، فلم تكن مؤتة ولا تبوك إلا محاولة لردهم عن الجزيرة، بل لم يكتفِ النبي ﷺ بمؤتة وتبوك، وإنما جهز قبلَ وفاته جيشاً لغزو هؤلاء، وأمّر على هذا الجيش أسامة بن زيد بن حارثة.

ولكن النبي ﷺ مرض قبل إنفاذ هذا الجيش، ولما أحس الوفاة أوصى بإنفاذ جيش أسامة(١).

ولما استُخلف أبو بكر نظر فإذا الأرض من حوله قد تغيرت، وإذا أولو القوة والبأس من أصحابه قد جُنّدوا في هذا الجيش المهيأ للغارة على أطراف الشام، والذي أوصى النبي ﷺ قبل وفاته بإنفاذه إلى غايته.

فأبو بكر إذن أمام نار مضطربة في الجزيرة العربية، وهو بين اثنين، إمَّا أن يُنفذ هذا الجيش، فيواجه هذه النار المتأججة غير قادر على إخمادها، وإما أن يُؤجل إنفاذ هذا الجيش، حتى يحاول به إخماد هذه النار، فيبطىء في إنفاذ وصية النبي ﷺ.

---

(١) انظر المغازي للواقدي جـ٣، ط عالم الكتب.

وكذلك أخذته المحنة من جميع أقطاره، ومن كل جانب، وسنرى كيف استطاع أن يخرج منها ظافراً موفوراً لو قرأنا تاريخه.

ومن قبل هذه المحنة واجهته محنة أُخرى قبل أن يلي الأمور، أمور المسلمين، وهي وفاة النبي ﷺ، ولم تكن هذه المحنة مقصورة عليه، إذ كان المسلمون يظنون أن النبي ﷺ سيبقىٰ فيهم حتى يظهر دين الله على الدين كله، وهم يقرؤون في سورة براءة (التوبة) قول الله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ويقرؤُون قوله - جل شأنه - في سورة الفتح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ وكان النبي ﷺ قد أظهر دين الحق على الدين كله في جزيرة العرب، وكانوا يظنون أن النبي ﷺ قد أظهر دين الحق على الدين كله في جزيرة العرب، ولكنه لم يظهره على الدين كله في سائر أقطار الأرض، هكذا كانوا يظنون ويقدرون.

وها هو محمد ﷺ يفارق الدنيا، ويختاره الله إلى جواره، فلا غرابة في أن يشك الصادقون من المؤمنين في أنّه قد مات، ولا غرابة في أن يرتد الذين كانوا يعبدون الله على حرف، كما ارتد الأعراب الذين جحدوا الزكاة، ولا غرابة في أن يضطرب أمر الناس في المدينة أشد الاضطراب.

فإذا فكرت في أن أبا بكر كان أحب الناس إلى رسول الله، وكان رسول الله أحبّ الناس إليه، عرفت وقع هذه المحنة في نفس أبي بكر، ولكنك تعلم كيف خرج أبو بكر من هذه المحنة دون أن تضطرب لها نفسه، ودون أن يجد الضعف أو الريب إلى نفسه سبيلاً، وتعرف كذلك كيف استطاع أن يرد الصادقين من المؤمنين إلى أنفسهم، أو يرد أنفسهم إليهم، حين تلا عليهم هاتين الآيتين الكريمتين وهما قول الله - عز وجل - في سورة آل عمران: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن

﴿يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ويقول أيضاً في سورة الزمر: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

لم يجزع إذن أبو بكر، ولم يرتب لوفاة النبي ﷺ، بل ترك الجزع والريب ودفعهما عن نفوس المؤمنين الصادقين حين ذكرهم بما أنبأ الله به في القرآن من أن النبي ﷺ معرض للموت والقتل، ومن أنه يموت، كما يموت الناس.

وليس ـ إذن ـ مفر من البحث عن مصدر ما أُتيح لأبي بكر من الثبات للمحن، والصبر عليها، والنفوذ آخر الأمر من مشكلاتها، وليس لهذا كله الذي أوردناه إلا مصدر واحد هو الذي يدل عليه لقبه «الصديق»، نعم.. فهو الصديق وابنته عائشة صديقة، ذلك أن أبا بكر رضي الله عنه كان رجلاً من قريش، ثم رجلاً من العرب، ثم إنساناً يفرح لما يفرح القرشي له، ويفرق مما يفرق القرشي منه، وتتأثر نفسه مما تتأثر به النفس العربية، من الرضا والغضب، ومن السرور والحزن، ومن اللذة والألم، ومن القوة والضعف، ثم كان أبو بكر رضي الله عنه يمتاز برقة القلب، وسماحة النفس والرحمة الشديدة لكل ما يصيبه مما يكره.

فكيف استطاعت طبيعته هذه أن تثبت للمحن والشدائد؟؟ وأن تنفذ منها في غير مشقة ولا تكلف، وهو الذي أشفقت ابنته عائشة ـ رضي الله عنها ـ ألا يسمع الناس صوته حين تقدم النبي ﷺ يأمره أن يصلي بالنّاس لمّا ثقل عليه الوجع، فقالت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف (رقيق القلب، سريع الحزن)، وإذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء.

ثم كيف استطاع أن يبلغ من النبي ﷺ هذه المنزلة التي بلغها؟؟، والتي لم يبلغها عنده أحد من الصحابة، فكان النبي ﷺ يعلن ذلك فيجيب عمرو بن العاص عندما سأله: أي الرجال أحب إليكَ؟ بأنه أبو بكر، ويقول يوماً على المنبر: «**لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن إخاءٌ وصحبة حتى يجمعنا الله عنده**».

ويختلف إلى داره بمكة مصبحاً وممسياً من كل يوم، ويختصه ﷺ

حين هاجر من مكة، ويؤثره بخاصة أمره كله.

لا جواب عن هذه الأسئلة إلاّ ما ذكرته آنفاً من أنه كان «الصديق» فهو أول من أسلم من الرجال، وكان إسلامه صفواً خالصاً قوامه التصديق العميق، والإيمان الخالصُ من كل شائبة، والاطمئنان الصادق السمح إلى كل ما يحدث به النبي ﷺ، ثم إيثاره النبي ﷺ على نفسه في كل موطن، ثم البلاء الحسن، كلما جد الجدُّ، واحتاج النبي والمسلمون إلى هذا البلاء.

هذا هو أبو بكر الصديق، والذي من حق عائشة أن تفخر بنسبها إليه وتقول: «أبي أبو بكر».

١ ـ أُمي أم رومان

وأم عائشة هي أُم رومان، وقد اختلف في اسمها فقيل: زينب، وقيل: دعد بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس، واختلف في نسبها من عامر إلى كنانة[(١)].

أسلمت أم رومان قديماً كما يدل عليه كلام عائشة رضي الله عنها إذ تقول: لم أعقل أبوي إلاّ وهما يدينان الدين.

وهاجرت بعدما استقر المقام بأبي بكر في المدينة، وقد روى ابن سعد في طبقاته: أن أم رومان توفيت في حياة النبي ﷺ سنة ست من الهجرة، وأن النبي ﷺ نزل قبرها واستغفر لها، وقيل: إنها ماتت في أيام عثمان رضي الله عنه[(٢)].



(١) انظر أبو بكر الصديق للشيخ علي الطنطاوي.

(٢) البخاري في تاريخ الأوسط ـ انظر فتح الباري ٣٣٧/٧.

٢ ـ إذن من أنا؟

لعل أدق تعريف لمحناه ونحن نتصفح سيرة السيدة الجليلة ما قاله الإمام الذهبي في سير النبلاء[(١)] عندما قال: بنت الإمام الصديق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر عبدالله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي، القرشية، التيمية، المكية، النبوية، أم المؤمنين، زوجة النبي ﷺ، أفقه نساء الأُمة على الإطلاق.

وفي روعةٍ ودقة وصفٍ، وَصِدْقِ حِسٍّ يصفها الذهبي قائلاً: وكانت امرأة بيضاء جميلة، ومن ثم يقال لها: الحميراء، ولم يتزوج النبي ﷺ بكراً غيرها، ولا أحب امرأة حبها، ولا أعلم في أُمة محمد ﷺ، بل ولا في النساء مطلقاً، امرأة أعلم منها، وذهب بعض العلماء إلى أنها أفضل من أبيها، وهذا مردود، وقد جعل لكل شيء قدراً، بل نشهد إنَّها زوجة نبينا ﷺ في الدنيا والآخرة، فهل فوق ذلك مفخرة، وإن كان للصديقة خديجة شأو لا يُلحقُ، وأنا واقف في أيتهما أفضل، نعم جزمت بأفضلية خديجة عليها لأُمور ليس هذا موضعها.

ولعلنا نأخذ وصف الذهبي هذا إطار ننتقل من خلاله في سيرتها الطاهرة وتاريخها الحافل، وسنواتها العظيمة مع رسول الله ﷺ.



٣ ـ طفولة رائعة

تروي عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ رأى رؤيا في منامه بعد وفاة خديجة، وكان قد جيء له في هذه الرؤيا بقطعة قماش من حرير أخضر مطوية، فلما فتح طياتها وجد بداخلها وشماً لصورة عائشة بنت صديقه

---

(١) انظر ترجمتها في سير أعلام النبلاء جـ٢ برقم .

الحميم أبي بكر، وسمع قائلاً يقول له: هذه صورة زوجتك في الدنيا والآخرة[1].

وعادت هذه الرؤيا للنبي ﷺ مرّة ثانية في ليلة أُخرى، وسمع قائلاً يقول له: يا رسول الله، هذه تُذهب بعض حزنك، وإن في هذه خَلَفاً لخديجة.

وتعجب النبي ﷺ من هذا الأمر؛ يرى رؤيا، ثم يرى هذه الرؤيا في ليلة أخرى، ترى ماذا قال رسول الله ﷺ عن هذا الأمر؟؟

لقد تحدث به لعائشة فقال رسول الله ﷺ: **«أُريتك في المنام ثلاث ليال، جاءني بك الملك في سرقة من حرير فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك فإذا أنت هي، فأقول: إن يك هذا من عند الله فليمضه»**[2].

نعم إن كان هذا من عند الله فليمضه، وكان من أسباب الاستعجاب لدى النبي ﷺ أن عائشة بنت صاحبه أبي بكر بن أبي قحافة رضي الله عنهم أجمعين، والتي رأى صورتها في قطعة الحرير التي قدمت إليه في المنام، كانت لا تزال وقتئذ طفلة صغيرة حَدَثَة، لا يزيد عمرها على ست سنوات، فأنى لهذه الطفلة بالزواج؟! وأنّى لهذه الحدثة أن تكون زوجة له؟! وأنى لها أن تسد فراغ خديجة رضوان الله عليها.

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن عمرو بن علقمة، عن ابن أبي حسين، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة: أن جبريل جاء بصورتها في خرقة حرير خضراء إلى النبي ﷺ فقال: **«هذه زوجتك في الدنيا والآخرة»** - أخرجه الترمذي **٣٨٨٠** في المناقب، باب فضل عائشة رضي الله عنها، ورجاله ثقات، وابن أبي حسين: هو عمر بن سعيد بن حسين النوفلي.

(٢) الحديث أخرجه البخاري **١٥٧/٧** في مناقب الأنصار باب تزويج النبي عائشة، **١٥٦/٩** في النكاح: باب النظر إلى المرأة قبل التزويج، و**٣٥٣/١٢** في تعبير الرؤيا: باب كشف المرأة في المنام، وأخرجه أحمد **٤١/٦، ١٢٨، ١٦١**، وأخرجه مسلم **٢٤٣٨** في فضائل الصحابة باب فضل عائشة من طرق عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة.

وكانت عائشة في طفولتها مصدر سرور للرسول ﷺ منذ أن عاد حاضنوها من بني مخزوم، وقد رضعت هناك، منذ أن عادوا بها إلى أبويها.

وكان للنبي ﷺ من لطفها وخفتها، وخفة روحها ما كان يسري عنه ويطربُهُ ويدخل السرور إلى قلبه، وبرغم ازدحام البيت البكري فقد كان أبو بكر رضي الله عنه قد تزوج في الجاهلية قتيلة بنت عبدالعزى القرشية العامرية، واختلف في إسلامها فولدت له: عبدالله وأسماء، وتزوج أيضاً أم رومان وولدت له عبدالرحمن وعائشة، وفيما بعد الإسلام تزوج أسماء بنت عميس رضي الله عنها فولدت له محمداً، وتزوج أيضاً في الإسلام حبيبة بنت خارجة، فولدت له بعد وفاته أم كلثوم[1].

برغم بوادر الزحام في البيت البكري لما كان له من أسرة كبيرة العدد قبل الإسلام، إلا أن رسول الله ﷺ كان ما يلمسه من ذكاء عائشة وفطنتها وتوقد ذهنها ما يحببه فيها، وما يجعله يعجب بها.

كان محمد ﷺ يتردد كثيراً على منزل صديقه أبي بكر، وبمنزل أبي بكر كان النبي ﷺ يرى طفولة عائشة، وكان يلحظها ويرعاها، وكان يلاعبها ويداعبها؛ فدرجت وشبت بين يديه الشريفتين عليه السلام. وكان كثيراً ما يوصي بها أمها ـ أم رومان بنت عمير بن عامر ـ خيراً، وكان كثيراً ما يقول لها حين يوصيها بها: **«يا أم رومان؛ استوصي بعائشة خيراً، واحفظيني فيها»**.

وإذا كنا نتحدث عن طفولتها وصباها، فقد حدَّث المؤرخون أن ولادتها رضوان الله عليها كانت في بيت الصديق، فهي ممن ولد في الإسلام، وهي أصغر من السيدة فاطمة رضي الله عنها بثماني سنين، وكانت تقول: لم أعقل أبوي إلاّ وهما يدينان الدين[2].

وذكر أبو بكر بن خيثمة أن عائشة أسلمت صغيرة بعد ثمانية عشر

---

(١) أبو بكر للطنطاوي.

(٢) سير أعلام النبلاء جـ٢.

إنساناً ممن أسلم[1]، وكانت ولادتها قبل الهجرة بسبع سنوات على الأرجح، فقد صح عنها أنها قالت: تزوجني رسول الله لست سنين، وبنى بي وأنا بنت تسع سنين[2]، والمشهور أنه ﷺ بنى بها في شوال بعد غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة.

فولادتها إذن في السنة السادسة أو الخامسة، وقيل: في الرابعة من بدء البعثة النبوية الشريفة.

وإذ نتحدث عن طفولتها أيضاً نجد أن محمد ﷺ يدخل دار أبي بكر يوماً فيجد عائشة تبكي، ويعرف أن سبب بكائها هو اشتداد أمها عليها، فيقبل على أم رومان معاتباً لائماً قائلاً لها: «**يا أم رومان، ألم أوصك بعائشة أن تحفظيني منها..؟**».

فتقول أُم رومان معللة ما كان منها لابنتها: يا رسول الله، إنّها بلّغت عني الصِّديق، وأغضبته علينا.

فيقول النبي ﷺ: «**وإن فعلت**».

فتقول أم رومان: لا جرَمَ، ولا سُؤْتها أبداً..

هكذا كان النبي ﷺ يحمي عائشة الصغيرة.. وهكذا كان ينتصر لها وهي طفلة صغيرة، ويشفع فيها، فلا عجب أن يرى رؤيا زواجها تتكرر عليه ثلاث مرات، ولكنه عليه السلام لا يعجب من أمر الله، فيقول: «**إن كان هذا من عند الله فليمضه**».



٤ ـ الخطبة المباركة

ماتت خديجة رضي الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين، وخديجة رضي الله عنها كانت لمحمد، الزوجة الحنون وأم الأولاد والبنات، والتي

---

(١) عيون النجابة في معرفة من مات بالمدينة من الصحابة ـ مصطفى العلوي الرافعي.

(٢) متفق عليه.

صدَّقت بمحمد أول من صدَّق، وآمنت له أول من آمن، وشجعته على جهاد النبوة، وعاونته على تحمل أعباء الرسالة، وكانت له خير مرشد منذ تزوجته وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وكانت له وزير صدق مُنْذُ نَزَلَ عليه الوحي وعمره أربعون سنة إلى أن ماتت بعد أن اختاره الله لحمل رسالته بنحو عشر سنوات.

ووجد النبي ﷺ على خديجة وجداً شديداً، وحزن على وفاتها حزناً عظيماً، ومن قبل موت خديجة كان موت أبي طالب عم النبي ﷺ الذي كفله صغيراً، وحَدَبَ عليه كبيراً، وكان له أكبر معين، وأول ناصر.

وبموت أبي طالبِ وخديجةَ فَقَدَ محمدٌ ﷺ حبيبين عزيزين وفيين، كان له فيهما العون والسند، وبوفاتهما وقع النبي ﷺ تحت تأثير حزن جارف، وهمٌ شديد[1].

توفيت السيدة خديجة كما ذكرنا قبل الهجرة بثلاث سنين، فلبث النبي ﷺ سنتين أو قريباً من هذا، قبل أن يخطب عائشة رضي الله عنها، وكان في حزن شديد.

وخيف على رسول الله ﷺ من هذا الحزن الشديد، وفكّر أصحابه فيما يجب عليهم أن يفعلوه للتخفيف عنه، فرأوا أن خير ما يفعلونه هو أن يعملوا على زواجه، وقد لحظت الصحابية الجليلة خولة بنت حكيم ـ امرأة عثمان بن مظعون ـ هذا الأمر فسارت إلى النبي ﷺ تسري عنه، وتقترح عليه الخطبة، لعل في ذلك العوض عن فقد خديجة.

مضت خولة إلى رسول الله ﷺ، لتقول له[2]:

يا رسول الله؛ كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة!

قال الرسول ﷺ: «**أجل، كانت أم العيال، وربة البيت**».

---

(١) ابن الجوزي في التلقيح ص٧ ذكر وفاة خديجة في رمضان في السنة العاشرة.

(٢) الحديث أخرجه البخاري ١٧٥/٧ في مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ عائشة وقدومها المدينة.

قالت خولة: يا رسول الله، ولم لا تتزوج من تعوضك عن خديجة بعض حُنُوِّها وعطفها؟!

وهل هناك من ستعوض محمداً عن خديجة بعض ما كان من حنوها له وعطفها عليه؟؟ وإن وجدت فمن تكون؟!

وسأل النبي ﷺ خولة عمن تعنيها بقولها هذا قائلاً: «**من؟**».

قالت خولة: إن شئت بكراً.. وإن شئت ثيِّباً..

وسأل محمد ﷺ خولة: «**فمَن البكر؟**».

أجابت خولة: أحق خلق الله بك، عائشة بنت أبي بكر.

عائشة بنت أبي بكر الطفلة الصغيرة الحدَثَةُ..؟!

وسأل رسول الله ﷺ خولة: «**ومن الثيب؟**».

أجابت خولة: سودة بنت زمعة، قد آمنت بك، واتبعتك على ما تقول، وقد مات عنها زوجها بعد أن عادا من هجرة الحبشة.

قال النبي ﷺ لخولة: «**فاذهبي فاذكريهما عَلَيَّ**».

وذهبت خولة إلى سودة فقالت لها: ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة؟!

فسألت سودة خولة بدهشة واستعجاب: وما ذاك؟

قالت خولة: أرسلني رسول الله ﷺ لأخطبك عليه.

قالت سودة مستبشرة: وددت!! اذهبي لأبي فاذكري ذلك له.

فلما ذهبت خولة لأبيها، وأخبرته قال: كفءٌ كريمٌ.

وذهبت خولة إلى دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فدخلت على أُم رومان، أم عائشة رضي الله عنهما، فقالت: يا أُم رومان، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة!

سألت أُم رومان: وما ذاك؟

قالت خولة بنت حكيم: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب له عائشة.

قالت أم رومان: انتظري أبا بكر حتى يأتي.

وجاء أبو بكر فقالت له خولة: يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة!!

قال أبو بكر: وما ذاك؟

قالت خولة: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة.

قال أبو بكر: وهل عائشة تصلح له، إنما هي ابنة أخيه.

وذهبت خولة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بما قال أبو بكر.

فقال ﷺ: «**ارجعي إليه فقولي له: أنت أخي وأنا أخوك في الإسلام، وابنتك تصلح لي**».

فلما عادت خولة إلى أبي بكر وأخبرته بما قال رسول الله، قال لها أبو بكر: انتظريني حتى أعود.

وقالت أم رومان تجلو الموقف لخولة بنت حكيم: إن المطعم بن عدي قد ذكر عائشة على ابنه جبير بن مطعم، ووالله ما وعد أبو بكر وعداً قط فأخلفه.

وعرفت خولة بنت حكيم أن أبا بكر قد ذهب ليرى مبلغ تمسك مطعم بن عدي بوعده معه حتى يمكنه أن يرد عليها بما تجيب به رسول الله ﷺ.

ودخل أبو بكر إلى المطعم بن عدي، وعنده امرأتُهُ أُم جبير، وكان المطعم وزوجته وابنه جبير لا يزالون على دين قومهم، دين الشرك بالله، وقالت امرأة المطعم لأبي بكر: يا ابن قحافة، لعلك مصبىء ولدنا، فتدخله في دينك الذي أنت عليه إذا هو تزوج من ابنتك.

فالتفت أبو بكر إلى المطعم بن عدي يستفسره عمَّا تقصد امرأته بقولها هذا، فقال له: ما تقول هذه؟؟

قال المطعم: إنها تقول ذاك الذي سمعت.

عندئذ استراح أبو بكر وعرف أنه قد بات متحرراً من وعده الذي وعده للمطعم من تزويج ابنه لعائشة، وغادر دار المطعم وقد أحس براحة ما بعدها راحة، وطمأنينة ما بعدها طمأنينة، لقد شعر بالارتياح الشديد، كأنه كان على موعد مع ربه ليجنبه مصاهرة أعداء الله المشركين.

وعاد أبو بكر رضي الله عنه، عاد إلى دار حيث ترك خولة في انتظاره، فقال لها: ادعي لي رسول الله.

ودعت خولة رسول الله إلى أبي بكر، فعقد له على عائشة.

وكانت الرؤيا التي رآها محمد ﷺ مرة، ثم عاد فرآها مرةً أخرى أمر من عند الله لأن النبي ﷺ قال يومها: **«إن كان هذا من عند الله يمضه»**، وكان أن أمضى الله أمره..

وزفت سودة بنت زمعة إلى رسول الله ﷺ، وانتقلت إلى داره تدير بيته، وترعى ابنتيه: أُم كلثوم وفاطمة. وبقيت عائشة بدار أبيها حتى تَشِبَّ، ويقوى عودها.



٥ ـ الطريق إلى المدينة

لم تنتقل عائشة رضي الله عنها على الفور إلى بيت النبوة، ولم يبنِ بها رسول الله ﷺ فور خطبتها.

كانت عائشة إذ ذاك دون السابعة من عمرها، كانت في عمر الطفولة والمرح، كانت في سن اللهو واللعب، ولكن اللهو واللعب لم يأخذاها إلى بعيد، فقد كان لها من تنشئة أبيها لها، ومما كسبته من حسن خلقه، وجميل صفاته، ما ارتفع بعقلها فوق عبث الأولاد، وهذر الطفولة، وما سما بخُلُقها فوق سفاسف الصغر وملاهيه.

فقد رأت عائشة أباها أبا بكر رضي الله عنه منذ تفتحت عيناها على الدنيا، وهو يدعو إلى الإسلام إلى جانب رسول الله ﷺ، وأسلمت منذ نعومة أظفارها، كما أسلمت أمها أُم رومان، وأختها أسماء، وأخوها عبدالله، فكانوا من المسلمين الأولين، وشاهدت دار أبيها وهي مَجْمَعٌ يجتمع فيه المؤمنون لترجيع آيات الله، ومقصِدٌ يَؤُمُّهُ ضعفاء المسلمين، فيجدون فيه ملجأً يحميهم من مطاردة المشركين لهم.

ورأت أباها وهو ينفق المال في سبيل الإسلام والمسلمين فيعتق الرقاب، مثل: بلال بن رباح، وينجد الإماء، ويخلص الموالي من تعذيب ساداتهم لهم محاولين بذلك فتنتهم في دينهم الجديد الذي اعتنقوه، واتبعوا محمداً ﷺ، حتى لكانت تسمع رسول الله ﷺ يقول عما كان ينفقه أبوها أبو بكر رضي الله عنه في سبيل الإسلام ودعوته من مالٍ: «**ما نفعني مالٌ قط ما نفعنا مال أبي بكر**».

فكان أبو بكر رضي الله عنه يبكي عند سماعه هذا القول من الرسول ﷺ ويقول: يا رسول الله، هل أنا ومالي إلاّ لك.

ومرّت الأيام، وعائشة في كل يوم منها تسمع من أبيها عن حادث جديد قد نال فيه سفهاء قريش وصعاليكها من رسول الله ﷺ، وتعرف منه كذلك ما كانوا ينالون من أبيها من السباب والأذى حينما يصدهم عن محمدٍ، وحينما يعمل على حمايته من أذاهم.

وسمعت عائشة الصغيرة أن مبايعات قد أُقيمت بين الرسول ﷺ وبين أنصار وأصحاب له في يثرب (المدين) سوف ينصرونه ويُؤَازرونه.

ومرت فترة أخرى من الزمن، كان أصحاب رسول الله يغادرون فيها مكة سراً من قريش بأمر الرسول ﷺ مهاجرين إلى المدينة، مخلفين من ورائهم ديارهم وأموالهم.

وها هو أبوها أبو بكر يسير إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن يأذن له في الهجرة كما أذن لغيره من المسلمين، فيقول له الرسول ﷺ: «**لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحباً**».

أحس أبو بكر رضي الله عنه بذكائه وفطنته أنه الصاحب، وأن رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله بالهجرة، فراح يعد نفسه، ويجهز أمره استعداداً ليوم الهجرة، فأعد راحلتين لذلك.

ولما ازداد عدد المهاجرين ووجدت قريش أن وجوهاً كثيرة من المسلمين تختفي من مكة بين عشية وضحاها كل يوم، وقدرت قريش - وقد رأت هؤلاء المهاجرين من المسلمين يتقاطرون سراً مغادرين مكة - قدرت أن محمداً لا بدّ أن يلحق بهم، وفي هذا خطر على ديانتهم وتجارتهم، وعلى ذلك اجتمعت جماعة من رؤساء قريش، ليقرروا ما يفعلون إزاء محمد ﷺ الذي أعياهم أمرَهُ.

وبعد مشاورات ومباحثاتٍ، قرروا أن يتخيروا شاباً من كل قبيلة منهم، وأن يقوموا جميعاً بقتله، وذلك حتى يتفرق دمه بين القبائل، ويتعسر على أهله المطالبة بدمه[1].

وبينما أبو بكر بداره بين أولاده، دق باب الدار، وخفَّ أصحاب المنزل ينظرون من الطارق، فإذا بالطارق رسول الله ﷺ، وأخذ العجب من أهل الدار مبلغاً عظيماً، فما في هذه الساعة عوَّدهم رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم، أما أبو بكر فقد قال في نفسه: ما جاء رسول الله في هذه الساعة إلاّ لأمرٍ حَدَثَ.

ودخل رسول الله ﷺ إلى دار صديقه وهو يسأله: «**من عندك يا أبا بكر؟**».

فأجاب أبو بكر: ولدي عبدالله، وابنتاي عائشة وأسماء، وما ذاك فداك أبي وأمي!!

ولما اطمأن النبي ﷺ إلى أنه لا يوجد في الدار أحد إلا من هم أهل لثقته قال: «**إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة**».

---

(١) انظر سيرة ابن هشام مجلد ١ ص٤٨٠ وما بعدها ط دار ابن كثير دمشق - بتصرف قليل.

فسأل أبو بكر الرسول عليه الصلاة والسلام قائلاً وبلهفة شديدة: الصحبة يا رسول الله؟؟

قال محمد ﷺ: «**الصحبة**».

وخرج الصاحبان إلى المدينة مهاجران، فلقيا في طريقهما عنتاً ما بعده عنت، ومشقةً ما بعدها مشقة.

وهاجر النبي ﷺ وصاحبه إلى المدينة، وكان أبو بكر لمحمدٍ نعم الصاحب، ونعم الرفيق. وتخلفت السيدة عائشة رضي الله عنها مع من تخلف من آل النبي ﷺ وآل أبي بكر.

ولما استقر ﷺ بالمدينة أرسل من يأتي بأهله وأهل أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين، وخرج الركب المهاجر.

ونترك السيدة عائشة رضي الله عنها تصف لنا هذه الرحلة المباركة فتقول:

لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة خلّفنا وخلّف بناته، فلما قدم المدينة بعث إلينا زيد بن حارثة وأبا رافع، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم، أخذها من أبي بكر، يشتريان بها ما يحتاجان إليه من الظهر، وبعث أبو بكر معهما عبدالله بن أريقط الليثي ببعيرين أو ثلاثة، وكتب إلى ابنه عبدالله يأمره أن يحمل أهله: أم رومان وأنا وأختي أسماء، فخرجوا، فلما انتهوا إلى قديد، اشترى زيد بتلك الدراهم ثلاثة أبعرة، ثم دخلوا مكة، وصادفوا طلحة يريد الهجرة بآل أبي بكر، فخرجنا جميعاً، وخرج زيد وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة وأُم أيمن وأسامة، فاصطحبنا جميعاً، حتى إذا كنا بالبيض فقد بعيري، وقدامي مخعة فيها أُمّي، فجعلت أُمّي تقول: وابنتاه، واعروساه، حتى أدرك بعيرنا، فقدمنا والمسجد يُبنى[(1)].

وفي رواية ثانية قالت: قدمنا مهاجرين، فسلكنا في ثنية ضعينة ـ اسم

---

(1) سير أعلام النبلاء جـ٢ ص١٥٢، وطبقات ابن سعد جـ٨ ص٦٨.

مكان ـ فنفر جمل كنت عليه نفوراً منكراً، فوالله ما أنسى قول أُمي: يا عُريسة، فركب بي رأسه فسمعت قائلاً يقول: ألقي خطامه، فألقيته، فقام يستدير كأنما إنسان قائم تحته[1].

نجت ابنة أبي بكر عروس رسول الله ﷺ، ونزل آل الرسول بمساكنه التي ابتناها عليه السلام، ونزل آل أبي بكر بالسنح حيث كان ينزل أبو بكر في بني الحارث بن الخزرج.

هكذا كانت الرحلة إلى المدينة شاقة، وهكذا كان الطريق إلى المدينة صعباً، لكن المدينة ذاتها كانت طيبة كاسمها «طَيبة» عندما استقبلت عروس رسول الله ﷺ.

❀ ❀ ❀

الزواج المبارك

تزوجني رسول الله ﷺ في شوال وبنى بي في شوال، فأي نساء رسول الله ﷺ كانت أحظى عنده مني[2]. [عائشة رضي الله عنها].

وما إن وصلت عائشة إلى المدينة، واستراحت من وعثاء السفر ومشقته، حتى هاجمها المرض، فمرضت مرضاً طويلاً شديداً، أتعبها وأرهقها، وجعل والديها يخافان من المرض على سلامتها، حتى لكأن أبا بكر يدخل إلى ابنته كل يوم يعودها ويقبّلها وهو يقول: كيف أَنتِ اليوم يا بنية؟!

وكان من هذا المرض أن سقط شعر عائشة بعدما أَبَلَّتْ، وكان منه أن تركها تشكو الهزال والضعف.

وبعد أن عوفيت عائشة واستردت صحتها، وعاد إلى وجهها لونه

---

(١) الطبراني ـ إسناده حسن في مجمع الزوائد.
(٢) رواه مسلم.

الطبيعي، سار أبو بكر إلى محمد ﷺ يقول: يا رسول الله ما يمنعك أن تبني بأهلك؟!

فأجابه محمد ﷺ: **«الصداق يا أبا بكر»**.

وقد كان يوم زفاف عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ يوماً عزيزاً على نفسها فتحدثت عن هذا اليوم قائلة: تزوجني رسول الله ﷺ لِستّ سنين، وبنى بي وأنا بنت تسع سنين.

قالت: فقدمنا المدينة فوعكت شهراً، فوفى شعري جميعه، فأتتني أُم رومان، وأنا على أرجوحة ومعي صواحبي، فصرخت بي، فأتيتها، وما أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي، فأوقفتني على الباب، فقلت: هه، هه، حتى ذهب نَفَسي، فأدخلتني بيتاً، فإذا نسوة من الأنصار، فقلن: على الخير والبركة، وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فغسلن رأسي، وأصلحنني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى، فأسلمتني إليه[1].

وواصلت السيدة عائشة حديث الذكريات عن زواجها برسول الله ﷺ فقالت في حديث آخر: لا والله ما نحرت عليّ من جذور ولا ذبحت من شاة، ولكن جفنة يبعث بها سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ، يجعلها إذ ذاك بين نسائه، فقد علمت أنه بعث بها[2].

أما النبي ﷺ فقد قدّم إلى ضيوفه اللبن مع الطعام، وذلك ما روته أسماء بنت يزيد الأنصارية، عندما قالت: كنّا فيمن جهّز عائشة وزفّها، فعرض علينا النبي ﷺ لبناً، فقلن: لا نريده، فقال النبي ﷺ: **«لا تجمعن جوعاً وكذباً»**[3].

وتقول أسماء بنت يزيد الأنصارية في حديث آخر عن زفاف عائشة

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم، ورواه البخاري في مناقب الأنصار برقم **٣٨٩٤** باب تزويج عائشة للنبي، ومسلم في النكاح برقم **١٤٢٢**ـ باب تزويج الأب البكر الصغيرة.

(٢) انظر السمط الثمين.

(٣) رواه أحمد **٤٥٩/٦**.

رضي الله عنها: إني قنيت ـ أي زيّنت ـ عائشة لرسول الله ﷺ، ثم جئته فدعوته لجلوتها، فجاء فجلس إلى جنبها، فأتى بِعُسّ لبن فشرب ثم ناولها النبي ﷺ، فخفضت رأسها واستحيت.

قالت أسماء: فانتهرتها، وقلت لها: خذي من يد النبي ﷺ.

قالت: فأخذت فشربت شيئاً، ثم قال لها النبي ﷺ: **«أعطي تربك»**[١].

وسئلت السيدة عائشة من أبي سلمة بن عبدالرحمن عن صداقها (مهرها) فقالت: كان صداقه لأزواجه ثنتي عشرة أوقية ونشاً.

قالت: أتدري ما النش؟

قال أبو سلمة: لا.

قالت عائشة رضي الله عنها: نصف أوقية، فتلك خمسمائة درهم، فهذه صداق رسول الله ﷺ لأزواجه[٢].



المنزل المبارك

أنزلت السيدة عائشة رضي الله عنها منزلاً مباركاً في حجرة ملاصقة لمسجد رسول الله ﷺ في المدينة، وهي واحدة من حجرات بناها ﷺ بنفسه عندما بنى المسجد بعد وصوله للمدينة، وهذه الحجرة المباركة لم تكن كأي حجرة أو مسكن، فهي مهبط الوحي، ومنبع العلم وفي هذه الحجرة المباركة دُفن النبي ﷺ وصاحباه أبو بكر وعمر، فهي قبر الرسول ﷺ.

---

(١) رواه أحمد ٤٥٨/٦.

(٢) رواه مسلم في النكاح ١٤٢٣، ورواه أحمد ٥٤/٦، ٢٠٦، والترمذي في النكاح برقم ١٠٩٣، وابن ماجه في النكاح برقم ١٩٩٠ باب: متى يستحب البناء بالنساء.

وتتحدث عائشة عن بركة مسكنها وحجرتها في حديث لها أخرجه الترمذي في المناقب، تقول رضوان الله عليها: لقد أُعطيت تسعاً ما أعطيتها امرأة بعد مريم ابنة عمران:

لقد نزل جبريل بصورتي في راحته حتى أمر رسول الله ﷺ أن يتزوجني.

ولقد تزوجني بكراً، وما تزوج بكراً غيري.

ولقد قبض رسول الله ﷺ ورأسه في حجري.

ولقد قبرته ﷺ في بيتي.

ولقد حفَّت به الملائكة ببيتي.

وإن كان الوحي لينزل عليه وإني لمعه في لحافه..[(١)].

وكانت حجرات النبي ﷺ تسع حجرات، كان منها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد النخل، وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لا حجر لها، على أبوابها مسوح الشعر، ذرعت الستر ما تستر به، فكان ثلاثة أذرع في ذراع[(٢)].

وقد ضُمت الحجرات إلى المسجد إلاّ حجرة السيدة عائشة، فقد بقيت لأن فيها دفن النبي ﷺ وصاحباه، ولا تزال إلى الآن في ظلال القبة الخضراء، ففيها دفن رسول الله ﷺ.

وعن هدم الحجرات يقول أحد العلماء: ليتها تركت فلم تُهدم حتى يقصر الناس عن البناء، ويروا ما رضي الله لنبيه ومفاتيح خزائن الدنيا بيده[(٣)].

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي جـ٢ ص١٤١.
(٢) هذا الوصف أورده الدكتور وهبي الزحيلي في كتابه سعيد بن المسيب سيد التابعين عن وصف لعمران بن أبي أنس.
(٣) المصدر السابق.

وقد كانت حجرة عائشة رضي الله عنها ومسكنها مهبطاً للوحي فقد شرفت تشريفاً عظيماً بنزول كثير من القرآن الكريم على النبي ﷺ فيها. وكان باب حجرة عائشة يؤدي إلى المسجد مباشرة.

ويروى أن النبي ﷺ كان يجلس بقرب باب غرفة عائشة فيمد رأسه الشريف من خلاله إلى عائشة رضي الله عنها وهي في حجرتها لتغسله له.

هذا ما روته عائشة رضي الله عنها فقالت: كان رسول الله ﷺ يخرج إليَّ رأسه من المسجد، وهو مجاور - أي معتكف - فأغسله وأنا حائض، وفي رواية فأرجِّل رأسه[1].

وإذا كنا نتحدث عن هذا الشرف العظيم والمكانة الرصينة لبنت أبي بكر رضي الله عنها، فلا نغفل أن جبريل عليه السلام كان يجيء إلى هذه الغرفة المباركة، وها هو النبي ﷺ ينادي عائشة رضي الله عنها ويقول: «**يا عائش، هذا جبريل وهو يقرأ عليك السلام**».

قالت: وعليه السلام ورحمة الله، ترى ما لا نرى يا رسول الله[2].

صلوات الله وسلامه عليه ورضي الله عن زوجه عائشة.

وهذه أم المؤمنين الفاضلة عائشة رضي الله عنها ترى دحية الكلبي، وكان صحابياً جميل الصورة، تراه قائماً يكلم الرسول ﷺ، ولم تدرك غير أنه «دحية الكلبي» الذي يعرفه كل المسلمين، فقالت رضوان الله عليها لرسول الله ﷺ: رأيتك يا رسول الله وأنت قائم تكلم دحية الكلبي.

فقال: «**وقد رأيته؟**».

قالت: نعم.

قال ﷺ: «**فإنه جبريل وهو يقرئك السلام**».

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه البخاري ٨٣/٧ في فضل عائشة، وفي بدء الخلق، باب ذكر الملائكة و٤٧٩/١٠ في الأدب، باب من دعا صاحبه فنقص من اسمه حرفاً وفي الاستئذان، ورواه مسلم ٢٤٤٧ ٩١ في فضائل الصحابة، وأبو داود ٥٢٣٢، والترمذي ٣٨٧٦.

قالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، جزاه الله من زائر ودخيل، فنعم الصاحب، ونعم الدَّخيل[(١)].

أي خلود يكون للمكان على الأرض ولكننا لا نجد له خلوداً إلا لمهبط الوحي، الذي أُنزل من رب العزة، فأصبح خالداً بحفظ الله، إذ يقول عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ فما زالت الألسنة رطبة به تتلوه قياماً وقعوداً وعلى جنوب الناس، ما زال يتلى عند الفجر، إنه قرآن الفجر الذي نزل أكثره في مسكن عائشة وفي حجرتها المتواضعة، هذا القرآن العظيم كان مشهوداً عندما كانت عائشة تسمع الرسول ﷺ وأصحابه يتلونه ولهم طنين كطنين النحل.

أي مسكن مبارك هذا يا ابنة الصديق، جاءه جبريل عليه السلام فتلا القرآن على محمد ﷺ وأنتِ معه في لحافه.

أي مسكن مبارك هذا يا ابنة الصديق: وقف فيه رسول الله ﷺ بين يدي ربه يناجيه، ويدعو تحت سقفه المبني بالجريد واللبن يدعو ربه أن يغفر لأُمته، ويشفع تحت سقفه لهذه الأمة.

أي مسكن مبارك هذا يا ابنة الصديق، كان يقيم فيه محمد الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل، وقرآن الفجر كان يرتله ترتيلاً سامعاً مطيعاً لأمر ربه متهجداً به نافلة له عسى أن يبعثه ربه مقاماً محموداً، نعم لقد أمره ربه بذلك كله فكان يؤدي جُلَّه عند عائشة رضي الله عنها، يقول رب العزة: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾[(٢)].

هذه الحياة الطاهرة الطيبة لم تكن في قصر مهيب، ولا في بناء رحيب، بل كانت في حجرة متواضعة بنتها يد النبي الشريفة، وعاشت فيها

---

(١) أخرجه أحمد ٧٤/٦، ٧٥، ١٤٦.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

الأسرة النبوية الكريمة، حياة الطاعة وأيام الإيمان، وما زالت تلقى في مكانها تحية الزائرين لرسول الله ﷺ، فيقفون أمام هذا المكان الطاهر الذي دفن فيه محمد ﷺ ليلقون عليه تحيته الواجبة ويصلون عليه ويسلموا تسليماً.

ولم تكن حجرة عائشة رضي الله عنها إلا كبنائها متواضعة الأساس، فقد كان فراش رسول الله ﷺ أدماً، حشوُهُ ليف[1]، ولم يكن لعائشة رضي الله عنها غير فراش واحد. وكان إذا ما أهدي لعائشة فراش حشوه صوف رده رسول الله ﷺ، ولو أراد ﷺ لمسكنه حريراً وذهباً لأُجيب.

وها هي امرأة من الأنصار تدخل على عائشة، فترى فراش رسول الله ﷺ، قطيفة مثنية، أخف من الصوف، فبعثت هذه الأنصارية إلى عائشة بفراش حشوه صوف، فدخل رسول الله ﷺ على عائشة فقال: **«ما هذا يا عائشة؟»**.

قالت: يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك، فذهبت فبعثت إليَّ بهذا..

فقال ﷺ: **«رُدِّيه يا عائشة، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة»**[2].

فلم يكن ﷺ مشغولاً بمال أو متاع، بل كانت رسالته في ماله ومتاعه.

وعلى الرغم من هذا الأثاث المتواضع فقد كانت عائشة رضي الله عنها، حريصة على ترتيب بيتها وحجرتها، وتزيينها، فقد كان في بيتها ثوب فيه تصاوير على حد تعبيرها في سياق حديثها، فوضعته إلى خزانة أو طاقة أو رفّ في البيت، فكان رسول الله ﷺ يصلي إليه، مواجهاً له، فقال عليه السلام لعائشة: **«يا عائشة أخريه عني»**.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) أخرجه البيهقي عن عائشة - انظر حياة الصحابة ٥٠١/٢.

فنزعته رضوان الله عليها فجعلته وسائد، وهذا ما روته عائشة رضي الله عنها عندما قالت: كان في بيتي ثوب فيه تصاوير، فجعلته إلى سهوة في البيت، فكان رسول الله ﷺ يصلي إليه، ثم قال: «**يا عائشة أخريه عني**»، فنزعته فجعلته وسائد[1].

وكما ذكرنا فقد كانت عائشة رضي الله عنها حريصة على تزيين حجرتها، وها هي تضع ستراً فيه تمثال طائر، وكان يستقبل الداخل إلى حجرتها، فقال لها رسول الله ﷺ: «**حوّلي هذا، فإني كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا**» وفي رواية: «**إن أصحاب هذه الصور يعذبون، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم، إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة، إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين**»[2].

ولنا أن نتصور حياة خاتم المرسلين محمد النبي الأمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، في هذه الحجرة المتواضعة الذي سجلت خلود الرسالة الطاهرة.



صورة ومشهد من هذا المسكن

كانت الزوجة الطاهرة تنام بين يدي رسول الله ﷺ، ترى ماذا يفعل وهو قائم يصلي في هذا المكان الصغير، وقد أطبق على هذا المكان الظلام، والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح ولا أنوار باهرة الضوء كأيامنا هذه، انظر إلى هذه الصورة الحياتية التي تلتقطها السيدة عائشة رضي الله عنها فتصف لنا لحظة كأننا نراها، وقد عاشتها مع الزوج الحبيب محمد ﷺ، تقول الصديقة الطاهرة: كنت أنام بين يدي رسول الله ﷺ، ورجلاي في قبلته، فإذا سجد غمزني، فقبضت رجليّ،

---

(١) رواه مسلم والنسائي واللفظ له.

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم.

فإذا قام بسطتها، قالت: والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح[1].

ولم يكن في بيت رسول الله ﷺ مصباحاً، لأنه لا يملك أن يشتري زيتاً أو دهناً يأكله ويجعله طعاماً لأهل بيته، فكيف يضيء مصباحه ولا يجد زيتاً لطعام أهله وبيته، صلوات الله وسلامه عليه، ورضي الله عن عائشة التي قالت: لو كان عندنا دهن مصباح لأكلناه[2].



التمر واللبن

ونجد في حديث عائشة رضي الله عنها عن الزيت الذي لا يجدوه للطعام، وكيف يضعوه في المصباح، نجد في هذا الحديث صورة لحياة السيدة أُم المؤمنين رضي الله عنها ومعيشتها، وها هو عروة بن الزبير ابن أختها أسماء يسأل عن المعيشة في بيت خالته عائشة رضي الله عنها وهي في بيت النبي ﷺ، فتقول له في صدق معهود بها وموروث من أبيها: ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال، ثم الهلال ثلاثة أهلّة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار.

فقال عروة: يا خالة ما كان يعيشكم؟

قالت عائشة: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت له منائح[3]، وكانوا يمنحون رسول الله من ألبانهم فيسقينا[4].

وتتحدث عائشة لسائلها الذي يقول: أنهى النبي ﷺ أن تؤكل لحوم الأضاحي فوق ثلاث؟

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد والطبراني واللفظ له.

(٣) جمع منحة وهي الهدية.

(٤) رواه البخاري.

قالت رضوان الله عليها: ما فعله إلا في عام جاع الناس فيه، فأراد أن يطعم الغني الفقير، وإن كنا لنرفع الكُراع فنأكله بعد خمس عشرة.

قيل: ما اضطركم إليه؟

فضحكت عائشة وقالت: ما شبع آل محمد من خبزِ برٍّ مأدوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله[1].

هذه هي حياة آل محمد ﷺ التي تحدثت عنها الصديقة رضوان الله عليها، وقد أكملت الصورة عندما قالت: توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد، إلاّ شطر شعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال عليّ، مللته ففني[2].

ويصدق حديثها وهي الصديقة رضوان الله عليها عندما يتحدث خادم هذا البيت الأمين أنس بن مالك، فيصف هذه المعيشة، معيشة النبي ﷺ، فيقول أنس: مشيت إلى النبي ﷺ بخبز شعير وإهالة سنخةٍ، ولقد رهن له درع عند يهودي بعشرين صاعاً من طعام أخذه لأهله، ولقد سمعته ذات يوم يقول: «**ما أمسى عند آل محمد صاع من تمر، ولا صاع حب وإن عنده يومئذ لتسع نسوة**»[3].



أريد الله ورسوله

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) أخرجه البخاري، ورواه الترمذي.

كانت حياة النبي ﷺ متصلة بالعبادة وتبليغ الرسالة، ولم تكن الدنيا ومتاعها همّاً يهتمُّ له رسول الله ﷺ، ولذلك فقد حمل شدة العيش أمهات المؤمنين ومرة جاء نسوة النبي ﷺ واجتمعن على أن يسألن رسول الله ﷺ توسيع النفقة عليهن، فغضب عليه الصلاة والسلام منهن، واعتزلهن في مشربة له - وهي غرفة عالية - ثم أمره ربُّ العزة أن يخيرهن بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله في ذلك الأجر العظيم والثواب الجزيل، فاخترن رضي الله عنهن الله ورسوله والدار الآخرة، فأي خير أكمل من خير الدنيا وسعادة الآخرة.

وتروي السيدة عائشة رضي الله عنها تخييرها عند نزول الآيات الكريمة التي صدرناها، فقال ﷺ لعائشة: «**إني ذاكر لك أمراً فلا عليك ألاّ تعجلي حتى تستأمري أبويك**».

قالت: قد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه.

قالت عائشة: ثم قال عليه السلام: «**إن الله عز وجل قال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾».

قالت: أفي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة.

قالت: ثم فعل أزواج رسول الله ﷺ مثل ما فعلت[(١)].

لقد اختارت عائشة رضي الله عنها الله ورسوله والدار الآخرة، وتركن اختيار الحياة الدنيا وزينتها، وكذلك أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، وقد أُعد للمحسنات منهن أجراً عظيماً، لأنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر تفسير ابن كثير للآية ٤٨١/٣، والحديث متفق عليه واللفظ لمسلم.

العروة الوثقى

أحبَّ الرسول ﷺ زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق، فهي الزوجة الحبيبة، والطفلة الخفيفة المليحة.

وكان ﷺ طالما يؤكد هذا الحب لزوجته الصبية الصغيرة، فيقول عليه السلام للصديقة رضوان الله عليها: «**حُبُّك يا عائشة في قلبي كالعروة الوثقى!**».

وكانت رضوان الله عليها ما تفتأ تسأل زوجها بين الحين والآخر: أما زالت العروة الوثقى يا رسول الله.

فيجيبها صلوات الله وسلامه عليه: «**إنها باقية لم تتبدل ولم تتغير**».

هكذا كان حب الرسول ﷺ لعائشة منذ أن تزوجها وهي صبية صغيرة، وهكذا ظلَّ حتى مات عليه السلام، وتخير الرفيق الأعلى من الجنة.

كان ﷺ يشمل عائشة رضي الله عنها برفقه وعطفه، فكان رفيقاً بها كل الرفق، عطوفاً عليها كل العطف، معجباً بها كُلَّ الإعجاب، وكان من رفقه بها أنّه لم يزجرها قط وهي صغيرة عن لعب لَعِبته، أو لهو أتته، ذلك ما روته عائشة بنفسها حين قالت: كنت ألعب بالبنات(١)، فيجيء صواحبي، فينقمعن من رسول الله ﷺ، فيخرج رسول الله فيدخلن عليَّ، وكان يسربهنَّ إليَّ، فيلعبن معي(٢).

وكان ﷺ إذا دخل عليها ووجد معها صاحبات لها يلعبن معها خرج حتى لا يعكر عليهن اللَّعب.

وكان ﷺ فوق ذلك يعمل على ألا يحرمها من شيء تتوق نفسها

---

(١) البنات: هي من اللعب التي تلعب بها.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٥٤٣/١٠، حديث رقم ٦١٣٠ باب الانبساط إلى الناس، ومسلم في فضائل الصحابة برقم ٢٤٤٠ باب فضل عائشة.

لرؤيته، حتى اللعب، بل كان يعمل على مساعدتها في ذلك، فقد أقام ببابها يوماً يسترها بردائه حتى تنظر من بين أُذُنِهِ وعاتقه على جماعةٍ من الحبشة يلعبون بالحراب، فظل كذلك حتى أشبعت عائشة شوقها، وكفَّت رغبتها من التفرج، فقام من أجلها حتى تنصرف.

وذات يوم خرجَتْ عائشة رضي الله عنها مع النبي ﷺ في أحد أسفاره، فأغراها الفضاء ومنظر الصحراء المترامية الأطراف، أغراها هذا المنظر الممتد بأن تجري وتمرح، فتسابقت مع الرسول ﷺ فسبقته، فلما كانت في سفرةٍ أُخرى، وكانت عائشة قد نمت وامتلأ جسمها، تسابقت مع الرسول ﷺ فسبقها، فجعل الرسول ﷺ يضحك ويقول لها: «**هذه بتلك..!!**»[(١)].

وكان من عطفه ورقته صلوات الله وسلامه عليه، أنه كان إذا دخل عليها وهي نائمة خرج بهدوء لئلا يقطع عليها نومها.

❀ ❀ ❀

أشركاني في سلمكما

كان كثيراً ما يشتد أبو بكر على عائشة رضي الله عنها، أو يعنفها في أمر من الأمور، في سبيل راحة الرسول ﷺ، وكان الرسول ﷺ ربما يمنعه عنها، ويحول بينه وبين ابنته عائشة رضي الله عنها.

وقد حدث أن شكا النبي ﷺ يوماً عائشة إلى أبيها، فغضب أبو بكر على عائشة وضربها ضربةً موجعة، فتألم الرسول ﷺ لذلك، وقال لأبي بكر لائماً: «..**غفر الله لك يا أبا بكر! ما أردت هذا...**».

فلما انصرف أبو بكر أقبل ﷺ على زوجته الحبيبة عائشة يراضيها، ويطيِّب خاطرها وهو يقول: «**ألا ترين أنني قد حلت بين الرجل وبينك..؟!**».

---

(١) النسائي في عشرة النساء ٧٤/٢، أحمد في المسند ٣٩/٦.

وعاد أبو بكر رضي الله عنه فوجد الرسول ﷺ يضاحك عائشة ويفاكهها فقال: يا رسول الله، أشركاني في سلمكما كما أشركتماني في حربكما[1].

❀ ❀ ❀

ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر

ولم يكن هذا الموقف هو الوحيد بين أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبين ابنته عائشة رضي الله عنها، فقد خرجت مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كانوا بالبيداء، وفي مرقع استراحة الجيش، انقطع عقد عائشة رضوان الله عليها، فأقام الرسول ﷺ على التماسه والبحث عنه، وقام الناس معه يبحثون عن العقد، ولم يكن معهم ماء يكفيهم، فأتى الناس أبا بكر رضي الله عنه فقالوا: أما ترى ما صنعت ابنتك عائشة، أقامت برسول الله وبالناس، وليسوا على مقربة من ماء وليس معهم ماء!!

تقول عائشة عن هذا الموقف: فعاتبني أبو بكر، فقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان النبي ﷺ على فخذي، فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم﴾ [المائدة: ٦].

فقال أسيد بن الحضير ـ وهو أحد نقباء الأنصار ـ: ما هذا بأول بركتكم يا آل أبي بكر!

قالت عائشة رضي الله عنها: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فوجدنا العقد تحته. متفق عليه[2].

---

(١) أخرجه أبو داود برقم ٤٩٩٩ في الأدب. باب ما جاء في المزاح ـ قال الذهبي إسناده قوي.

(٢) الحديث في «الموطأ» ١/٧٤ بشرح السيوطي، وأخرجه البخاري ١/٣٦٥ في التيمم=

طرائف عن عائشة في الغيرة

إنّه لأمر طبيعي حب المرأة الاستئثار بقلب زوجها وبحبه، وإنّه من المسلّمات لمن تحب زوجها كحب الصديقة لزوجها النبي ﷺ، وتعزه كإعزازها له، وتُعجَب به كإعجابها به، أن تغار عليه إذا ما رأت امرأة سواها قد شاركتها في حبه، وأن تتألم نفسها إذا ما أحست أن غيرها يقاسمها الإعزاز له، والإعجاب به، وكانت عائشة أكثر من هذا وذاك، فقد كانت غيرتها على محمد ﷺ قوية عارمة شديدة، وكان ألَمُها عنيفاً قاسياً.

وكانت عائشة رضي الله عنها محقة في غيرتها على الحبيب، لأن محمداً ﷺ كان خير الأزواج، طيب العشرة، لين العريكة، ومن لطفه ﷺ أنّه كان يمازحهن ويضاحكهن، وفي ذلك تقول عائشة رضي الله عنها: أتيت النبي ﷺ بخزيرة قد طبختها له، فقلت لسودة والنبي ﷺ بيني وبينها: كلي، فأبت، فقلت: لتأكلين أو لألطخنّ وجهك، فأبت، فوضعت يدي في الخزيرة فطليت وجهها، فضحك النبي ﷺ، فوضع يده لها وقال لها: «**الطخي وجهها**» ففعلت، فضحك النبي ﷺ، فمر عمر، فقال: يا عبدالله يا عبدالله، فظنّ أنّه سيدخل، فقال: «**قوما فاغسلا وجوهكما**»، قالت عائشة: فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ[1].

هذا هو الزوج الرقيق، محمد ﷺ، الذي كان لطيفاً مع أزواجه يمازحهن ويضاحكهن.



= و٨/٢٠٥ في التفسير، و٧/٢٦ في فضائل الصحابة، و٩/٣٠٠ في النكاح، و١٢/١٥٤ في الحدود، ومسلم ٣٦٧ في الحيض: باب التيمم.

(١) رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح خلا محمد بن عمرو، وحديثه حسن كما في مجمع الزوائد.

مع حديث أم زرع

وفوق ذلك كان رسول الله ﷺ مستمعاً جيداً لحديثهن، ومن طريف ما سمع الرسول ﷺ من سمر عائشة هو حديث أم زرع، فقد كان سمراً طريفاً، وحديثاً شائقاً، أحسن سماعه وأجابها بما يرضيها في النهاية قائلاً: **«كنت لك كأبي زرع لأم زرع، إلاّ أنه طلقها، وإني لا أُطلقك»**.

يقول الحديث الشريف، أو قصة هذا الحديث الطريفة الذي ترويه عائشة فتقول: جلست إحْدَى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً.

قالت الأولى: زوجي لحم جمل غثٌّ[1]، على رأس جبل وعر، لا سهل فيُرتقى، ولا سمين فيُنتقل.

وقالت الثانية: زوجي لا أبث خبره، إني أخاف أن لا أذره، إن أذكره أذكر عُجره وبُجره[2].

وقالت الثالثة: زوجي العَشَنَّق[3]، إن أنطِقْ أُطَلَّق، وإن أسكت أُعلق.

وقالت الرابعة: زوجي كَلَيْلِ تهامة، لا حرٌّ ولا قرٌّ، ولا مخافة ولا سَآمَةَ.

قالت الخامسة: زوجي إن دخل فَهِد، وإن خرج أَسِدَ، ولا يسأل عما عَهِد[4].

قالت السادسة: زوجي إن أكل لف، وإن شرب اشتفَّ[5]، وإن اضطجع التفَّ، ولا يولج الكف ليعلم البث.

---

(١) غث: مهزول.

(٢) عجره وبجره: عيوبه الظاهرة والباطنة.

(٣) العشنق: الطويل بلا نفع.

(٤) هذا مدح بليغ أن زوجها كريماً في بيته، شجاعاً مع أصحابه إذا خرج كالأسد.

(٥) لف: اللف في الطعام والإكثار منه، واشتف بمعنى شرب كل ما في الإناء.

قالت السابعة: زوجي غياياء طباقاء، كل داء له داء، شجّك أو فلّك أو جمع كُلاً لك.

قالت الثامنة: زوجي الريح ريح زَرْنب[1]، والمس مسُّ أرنب.

قالت التاسعة: زوجي رفيع العماد، طويل النجاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد.

قالت العاشرة: زوجي مالك وما مالك، مالك خير من ذلك، له إبل كثيرات المبارك[2]، قليلات المسارح، إذا سمعن صوت المزهر[3] أَيقنَّ أَنهن هوالك.

قالت الحادية عشرة: زوجي أبو زرع، وما أبو زرع، أَناس[4] من حُلّي أُذني ومَلأَ من شحم عضدي، وبَجَّحَني فَبَجِحَت إليَّ نفسي، وجدني في أهل غُنَيْمَةٍ بشقٍّ، فجعلني في أهل صهيل وأُطيط ودائس ومُنقٍّ[5]، فعنده أقول فلا أُقَبَّحُ، وأرقد فأتصبح، وأشرب فَأَتَقَنَّح - بمعنى أنه لا يقبّح قولي فيُرَد بل يقبل مني، وأتصبح بمعنى أنام بعد الصبحة لأنها مكفية بمن يخدمها، وأشرب فأتقنح أي أنني أشرب حتى أدع الشراب -.

وقالت أمّ زرع: أُم أبي زرع فما أُم أبي زرع عُكُومُها رَدَاح - بمعنى أواني طعامها واسعة كبيرة دليل على كرمها - وبيتها فَسَاح.

وتواصل عائشة سرد حكايات أم زرع وصاحباتها والرسول ﷺ يسمعها وما زال الحديث مع أم زرع فقالت:

---

(١) شجّك أو فلّك: معناه: إنه معه على شج الرأس والجراح فيه.

(٢) له إبل كثيرات المبارك: إبلٌ كثيرٌ فهي باركة، تنتظر ضيوفه.

(٣) صوت المزهر: موقد النار.

(٤) أناس: حرّك.

(٥) في أهل صهيل كناية عن الخيل، وأطيط صوت الإبل، ودائس ومنق: كثرة الرعي والمواشي، أي صاحبه زرع وغنم وخيل وإبل - أي أعطاها مال كثير. انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج١٥ ص٢١٧، ٢١٨، ط دار إحياء التراث، بيروت.

ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع، مَضْجَعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ[1] ، ويشبعه ذراع الحفرة[2] .

بنت أبي زرع فما بنت أبي زرع، طوع أبيها وطوع أمها، وملء كسائها[3] وغيظ جارتها[4] .

جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع، لا تبث حديثنا تبثيثاً[5] ، ولا تُنَقِّث ميرتنا تنقيثاً[6] ، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً[7] .

هكذا وصفت أُم زرع بيت أبي زرع وأسرته: أُمه وبناته وأبنائه وحتى جاريته، ثم تحدثت فقالت: إن أبا زرع خرج فلقي امرأة فتزوجها ثم طلقني... - فتزوّجت من بعده رجلاً كريماً أعطاها المال وكل شيء أرادت... - ولكن أم زرع قالت: فلو جمعت كل شيء أعطاني؛ ما بلغ أصغر آنية أبي زرع، أي كل هذا لا يعادل أصغر شيء عند أبي زرع.

فقال رسول الله ﷺ لعائشة في نهاية هذا السمر اللطيف: **«كنت لك كأبي زرع لأُم زرع، إلاّ أنه طلقها، وإني لا أطلقك»**[8] .

ويقول الإمام النووي في شرحه الرائع لحديث أم زرع الذي حدثته عائشة للرسول: قوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها **«كنت لك كأبي زرع لأُم زرع...»** هو تطييب لنفسها وإيضاح لحسن العشرة.

---

(١) مضجعة كَمَسَلِّ شطبة: كالسيف سل غمده.

(٢) ويشبعه ذراع الجفرة: قليل الأكل.

(٣) مل كسائها: ممتلئة الجسم سمينة.

(٤) غيظ جارتها: غيظ ضرتها مما ترى فيها من حسن وجمال، وعفة وأدب.

(٥) لا تبث حديثنا تبثيثاً: تكتم سرنا ولا تظهره.

(٦) ولا تنقث ميرتنا تنقيثاً: الميرة الطعام المحلوب ومعناه لا تفسده ولا تذهب به، ومعناه وصفها بالأمانة.

(٧) ولا تملأ بيتنا تعشيشاً: نظيفة لا تترك القمامة. انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج١٥ ص٢٢٠.

(٨) رواه مسلم وهو بكامله في مسند عائشة وشرحه النووي في الجزء «١٥» من شرحه من ص٢١٢ الطبعة الثالثة ١٩٨٤.

ولهذا الحديث فوائد يوردها النووي فيقول:

١ ـ استحباب حسن المعاشرة للأهل.

٢ ـ جواز الإخبار عن الأمم الخالية وأن المشبَّهُ بالشيء لا يلزم أن يكون مثله في كل شيء.

٣ ـ ومنها أن كنايات الطلاق لا يقع بها طلاق إلاّ بالنية، لأن النبي ﷺ قال لعائشة: **«كنت لك كأبي زرع لأم زرع»**، ومن جملة أفعاله أنه طلّق امرأته أم زرع كما سبق ولم يقع على النبي ﷺ طلاق بتشبيهه لكونه لم ينوِ الطلاق.

وفي تعليقه على هذا الحديث يقول الإمام النووي بصورة مجملة: إنّ هؤلاء النسوة ذكر بعضهن أزواجهن بما يكره، ولم يُعد ذلك غيبة، لكونهم لا يعرفون بأعيانهم أو أسمائهم وإنما الغيبة المحرمة أن يذكر إنساناً بعينه أو جماعة بأعيانهم، وإنما يحتاج إلى هذا الاعتذار، لو كان النبي ﷺ سمع امرأة تغتاب زوجها وهو مجهول فأقر على ذلك، وأما هذه القضية فإنما حكتها عائشة عن نسوة مجهولات غائبات[1]، لكن لو وصفت اليوم امرأة زوجها بما يكرهه وهو معروف عند السامعين كان غيبة محرمة، فإن كان مجهولاً لا يُعرف بعد البحث، فهذا لا حَرَجَ فيه عند بعض العلماء والفقهاء، ولا يكون غيبة ما لم يسم صاحبها باسمه أو ينبه عليه بما يفهم به عنه. وهؤلاء النسوة مجهولات الأعيان والأزواج لم يثبت لهن إسلام فيحكم فيهن بالغيبة لو تعين، فكيف مع الجهالة.

وهذا الحديث الشريف (حديث أُم زرع) يدل على أن النبي ﷺ كان

---

(١) النسوة اللائي شاركن في هذا الحديث عن الأزواج هن إحدى عشر: أم زرع بنت أكهل بن ساعد وهي الحادية عشرة ـ الثانية اسمها عمرة بن عمرو، والثالثة: حِنى بنت لغب، والرابعة: مهدد بنت أبي مزرمة، والخامسة كبشة، والسادسة هند، والسابعة حنى بنت علقمة، والثامنة بنت أويس بن عبدو، والعاشرة كبشة بنت الأرقم ـ انظر أسمائهن أوردها النووي عن الخطيب البغدادي في كتابه المبهمات ـ انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ١٥ ص٢١٢.

مستمعاً جيداً لأحاديث أزواجه، ومنهن عائشة رضي الله عنها.

وكان رسول الله ﷺ بأزواجه رحيماً رفيقاً، وبهذا قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة، ولا خادماً...» رواه مسلم.

وكان رسول الله يسوي بينهن في المعاملة، حتى إنه ليقترع بينهن إذا أراد سفراً ليختار التي تصحبه منهن، ويقسم بينهم بالعدل، ويقول: **«اللّهم هذه قسمتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»**(١).

وهنا يقصد حبه لأزواجه، وعلى رأسهن عائشة رضي الله عنها.

وقد كان النبي ﷺ يجاهد في سبيل أن يسوي بين زوجاته بالمودة والمحبة، فلم يستطع، لأن ذلك منوط بالقلب، ولا سلطان للإنسان على قلبه، وإلى هذه الحقيقة تحدث القرآن الكريم: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وذلك أيضاً مما تحدثت عنه الآية الكريمة: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩].

هذا الحب العظيم، وهذا الرجل الكريم الذي وصفت أخلاقه في القرآن بالعظيمة، فقال رب العزة عن الرسول ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤]، هذا الرجل كان حَرِيّاً بعائشة أن تغار عليه. وقال عز وجل عن أخلاقه الكريمة ولين جانبه ومجمل أخلاقه التي جعلت الناس يلتفون حوله ويحبونه، فقال عز وجل عن هذا الرجل العظيم الخلق: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

امتلأ قلب عائشة رضي الله عنها حُبّاً للزوج الكريم محمد ﷺ،

---

(١) رواه أصحاب السنن من حديث عائشة.

فأصبح كلَّ كيانها لخلقه العظيم، حتى إنها عندما سئلت عن رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن.

وأمر طبيعي لمن تحب زوجها كحب عائشة لمحمد ﷺ، وتعزه كإعزازه لها، وتعجب به كإعجابه بها، أن تغار عليه إذا ما رأت امرأة سواها قد شاركتها في حبّه، وأن تتألم نفسها إذا ما أَحست أن غيرها يقاسمها الإعزاز له، والإعجاب به.

وكانت عائشة رضي الله عنها أكثر من هذا وذلك، فقد كانت غيرتها على زوجها قوية عارمة شديدة.

ولم تقتصر غيرة عائشة على النساء اللاّتي قضت الظروف على النبي ﷺ أن يتزوجهن من بعدها، بل تعدتهن إلى خديجة زوجة النبي ﷺ الأولى التي لم ترها ولم تعاشرها، والتي ماتت قبل أن يُعقَد لها على النبي ﷺ.



غيرتها من خديجة رضي الله عنها

علمنا أن النبي ﷺ قال لعائشة حين تزوج بها: «**يا عائشة: رأيتك في المنام مرتين، أرى رجلاً يحملك في سرقة من حرير، فيقول: هذه امرأتك، هذه تذهب بعض حزنك، وإنَّ في هذه خَلَفاً لخديجة، فأَكشِفُ عنها فإذا هي أنت! فأقول: إن يك هذا من عند الله يمضه**».

لقد زوَّجها الله إذن لمحمد، وارتضاها له لتعوضه عن فقد خديجة، ولتُذْهب عنه بعض ما يشعر به من الحزن على خديجة.

وقد كان، فها هي تحب محمداً الحب كله، وترى نفسها تعمل كل ما تراه يحبه، وتأتي ما تُحِسُّ أَنَّه يريده، ثم إنَّها لتراه يحبها، ويرفق بها، ويعملُ ما في وسعه لإسعادها؛ ثم إنَّه كثيراً ما أَكَّدَ لها هذا الحبَّ بالقول والعمل، وطالما أسمعها عباراتِ الإعزاز التي كانت تملؤها سعادة، وتشيعُ

بنفسها الإعزاز والفخر، ولكن. . . ما بال محمدٍ مع كل هذا الذي عندها، وكل هذا الذي عنده لا يكفُّ عن ذكر خديجة رضي الله عنها. .

تلك الزوجة الأُولى التي كبرَت وأسنت قبل أن تموت، ولا يَكُفُّ عن تعداد ذِكرِ فضائلها، وسرد مناقبها، حتى إِنَّهُ ليفرح كل الفرح إذا ما رأَى قريباً من خديجة، أو صديقة لها، ويُسَرُّ كل السرور إذا ما أتاه أَحَدٌ ممن كانوا يأتون أيام خديجة. .

ثم إنه ﷺ إذا ما ذَبَحَ شاةً لأهله يقول: «**أرسلوا إلى أصدقاء خديجة!**».

وإذا ما كلَّمته عائشة في ذلك قال: «**إني لأُحبُّ حبيبها**».

ما بال محمدٍ لم ينسَ خديجة رضي الله عنها، مع ما قدمت إليه عائشة من صبا وشباب وجمال، ورغم ما أولته من حُبٍّ وتقدير وإِعزاز. . . ؟!

وتألمت نفس عائشة، وزحفت إلى قلبها غيرَةٌ قاسية مؤلمةٌ جعلت تنهش صدرها، وتصهر كيانها من تلك الزوجة الأُولى التي لم ترها ولم تعاشرها، والتي كانت تلقبها أحياناً إذا ما رأت محمداً يشيد بذكرها: بالعجوز.

ونتيجة لهذا الألم، وهذه الغيرة، كانت تتملك نفس عائشة ثورة عنيفة، كلما رأت زوجها يذكر خديجة رضي الله عنها، لا تملك معها إلا أن تخاطب محمداً ﷺ بما تحاول به أن تصرفه عن ذكرها، والتحدث في شأنها، وفي إحدى هذه الثورات التي كانت نار الغيرة تشعلها في نفس عائشة قالت لمحمدٍ: هل كانت إلا عجوزاً هلكت في الدَّهر، قد أبدلك الله خيراً منها. . ؟!

فغضب محمد ﷺ من قول عائشة غضباً ما رأت عائشة محمداً قط يغضبه، وتغير وجهه تغيُّراً ما شاهدته عليه إلا عندما تعتريه شدّة نزول الوحي عليه، وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا والله، ما أبدلني الله خيراً**

منها: آمنت بي إذ كفر النّاس، وصدّقتني إذ كذبني النّاس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء»[1].

حينئذ كفت عائشة عن التعريض بخديجة رضي الله عنها، وقد رأت زوجها الحبيب يغضب كل هذا الغضب لأجلها، وإن ظلت من بعد ذلك رغم تعدد ضرائرها، تردد قولها: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، لما كنت أسمعه يذكرها.

وتتحدث عائشة رضي الله عنها عن هذا الموقف في موضع آخر فتقول: فرأيته غضب غضباً، أُسقطتُ في خلدي (القلب والنفس) وقُلْتُ في نفسي: اللهم إن أذهبت غضب رسولك عني لم أعد أذكرها بسوء.

فلما رأى النبي ﷺ ما لقيت قال: «**كيف قلت؟ والله لقد آمنت بي إذ كذّبني النّاس، وآوتني إذ رفضني الناس، ورزقت منها الولد وحرمتموه مني**».

قالت: فغدا وراح عليّ بها شهراً[2].

ولربما تجد عائشة رضي الله عنها كأُنثى لها فطرتها، ربما تجد ما تبرر به غيرتها حين تقول: ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، مما كنت أسمع من ذكر رسول الله ﷺ لها، وما تزوجني إلا بعد موتها بثلاث سنين، ولقد أمره ربُّه أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب[3].

ويعجب الذهبي رحمه الله من هذه الغيرة التي بدت على الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله ﷺ، فيقول: وهذا من أعجب شيء أن تغار

---

(١) أخرجه ابن عبدالبر في الاستيعاب، وأخرجه أحمد ١١٧/٦، ١١٨ بلفظ. وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرمني ولد غيرها ـ قلت: والله لا أعاتبك فيها بعد اليوم.

(٢) إسناده حسن، ونسبه الحافظ في الإصابة: ٢١٧/١٢، ٢١٨ إلى كتاب: الذرية الطاهرة للدولابي.

(٣) أخرجه البخاري ١٠٢/٧، ١٠٣، ومسلم ٢٤٣٥ـ وهي تقصد حديث رسول الله عن خديجة: «**وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب**» والبشارة عن جبريل ـ متفق عليه.

رضي الله عنها من امرأة عجوز توفيت قبل أن تتزوج النبي ﷺ، فهذا من إلطاف الله بها وبالنبي ﷺ، لئلا يتكدَّر عيشها، ولعله إنما خفَّفَ أمر الغيرة عليها حب النبي ﷺ لها وميله إليها فرضي الله عنها وأرضاها[1].

ولم يكن لعجَب الذهبي رحمه الله مبرراً - في شأن تعليقه على غيرة عائشة رضي الله عنها، فقد علّق الشوكاني رحمه الله على هذا الموطن فقال: سبب الغيرة ما كانت تسمعه من ثناء رسول الله ﷺ على خديجة، وتفخيمه لشأنها كما سبق في ترجمتها رضي الله عنها، فلا عجب إذن.

ولا تنتهي مرويات غيرة عائشة من خديجة رضي الله عنها، فقد قالت رضي الله عنها: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ، وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ: «**من أنت؟**».

قالت: أنا جثامة المزنية.

فقال: «**بل أنت حُسَّانة المزنية، كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟**».

قالت: بخير، بأبي أنت وأُمي يا رسول الله.

فلما خرجت قلت: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟

قال: «**إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان**»[2].

ولم تستطع عائشة رضي الله عنها أن تفتح قلبها لبنات محمد ﷺ من خديجة، وكأنها قد ظلت تتمثل فيهن تلك الزوجة التي قال فيها محمد: «**ورزقني منها الولد دون غيرها من النساء**».

كذلك لم تستطع بنات النبي ﷺ أن يتجاوبن بروحهن معها، وقد أحسسن بما تحس به نحوهن ونحو أُمهن.

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء جـ٢ ص١٦٥.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/١٥، ١٦، وانظر فتح الباري ١٠/٣٦٥.

ولكن إذا كانت عائشة رضي الله عنها لم تستطع أن تنسي محمداً خديجة، فظل يُجلُّها ويقدس ذكراها وفاءً منه لها، لما كانت تحتله من نفسه من منزلة رفيعة عالية، فما بالها تسكت على هؤلاء الضرائر اللآتي تزوجهن محمد من بعدها...؟!

❁ ❁ ❁

أول الضرائر وآخرهن

كانت أول مَنْ دخل دار محمد ﷺ على عائشة من الضرائر حفصة بنت عمر رضي الله عنها.

وآلم ذلك عائشة وأمضها، فحفصة رغم أنها لا تتمتع بجمال ملحوظ يضارع بعض ما تتمتع به عائشة، فإنها شابة فتية، تخاف عائشة أن تنال من نفس الرسول ﷺ ما لم تنله سودة المسنة العجوز، ثم هي تضارعها في النسب والشرف، فهي ابنة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وسكتت عائشة تجاه حفصة على مضض، فقد علمت أن الرسول ﷺ ما تزوجها إلا ليكرمها بعدما نكبت بوفاة زوجها المجاهد في سبيل إعلاء راية الإسلام، وهو خنيس بن حذافة السهمي، وليكرم أباها عمر الذي كانت مكانته تلي مكانة أبي بكرٍ في نفسه.

ومن بعد حفصة جاءت إلى دار النبي ﷺ زينب بنت خزيمة الملقبة بأم المساكين، ولم تأبه عائشة كثيراً لزينب، فقد كادت أن تتخطى سن الشباب، وكان بها طيبة وبها كرم يشغلانها بفعل الخير وبرِّ المساكين، وما تزوجها النبي إلا رحمة بها وشفقة عليها، بعدما استشهد عنها زوجها في غزوة أُحد، ولم تلبث زينب طويلاً حتى ماتت دون أن تترك في نفس عائشة وغيرها ممَّن عاشرتهن بدار الرسول ﷺ إلا أثراً قلبلاً.



وجاءت المخزومية

لم يمض وقت طويل حتى نزلت بدار زينب بنت خزيمة أم المساكين من كان لها أكبر الأثر في نفس عائشة ونفس حفصة معها، وكانت هذه أم سلمة المخزومية التي - وإن كانت قد تخطت سن الشباب - لها شخصية قوية، وما زالت تحتفظ بقسط كبير من الجمال.

والحق يقال: إنه بالرغم من أن عائشة كانت تُحِسُّ بما يكن لها الرسول ﷺ من إعزاز، وتُسَرُّ وتَفْخرُ إذ يقول فيها لما يعجبه من ندرة مزاياها ووفرة فضائلها: «**إن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام**»[1].

وبالرغم من أنها كانت تفخر بحظوتها عند زوجها فتقول: أية امرأة كانت أحظى عند زوج مني..؟

وبالرغم من ذلك كله لم تستطع أن تمنع نفسها من الغيرة من ضرائرها، ولم تستطع أن تكتم غيرتها هذه، حتى لكانت تظهر عليها فيلحظها الرسول ﷺ، وإذ سألها يوماً وقد لحظ غيرتها: «**أغرت؟**».

كان جوابها صادقاً لأنها صديقة فقالت: وما لي أَن لا يغار مثلي على مثلك؟!!

إنَّه حقٌّ..! ما لعائشة لا تغار على زوجها الرسول الذي تفتحت عيناها على حبه وإجلاله والإعجاب به..؟

ما لها لا تغار على رَجُلها الحبيب وهي البكر الوحيدة التي تزوجها الرسول ﷺ، ولم تعرف رجلاً غيره من قبل..؟

وهكذا كانت غيرة عائشة قاسية، عنيفة، حادة، تدفعها دفعاً لأن تأتي ما لم تكن تأتيه لولا قسوة الغيرة ومرارتها وشدتها عليها.

---

(١) أخرجه البخاري ٨٢/٧، ومسلم ٢٤٣١ في فضائل الصحابة: باب فضل خديجة.

وبهذه الغيرة التي يزكيها الحب، راحت عائشة تَغْملْ، وراحت عائشة تقول..

فها هو رسول الله ﷺ يبطىء في الحضور إليها، فتسأله عائشة: أين كنت يا رسول الله؟!

قال: «**عند أم سلمة**».

فتحركت غيرتها من المخزومية الحكيمة أم سلمة، وقالت لزوجها تذكره بما لها من مزايا لم يتفق وجودها لغيرها من نسائه: يا رسول الله، أرأيت لو نزلت وادياً وفيه شجرة قد أكل منها، ووجدت شجراً لم يؤكل منها، في أيها كنت ترتع بعيرك؟

قال: «**في التي لم يرتع منها**» تعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها[1].

وتبسم الرسول ﷺ وقد عرف أنها تعني نفسها بالتي لم ترعَ، لأنها كانت الوحيدة بين نسائه التي لم تتزوج قبله. هكذا كانت تغار من أُم سلمة.



غلبتنا اليهودية

وموقف آخر مع صفية أم المؤمنين رضي الله عنها، تتحدث السيدة عائشة عنه، فلربما طبعت غيرتها على وجوه من يقرأ مشاهدها ابتسامات حب لهذه الأُم الرائعة في حبها، المدهشة في غيرتها على هذا الزوج العظيم محمد ﷺ.

تقول أم المؤمنين الخفيفة الظل والمألوفة الروح، والمحببة إلى كل

---

(١) رواه البخاري.

مسلم: كان متاعي فيه خفٌّ، وكان على جمل تاج، وكان متاع صفية فيه ثِقَلٌ، وكان على جمال ثِقالٍ بطيءٍ يبطىء بالركب، فقال رسول الله ﷺ: **«حولوا متاع عائشة على جمل صفية، وحوّلوا متاع صفية على جمل عائشة حتى يمضي الركب»**.

فلما رأيت ذلك قلت: يا لعباد الله غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله ﷺ!!

فقال رسول الله ﷺ: **«يا أم عبدالله (يقصد عائشة) إن متاعك كان فيه خف، وكان متاع صفية فيه ثقل، فأبطأ بالركب. فحولنا متاعها على بعيرك، وحوّلنا متاعك على بعيرها»**.

فقلت: ألست تزعم أنك رسول الله ﷺ.

قالت: فتبسم، فقال: **«أو في شك أنت يا أُم عبدالله؟»**.

قلت: ألست تزعم أنَّك رسول الله، فهلا عدلت.

وسمعني أبو بكر، وكان فيه غَربٌ - أي حدّة - فأَقبل عليَّ ولطم وجهي، فقال رسول الله ﷺ: **«مهلاً يا أبا بكر!!»**.

فقال: يا رسول الله أما سمعت ما قالت؟!

فقال رسول الله ﷺ: **«إن الغيرة لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه»**[(١)].

وكان للسيدة عائشة رضي الله عنها مكانة أثيرة في نفس النبي ﷺ، لذلك فقد كانت أكثرهن غيرة وأشدهن حساسية في هذا الأمر، ومما يدل على ذلك قولها: ما رأيت صانعة طعام مثل صفية، أهدت إلى النبي ﷺ إناءً فيه طعام، فما ملكت نفسي أن كسرته، فسألت النبي ﷺ عن كفارته فقال: **«إناء كإناء وطعام كطعام»**[(٢)].

❀ ❀ ❀

---

(١) انظر مجمع الزوائد.
(٢) في البخاري من حديث أنس.

إني أشم رائحة مغافير

تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش، بنت عمته، وكانت بارعة الجمال، وقد تزوجها النبي ﷺ بأمر من الله، مما جعلها لذلك تفخر على سائر نسائه بقولها لهن: زوَّجكن أهلكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات.

وتحت وطأة الغيرة راحت عائشة، تؤازرها حفصة، تدبران حيلة تبعدان بها الرسول ﷺ عن زينب بنت جحش، وقد رأتاه يحتبس عندها وقتاً أكثر مِمَّا يحتبس عند سائر نِسائِهِ، وذلك عندما يدورُ عليهنَّ كُلَّ يومٍ يستطلع حالَهُنَّ، ويسألهن حاجتَهنَّ.

واتفقت عائشة وحفصة - وأشركتا سَوْدَةَ في اتفاقهما هذا - على أيتهنّ يجيئها الرسول بعد خروجه من عند زينب تقول له: رائحتك مغافير[1] (والمغافير طعام حلو ذو رائحة كريهة) وكان النبي يكره الرائحة الكريهة.

وجاء الرسول ﷺ بعد خروجه من عند زينب، فلما أقبل عليها قالت: إني أشم رائحة مغافير، أكلت مغافير؟!

فلما أتى حفصة قالت له ما قالت عائشة: أكلت مغافير؟؟

ولما جاء سودة وسألته: هل أكلت مغافير..؟!

قال: «لا».

قالت: فما هذه الريح؟!

قال: **«سقتني زينب شربة من عسل»**.

قالت سودة بلهجة التي أدركت السبب وهي العارفة بمراعي البادية: رعت نحلة العُرْفط (أي أن النحلة التي تخرج العسل رعت العرفط وهي الشجرة التي تثمر المغافير - أي الرائحة الكريهة).

(١) انظر السمط الثمين ٨٠، ٨١.

وحرّم النبي ﷺ على نفسه العسل الذي كان يشربه عند زَيْنَب، فيحتبسه عندها أكثر من غيرها..

وأحسَّت سودة بالأسف والندم لِما فعلت هي وعائشة وحفصة، إذ حرمن الرسول ﷺ من طعام كان يحبُّهُ؛ فقالت لهما: سبحان الله! والله لقد حَرَمْنَاهُ..!

فردت عليها عائشة التي كانت غيرتها تغلبها على أمرها: اسكتي!

وانتصرت عائشة على زينب، وحَرَمتها من احتباس الرسول عندها أكثر مما يجب، وهو الوقت الذي كان يقضيه في ارتشاف العسل.

❀ ❀ ❀

إنهن صواحب يوسف

وكان من تدبير عائشة وحفصة رضي الله عنهما ما دبَّراه لأسماء بنت النعمان الكندية، الّتي جاء أبوها النعمان، وهو من سلالة ملوك كندة يعرضُ زواجها على الرسول قائلاً: يا رسول الله، ألا أزوجك أجمل أيم في العرب؟!

وقبل الرسول ﷺ الزواج من ابنة النعمان، فزوَّجها له أبوها. وبعث محمد مع النعمان من يأتي بأسماءَ من نجد، فلما جيء بها إلى المدينة أنزلت في بني ساعدة حتى تُهيأ لزفافها على الرسول ﷺ.

جاءت أسماء ورآها بعض نساء المدينة، فرحن يذعن ما رأيْنَ من حسنها وجمالها.

وقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما: قد وضع يده في الغرائب يوشكن أن يصرفن وجهه عنا.

ولم تستطع عائشة رضي الله عنها إلاَّ أن تصطحب حفصة وبعض نساء النبي ﷺ فيذهبن ليرين هذه الوافدة الغريبة الجميلة، التي أوشكت أن تصرف وجه زوجهن عنهن.

ولما رأت عائشة ومعها نساء النبي ﷺ «أسماء الكندية» رأين ما ملأ قلوبَهُنَّ وجداً وحسداً. فأقبلن عليها يزينَّها ويجمِّلنها، ويقدمن لها نصيحتهن قائلات لها: إذا أردت أن تكوني ذات حظوة عند النبي ﷺ، فإذا دخل عليك فقولي: إني أعوذ بالله منك، فإن ذلك يسرّه ويُعْجبُهُ.

وعملت أسماء بنصيحة نساء النبي ﷺ، فلما دخل إليها محمد ﷺ وأقبل عليها، ابتدرته قائلة: أعوذ بالله منك!! فوقف الرسول ﷺ حيث هو، ثم استدار عنها وهو يقول: «**عذت بمعاذ.. عذت بمعاذ...**»، ثم خرج إلى رسوله الذي أتى فقال له: «**متِّعها ورُدَّها إلى أهلها**».

وعادت أسماء إلى أهلها تقص عليهم نصيحة النساء، نساء النبي ﷺ التي خدعوها بها...

وأرسل النعمان إلى محمد ﷺ مَنْ يعرِّفُهُ بما كان من خديعة ابنته، وبما قال نساؤه لها؛ فقال محمد ﷺ: «**إنهن صواحب يوسف، وكيدهن عظيم**».

وهكذا تخلصت عائشة بمصاحبة حفصة من منافسة كانت تعتقد أنها ستكون عليها وعلى سائر نساء النبي ذات خطر كبير.

وهكذا كان النبي ﷺ يضرب صفحاً عن غيرة عائشة الضارية، ويقول فيما كانت تأتي بسببها من أفعال مثيرة للدهشة، كان يعقل على ذلك قائلاً: «**ويحها!! لو استطاعت ما فعلت**».

❋ ❋ ❋

ننشد العدل في ابنة أبي قحافة

كان لنساء النبي ﷺ ردّة فعل لغيرة عائشة رضي الله عنهن أجمعين، وتعرضت عائشة لما لها من مكانة عالية في قلب النبي ﷺ إلى منافسة

(١) الاستيعاب ١٧٨٦/٤، وابن الجوزي في التلقح ٢٥، وابن الأثير في أسد الغابة، والحافظ ابن حجر في الإصابة - مع التصرف اليسير في النص.

شديدة من أمهات المؤمنين، فكما أن عائشة كانت تغار من ضرائرها، وتشتد غيرتها أحياناً حتى لا تستطيع كتمانها، كذلك كانت نساء النبي الأُخريات كثيراً ما تدفعهن غيرتهن منها إلى مثل ذلك.

كانت نساء النبي ﷺ يعلمن ما لعائشة عند الرسول من مكانة تفوق مكانتهن جميعاً، وكن يرضين بذلك، فحسبهنَّ أنَّ النبي ﷺ يساوي بينهن في كل شيء، فيبيت عند كُلٍّ واحدة منهن ليلة، ويقسم بينهنَّ بالعدل والقسطاس.

وكان المسلمون أيضاً يعلمون ما لعائشة من مكانة في نفس النبي، فما كان يخفى عليهم فرحه إذا ما اقترع بين نسائه على أيتهن تخرج معه إذا ما أراد الخروج إلى غزوةٍ أو حربٍ، فيخرج سهم عائشة.

وكان النبي ﷺ قد أقرع بين نسائه، فطارت القرعة لعائشة وحفصة، وكان النبي ﷺ إذا سار بالليل سار مع عائشة يتحدث، فقالت حفصة: ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك تنظرين وأنظر؟ فقالت: بلى، فركبت، فجاء النبي ﷺ إلى جمل عائشة وعليه حفصة، فسلَّم عليها، ثم سار حتى نزلوا، وافتقدته عائشة، فلما نزلوا جعلت رجليها بين الأذخر وتقول: يا رب سلِّط عليَّ عقرباً أو حية تلدغني، ولا أستطيع أن أقول له شيئاً(١).

نعود إلى عائشة رضي الله عنها ونساء النبي ﷺ، فقد كان لا يفوت نساء النبي ﷺ ما يظهر عليه من شوق إلى لقاء عائشة رضي الله عنها عند عودته من سفره وأنّه كان يبدأ بليلتها قبل سائر نسائه.

لذا كان سائر أهل المدينة إذا ما أراد منهم أَحدٌ أن يهدي للنبي ﷺ هديةً، يتخيرون أن يكون إرسالها إلى النبي ﷺ في يوم عائشة، يتحرون بذلك مَرْضاتَهُ.

ورغم أن النبي كان يُقَسِّمُ كل ما يصل إليه بين زوجاته بالعدل، ورغم

---

(١) أخرجه البخاري ٢٧٢/٩، ٢٧٣ في النكاح باب القرعة بين النساء، وأخرجه مسلم برقم ٢٤٤٥ في فضائل الصحابة.

أن زوجات النبي كن يعرفن ذلك، فإنهنَّ كُنَّ يغضبن لتحري الناس بهداياهم يوم عائشة، وينافسن على عائشة مكانتها عند الرسول ﷺ والناس.

وعلى ذلك اجتمعن يتدبرن هذا الأمر، وأشارت زينب بنت جحش على أن يبعثن إلى النبي بابنته فاطمة يلتمسن منه أن يساويهن بعائشة.

ولنستمع لهذا الموقف من أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فتقول: أرسل أزواج النبي ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى رسول الله، فاستأذنت عليه ـ وهو مضطجع معي في مرطي ـ فأذن لها، فقالت: يا رسول الله إن أزواجك أرسلنني إليك، يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة. ـ قالت عائشة ـ: وأنا ساكتةٌ، فقال لها رسول الله ﷺ: **«أي بنية ألست تحبين ما أُحب؟»**.

فقالت: بلى.

قال: **«فأحبي هذه»**.

فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ، فرجعت إلى أزواج النبي ﷺ، فأخبرتهن بالذي قالت وبالذي قال لها رسول الله ﷺ، فقلن لها: ما نراك أغنيت عنّا من شيء، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولي له: إن أزواجك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة.

فقالت فاطمة: والله لا أُكلمه فيها أبداً.

قالت عائشة: فأرسل أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ ـ وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة وأشدُّ ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تتصدَّقُ به وتتقرَّب به إلى الله تعالى، فاستأذنت على رسول الله وهو عندي في مرطي على الحالة التي دخلت فاطمة عليها وهو بها، فأذن لها رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني إليك، يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة.

قالت: ثم وقعت بي فاستطالت عليّ، وأنا أرقب رسول الله ﷺ وأرقب طَرْفَه هل يأذن لي فيها، قالت: فلم تبرح زينب حتّى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر.

قالت: فلما وقعت بها لم أنشبها - أي لم أتركها - حتى انحنيت عليها، فقال رسول الله ﷺ: **«إنّها ابنة أبي بكر»**[1].

وسارت أم سلمة رضي الله عنها يوماً إلى الرسول ﷺ فيما سارت فيه فاطمة وزينب، تطلب منه أن يأمر النّاس أن يرسلوا هداياهم إليه أينما كان، وكانت أُم سلمة تتكلم والنبي ﷺ ساكِتٌ لا يجيب، فلمّا كررت أُم سلمة الطلب ثلاثاً قال لها الرسول ﷺ: **«لا تؤذيني في عائشة، فإن الوحي لم ينزل علي في لحاف واحدة منكن غيرها»**[2].

فانصرفت أُم سلمة، وعلمت نساء النبي جميعاً عظم مكانة عائشة عند الرسول ﷺ أكثر مما كُنّ يَعْلَمْنَ، وعرفن أَنَّ من يتعرض لعائشة بإيذاء إنما يؤذي الرسول ﷺ كذلك.



مرضاة عائشة

كان النبي ﷺ بهذا كله يتحرىٰ مرضاة السيدة عائشة رضي الله عنها حتى لا يغضبها أو يؤذيها في شعورها، طالباً من نسائه أن يجارينه في شعوره نحو عائشة، إذ يقول لإحداهنّ: **«لا تؤذيني في عائشة»**، وهي التي تكون معه في لحاف واحدة والوحي يتنزل عليه، ولم يكن هذا لغيرها من نسائه.

---

(١) أخرجه مسلم واللفظ له، وأخرجه البخاري ٥/١٥١، ١٥٢ في الهبة: باب من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه دون بعض.

(٢) رواه البخاري.

وكان النبي ﷺ يحب أن يرى عائشة مسرورة راضية، ويكره كل الكره أن يراها حزينة غاضبة.

أليس هو الذي كان يحس رضاها إذا كانت راضية عنه، ويلحظ غضبها إذا كانت غاضبة منه!!

أليس هو القائل: «**يا عائشة! إني لأعلَمُ إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليّ غضبىٰ**».

قالت: وكيف يا رسول الله؟

قال: «**إذا كنت عني راضية، قلت: لا ورب محمد، وإذا كنت عليّ غضبىٰ، قلت: لا ورب إبراهيم**».

قالت عائشة: أجل والله، ما أهجر إلاّ اسمك[1].

صلى الله عليك يا رسول الله، فقد كنت ترعى زوجك عائشة رضي الله عنها حتى إنَّك عرفت متى تكون غاضبة، ومتى تكون راضية.

ومرت الأيام وعائشة تتمتع بحب رسول الله ﷺ، وتزهو بعطفه ورضاه؛ لا ينغص عليها طمأنينة حياتها إلاّ ما كانت تشعر به من غيرة على زوجها الحبيب إزاء بعض ضرائرها الجميلات.

وجاءت مارية القبطية سريرة رسول الله ﷺ، فبنى بها عليه السلام. ولما حَمَلَتْ ـ لم تستطع عائشة صبراً ـ على مارية القبطية الجارية التي أهداها المقوقس عظيم قبط مصر إلى النبي ﷺ[2].

فثارت نفسها على مارية، ولم تلبث أن ثارت نفوس ضرائرها جميعاً على هذه القبطية الغريبة، إحدى الغرائب اللائي قالت عنهن عائشة رضي الله عنها: قد وضع يده في الغرائب، يوشكن أن يصرفن وجهه عنّا!!

---

(١) أخرجه البخاري **٢٨٥/٩** في النكاح، باب غيرة النساء ووجدهُنّ، ومسلم **٢٤٣٩** في فضائل الصحابة. باب فضل عائشة

(٢) انظر سيرة مارية في بحثنا هذا.

مارية الغريبة بينهن حملت دونهن من الرسول ﷺ، وأوشكت أن تكون أمّاً لولد منه، ووضعت مارية حملها، وحملَ محمدٌ ولده إبراهيم فرحاً به وذهب إلى عائشة يريها إيّاه، وقدّمه إليها وهو يقول: **«يا عائشة ألا تلاحظين الشبه بيني وبينه؟»**.

لم تملك عائشة أن أجابت الرسول ﷺ، برغم ما كانت تعرف ما بلغ من قولها من قسوة عليه، فقالت: ما أرى بينكما شبهاً..؟.

ثم مرت الأيام حتى جاء يوم، وكان يوم عائشة؛ أتت مارية إلى رسول الله ﷺ في شأن لها (وكان النبي ﷺ يسكن بمارية في دار حارثة بن النعمان بعيداً عن مساكن زوجاته اللاتي كن بجوار المسجد)، فأدخلها النبي ﷺ معه في بيت حفصة التي كانت وقتئذ في زيارة لأبيها.

وجاءت حفصة من عند أبيها، فوجدت ستر مسكنها مُسْدلاً، وعلمت أن مارية مع الرسول ﷺ داخل المسكن.

واغتاظت حفصة، واشتد غيظها، وتملكتها غيرة قاسية، أخذت تستبد بها كلما طال انتظارها لخروج مارية من مسكنها، حتى إذا ما خرجت دخلت على النبي ﷺ تبكي وتقول له: لقد رأيت من كان عندك، والله لقد سببتني، وما كنت لتصنعها لولا هواني عليك.

ولما رأى النبي ﷺ مبلغ ما لحفصة من غيظ وموجدةً، أقبل عليها يطيب خاطرها ويترضاها، حتى حلف لها أن مارية عليه حرام إن هي تناست أمر مارية ولم تذكر لأحد مما رأت شيئاً.

ومع تحذير محمد ﷺ لحفصة، وقسمه لها بتحريم مارية، لم تستطع حفصة أن تكتم ما رأت عن عائشة، فأسرت بالأمر إليها..

وكان أن ثارت عائشة ضد مارية ثورة، أثارت معها نساء النبي ﷺ جميعاً، حتى كان قولهن في ذلك: صبرنا على إيثار الرسول ﷺ لابنة أبي بكر، وما بقي إلاّ تلك الأَمة القبطية! فأي هوان؟!!

أي شطط هذا الذي شططن به هؤلاء النساء في غيرتهن!! وأي اندفاع هذا!!

وكان من نتيجة ذلك أن تظاهرن على الرسول ﷺ يطالبنه بما يملك لهنَّ من نفقة.

وتمادت النسوة في تظاهرهن ظنّاً منهن أن النبي ﷺ سيمضي معهن في هذا الشطط إلى طريق لا نهاية له، فعطفه ورفقه بهن لا يستمرىء منهن أكثر من ذلك.

لم يكن النبي ﷺ منقطعاً لعبث النساء هذا، ولم يكن وقته فريسة لهذا العبث من نسائه، بل كان للرسالة شواغلها التي جعلته يعتزل نساءه جميعاً، وقد كان عليه السلام حازماً في هجرهن، منصرفاً إلى رسالته عن هذا العبث النسائي. إزاء هذا كله قرر النبي ﷺ أن يعامل زوجاته بالحزم، وأن يأخذهن بالصرامة والشدَّة، فإن تبن إلى رشادهن، ورجعن إلى صوابهن، كان خيراً، وإلا متعهن وسرَّحهن سراحاً جميلاً. فدعوته ورسالته العظيمة التي بُعِثَ من أجلها لا تدع له فراغاً للتفكير الطويل، وإضاعة الوقت في مثل ما حصل من أزواجه من لجاج، ولا تسمح له واجباته والتزاماته إزاء المسلمين بأن يخلي نفسه لحل مشكلات النساء، وعلى هذا قرر النبي ﷺ أن يهجر نساءَهُ شهراً، فإمَّا إنابةٌ ورشاد، وإمَّا سراحٌ جميل وطلاق.

وكان أن أهديت هديَّةٌ إلى الرسول ﷺ وهو في بيت عائشة، فأرسل إلى كل من نسائه نصيبها فيها، ردَّت زينب بنت جحش نصيبها، فطلب محمد ﷺ من عائشة أن تزيده لها، فزادته؛ وأرسله إلى زينب فردّته ثانية، فقالت عائشة للرسول ﷺ: لقد أقمأت وجهك إذ تَرُدُّ عليك الهدية (أي أذلَّت وجهك).

فقال النبي ﷺ: **«أنتن أهون علي من أن تقمئنني، والله لا أدخل عليكُنَّ شهراً»**.

واعتزل الرسول ﷺ نساءه، قاضياً أكثر وقته في خزانة له ذات مشربةٍ، يرقى إليها على جذع خشنٍ من جذوع النخل، ويجلس على عتبتها غلام الرسول ﷺ «رباحٌ» كلما كان بها.

وماذا عن عائشة؟ أكانت راضية في غضب حبيبها محمد ﷺ؟؟

لقد ندمت عائشة ندماً شديداً، وحزنت حزناً عظيماً على ما كان مما أغضب الرسول ﷺ، وكذلك جميع زوجاته الطاهرات، فقد ندمن أشد الندم، وحزنّ أشد الحزن على ما كن يأتين من تعنت يغضب النبي الكريم، خير زوج على وجه الأرض ﷺ.

مضت الأيام بطيئة تكاد تتوقف عند حساب نساء النبي ﷺ، فهذه الأيام يفارقن فيها حبيبهن، فارتجفت قلوبهن فزعاً، واضطربت نفوسهن ارتياعاً، وهن يتسمعن إلى خبر سرى بين أصحاب النبي ﷺ الذين أحزنهم ما يمر به عليه السلام.

هذا الخبر يقول: بأنّ النبي ﷺ مطلّق زوجاته.

أطرق المسلمون حزناً وهم ينكثون الحصى، وانتابهم ضيق شديد من أجل نبيهم وحبيبهم محمد ﷺ، واكتنفهم الغم والقلق من أجل مصير أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن.

ومرّ قرابة الشهر على هجر النبي ﷺ زوجاته، وفيم كان الناس تكاد تخنقهم العبرة، خرج عمر بن الخطاب من عند رسول الله ﷺ يقول: لم يطلق رسول الله نساءه، فتهلل وجه الناس وسُرِّيَ عن أمهات المؤمنين، وتهيئن جميعاً للقاء الحبيب.



المجاهدة

كانت عائشة رضي الله عنها مثلاً يحتذىٰ وقدوة يقتدى بها في جهاد النساء، فضربت المثل على مشاركة المرأة المسلمة في صدر الإسلام في تحمل بعض أعباء الجهاد بما يتناسب وتكوين المرأة المسلمة.

ففي غزوات الرسول ﷺ خرجت عائشة رضي الله عنها وكثير من

النسوة من نساء وبنات الصحابة رضوان الله عليهم، وكل عمل النساء الغالب في الجهاد في سبيل الله ينحصر في سقي الماء، وتمريض الجرحى، وإخلاء القتلى، وقد تطور الأمر فشاركت بعض النسوة في القتال فعلاً مثل أم عمارة رضي الله عنها، وصفية بنت عبدالمطلب عمة النبي ﷺ.

وبدأت مشاركة عائشة رضي الله عنها في الجهاد بعد غزوة بدر.



١ ـ في غزوة أحد

جاءت غزوة أُحد وخرج الرسول ﷺ لقتال المشركين، وخرجت عائشة مع النساء تسقي الجرحى وتحمل قِرب الماء على عاتقها، لتفرغها في أفواه المجاهدين، وفي ذلك يتحدث أَنس بن مالك فيقول: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم لمشمرتان، أرى خدم سوقهما تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه في أفواههم، ثم ترجعان فتملآنهما ثم تجيئان تفرغانه في أفواه القوم[(١)].

هكذا كانت عائشة مجاهدة في سبيل الله خلف زوجها النبي ﷺ، ولم ينته جهادها عند يوم أحد بل جاء دورها في غزوة أخرى.



٢ ـ في غزوة الخندق

وضع رسول الله ﷺ نساءه وأهل بيته وبعض نساء المسلمين وأطفالهم في حصن من حصون المدينة.

أمّا عائشة رضي الله عنها فقد نزلت من هذا الحصن وتقدمت إلى

---

(١) متفق عليه.

صفوف المجاهدين الأمامية، حتى أنكر عمر بن الخطاب ذلك الأمر، وتتحدث عائشة رضي الله عنها عن يوم الخندق فتقول:

خرجت يوم الخندق أقفو النّاس، فسمعت وئيد الأرض ورائي، فإذا أنا بسعد بن معاذ رضي الله عنه ومعه أخوه الحارث بن أوس، يحمل مجنّة، فجلست إلى الأرض، فمرَّ سعد وعليه درع من حديد قد خرجت منه أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، وكان سعد رضي الله عنه من أعظم الناس وأطولهم فمر وهو يرتجز:

لبث قليلاً يشهد الهيجا حَمَلْ   ما أحسن الموت إذا حان الأجل

فقمت فاقتحمت حديقة، فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب، وفيه رجل عليه نشيعة ـ تعني المغفر ـ فقال عمر: ما جاء بك؟ لعمري والله إنّكِ لجريئة، وما يؤمنك أن يكون بلاء أو يكون تحوز، فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض انشقت بي ساعتئذ، فدخلت فيها، فرفع الرجل النشيعة عن وجهه فإذا هو طلحة بن عبيدالله، فقال: يا عمر ويحك إنّك قد أكثرت منذ اليوم وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله تعالى؟![1]

وعادت أم المؤمنين رضي الله عنها بعد أن أدت دورها الذي تراه مشاركة وجهاداً في سبيل الله، ووجدت من يدفع لوم عمر رضي الله عنه لجرأتها، ومشاركتها الفاعلة، فلم تكتف بالقعود خلف جدران الحصن، فكان أن خرجت كما خرجت صفية بنت عبدالمطلب أيضاً وقتلت هذا المشرك الذي دار حول الحصن يريد سوءاً بالنساء والأطفال، منتهزاً فرصة انشغال النبي ﷺ والمسلمين بمحاربة المشركين ومواجهتهم وحفر الخندق.

ولما جاء النبي ﷺ ودخل على عائشة أول ما دخل، فما إن رأته

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٣ ص٤٨٠، وطبقات ابن سعد جـ٣ ص ٤٢٢ـ والحديث أخرجه أحمد في المسند.

مقبلاً حتى أقبلت عليه تقول: بأبي أنتَ وأمّي يا نبي الله! قلتَ كلمة لم أُلقِ لها بالاً فغضبت عَلَيَّ! وإذ رأته يقترب منها قالت في إباء ودلال: أقسمت أن تهجرنا شهراً، ولم يمض منه غير تسع وعشرين أَعدُّهَا لك عداً..

لقد كانت تعد الأيام والليالي، لقد كشفت عما في نفسها من حب لرسول الله، فمن بين كلماتها باحت بمشاعرها نحو الحبيب الذي قال لها ملاطفاً بأن شهرها هذا تسع وعشرون ليلة.





غزوة بني المصطلق ومحنة الإفك

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾[1].

١ ـ غزوة بني المصطلق

ما كاد رسول الله ﷺ يستريح بعد عودته من قتال قوم ذي قرد الذين أغاروا في خيل من غطفان على إبل رسول الله ﷺ وكانت تسمى «اللقاح».. أي ذوات ألبان.. فقتلوا رجلاً من غِفار (وهي قبيلة الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري)، وأخذوا امرأته معهم على إحدى هذه الإبل اللقاح.. فلحق بهم رسول الله على رأس عدد من صحابته، وتمكنوا من استعادة بعض اللقاح.

وبعد عودته ﷺ بما يقارب الشهرين بلغه أن بني المصطلق، وهم فرع من خزاعة يحرضون على قتله عليه السلام.. ويضمرون السوء للمسلمين، وأن زعيمهم الحارث بن ضرار هو خطيبهم في ذلك..

(١) سورة النور، الآية: ١١.

أذّن المؤذن في المسلمين للخروج لبني المصطلق، فهم لا يريدون بالمسلمين خيراً[1]، وخرج أصحاب رسول الله ﷺ في شعبان من السنة السادسة للهجرة ومعهم الرسول ﷺ ليأخذوهم على حين غرة، وسلك الرسول ﷺ الطريق الساحلي ليفاجئهم من ناحية تسمى «قديد» قريبة من الساحل، فتزاحف الجيشان وتقابلا عند ماء بئر يسمى «المُرَيسيع».

ونادى عمر بن الخطاب بأعلى صوته يقول: قولوا لا إله إلا الله تمنعوا أنفسكم وأموالكم.

واقتتل الناس وتزاحموا.. وشدَّد المسلمون قتالهم على بني المصطلق وقتلوا منهم عشرة رجال، وقُتِلَ من المسلمين بالخطأ رجلٌ من الأنصار من جماعة عبادة بن الصامت.

وراح الحارث بن أبي ضرار زعيمهم يقول عن رسول الله والمسلمين: أتانا ما لا قبل لنا به عدة وعدداً - يقصد رسول الله ﷺ -.

أما ابنته جويرية بنت الحارث أُم المؤمنين التي تزوجها الرسول ﷺ فيما بعد في نهاية هذه الغزوة، فقد قالت: فلبثت أرى من الناس والخيل والسلاح ما لا أصف من الكثرة، فلما أسلمت وتزوجني رسول الله ورجعنا إلى المدينة فجعلت أنظر إلى المسلمين.. فليسوا كما رأيت، فعلمت أنَّه رعب من الله يُلقيه في قلوب المشركين.



٢ - المحنة

صدرنا الحديث عن غزوة بني المصطلق ومحنة الإفك بالآيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾ الآيات.

(١) انظر غزوات النبي ﷺ - عبدالمنعم الهاشمي، دار النفائس، بيروت.

وهذه الآية من آيات الله، التي أنزلها على نبيه محمد ﷺ، يبين له فيها براءة زوجته عائشة من حديث الإفك الذي تحدث به المرجفون في المدينة، وأشاعه المغرضون، فأكرم الله بذلك عائشة أيَّ إكرام، وأحكم بآياتِهِ براءةً ظلَّت تحوطها بهالة من نورٍ طول حياتها، وبقيت مناراً وهُدىً للمسلمين يتلونها على مرّ الأجيال وكرّ السنين.

والذي جاء به المفترون عن عائشة، وَالَّذي اخْتَلَقُوهُ وأثاروه:

أول حديثه أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا أراد الخروج من المدينة إلى غزوة أو حَرْبٍ، أقرع بين نسائه على مَنْ تصحبه في سفرِهِ، فمن خرج سهمها في الاقتراع خرجت معه في سفره.

وفي خروجه إلى غزوة بني المصطلق، أقرع بين نسائه على التي تخرج معه، فخرج سهم عائشة[(١)].

وصحبت عائشة زوجها محمداً ﷺ في سفره هذا، وكان يسير بها هودجها بين المسلمين المحاربين الذين صحبوا رسول الله، فإذا حطوا للراحة نصبوا للرسول ﷺ خيمته، فتنزل عائشة بها، وإذا أرادوا السير أتوا بهودجها فوضعوه أمام باب الخيمة، فتخرج عائشة رضي الله عنها فتجلس بداخِلِهِ، ثم يأتي الرجال فيرفعونه بها، ويَشُدُّونَهُ إلى ظهر بعيرها، ثم يستأنفون السَّيْرَ.



٣ ـ متاعب الطريق

لما بلغ المسلمون غايتهم من السَّيْر، ونزلوا عند ماءٍ يقال له: المريسيع، وهناك أحاطوا ببني المصطلق أولئك الذين خرج الرسول ﷺ

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٦٧، والسيرة جـ٣، وانظر الطبقات لابن سعد جـ٢، غزوة بني المصطلق.

لغزوهم بعدما بلغه أَنّهم يجمَعُونَ الجموع برئاسة زعيمهم الحارث بن أبي ضرار لقتله.

وانتصر المسلمون على بني المصطلق وأَسروا رجالهم، وسَبَوْا نساءَهم، وغنموا من ماشيتهم وإبلهم الشيء الكثير.

وبينما هم يستريحون ويستجمعون قبل الرحيل، تزاحم على الماء رجلٌ من المهاجرين ورجل من الخزرج، وتصايح الرجلان كل ينادي قومه:

هذا يقول: يا معشر الأنصار.

وذاك يقول: يا معشر المهاجرين..!!

وسمع تصايح الرجلين عبدالله بنُ أُبي رأس المنافقين، وهو من الخزرج، وهو الذي كان يحقد على المهاجرين من المسلمين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وكان يحسد على النبي ﷺ مكانته التي نالها بين الأنصار، بعدما كان عبدالله بن أُبَيّ هذا يُعِدُّ نفسه ليكون ملِكاً عليهم.

وتفوَّه عبدالله بألفاظ كان فيها تحريض منه للأنصار ضد المهاجرين، وكادت أن تحدث فتنةٌ بسبب ذلك، لولا أن تدارك محمد ﷺ الأمر بحكمته، بأَنْ أمر المسلمين بالرَّحيل، واستعجلهم في ذلك، استعجالاً شديداً حتى لا يترك مجالاً للخلاف الذي بين المهاجرين والأنصار أن يزداد ويشتدّ.

أسرع المسلمون فجأة إلى رحالهم وشدُّوها، وساقوا إبلهم نحو المدينة، يصحبون معهم أَسراهم وغنائمهم، ويُواصلون سيرهم ليلاً ونهاراً بأمر رسول الله ﷺ، حتى قاربوا المدينة والليل قد أشرف، فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يحطوا ليأخذوا قسطاً من الراحة حتى يبزغ الفجر.

وما إن استراح الناس وحطّوا رحالهم حتى راحوا في نوم عميق من شدة ما لاقوا من التعب بسبب مواصلة السير وسرعته.

وقضت عائشة ليلتها بخيمة الرسول ﷺ، حتى إذا ما قارب الفجر على الانبثاق خرجت فغادرت المعسكر في قضاء حاجة لها، وأمعنت بعيداً

لئلا تقع عليها عين أحد، وقضت عائشة ما خرجت لأجله، وفيما هي عائدة إلى حيث ينزل الرسول وأصحابه تَحَسَّسَتْ عنقها فلم تجد من حوله عقدها الذي كانت تتزين به، وكان عقداً غالياً عندها، عزيزاً عليها، لأنه من جزع ظفار، وظفار بلدةٌ باليمن مشهورة بصنع العقود الثمينة.

حزنت عائشة وعزَّ عليها ضياع العِقد، وَرَجَّحَتْ أَنَّهُ انسَلَّ منها حيث كانت تقضي حاجتها، فَكَّرت عائدة تبحث عنه حيث تظن أنها فقدته.

وأذّن مؤذن الرسول ﷺ في جيش المسلمين بالرحيل، وهبَّ القوم من رقادهم يقوضون خيامهم، ويشدون رحالهم، فلما تهيأ أمرهم للسير حملوا هودج عائشة الذي كانوا يضعونه عادة أمام باب خيمتها فتخرج هي فتجلس فيه، وكانت عائشة ضامرة نحيلة لا يثقل بها الهودج، ولا يَخِفُّ بدونها، فحملُوهُ وشَدُّوه إلى بعيرها، ثم أسرعوا جميعاً في السير يبغون المدينة.

وأمام دار الرسول ﷺ أُنزِل هودَجُ عائشة، وخَفَّت الجواري والموالي والمستقبلات إلى زوجة رسول الله الحبيبة حيث أنزل الهودج كي يستقبلوا العائدة الكريمة، ويهنؤوها بسلامة العودة، وبظفر زوجها وانتصاره على أعداء المسلمين، ولكن عائشة لم تغادر هودجها، فأزاح بعضهن ستر الهودج لمساعدتها على النزول، ولكن الهودج كان خالياً، ولم تكن عائشة فيه..!!

أين عائشة رضي الله عنها؟؟

لنترك أم المؤمنين الطاهرة رضي الله عنها تتحدث قليلاً عن هذه الأحداث!!

تقول عائشة رضي الله عنها(١): فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فالتمست عقدي، وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري

---

(١) الحديث متفق عليه ـ أورده البخاري واللفظ له ـ انظر فتح الباري ٧/ ٤٩٦ـ ٤٩٩ رقم ٤١٤١، وأخرجه مسلم في التوبة برقم ٢٧٧٠ باب حديث الإفك، وأحمد ٦/ ١٩٤ـ ١٩٦.

الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم، إنما تأكل العُلقة من الطعام - قليل الطعام - فلم يستنكر القوم خفّة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها داع ولا مجيب، فأقمت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إليّ.

فبينا أنا جالسة في منزل غلبتني عيني فنمت. وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه - أي بقوله إنا لله وإنا إليه راجعون -[1].

لم يطل الوقت بعائشة في انتظار النجدة، فقد ساق الله لها النجدة في شخص صفوان بن المعطل السُلَمي.

كان صفوان قد تأخر عن الركب في حاجة له، فلما جاز ببعيره المكان الذي يخيم به جيش المسلمين قبل أن يرتحل، لمح سواداً على الأرض فاتجه يتبينه، وهو يَحْسِبُهُ متاعاً خلفه المسلمون من ورائِهم فيحمله لهم، ولكن ما كان أشد دهشته وأكثر عجبه عندما رأى هذا السَّواد عائشة زوجة رسول الله مُلْتفَّة بثيابها ترقُدُ على الأرض..!

وعرف صفوان عائشة زوجة رسول الله - فقد كان يراها قبل أن يفرض على النساء الحجاب - فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون!! ظعينة رسول الله..!! ما خلَّفَكِ يَرْحَمكِ اللَّهُ؟!

فلم ترد عائشة على صفوان جواباً، فَقَدَّمَ صفوان بَعِيرَهُ إلى عائشة قائلاً: اركبي.

ثم استأخر صفوان رضي الله عنه بعيداً عنها حتى ركبت، فأَخَذَ بِمِقْوَدِ البعير يقودُهُ نحو المدينة يبغي اللحاق بجيش المسلمين.

---

(١) الحديث السابق تخريجه.

وبينما الرسول ﷺ في حيرة من غياب عائشة، ويتخذ أهبته للبحث عنها، كان خبر غياب عائشة رضي الله عنها يسري وينتشر بين أهل المدينة. ثم.. لم يمض وقتٌ طويلٌ حتى دخلت عائشة على بعير صفوان بن المعطل، في وضح النهار، وعلى مرأى من الناس.

وقصت عائشة قصتها على الرسول ﷺ، وحمد الرسول ربَّه على أن سبَّبَ لعائشة صفوان السلمي ليأتي بها إلى المدينة.



٤ ـ حديث الإفك

كان الرسول ﷺ عائداً لتوه من غزوة انتصر فيها، وبالطبع فهو منتصر ولديه غنائم أفاء الله بها عليه، ولذلك فقد شغل عليه السلام بتقسيم ما أفاء الله به على المسلمين من غزوة بني المصطلق، وبالقضاء بالحكمة على ما تخلَّفَ في النفوس من آثار فتنة عبدالله بن أُبي التي كاد أن يثيرها بين الأنصار والمهاجرين.

كما شغل أيضاً بزواجه من جويرية بنت الحارث بنت عم زعيم بني المصطلق، ثم ابتدأ يصل إلى سمعِهِ شيءٌ غريب مريب، يثير العجب، كان يتهامس به بعض أهل المدينة.

وذلك أن أعداء الرسول من المنافقين، وعلى رأسهم عبدالله بن أُبي ـ الموتور ـ ما كانوا ليفوّتوا هذه الفرصة التي تهيأت لهم بعودة عائشة مع صفوان بن المعطل الشاب القوي الجميل، دون أن ينالوا من رسول الله ﷺ في أحب زوجاتِهِ إلى قلبه، باتهامها إفكاً[1] بما هي بريئةٌ منه كل البراءة، بعيدة عنه كل البعد.

وكان ممَّن أفصح بهذا الاتهام ضد عائشة، وممن صرَّح به نقلاً عمّا

---

(١) جاء في الكليات للكفوي أن الإفك: كل شيء في القرآن إفك فهو كذب. انظر فصل الألف والفاء مادة «الإفك» ص١٥٣.

كان يتسَرَّبُ من مجالس ابْن أُبي من أَقْوال: بنت جحش ابنة عَمَّةِ محمدٍ، أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين وزوجة الرسول ﷺ، ومسطح بن أثاثة قريب أبي بكر، والذي كان أبو بكر يتولى أمره والإنفاق عليه، وحسان بن ثابت شاعر الرسول المعروف.

هؤلاء الثلاثة راحوا يذيعون ويشيعون حديث الإفك (الكذب) عن عائشة رضي الله عنها حتى تسامع به زوجها عليه السلام، ووصل خبره إلى والديها أبي بكر وأُم رومان، وعائشة إذ ذاك مريضة بدار زَوْجها، لا تدري ما يقال عنها، ويثار من حولها، وكل الذي شعرت بغرابته من حولها، وأحسته عجيباً بالنسبة لها ما لاحظته من نفور النبي ﷺ نحوها، وعدم بشاشته لها، وتبسطه معها، كما كان يفعل من قبل، فما كان يزيد عند دخوله عليها لعيادتها وأُمها عندها تُمَرِّضها عن أن يقول: «**كيف تيكم؟**» وهو الذي لا يترك ما بوسعه للاهتمام بها وبكل ما يتعلق بأمرها ولا يَكُفُّ عن العناية بشأنها إذا ما ألَمَّ بها مرض.

وتتحدث عائشة الطاهرة رضوان الله عليها في حديثها الطويل عن الإفك الذي أورده الشيخان (البخاري ومسلم) فتقول: ...فقدمنا المدينة، فاشتكيت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللُطفَ الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلِّم ثم يقول: «**كيف تيكم؟**»، ثم ينصرف، فذاك الذي يريبني ولا أشعر.

حتى خرجت بعدما نقهت، فخرجت معي أُم مِسْطح قِبَل المناصع، وهو متبرَّزنا، وكنّا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قِبل الغائط، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا[١].



(١) متفق عليه.

٥ ـ تعس مسطح

لم تر عائشة بداً وهذا حال زوجها معها من الفتور، لم تر إلاَّ أن تستأذن زوجها في الذهاب إلى دار أبيها لتمرّضها هناك أمها أم رومان رضي الله عنها، فلما دخل عليها محمدٌ كعادته يقول لها: «**كيف تيكم؟**».

قالت له: لو أذنت لي، فأنتقل إلى أُمّي، فتمرضني.

فكان جوابه لها: «**لا عليك**»، فسمح لها أن تنتقل إلى دار أبيها.

وانتقلت عائشة إلى دار أبيها، والدموع مِلْء عينيها، وقلبها يتفطر أسىً، ونفسها تذوب حزناً من هذا الفتور الذي ما اعتادته من الحبيب، وهي لا تدري لذلك سبباً.

ونقهت عائشة وتعافت من مرضها بعد بضع وعشرين ليلة. وبينما هي ذات ليلة قد خرجت في قضاء حاجة لها، تصحبها أُمُّ مِسْطَح قريبة أبيها أبي بكر، تعثرت أُم مِسْطَحٍ في ذيل ثوبها، فقالت تشتم ولدها مسطحاً، وكان من ضمن أولئك الذينَ خاضوا في حديث الإفك عن عائشة ـ قائلة: تعس مسطح.

كان لا بد لعائشة رضي الله عنها أن تسأل عن هذا الذي يقال من أُم تحب ولدها.. ولندع عائشة تكمل الحديث، تقول عائشة رضي الله عنها:

فأقبلت أنا وأُم مسطح قبل بيتي قد فرغنا من شأننا، فعثرت أُم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح!!

فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدراً!!

فقالت: أي هنتاه أو لم تسمعي ما قال؟؟![١]

تقول أم مسطح لعائشة: أوَ ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر.

---

(١) الحديث في البخاري.

سألت عائشة: وما الخبر؟!

فأخبرتها أم مسطح ما كان من حديث أهل الإفك والكذب، وشعرت عائشة كأن الدنيا تميدُ بها مَيْداً، ولم تقو قدماها على حملها، فعادت إلى دارها وقد تبينت مبلغ الهوة السحيقة التي حُضِرتْ من حولها، ففصلت بينها وبين حب زوجها وعطفه عليها، ونالت من منزلتها ومكانتها بين النّاس.

عادت لتقول لأُمها معاتبة: يغفر الله لك يا أُمي، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً.

فهونت عليها أُمها أُم رومان قائلة: أي بنيّة! خَفِّفي عليك الشأن، فوالله لقلّما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائ إلاّ كثّرن وكثّر الناس عليها.

ولكن عائشة رضي الله عنها، قضت ليلتها تبكي حتى أحسَّت كأن كبدها يتمزق، وأصبحت وهي لا يرقأُ لها دَمْعُ، ولا تكتحل عيناها بنوم.

تألم الرسول ﷺ ألماً نفسياً شديداً من أجل عائشة الحبيبة، التقية، الطاهرة، ولكن.. ما بال النّاس يتحدثون ويخوضون!! ولم يجد أمامه إلاّ ربه الذي يتولاه، ولم يستطع صلوات الله وسلامه عليه أن يسكت على رجف المرجفين أكثر مما سكت، ولا أن يحتمل ما بنفسه من ريبة وشك أكثر مما احتمل، فدعا بابن عمه علي بن أبي طالب، وبأسامة ابن ربيبه زيد بن حارثة رضوان الله عليهما يستشيرهما في أمر عائشة.

أما أسامة فقد أثنى على عائشة وقال: يا رسول الله؛ أهْلُك، وما نعلم منهم إلاّ خيراً، وهذا الكذب والباطل.

أمّا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد قال: يا رسول الله إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تَسْتَخلِف، وسل الجارية فإنها تجيبك.

ودعيت بريرة جارية عائشة، فسَألها النبيُّ ﷺ، وقام إليها عليٌّ يضربها ضرباً شديداً وهو يقول لها: أصدقي رسول الله.

فتقول الجارية: والله ما أَعْلَمُ إلاّ خيراً، وما كنت أعيب على عائشة

شيئاً إلاّ أني كنت أعجن عجيني، فأطلب منها أن تحفظه، فتنام عنه لحداثة سِنِّها، فتأتي الشَّاةُ فتأكلُهُ.

وراح الرسول ﷺ يسأل زوجته زينب بنت جحش عن عائشة ـ وكانت أختها حمنة ممن أفصح بالإفك عنها ـ فقال لها: «**ماذا علمت أو رأيت؟**».

فأجابت زينب الرسول ﷺ على الفور: أَحْمِي سمعي وبصري، والله ما علمت إلاّ خيراً!



٦ ـ من زوَّجها لك؟

ولعل أبلغ حوار دار في شأن براءة السيدة الجليلة أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ما كان بين الرسول ﷺ وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فمن جرَّاء ما كان يشعر به النبي من حزن وألم نالا من نفسه ومن روحه منالاً كبيراً، راح النبي ﷺ إلى عمر بن الخطاب ـ أول صديق وأكبر معاون له بعد أبي بكر ـ يبثه ذات نفسه، ويصرح له بما يختلج في قلبه فيما يذيع النّاس عن عائشة.

ونظر عمر رضي الله عنه الذي كان من أَشدِّ النّاس صلابةً ضد النساء إلى الرسول ﷺ نظرةَ المستنكر لما يراود فِكْرَهُ من ظنون وقال لمحمد: من زوَّجها لك يا رسول الله؟

أجاب محمد ﷺ: «**الله تعالى**».

قال عُمَرُ: أفتظن أن الله دلَّس عليك فيها، سُبْحانك! هذا بهتان عظيم.

نترك هذا الرد الرائع القاطع الذي جاء به فقيه المسلمين ابن الخطاب، الفاروق الذي فرق الله به بين الحق والباطل، ذلك الرجل الذي يخشاه الشيطان، إذا سلك وادياً سلك الشيطان وادياً غيره، نترك هذه الحجة

القاطعة والتي تعد أبلغ رد على افتراءات المفترين على أم المؤمنين عائشة، سيدة الشرفاء والطاهرين.

ونعود إلى حديث عائشة رضي الله عنها عن محنتها ـ فتقول[1] ـ: فدعا رسول الله ﷺ بريرة وقال: «**أي بريرة!! هل رأيت من شيء يريبك؟**».

قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام على عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله.

فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبدالله بن أُبي بن سلول، فقال وهو على المنبر: «**يا معشر المسلمين!!! من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلاّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلاّ معي**».

فقام سعد بن معاذ الأنصاري، فقال: يا رسول الله! أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد: كذبت لعمر الله!! لا تقتله ولا تقدر على قتله.

فقام أُسيد بن الحضير وهو ابن عم سعد، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله!! فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتشاور الحيّان الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا.

وتواصل عائشة رضي الله عنها فتقول: فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، فأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنومٍ ولا يرقأَ لي دمع، يظنان أن البكاء، فالق كبدي، فبينما هما

---

(١) من حديث عائشة في البخاري ومسلم.

جالسان عندي، وأنا أبكي، فاستأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهراً لا يوحىٰ إليه في شأني، فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «**أما بعد. يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت ذنباً فاستغفري الله، وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه**».

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي حتى ما أُحسُّ منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال.

قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ!!.

فقلت لأمّي: أجيبي رسول الله ﷺ.

قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

وتواصل عائشة رضي الله عنها حديثها عن الإفك فتقول: فقلت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله لقد علمت، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقرَّ في نفوسكم، وصدّقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة ـ والله يعلم أني بريئة ـ لا تُصدّقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر ـ والله يعلم أني فيه بريئة ـ لتصدقنّي، والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف[1] قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

❊ ❊ ❊

٧ ـ البراءة

أمّا الرسول ﷺ فما برح مجلسه الذي يجلس حتى تغشّاه ما كان يتغشاه من نزول الوحي عليه، فَغُطِّيَ بثوبه، ووضعت وسادةٌ تحت رأسه.

---

(١) تقصد نبي الله يعقوب عليه السلام والآية من سورة يوسف رقم «١٨» والتي تمثلت بها.

ولم تخف عائشة رضي الله عنها ولم تبالِ، بل أحست أن الله لا بد مبرئها عند رسوله ﷺ، وإن كانت تظنُّ في نفسها أنها أصغر شأناً من أن ينزل فيها وحي من عند الله.

أما أبواها فمذ نزل الوحي على النبي حتى ظنت عائشة رضي الله عنها أن نفسيهما لتكاد أن تخرجا، خوفاً من أَنْ يأتي من الله تحقيق ما قال النّاس.

فلما سُرِّيَ عن محمد ﷺ جَلَسَ والعرق يتصبَّبُ من جبينه، يضحك ويقول لعائشة: «**أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك**».

ورُدَّتْ إلى أبي بكر وأُم رومان نفسيهما اللتان كادتا أن تذهبا فَرَقاً وخوفاً، ونهضت أُم رومان تهيب بابنتها أن تقوم إلى رسول الله ﷺ، ولكن عائشة أجابت ـ وقد شعرت بعزة نفسها ـ: لا والله، لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله الذي برَّأَني.

ونهض أبو بكر يقبِّل رأس ابنته، فقالت له: بحمد الله، لا بحمدك ولا بحمد صاحبك، يا أبتاه، ألا كنت عذرتني.

فأجابها أبو بكر: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني! إن قُلْتُ بما لا أعلم!

وتتحدث عائشة رضي الله عنها قليلاً فتقول: فلما سرّي عن رسول الله ﷺ سرّي عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها: «**يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك**».

فقالت أمي: قومي إليه.

فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله عز وجل.

وأنـزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾
لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا
جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ
تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ

عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ
﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ـ وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره ـ والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢].

قال أبو بكر: بلى والله، إني أُحِبُّ أن يغفر الله لي.

فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري فقال: «**يا زينب ماذا علمت ورأيت؟**».

فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلاّ خيراً.

قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ، فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك[1].

❀ ❀ ❀

(١) أخرجه البخاري بطوله ١٩٨/٥، ٢٠١ في الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، ٣٣٣/٧، ٣٣٥ في المغازي باب حديث الإفك، و٣٤٣/٨، ٣٦٧ في تفسير سورة النور، باب ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ وأخرجه أحمد ١٩٤/٦، ١٩٦، ومسلم ٢٧٧٠) في التوبة باب حديث الإفك، والترمذي ٣١٧٩، وعبدالرزاق في «المصنف» ٩٧٤٨، وانظر سيرة ابن هشام ٢٩٧/٢، ٣٠٧، والبداية والنهاية لابن كثير ١٦٠/٣، ١٦٤، وتفسيره ٢٦٨/٣، ٢٧٢.

٨ ـ ادعوا لي حسان

كان حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ ممَّن خاض في حديث الإفك، إذ هو أحد الثلاثة الذين خاضوا فيه (حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش).

وفيه قال صفوان بن المعطل السلمي وقد أكثر عليه في شأن عائشة، فقال يُعَرِّض به:

أمسى الجلابيب قد عَزُّوا وقد كَثُرُوا   وابن الفريعة أمسى بيضة البلد(١)

واعترض صفوان لحسان ذات ليلة وهو آت من عند أخواله بني ساعدة، فضربه بالسيف على رأسه، فاستَعْدوا عليه ثابت، فجمع يديه إلى عنقه بحبل، وقاده إلى دار بني حارثة، فلقيه ابن رواحة، فقال: ما هذا؟

فقال: ما أعجبك أنّه عدا على حسان بالسيف، فوالله ما أراه إلاّ قد قتله.

فقال: هل علم رسول الله ﷺ بما صنعت به؟

فقال: لا.

فقال: والله لقد اجترأت، خل سبيله، فسنغدوا على رسول الله ﷺ، فَنُعْلِمُهُ أمره.

فخلى سبيله، فلمّا أصبحوا، غدوا على النبي ﷺ، فذكروا له ذلك.

فقال: «**أين ابن المعطل؟**».

فقام إليه، فقال: ها أنا ذا يا رسول الله.

فقال: «**ما دعاك إلى ما صنعت؟**».

---

(١) أراد بالجلابيب: سفل الناس، وابن الفريعة: كنية حسان، والفريعة أُمه، وبيضة البلد: يضرب مثلاً في العزة أو الذلة، والثاني هو المراد هنا.

قال: آذاني يا رسول الله وكثَّر علي، ولم يرضَ حتى عرَّض بي في الهجاء، فاحتملني الغضب، وها أنا ذا فما كان عليَّ من حق، فخذني به.

فقال رسول الله ﷺ: **«ادعوا لي حسان بن ثابت»**.

فأُتي به، فقال: **«يا حسان!! أتشوهت[1] على قومي أن هداهم الله للإسلام** - يقول: تنفست عليهم - **يا حسان، أحسن فيما أصابك»**.

قال: هي لك يا رسول الله.

فأعطاه النبي ﷺ سيرين القبطية، فولدت له عبدالرحمن، وأعطاه أرضاً كانت لأبي طلحة، تصدق بها أبو طلحة عن رسول الله ﷺ.

انظر إلى عفو رسول الله عن شاعره حسان الذي خاض في حديث الإفك. انظر إلى هذا الرجل العظيم محمد ﷺ كيف يعفو ويصفح، فالتف حوله المؤمنون جميعاً، ولذلك قال فيه رب العزة: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

ويرد حسان رضي الله عنه كلامه، ويعود إلى ما كان عليه من غيرة على الإسلام، فكم أفحم المشركين بشعره، فها هو يقول في عائشة رضي الله عنها:

رأيتك وليغفر لك الله حرّة ... من المحصنات غير ذات غوائل
حصان رزان ما تُزَنُّ بِرِيبة ... وتصبح غرثىٰ من لحوم الغوافل
وإن الذي قد قيل ليس بلائقٍ ... بكِ الدهرَ بل قيل امرىء متحامل
فإن كنت أهجوكم كما بلَّغوكم ... فلا رفعت صوتي إلى أنامِلي
وكيف وودِّي ما حييت ونصرتي ... لآل رسول الله زينِ المحافلِ
وإنَّ لهم عِزّاً يرى الناس دونه ... قصار وطال العِزُّ كل التَّطاول
عقيلة حَيٍّ من لؤي بن غالب ... كرام المساعي مجدهم غَيْرُ زائلِ
مهذَّبة قد طيَّب الله خيمها ... وطهَّرها من كل سوء باطِلِ

(١) أتشوهت: أتفكرت لهم وتقبحت؟ وجعل ﷺ الأنصار قومه لنصرتهم إياه.

رضي الله عن عائشة الطاهرة المبرأة، التي عادت إلى دار زوجها كعهدها فرحة جزلة، تتمتع بحُبِّ الرسول وحنانه وعطفه أكثر مِمَّا كانت تتمتع.

عادت وقد زادت مكانتها فوق ما كانت، تَتِيهُ عَلَى ضرائرها وتفخر عليهن بقولها: لقد أُعطيتُ تسعاً ما أعطيتهن امرأة:

- لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتي في راحته حين أمر رسول الله ﷺ أن يتزوجني[1].

- ولقد تزوجني بكراً وما تزوج غيري.

- ولقد توفي رسول الله ﷺ وإنَّ رأسه لفي حجري.

- ولقد قبر في بيتي.

- ولقد حفَّت الملائكة ببيتي، وإن كان الوحي لينزل عليه وأنا معه في لحافه، فما يبنيني عن جسده.

- وإني لابنة خليفته وصديقه.

- ولقد نزل عذري من السماء[2].

- ولقد خلقت طيبة عند طيب.

- ولقد وعدت مغفرة ورزقاً كريماً[3].

---

(١) يؤكد صدقها حديث رسول الله ﷺ: **«أريتك في المنام ثلاث ليالٍ، جاء بك الملك في سَرَقة من حرير، فيقول: هذه امرأتُك، فأكشف عن وجهك فإذا أنت فيه. فأقول: إن يَكُ هذا من عند الله يمضه»** أخرجه أحمد ٤١/٦، ١٢٨، ١٦١، والبخاري ١٥٧/٧: في مناقب الأنصار باب تزويج النبي عائشة، و١٥٦/٩ في النكاح، باب النظر إلى المرأة قبل التزويج.

(٢) آيات البراءة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ...﴾ الآية.

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده - انظر مجمع الزوائد ٢٤١/٩.

ولقد كان حديث الإفك مادة لأعداء الإسلام من المستشرقين والمبشرين، وفي هذا السياق يقول الأستاذ العقاد[(١)]: وإن غرض ابن سلول هذا لهو بعينه غرض كل متشبث بحديث الإفك إلى يومنا هذا، ليتخذ منه سبيلاً إلى الطعن في الإسلام ونبي الإسلام وخاصة بين المبشرين من المستشرقين.

فمن هؤلاء من غلب عليه أدب التربية فاستبعد حديث الإفك كما فعل موير Muir حيث قال بعد الإشارة إليه: إن سيرة عائشة قبل الحادث وبعده لتوجب علينا أن نعتقد براءتها من التهمة.

ومنهم من نقل الحكاية وخلطها بالمعجزات التي لا يصدقها غير المسلم، كما فعل واشنطن أرفنج في سيرة النبي عليه السلام، فلم يقطع بنفي صريح وترك الباب مفتوحاً للأقاويل.

ومنهم من جاوز الحقيقة في وصف ما جاءت به الروايات، فزعم أن السيدة عائشة ابتعدت عن النبي ﷺ يوماً كاملاً قضته في صحبة صفوان، خلافاً لما جاء في كل قصة نقلت إلينا عن حديث الإفك، ونعني به رودويل Rodwell صاحب ترجمة معاني القرآن حيث عرض لهذا الحديث في حاشية من حواشيه على سورة النور.

ويستطرد قائلاً[(٢)]: وهؤلاء مع هذا هم أشد المستشرقين تقيةً وحذراً في تعرضهم لهذا الحديث، لكن المبشرين المحترفين لم يتقوا هذه التقيّة، ولم يحذروا هذا الحذر بل جزموا بصحة الحديث، وقال بعضهم: إن محمداً استنزل الآيات في سورة النور ليحمي سمعة زوجته، ويدين الوشاة بالعقاب الذي ورد في تلك السورة[(٣)].

وجهلهم القرآن هو الذي أوقعهم في تلك الفريَّة الوضيعة، التي

(١) الصديقة بنت الصديق للعقاد.
(٢) العقاد في كتابه الصديقة بنت الصديق.
(٣) يقصد سورة النور.

يتخبطون فيها على غير علم بمصادرها ومواردها.. ومن الإسفاف أن نتبع هؤلاء الوشاة في كل ما خبطوا فيه من إثم وكل ما رجموا به من ظن، كأن أخلاق الناس وحقائق التاريخ رهن بما يتحملونه، ووقف على ما يختلقونه، وما كانت وشاياتهم تلك بحثاً يستند إلى رأي، أو ظناً يعتمد على قرينة، ولكنها كانت كذباً لا يليق بالمؤرخ، وسوء نية لا يليق بالإنسان، وخِسَّة في امرأة شريفة لا تليق بالرجل الكريم.

وإذا أومأنا إلى ضروب من تلك الوشايات، لنعلم أن الحذر واجب هنا على قدر ضخامة الأغراض التي تخلق الوشاية، وتنطلق في ترويجها إلى أيامنا هذه، وإلى ما بعد هذه الأيام، ما دام في الدنيا أُناس يستبيحون أَن يجترئوا بالشبهات على امرأة لا ذنب لها إلاّ أنها زوج نبي يريدون التشكيك فيه.

وعلى الذي يقبل وشاية كتلك الوشاية الواهية أن يروِّض عقله على تصديق أُمور كثيرة لا موجب لتصديقها لأنها تفتقر إلى كل دليل، والأدلة على ما يناقضها كثير، عليه أن يصدِّق أن صفوان بن المعطل كان رجلاً لا يؤمن بالنبي ولا بأحكام الإسلام، وأنْ يصدق أَنَّ السيدة عائشة كانت ـ وهي زوج النبي ﷺ ـ لا تؤمن به ولا تعمل بدينه، ولا دليل على هذا ولا ذاك، بل الأدلة على إيمان صفوان وإيمان عائشة تجري في كل سياق وردت لهما سيرة فيه..

ومن هي تلك الزوجة بعد هذا؟ هي بنت الصديق الذي لم يوصم بيته بوصمة في الجاهلية[1] ـ كما قال ـ حتى يوصم بهذه الوصمة الكبرى في الإسلام ومع نبي الإسلام..!!

إن أقوى الأدلة لا يحسم الشك هنا فضلاً عن تلك الوشاية الواهية، ويبقى على من يقبلها أن يسأل نفسه بعد هذا: كيف نشأت علاقة صفوان

---

(١) ذكر المؤرخون أن أبا بكر لم يسجد لصنم قط في الجاهلية ولم يشرب الخمر، ولم يرتكب الدنس، ولم يشتهر قط بوصمة يعاب بها ـ انظر أنباء نجباء الأبناء.

المزعومة؟ أفي تلك الليلة بعينها؟ فكيف اجترأ الرجل على مفاتحة أُم المؤمنين، وهم يتهيبون المناداة عليها في هودجها؟ بل كيف تخطر له هذه المفاتحة، وهو لا يشك في إيمانها بزوجها، وليس له علم قبل ذلك بخبيئة صدرها؟ وإذا اجترأ هذا الاجتراء هوساً منه فكيف يصدق العقل أن امرأة النبي ﷺ وبنت الصديق تكون هكذا لقطة لأول لاقط يصادفها؟ إن التي تكون كذلك لا يخفى سرها حتى يكشفه حديث الإفك ويقتصر الحديث فيه على صفوان.

كل ذلك سخف لا يقبله إلاّ من يفتري بوشاية أو بغير وشاية، وسواء فيه منافقو المدينة ومن يصنع صنيعهم من المؤرخين في العصر الحاضر، لأنهم لا يؤمنون بِنَبيّ الإسلام ﷺ، بل هؤلاء أنذل وأغفل[1].

وإذ يستريح الضمير لتحليل العقاد الذي أوردناه عن كتابه فإننا نريح ضميرنا في هذا الأمر، وتطمئن نفوسنا لرأيين جاءا من صحابيين جليلين من أصحاب رسول الله ﷺ، وهما: عمر بن الخطاب وأبو أيوب الأنصاري.

فعمر بن الخطاب الذي كان من أشدِّ الناس صلابة ضد النساء، نظر إلى ما يشاع عن الصديقة الطاهرة، نظر نظرة المستنكر لما يراود فكر محمد ﷺ من ظنون وقال للنبي ﷺ: مَنْ زوجها لك يا رسول الله؟

فأجاب محمد ﷺ: «**الله تعالى**».

قال عمر رضي الله عنه: أفتظن أن الله دلس عليك فيها، سبحانك هذا بهتان عظيم.

حاشَ لله أن يدنِّس على نَبيه، ومعاذ الله أن يزوِّجه إلاّ طاهرة طيبة مؤمنة صديقة تيمية نسبها يقول أنها ابنة نسب طاهر، قيل عنهم: «مصابيح الظلام» في الجاهلية، فكيف بربك يكون شأنهم في الإسلام؟!!

أما الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري فيحذو حذو ابن الخطاب في

---

(١) العقاد في كتابه عن عائشة الصديقة بنت الصديق.

نكره وتحليله للأمور، ويشرك معه في الحديث زوجه أم أيوب التي جاءته تقول: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها؟!!..

فقال أبو أيوب: نعم، وذلك الكذب، كنت فاعلة ذلك يا أُم أيوب؟

قالت: لا والله ما كنت لأفعله..

قال: فعائشة والله خير منك[1].

إنها الصديقة الطاهرة بنت أبي بكر - رضي الله عنه - صاحب النبي ﷺ في الغار.

إنها واحدة من نساء النبي ﷺ اللاتي زوجهن الله من فوق سبع سماوات.

وإذ نترك حديث الإفك لا نجد أبلغ من آيات الله إنصافاً لهذه السيرة العطرة، فلننصت خاشعين، يقول عز وجل: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢ ـ ٣٤].

ونقول لكل المسلمين عن حديث الإفك أبلغ قول وأحسنه ـ قوله عز وجل ـ: ﴿..لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١١].

وإذ نتجه لله بالحمد، ونسجد له شكراً على ما أفاء علينا من فضل ورحمة في حادثة الإفك، فلولا أن شملت المسلمين رحمته تعالى وفضله سبحانه عز وجل لمسهم فيما أفاضوا وخاضوا فيه عذاب عظيم، هذه نعمة

---

(١) انظر تفسير سورة النور ـ حديث الإفك ـ تفسير ابن كثير، وتفسير سورة النور لأبي الأعلى المودودي رحمه الله.

من الله ما بعدها نعمة، فالحياة في رحاب نعمة الله، والعيش في ظل رحمته، والإقرار بفضله وربوبيته ورحمته، كرم عظيم وفضل كبير، فما كان من أمر الإفك إنه لجدّ أمر خطير، لذلك أنهى رب العزة حديث الإفك بآيات عظيمة، وتذكير حق لنا أن نسجد لله شكراً عليه ـ انظروا قوله سبحانه عز وجل ـ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩)﴾ [النور: ١٤ ـ ١٩].

بهذه الروعة تحدث القرآن الكريم دفاعاً عن الطاهرة الصديقة عائشة رضي الله عنها، بهذا الصدق تكلم القرآن عن حديث الإفك يعظنا أن لا نعود إليه حتى نكون مؤمنين.

لقد حذر القرآن الكريم الذين يحبون إشاعة الفاحشة ـ في الذين آمنوا، في الذين طهّرهم الله تطهيراً، في الذين أذهب عنهم الرجس ـ حذرهم بعذاب أليم في الدنيا والآخرة.

لقد بيّن الله لنا الآيات، وهو العليم بالأمر كله، الحكيم في شأنه، الحافظ لعباده، المعز لمن آمنوا به وصدّقوا رسوله وصاحبوه في رحلة الإسلام، وهاجروا معه، وجاهدوا إلى جواره بأموالهم وأنفسهم وأهليهم.

ولولا فضله لأصابنا ضر كثير، ولولا رحمته بنا في هذه الأيام وبعد عشرات القرون من رحيل محمد ﷺ إلى جوار ربّه، لولا رحمته لمسّنا فيما نخوض فيه ونلعب ضُرٌّ كبير أكبر مما نصاب به في هذه الأيام.

إن البيت المسلم سلاحُهُ طهارةُ اليد وطهارة القلب وكبح جماح اللسان الذي يلقي هنا ويرمي هناك ـ وتربية أفواهنا على ألا نقول ما ليس لنا به علم، إن هذا الذي نحسبه هيناً هو عند الله عظيم ـ.

ونتجاوز هذا الحديث إلى حديث آخر في حياة الصديقة بنت الصديق الطاهرة الطيبة.



٩ ـ عائشة والشيخان

الشيخان هما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، تُرى كيف عاشت في عهدهما بعد وداع الحبيب رسول الله ﷺ؟؟

كانت قضية استخلاف أبي بكر رضي الله عنه هي هاجس المؤرخين، بل موقف عائشة رضي الله عنها من استخلاف أبيها ردّ على تأويل المؤرخين والمهتمين بأمر الخلافة.

وقد كانت عائشة رضي الله عنها هدفاً للروايات المغرضة من أعداء المسلمين، ففي رواية من أشهر الروايات عن مرض النبي ﷺ أن مؤذنه بلالاً جاء يوماً ـ وقد اشتد المرض بالرسول ﷺ ـ فقال عليه الصلاة والسلام: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**».

قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله إن أبا بكر رجلٌ أسيف (حزين) وإنّه متى يقم مقامك لا يسمع النّاس فلو أمرت عمر؟

فقال عليه السلام مرة أُخرى: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**».

فأعادت حفصة رضي الله عنها ما قالته له عائشة، وضجر عليه السلام من هذه المراجعة، فقال: «**إنكن أنتنّ صواحب يوسف**».

ثم قال عليه السلام لثالث مرة: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**».

وروي عن عبدالله بن زمعة أنّه خرج من عند النبي ﷺ، فإذا عمر في المسجد وأبو بكر غائب، فقال: يا عمر قم فصل بالناس. فتقدم فكبّر وكان رجلاً جهوري الصوت، فلما سمع رسول الله صوته سأل: «**فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون**».

ولام عمر رضي الله عنه عبدالله بن زمعة قائلاً: ويحك، ما صنعت بي يا ابن زمعة؟ والله ما ظننت حين أمرتني إلا أن رسول الله ﷺ أمرك بذلك، ولولا ذلك ما صليت بالناس.

قال ابن زمعة: والله ما أمرني رسول الله ﷺ بشيء، ولكنّي حين لم أرَ أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس.

وموضع العجب في هذه الرواية تردد السيدة عائشة رضي الله عنها في تبليغ أمر النبي ﷺ بإقامة أبيها مقامه في الصلاة، وقد ذكر الأمر أكثر من مرّة.

فهذا التردد عجيب من وجوه:

- عجيب أن تتردد عائشة في تبليغ أمر محمد عليه السلام، وهو الزوج المحبوب والنبي المطاع.

- وعجيب أن تتردد في تبليغه، وهو تشريف لأبيها أبي بكر بمقام كريم تتطاول إليه الرقاب.

- ويزيده عجباً أن يحدث في شدة المرض والنبي ﷺ مجهدٌ يطلب الراحة، وعائشة أشد نسائه سهراً عليه في مرضه، وأرعاهم له بما يريحه، ويخفف الجهد عنه[1].

نعم إن عائشة رضي الله عنها كانت أكثر الناس دالة على النبي ﷺ وأجرأهم على مراجعته، والتلطف في إبلاغه بما يتهيب القوم أن يبلغوه، فلئن كانت هي أولى الناس أن تطيعه وتبلِّغ أمره، لقد كانت كذلك تعلم من مكانتها عنده ما يبيح لها أن تراجعه، وتأمن غضبه، لدالتها عليه وثقتها من مضمر حبها له، وامتثالها لأَمره.

إلا أنها بلغت مكان الدالة عن رسول الله ﷺ بما لها من صفات كثيرة

(١) انظر كتابنا الخلافة الراشدة، عبدالمنعم الهاشمي ط دار ابن حزم بيروت ص٢٦ وما بعدها.

غير الصباحة والجمال، وأول تلك الصفات فرط الذكاء ولطافة الحس وحسن التقدير.

وما نحسب أن شيئاً حفظته لنا الروايات التاريخية عن ذكاء السيدة عائشة رضي الله عنها يدل على قوة ذلك الذكاء، كما دل عليه ترددها في إبلاغ أبي بكر في ذلك اليوم العصيب[1].

ولربما نقول نحن غير هذه المقالة أو نضيف إليها، فإنّه ما من شك في ذكاء عائشة كما يقول ـ أي العقاد ـ ولكن من غير هذه الدلالة وهذا الموقف، لأننا نعتقد أن هذا الموقف قبل أن يدل على الذكاء، يدل على أمر آخر وهو الشفافية والنقاء، فهي أُم المؤمنين زوج الرسول، فإذا أخذنا ما يقوله العقاد في أن هذا الأمر وهو ترددها دل على ذكاء منها، أن ترددت في إبلاغ أبي بكر رضي الله عنه، فإننا نجد أنفسنا قد نفهم عائشة فهماً بعيداً، فإذا كان الذكاء هنا مقصوداً وبمعنى أصح التردد في إبلاغ أبي بكر مقصود على سبيل الذكاء فإن عائشة الصغيرة كانت تفكر في شيء يستوجب استخدام أعلى درجات الذكاء.

لكنها عبرت بشفافية ونقاء عن موقفها هذا الذي يتصف بالتلقائية والصراحة فقالت لحفصة: قولي له (للرسول) إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس فلو أمرت عمر.

فإذا قلنا إنّه ذكاء منها فإننا قد نحملها أكثر نقائها وإخلاصها وصفائها وتجردها من أي غرض أو عرض.

وإذا عبرنا قضية الذكاء، نجد أن المؤرخين، قد قالوا في الخلافة بعد النبي ﷺ الكثير، فقد قيل فيها ما يخطر على بال الأكثرين، وما يخطر على بال الأقلين، وما لا يخطر على بال أحد أن يجمع به التعنت والاعتساف أغرب حجاج.

قيل: إن وصول الخلافة إلى أبي بكر إنما كان مؤامرة بين عائشة وأبيها.

---

(١) عبقرية الصديق ـ العقاد.

وقيل: إنه كان مؤامرة بين رجال ثلاثة أعانتهم عائشة على ما تآمروا فيه، بما كان لها من الحظوة عند رسول الله ﷺ، وكان هؤلاء الرجال على زعم أولئك القائلين: أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح، وهم الذين أسرعوا - من المهاجرين - إلى سقيفة بني ساعدة ليدركوا الأنصار قبل أن يتفقوا على اختيار أمير أو خليفة لرسول الله ﷺ.

وقيل: إن هؤلاء الرجال الثلاثة اتفقوا على تعاقب الحكم واحداً بعد واحد: أبو بكر فعمر فأبو عبيدة، ولهذا قال عمر حين حضرته الوفاة: لو كان أبو عبيدة حيّاً لعهدت إليه لأنه أمين الأُمة، كما قال فيه رسول الله ﷺ.

وهذا زعم روّجه بعض المستشرقين، ولقي بين القراء الأوروبيين كثيراً من القبول، لأنه شبيه بما عهدوه في أمثال هذه المواقف من أحاديث التدبير والتمهيد، وروايات التواطؤ والائتمار.

فالسيدة عائشة مسعودة الحظ لا مراء، لأنها لم تخالف محمداً قط في أمر من أخطر الأُمور، وحين خالفته أو ترددت في تبليغ كلامه في أمر من أخطر الأُمور، كان هذا التردد في: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**».

كان هذا التردد أدل على مكانتها وفضلها وعلى استحقاقها لمنزلة الإيثار في ذلك القلب العظيم.

فهي ترددت لتبرىء نفسها من القائلة، وتبرىء ذلك الموقف الخطير من المظنة، وتبرىء الخلافة من أسباب الادعاء، وقد يكون فيها أضغان وإيذاء، وأشهدت على نفسها أولي الناس بالشهادة في ذلك الموقف الخطير حفصة بنت عمر رضي الله عنها.

فإذا علمت حفصة أن عائشة رضي الله عنها راجعت رسول الله ﷺ مرتين في تبليغ الأمر إلى أبيها أن يصلِّ بالناس، فقد علمت ذلك من هي أحق من سائر الأمهات - أمهات المؤمنين - إذ كان عمر رضي الله عنه أحد اثنين في حق الخلافة لا يذكر أحدهما إلاّ ذكر الآخر، كما ظهر ذلك من واقع الأمور، أو كما ظهر من قول عبدالله بن زمعة لعمر: حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس.

فتردد عائشة رضي الله عنها في ذلك الموقف الخطير لم يضر بل نفع، وهذا التردد كان شفافاً نقياً، تلقائياً بفطرتها قبل ذكائها وكان أنفع من إسراعها بالتبليغ، وأول ما نفع به أنه أظهر رغبة النبي ﷺ إظهاراً لا مجال للظَّنَّة فيه، فكان من أدعى دواعي الاتفاق على الاختيار وقطع السبيل على الفتنة والشقاق.

وتزعم رواية من الروايات[1] أن السيدة عائشة رضي الله عنها ترددت في التبليغ لأنها أشفقت أن يتشاءم الناس برؤية أبيها في مقام يذكرهم بالخطر على أَحب النّاس إليهم في ذلك المقام، وتلك سانحة يجوز أن تسنح لها وهي أشد النّاس إحساساً بذلك التشاؤم ووقعه في نفوس المسلمين، ولكنّنا إذا سلمنا أنها رضي الله عنها قد تعمدت الإبطاء في التبليغ، فالسبب الذي أومأنا إليه آنفاً أدلى وأَليق بالمعهود من ذكائها وخلقها الكريم.

لأنها لا تجهد النبي ﷺ في مرضه، ولا تفوِّت على أبيها شرف الخلافة حذراً من التشاؤم وحده، ثم هي لا تدعو حفصة إلى تعريض عمر لموقف تصون عنه أَباها، فإن كان هناك تعمد للإبطاء في التبليغ فذلك السبب الذي أومأنا إليه آنفاً أحق الأسباب أن يرجح على غيره لتفسير ذلك الإبطاء، فهو أدعى أن يقل به العجب ولا يمتنع مع هذا أن يقترن بغيره من الأسباب.

ويقل العجب من تردد السيدة عائشة، كلما ازداد العجب من تلك الفروض والأقاويل التي خاض فيها من خاض عن ما يسمى «بمؤامرة» الخلافة المزعومة، وليس لها سند في التاريخ، ولا من التفكير القويم، ولا من المعهود في أخلاق الرجال والنساء الذين عُزيت إليهم تلك المؤامرة بغير بيِّنة قاطعة ولا ظنٍّ راجح.

فليس في شيء رواهُ الرواة عن الخلافة بعد النبي ﷺ كلمة واحدة ترجح تلك الفروض والأقاويل، سواء كان قائلها ممن أسرعوا إلى بيعة

(١) عبقرية الصّديق للعقاد.

الصديق أو تباطؤوا في بيعته، أو قضوا حياتهم ولم يبايعوه.

وليس في شيء من خلائق أبي بكر وعمر وأبي عبيدة التي عهدها النّاس منهم في حياة النبي ﷺ أو بعد وفاته ما يأذن لمتوهم أن يتوهم فيهم التآمر على خلافته وهو على قيد الحياة، دون أن يطلعوهَ على جليلة أو دقيقة ممّا يفكرون فيه.

وليس في سيرة أبي بكر وعمر بعد أن ولِّيا الخلافة ما ينم على طمع في السطوة، وحرص على زهد الملك، يغريهما باستباحة ثقة النبي ﷺ في حياته بما لا يليق، وهو عندهما بمكان من التجلّة والحب لا تتطرق إليه الشكوك ولا ترتفع إليه الشبهات[١].

وعلى نقيض ذلك تدل الحوادث والروايات التاريخية على أن الأمر قد وقع منهم جميعاً موقع المفاجأة التي لم يتدبروا فيها إلا بعد وقوعها، ولم يبرموا فيها الرأي على نحو من الأنحاء قبل الاجتماع لسقيفة بني ساعدة، فالأقوال تتفق ـ أو تكاد تتفق ـ على أن أبا بكر لم يكن قريباً من النبي ﷺ يوم أمر النبي ﷺ بلالاً أن يدعوه للصلاة بالناس، ولو كان بينه وبين السيدة عائشة اتفاقاً في هذا الصدد لكان اقترابه من المسجد أو بيت النبي ﷺ في تلك اللحظة لازماً كل اللزوم لإنجاز ذلك الاتفاق، وإلا توجهت الدعوة إلى غيره وخرج الأمر من أيدي المتفقين.

وقد توفي النبي ﷺ وليس من أصحابه الأقربين مَنْ كان يتوقع وفاته، فتركه أبو بكر بعد الصلاة وهو يقول: يا نبي الله إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحب، واليوم يوم بنت خارجة[٢] أفآتيها؟

---

(١) انظر كتابنا الخلافة الراشدة ـ استخلاف أبي بكر.

(٢) يقصد زوجته حبيبة بنت خارجة التي تزوجها بالمدينة غير أُم رومان، وكان سكنها بمنطقة بأطراف المدينة هي «السنح»، وقد تزوج أبو بكر أربعة نسوة هن: قتيلة بنت عبدالعزى فولدت له أسماء وعبدالله، وتزوج بعدها أم رومان بنت عامر بن عويمر فاستولدها: عبدالرحمن وعائشة، ثم تزوج بالمدينة حبيبة بنت خارجة ثم أسماء بنت عميس فولدت له محمداً.

فأذن له النبي ﷺ بالانصراف، وخرج أبو بكر إلى السنح حيث كان يقيم.

أما عمر فقد دهش لنعي النبي ﷺ تلك الدهشة التي لم يكن لها على أهبة، ولو كان على أهبة لها لقد كان الأحرى أن يؤكد الوفاة ولا يستغربها، تمهيداً لذلك الاتفاق المزعوم الذي سيتلوها.

لله درك يا أُم المؤمنين، هنيئاً لك رضى الله يا عائشة، فقد وقف إلى جوارك في محنة الإفك، ومحنة فراق الحبيب، واستخلاف الصديق، لقد يسَّر الله نقاءك وإخلاصك فأنطقك الله الذي أنطق كل شيء، أنطقك حقاً وصدقاً يبرئك من تقوّل الكاذبين والمنافقين.



١٠ ـ في عهد أبي بكر شيخ الأُمة

لزمت السيدة عائشة بعد وفاة النبي ﷺ في حجرتها تعزي نفسها بجواره ﷺ، وانشغل النّاس وعلى رأسهم أميرهم أبو بكر بحروب الردّة، ولما أراد أزواج النبي ﷺ أن يرسلن عثمان إلى أبي بكر رضي الله عنهما يسألنه ميراثهن من رسول الله ﷺ قالت عائشة رضي الله عنها لهن: أو ليس قد قال رسول الله ﷺ: **«لا نورث، ما تركناه فهو صدقة»**[(١)].

ولم تكن خلافة الصديق طويلة الأمد، بعيدة الزمن، فقد اتفقت الروايات أن أبا بكر استكمل في خلافته سن رسول الله ﷺ، فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال، وكانت ولادته بعد عام الفيل بسنتين وأربعة أشهر وأياماً، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين[(٢)].

---

(١) رواه أحمد ٢٦٢/٦.

(٢) علي الطنطاوي في كتابه «أبو بكر».

وقد امتد المرض بأبي بكر خمسة عشر يوماً والناس يعودونه، والسيدة عائشة رضي الله عنها تشرف على تمريضه، وفيما كان المرض يشتد على أبيها كانت تعزي نفسها ببعض الأشعار، فينبهها أبو بكر رضي الله عنه وهو في شدّة المرض، كي تستبدل الأشعار بالقرآن الكريم.

ولما جاءت سكرة الموت وحضرت الوفاة أبا بكر تمثلت عائشة قول حاتم:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال أبو بكر رضي الله عنه: لا تقولي هذا يا بنية، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

وكلّف أبو بكر رضي الله عنه أُم المؤمنين عائشة بتنفيذ وصيته فقال لها: إني قد كنت نحلتك حائطاً - بستاناً - وإن في نفسي منه شيئاً فرديه إلى الميراث.

قالت رضي الله عنها: نعم، فردّته.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً، ولكن قد أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وليس عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلاّ هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح، وجرد هذه القطيفة، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر وأبرئيني منهن.

ففعلت، فلما جاء الرسول عمر بكى حتى جعلت دموعه تسيل في الأرض ويقول: رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده[١].

❊ ❊ ❊

(١) انظر حياة الصحابة ٢/٤٦٠.

١١ ـ مع عمر بن الخطاب

اتسم دور عائشة رضي الله عنها في عهد عمر بن الخطاب بالجانب العلمي، فقد بدأت تظهر مكانتها العلمية حتى إنَّ عمر رضي الله عنه وغيره من كبار الصحابة كان إذا أُشكل عليهم أمر، وبخاصة في الشؤون الشخصية للإنسان والتي تجلب حرجاً أحياناً، كانوا يسألون عنه عائشة رضي الله عنها.

وقد ذُكِرَ أن أزواج النبي ﷺ كنّ يحفظن من حديث النبي كثيراً، ولا مثلاً لعائشة وأم سلمة، وكانت عائشة تفتي في عهد عمر وعثمان إلى أن ماتت يرحمها الله، وكان الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ، عمر وعثمان بعده يرسلان إليها فيسألانها عن السُّنن[١].

وقد ذهب الصحابة مذهباً رائعاً في الأخذ عن أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في الفتيا، وخاصة في المسائل الاجتماعية، ومن أمثلة ذلك أنه عندما اختلف المهاجرون والأنصار في وجوب الغسل عند مخالطة الرجل زوجته دون إنزال، قال أبو موسى: فأنا أشفيكم من ذلك، فقمت فاستأذنت على عائشة فأُذن لي، فقلت لها: يا أُم المؤمنين ـ أو يا أُماه ـ إني أُريد أن أسألك عن شيءٍ، وإِني أستحييك.

فقالت: لا تستحي أن تسألني عمّا كنت سائلاً عنه أمك التي ولدتك، فإنما أنا أُمك.

قلت: فما يوجب الغسل؟

قالت: على الخبير سقطت، قال رسول الله ﷺ: «**إِذا جلس بين شعبها، ومسَّ الختان الختان فقد وَجَبَ الغسل**»[٢].

وعن علاقة عمر رضي الله عنه بها وبنساء النبي ﷺ تقول السيدة

---

(١) طبقات ابن سعد ٣٧٥/٢.

(٢) رواه مسلم.

عائشة رضي الله عنها: كان عمر يرسل إلينا بأحظائنا ـ حصصنا ـ حتى من الرؤوس والأكارع[(١)].

وكان عنده صحاف تسع فلا تكون فاكهة ولا طريفة إلا جعل منها في تلك الصحاف، فبعث بها إلى أزواج النبي ﷺ، ولما قسم خيبر خيّر أزواج النبي ﷺ بين أن يقطع لهن من الأرض أو يضمن لهن المائة وسق كل عام.. وكانت عائشة وحفصة ممن اختار الأوسق[(٢)].

وقد بلغ من شدة اهتمامه بهن وحرصه عليهن وتعظيمه لمقامهن، أنهن لما استأذنَّه بالحج أرسل معهن عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف، وأمرهما أن يسير أحدهما بين أيديهن والآخر خلفهُنَّ ولا يسايرهن أحد، فإذا أنزلن فأنزلوهن شعباً، ثم كونا على باب الشعب، لا يدخلن عليهن أحد، ثم أمرهما إذا طفن في البيت ألا يطوف معهن أحد إلا النساء[(٣)].

وقد روت عائشة في مسندها عن فضائل عمر ومناقبه منها:

قوله ﷺ: «**قد كان يكون في الأُمم قبلكم محدثون ـ أي ملهمون ـ فإن يكن في أمتي منهم أحد، فإن عمر بن الخطاب منهم**»[(٤)].

وقوله ﷺ: «**إنّي لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فروا من عمر**»[(٥)].



١٢ ـ في وفاة عمر بن الخطاب

طُعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبدأ يحتضر وقد أشرف على الموت، فأرسل ولده عبدالله إلى السيدة عائشة رضي الله عنها يستأذنها في أن يدفن في الحجرة الشريفة، فأذنت له.

---

(١) أخبار عمر للشيخ علي الطنطاوي.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه الترمذي وحسّنه.

وذلك أن عمر قال لابنه عبدالله رضي الله عنهما: انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل: يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه.

فمضى عبدالله فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فسلم عليها وقال كما أوصاه.

قالت: كنت أُريده لنفسي، ولأوثرنه به اليوم على نفسي.

فلما أقبل قيل: هذا عبدالله بن عمر قد جاء.

قال عمر: ارفعوني، فأسنده رجل إليه، فقال: ما لديك؟؟.

قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أَذِنَتْ.

قال: الحمد لله، ما كان شيء أهم إليَّ من ذلك المضجع، يا عبدالله بن عمر، انظر، فإذا أنا قبضت فاحملوني على سريري ثم قف بي على الباب، فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلني، وإن ردتني فردني إلى مقابر المسلمين، فإني أخشى أن يكون إذنها لي لمكان السلطان.

فلما حمل فكأن المسلمين لم تصبهم مصيبة إلا يومئذ، فأذن له فدفن حيث أكرمه الله مع النبي ﷺ ومع أبي بكر رضوان الله عليهما[1].

وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها تهاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتكنّ له الاحترام الجليل، وذلك ما حدثت به سودة بنت زمعة رضي الله عنها وهي تمازحها وتقول: أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ له.

رضي الله عن عمر بن الخطاب ورضي الله عن السيدة الطاهرة عائشة أم المؤمنين.

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه البخاري، انظر أخبار عمر للطنطاوي.

١٣ ـ مع عثمان رضي الله عنه

لعل مرويات عائشة رضي الله عنها عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه تكون أبلغ رد على من خاضوا في هذه العلاقة وحاولوا وصمها بوصمة الخلاف.

ولكن نثبت أن عائشة رضي الله عنها كانت من أعرف الناس بفضائل عثمان ومَناقبه ومكانته عند رسول الله ﷺ، فإننا نسوق بعض هذه الروايات من أحاديث النبي ﷺ في فضائل عثمان رضي الله عنه روتها عائشة.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ مضطجعاً في بيته، كاشفاً عن فخذيه أو عن ساقيه، فاستأذن أبو بكر، فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر، فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ وسوّى ثيابه، فدخل فتحدث، فلما خرج، قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله!! دخل أبو بكر فلم تهش له ولم تبالِ به، ثم دخل عمر فلم تهش له ولم تبال به، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك؟!

فقال النبي ﷺ: «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة**»(١).

ومما روت أيضاً ـ قولها: دخل عليَّ رسول الله ﷺ فرأى لحماً، فقال: «**من بعث هذا؟**».

قلت: عثمان.

قالت: فرأيت رسول الله ﷺ رافعاً يديه يدعو لعثمان(٢).

وقد كانت عائشة على علاقة طيبة ومودة مع عثمان إلى أن قتل رضوان الله عليه شهيداً، فكانت رضي الله عنها أول من طالب بدمه والاقتصاص من قتلته والثائرين عليه.

---

(١) انظر الرياض النضرة ٣/١٣، ورواه أحمد ومسلم.

(٢) رواه البزار وإسناده حسن.

وكذلك كان عثمان رضي الله عنه يكن تقديراً عظيماً لعائشة رضي الله عنها ولكل أمهات المؤمنين.

ولما جاء الثائرون والغوغاء إلى المدينة وحاصروا عثمان رضي الله عنه لتنفيذ جريمتهم، خرجت السيدة عائشة من المدينة إلى مكة حاجة، كي تبتعد عن هذا الجو الغوغائي المتدني، وقد بلغت جرأة ووقاحة هؤلاء أن اعتدوا على أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها، وذلك عندما حاولت وهي على بغلتها إيصال الماء إلى عثمان وهو محصور في بيته، بعد أن منعوا عنه الماء، فجاءت راكبة على بغلتها، فقطعوا حزام البغلة وندّت بها، وقيل: إنها كادت أن تسقط عنها أو سقطت بالفعل، وكادت تقتل لولا أن تلاحق بها النّاس فأمسكوا بدابتها، ولزم أكثر الناس بيوتهم.

وجاء وقت الحج فخرجت أم المؤمنين في هذه السنة إلى الحج، فقيل لها: إنك لو أقمت لكان الصلح، لعل هؤلاء القوم يهابونك.

فقالت: إني أخشى أن أشير عليهم برأيي فينالني منهم من الأذية ما نال أم حبيبة..[1].

وبعد ذلك علمت عائشة رضي الله عنها بمقتل عثمان رضي الله عنه وهي في طريق العودة إلى المدينة، فعادت إلى مكة وهي لا تقول شيئاً حتى نزلت على باب المسجد، وقصدت إلى حجر إسماعيل فسترت فيه واجتمع الناس إليها، فقالت:

يا أيها الناس، إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب، واستعمال من حدثت سنه، وقد استعمل أسنانهم قبله، ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم وهي أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها، فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحاً لهم، فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً فلجّوا وبادَؤا بالعدوان، ونبا فعلتهم عن قولهم، فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ٧ ص١٨٧.

الحرام، وأخذوا المال الحرام، واستحلوا الشهر الحرام، والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم، ووالله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من دونه، إذ ماصوه، كما يماص الثوب بالماء[1].

والواضح من خطبة عائشة هذه أنها أرادت أن تقول إنَّ هؤلاء الثوار استتابوا عما نقموا منه، فلما أعطاهم ما طلبوه قتلوه.

وقد غضبت السيدة عائشة رضي الله عنها على أخيها محمد بن أبي بكر لموقفه من عثمان وسمته مذمماً، لأنه كان من كبار الثائرين على عثمان والمؤلبين عليه، وقد ظلت تدعو عليه حتى أدركته دعوتها فقتل شر قتلة[2].



١٤ ـ عائشة وأحداث الفتنة

كان مقتل عثمان رضي الله عنه بمثابة زلزال هز أركان دولة الإسلام المستقرة المطمئنة، حتى إن بعض المؤرخين كان يصف هذه الحقبة الزمنية بأنها أسوأ ما مرَّ بالمسلمين على مر تاريخهم.

وإذا كانت عائشة رضي الله عنها، وعليّ رضي الله عنه طرفان أساسيان في هذه الأحداث، فلا يجب أن نغفل شيئاً هاماً، وهو أنه لم يكن بين السيدة عائشة وعليّ رضي الله عنه قبل توليه الخلافة ما يدعو السيدة عائشة إلى مخالفته والخروج عليه، بل كانت علاقتهما طيبة تشيع بالمودة والاحترام[3].

ولو استعرضنا بعض مرويات السيدة عائشة رضي الله عنها عن الإمام

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٤٤٨/٤.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير.

(٣) انظر السيدة عائشة. عبدالحميد طهماز ـ دار القلم.

علي رضي الله عنه وأهل بيته لوجدنا فيها الكثير من الود العميق والاحترام الشديد، فما أن طرح على عائشة سؤالاً يقول: أي الناس كان أحبُّ إلى رسول الله ﷺ؟ حتى قالت: فاطمة.

فقيل: من الرجال؟ قالت: زوجها، إن كان ما علمت صوّاماً قوّاماً[(١)].

وتروي عائشة رضي الله عنها عن آل بيت عليّ والنبي ﷺ فتقول: خرج النبي ﷺ غداةً وعليه مِرطٌ مُرحّل[(٢)] من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[(٣)].

وتصف حب النبي ﷺ لأبناء عليّ رضي الله عنه، ومنهما الحسن فتقول: كان ﷺ يأخذ حسناً فيضمه إليه فيقول: «**إنَّ هذا ابني فأحبَّه وأحبَّ من يحبه**».

وكانت عائشة رضي الله عنها تجل علم عليّ وتصدّقه، فها هي تُسْأَل عن سائل يقول: في كم تصل المرأة من الثياب؟

فقالت للسائل: سل علياً ثم ارجع إليَّ فأخبرني بالذي يقول. قال: فأتى علياً فسأله فقال: في الخمار والدرع السابغ.

فرجع إلى عائشة فأخبرها، فقالت: صدق[(٤)].

وعندما بويع علي بالخلافة، لم تعترض عائشة رضي الله عنها على خلافته، بل كانت تنصح الناس بمبايعته.



(١) رواه الترمذي.

(٢) مِرط مرحلّ: ثوب منقوش عليه صور رحال الإبل.

(٣) رواه مسلم.

(٤) انظر المصنف لعبدالرازق الصنعاني ٢/١٢٨.

١٥ ـ ولكن لماذا وقعة الجمل؟

لما علمت عائشة رضي الله عنها بمقتل عثمان رضي الله عنه وهي في طريق العودة إلى المدينة انصرفت راجعة إلى مكة، حتى إذا دخلتها أتاها عبدالله بن عامر الحضرمي ـ وكان أمير عثمان عليها ـ فقال: ما ردك يا أُم المؤمنين؟

قالت: ردني أن عثمان قُتِلَ مظلوماً وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام. ثم خطبت خطبتها الأولى في هذا الأمر والتي عرجنا عليها من قبل.

وكانت الظروف التي انتخب فيها علي بن أبي طالب تختلف تماماً عما كان عليه انتخاب غيره من الخليفتين عمر وأبي بكر، ففي انتخاب وبيعة أبي بكر كان أعلام الصحابة بالمدينة، واختلفوا قليلاً، وكانت سقيفة بني ساعدة التي انتخب فيها أبو بكر، وعقب وفاة أبي بكر لم يكن هناك ثَمَّ مجال للخلاف لأن أبا بكر كان قد عهد إلى عمر، فرأى المسلمون وجوب الطاعة لأمير المؤمنين.

ولما مات عمر كان أمر الشورىٰ قد سُنّ لهم، فانتخب عثمان بعد أن عهد عمر إلى واحد من ستة يعينونه هم، وحدَّد وقتاً لذلك ثلاثة أيام بعد وفاته..

أما عند مقتل عثمان فلم يكن الأمر كذلك لعدَّة أسباب أهمها[١]:

١ ـ وجود الثوار بالمدينة وهم الذين قتلوا عثمان.

٢ ـ الثوار من أمصار مختلفة، لم يكن لهم ذكر إلاّ بهذه الثورة، ولم يكن عددهم يذكر أمام جنود الأمصار الذين لم يكن لهم يد في الجريمة.

٣ ـ خروج الكثير من أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة، فمنهم من كان في الثغور، ومنهم من كان بالمدينة وخرج.

---

(١) انظر الخلافة الراشدة ـ عبدالمنعم الهاشمي، دار ابن حزم، بيروت، ص٣٣٩.

أما بالنسبة للمدينة فقد كانت الكلمة العليا لهؤلاء المتمردين العابثين الذين قتلوا الخليفة، ولم يكن في نظر جمهورهم أفضل من علي للخلافة، والحق يقال: إنهم كانوا يتخبطون، إنهم يريدون خليفة يرضي المسلمين، وقد فعلوا هم فعلاً شائناً بالخلافة والإسلام، فذهبوا إلى علي، فرفض وطردهم شرَّ طردة، وذهبوا إلى طلحة وألحوا عليه، فرفض هذا الأمر، وكذلك الزبير، وحاولوا أن يختاروا سعد بن أبي وقاص ويولونه، فبعثوا إليه وقالوا: إنّك من أهل الشورى، فرأينا فيك مجتمع، فأقدم نبايعك.

فبعث إليهم: إني وابن عمر خرجنا منها، فلا حاجة لي فيها على حال، وتمثل بقول الشاعر:

لا تخلطن خبيثات بطيبةٍ   واخلع ثيابك منها وانج عريانا

ثم أتوا لابن عمر (عبدالله بن عمر) فقالوا: أنت ابن عمر، فقم بهذا الأمر.

فقال ابن عمر: إنّ لهذا الأمر انتقاماً، والله لا أتعرض له، فالتمسوا غيري.

فبقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون، والأمر أمرهم[(١)].

حاروا في أمرهم، ثم قالوا: إن نحن رجعنا إلى أمصارنا يقتل عثمان من غير إمرة اختلف النَّاس في أمرهم، ولم نسلم، فرجعوا إلى علي وألحّوا عليه[(٢)].

وكان علي رضي الله عنه يهرب من إِلحاحهم، ويختبىء في بساتين المدينة[(٣)].

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٤٣٢.

(٢) البداية والنهاية جـ٧ ص٢٢٧.

(٣) المصدر السابق.

أصبح امتناع النّاس عن الخلافة وعدم طاعتهم أمراً عسيراً على هؤلاء، فهددوا بالقتل إذا لم تتم البيعة بعد يومين.

قالوا: دونكم يا أهل المدينة، فقد أجلنا يومين، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلنّ علياً وطلحة والزبير وأناساً كثيرين.

فتكاثر الناس على عليّ وقالوا: نبايعك، فقد ترى ما نزل بالمسلمين، وما ابتلينا به من ذوي القربى.

فقال علي: دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أَمراً له وجوه وله ألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول.

فقالوا: ننشدك الله، ألا ترى ما نرى؟ ألا ترى الإسلام؟ ألا ترى الفتنة؟ ألا تخاف الله.

فقال علي رضي الله عنه: قد أجبتكم لما أَرىٰ، واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم، إلا أني أسمَعُكم وأطوعكُم لمن وليتموه أمركم.

ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الغد[١].

وقد كان علي رضي الله عنه متردداً في قبول الخلافة لا يدري الإقدام عليها هو الصواب أم الخطأ، فقد روى الإمام أحمد رضي الله عنه أن عليّاً رضي الله عنه قال: والله ما عهد إليَّ رسول الله ﷺ عهداً إلاّ شيئاً عهده إلى الناس، ولكن النّاس وقعوا على عثمان - رضي الله عنه - فقتلوه، فكان غيري فيه أسوأ حالاً وفعلاً مني، ثم إني رأيت أني أحقُّهم بهذا الأمر فوثبت عليه، فالله أعلم أصبنا أم أخطأنا[٢].

وخشي الناس أنه إذا جرت البيعة ألا يبايع طلحة والزبير، وهما من أهل الشورى، وهما الندان اللذان ينافسان عليّ، وعدم بيعتهما يؤدي إلى

---

(١) تاريخ الطبري جـ٤ ص٤٣٤.

(٢) رواه أحمد في المسند، باب خلافة علي.

إراقة الدماء، وضعف البيعة، لذا كان الناس يقولون: إذا دخل طلحة والزبير فقد استقامت[1].

أحس المتمردون بهذه المقالة، فخافوا أن يفسد طلحة والزبير عليهم الأمر الذي يحاولون الوصول إليه، وبذلوا في ذلك أقصى الجهد.

وذكر الطبري أن أهل البصرة أرسلوا حكيم بن جبلة العبدي، ومعه جماعة من أهل البصرة إلى الزبير بن العوام فأحضروه والسيف على رأسه، وأرسل أهل الكوفة الأشتر النخعي ومعه نفر من أهل الكوفة إلى طلحة بن عبيدالله فجاؤوا به يجبرونه بالسيف[2].

وقد ذكر ابن جرير أن علياً جاء إلى طلحة، فقال: ابسط يدك يا طلحة لأبايعك.

فقال طلحة: أنت أحق وأنت الأمير، أمير المؤمنين فابسط يدك. فبسط عليّ يده فبايعه[3].

ونحن نلاحظ هنا أن علياً قَبِل الخلافة مكرهاً، فبقاء الأُمة بدون خليفة خطر عليها، ومصلحة الأمة ينبغي أن تكون فوق كل اعتبار، وتحمّل رضوان الله عليه تبعة كل ما قيل في حقه من أجل مصلحة الأُمة.

ونحن نعرف سبب رفض الصحابة تبعات الخلافة، فإن من يرضى منهم بمنصب الخلافة بعد مقتل عثمان بمبادرة من أولئك الثائرين أتباع ابن سبأ؛ لا بد وأن يُتهم بعد ذلك بدم عثمان.

وهذا ما حدث لعلي رضي الله عنه، فقد استغل بعد ذلك بنو أمية ظروف البيعة لعلي للخروج عليه، واتهامه بالمشاركة في التأليب على عثمان، في حين أنه أرسل ابنه الحسن للدفاع عن عثمان رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٤٣٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق جـ٤/٤٣٤.

بعد أن بويع علي بالخلافة، أراد أن يُخرج هؤلاء الأعراب الثائرين وأصحاب الغوغاء من المدينة، فقد ضاق ذرعاً بتسلطهم، فأخرج منادياً ينادي: برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه، يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم، فأبت السبئية ـ أتباع ابن سبأ وهم رؤوس الفتنة ـ وأطاعهم الأعراب[1].

لذلك طلب طلحة والزبير من عليّ أن يأذن لهما أن يأتيا البصرة والكوفة لإحضار قوة من الجند لمعاقبة هؤلاء، ورد الأمر إلى نصابه، وقد كانت البصرة والكوفة مشحونتين بالسلاح والرجال، منذ أن أمر عمر بن الخطاب بتأسيسهما ليكونا ثكنتين عسكريتين لجيوش المسلمين يمكن الانطلاق منهما لنشر الإسلام في بلاد المشرق.

استأذن طلحة والزبير علياً بالعمرة فأذن لهما.

وجاء من المدينة إلى مكة طلحة والزبير، وجاء مروان بن الحكم، وجاء عبدالله بن عامر عامل عثمان على البصرة، وجاء من اليمن يعلى بن أُمية عامل عثمان عليها ومعه مالٌ وإبلٌ.

واجتمع المطالبون بدم عثمان، المناهضون لخلافة علي يتداولون فيما يتَّبعون، فقال قائل منهم: نذهب إلى المدينة فنقاتل علياً فيها.

فاعترض معترضٌ على ذلك قائلاً: ليس لكم طاقة على قتال أهل المدينة.

وقال قائل آخر: نذهب إلى الشام.

فاعترض معترض آخر بقوله: قد كفاكم الشام معاوية، وكان أهل الشام موالين لمعاوية بن أبي سفيان، عامل عثمان عليهم.

قال عبدالله بن عامر: فأْتُوا البصرة، فإن لي فيها أنصاراً وأهلها لهم في طلحة هوى.

---

(١) انظر المصدر السابق ص٤٣٨.

وقال طلحة والزبير لعائشة: إن أَطعتنا طلبنا بدم عثمان.

فسألت رضوان الله عليها: وممَّن تطلبون دمه؟

قالا: إنهم قوم معروفون، وإنهم بطانة علي، ورؤساء أصحابه، فاخرجي معنا، حتى نأتي البصرة، فيمن تبعنا من أهل الحجاز، وإن أهل البصرة لو قد رأوك لكانوا جميعاً يداً واحدة.

فوافقتهما عائشة رضي الله عنها على الخروج.

وعلى ذلك راحت عائشة، تطلب من أمهات المؤمنين صحبتها، فكان أن طلبت من أُم سلمة أن تصحبها وتخرج معها، وكان أن قالت لها أم سلمة تثنيها عن عزمها وتنصحها، وتذكرها بمنزلة عليّ من رسول الله ﷺ فقالت: يا بنت أبي بكر؛ أَما كنت بالأمس تحرضين على عثمان وتقولين فيه...

قالت عائشة رضي الله عنها: ولكني نظرت فوجدته قد قتل مظلوماً.

وظلت أُم سلمة تذكِّر عائشة بحب النبي ﷺ لعلي، إلى أن قالت لها: فأي خروج تخرجين بعد هذا؟! إن عماد الدين لا يقام بالنساء.

وعلى ذلك رفضت أُم سلمة رضي الله عنها الخروج ومصاحبة عائشة، وطلبت عائشة من أُمهات المؤمنين ما طلبت من أُم سلمة، فلم يجبنها إلى ما طلبت غير حفصة بنت عمر التي قالت: رأَيي تبع لرأي عائشة، ولكنها لم تلبث أن نهاها عن الخروج أخوها عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، فانتهت، وامتثلت لرأي عبدالله ولم تخرج.

واتفق رأي طلحة والزبير وعائشة رضوان الله عليهم على السير إلى البصرة والكوفة لجمع قوة تتمكن من معاقبة الثائرين والاقتصاص منهم لدم عثمان، وهكذا خرجت عائشة من مكة إلى البصرة.

❊ ❊ ❊

١٦ - خروج علي من المدينة

في ذلك الوقت كان علي رضي الله عنه يتهيأ في المدينة للخروج إلى معاوية في بلاد الشام، ولما علم بخبر أهل مكّة وخروج طلحة والزبير مع عائشة إلى البصرة؛ خرج من المدينة مسرعاً وهو يرجو أن يلتقي بهم في الطريق فيردهم عن مقصدهم، ولم يكن رضي الله عنه في خروجه يريد قتالاً، وما كان يسعى إليه.

ومما يدل على ذلك أنه لما كان في الربذة، قام إليه ابن لرفاعة بن رافع فقال: يا أمير المؤمنين أي شيء تريد؟ وإلى أين تذهب بنا؟

فقال: أما الذي نريد وننوي فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابونا إليه.

قال: فإن لم يجيبوا إليه؟

قال: ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر.

قال: فإن لم يرضوا؟

قال: ندعهم ما تركونا.

قال: فإن لم يتركونا؟

قال: امتنعنا منهم[(١)].

وقد وضعت السيدة عائشة نصب عينيها منذ أن خرجت من مكة العمل من أجل إصلاح الأُمة، ورأب الصدع الذي أحدثه مقتل عثمان في صفوفها، وخرج معها أمهات المؤمنين إلى ذات عِرْق يودعنها، وهناك ودعنها بالدموع والنحيب، فلم يُرَ يوم كان أكثر باكياً على الإسلام - أو باكياً له - من ذلك اليوم، وكان يسمى يوم النحيب[(٢)].

وكان علي رضي الله عنه قد أرسل رسالة إلى أبي موسى الأشعري،

---

(١) الطبري ٤/٤٧٩.

(٢) المصدر السابق ٤/٤٦٠.

فوقف في الناس خطيباً يقول: أما إذا كان مما كان، فإنها فتنة صماء، النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان فيها خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب، فكونوا جرثومة من جراثيم العرب، فاغمدوا السيوف، وانصلوا الأسنة، واقطعوا الأوتار، وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر، وتنجلي هذه الفتنة.

فتكلمت رسل علي رضي الله عنه مع أبي موسى وأغلظت له، ولما كان الحسن بن علي ممن أرسل في هذه الوفادة، فقد قال لأهل الكوفة: يا أيها الناس أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لا يأتيه أولوا النهى أمثل في العاجلة وخير في العاقبة، فأجيبوا دعوتنا، وأعينونا على ما ابتلينا وابتليتم به[1].

فأجابه الناس، وقال لهم الحسن: أيها الناس إنني عادٍ، فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر، ومن شاء في الماء.

فنفر أهل الكوفة في تسعة آلاف، أخذ بعضهم طريق البر، وأخذ البعض الآخر طريق الماء، وقد قابلته الجنود البرية «بذي قال»، فقال لهم: قد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك ما نريد، وإن يلحوا داويناهم بالرفق، وبايعناهم حتى يبدؤوا بظلم، ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله[2].

واختار علي بن أبي طالب القعقاع بن عمرو للسفارة بينه وبين أهل البصرة، فسار حتى جاء إلى عائشة، فقال: أي أُمة، ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟!

قالت: أي بني، إصلاح بين الناس.

فطلب القعقاع أن يحضر طلحة والزبير حتى يعرف رأيهما، فلما جاءا أخبراه أن مقصدهما كمقصد عائشة.

---

(١) انظر ابن كثير ٢٣٧/٧، وابن الأثير ٢٣٠/٣ بتصرف.

(٢) الخلافة الراشدة ـ عبدالمنعم الهاشمي ـ دار ابن حزم، بيروت، ص٣٥٧.

فقال لهما القعقاع: ما هذا الإصلاح.

قالا: قتلة عثمان، فإنّ هذا إن تُرِكَ كان شركاً للقرآن، وإن عُمِلَ كان إحياءً للقرآن.

فقال: قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة عنكم اليوم، قتلتم ستمائة رجل إلاّ رجلاً، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم، وخرجوا من بين أظهركم، طلبتم ذاك الذي أفلت، يقصد «حرقوص بن زهير» فمنعة ستة آلاف، وهم على رجل، فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون، وإن قاتلتهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذي حذرتم وقربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون، وأنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد، فاجتمعوا على حربكم، وخذلانكم، نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير.

فقالت أُم المؤمنين عائشة: فما تقول أنت؟

قال القعقاع: أقول: هذا الأمر دواؤه التسكين، وإذا سكن اختلجوا، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير، وتباشير رحمة، ودرك بثأر هذا الرجل، وعافية وسلامة لهذه الأُمة، وإن أنتم أبيتم إلاّ مكابرة هذا الأمر واعتسافه، كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر.

وبعثه الله في هذه الأُمة هزهزها، فآثروا العافية ترزقوها، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون، ولا تعرّضونا للبلاء، ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم.

وايم الله، إني لأقول هذا وأدعوكم إليه، وإني لخائف ألاّ يتم حتى يأخذ الله عز وجل حاجته من هذه الأمة التي قلّ متاعها، ونزل بها ما نزل، فإن هذا الأمر الذي حدث ليس يعذر، وليس كالأمور، ولا كقتل الرجل الرجل، ولا النفر الرجل، ولا القبيلة الرجل.

قالوا: قد أصبت وأحسنت، فارجع فإن قدم عليّ وهو على مثل ذلك صلح الأمر[1].

فرجع القعقاع إلى عليّ فأخبره، فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح.

ثم أمر علي بالرحيل، وقال في خطابه: ولا يرتحلن غداً أحدٌ أعان على عثمان بشيء من أمور الناس، وليغن السفهاء عني أنفسهم.

فاجتمع نفر من رؤساء المجلبين على عثمان ومعهم ابن السوداء (ابن سبأ) وقال بعضهم لبعض: إن اجتمع الناس غداً واصطلحوا فليس الصلح إلا علينا.

فقال لهم عبدالله بن سبأ (ابن السوداء): إنّ عزكم في خلطة الناس، فصانعوهم، وإذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال، ولا تفرغوهم للنظر، فإذا من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع، ويشغل الله علياً وطلحة والزبير عما تكرهون.

اجتمع قتلة عثمان على ذلك والناس لا يشعرون، ولما وصل علي إلى البصرة بعث إلى القوم: إن كنتم على ما فارقتم القعقاع فكفوا، وأقرونا ننزل في هذا الأمر، فنزلوا والقوم لا يشكون في الصلح، ومشت السفراء بين الفريقين، وبات القوم ينتظرون العافية من هذا الحادث الجلل.

قام قتلة عثمان في جنح الظلام ووضعوا السلاح في معسكر أهل البصرة.

فسأل طلحة والزبير: ما هذا؟

قالوا: أطرقنا أهل الكوفة ليلاً.

فقال: قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة وأنه لن يطاوعنا.

---

(١) البداية والنهاية ٢٣٨/٧، وتاريخ الطبري ٤٨٩/٤.

وسأل عليّ عن الخبر، وكان السبئيون قد وضعوا رجلاً قريباً منه يخبره بما يريدون، فقال له: ما فجئنا إلاّ وقوم منهم يبيتونا، فرددناهم من حيث جاؤوا، فوجدنا القوم على رجل، فركبونا وثار الناس[1].

فقال علي: قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة وأنهما لن يُطاوعانا.

ولم يجد الفريقان في ذلك بدأ من القتال، وكانت عائشة في هودجها بين أهل البصرة، وكان ذلك اليوم من أهول ما رآه المسلمون.



موقعة الجمل

بدأ القتال شرساً بين فريقين من المسلمين يقاتلان بعضهما بعضاً، وكان أهل البصرة وشجعانهم يلوذون بجمل عائشة، وكانت عائشة في هودجها، قد جللته بالحديد وهي بمكة، وجعلت فيه موضعاً لعينيها، وهي في عسكر أهل البصرة.

وثار العسكران لبعضهما، وكان القتال في ذلك اليوم من أشد القتال هولاً، وصدّق كل فريق الحملة على الآخر، وأهل البصرة وشجعانهم وذوو النجدة منهم يلوذون بجمل عائشة، ويدافعون عنها حتى لا تصاب بشرٍّ، فقتل حوله بشرٌ كثير، وقطعت على زمامه أيد كثيرة، ولا يدور بخلد أحد من الناس أن ينهزم، وشاعر أهل البصرة يقول:

نحن بني ضبَّة أصحاب الجمل ... ننزل بالموت إذا نزل
ننعي ابن عفان بأطراف الأسل ... الموت أحلى عندنا من العسل
رُدّوا علينا شيخنا ثم بَجَلْ

(١) الخلافة الراشدة، عبدالمنعم الهاشمي، ص٣٥٩، ط دار ابن حزم، بيروت.

ولما رأى علي كثرة القتلى حول الجمل، وأن الناس يستميتون دونه ولا يسلمونه أبداً وفيهم عين تطرف، نادى: اعقروا الجمل، فجاء إلى الجمل رجل من خلفه وضرب عرقوبه فعقره، وسقط وسقط الهودج، وكأنه قنفذ لكثرة ما رمي به من النَّبل، فجاء محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر واحتملا الهودج، فنحياه عن القتلى، وخرج محمد بعائشة حتى أدخلها البصرة، وظهر الضعف في الناس، فتركهم الزبير بن العوام وولى وجهه شطر المدينة فعلم بمسيره عمرو بن جرموز فاتبعه حتى إذا كان بوادي السباع غافَله وقتله.

وقتل في هذا اليوم عشرة آلاف، فيهم كثير من أعلام المسلمين وذوو النجدة، منهم طلحة وابنه محمد، وعبدالرحمن بن عتّاب، وكثير من رجال قريش.

ولما انتهت الموقعة مرَّ عليٌّ بين القتلىٰ، فكلما رأى صرعى أهل البصرة، وعرفهم قال: زعموا أنّه إنما خرج معهم السفهاء والغوغاء، وهذا فلان وهذا فلان، ثم صلّىٰ على القتلىٰ وأمر بدفنهم جميعاً.

وبعد ذلك زار عائشة في البيت الذي نزلت فيه، فسلَّم عليها، وقعد عندها.

وشيع علي عائشة بعد أن جهزها بكل ما ينبغي من مركب وزاد حتى تعود إلى المدينة، واختار لها أربعين من نساء البصرة المعروفات وسيَّر معها أخاها محمد بن أبي بكر.

وأذن علي لمن نجا من الجيش ممن كان قدم معها أن يرجع معها، إلاّ من يحب المقام في البصرة.

فلما كان يوم الرحيل جاء علي فوقف بالباب، وحضر النّاس، وخرجت من الدار في الهودج فودّعت الناس، ودعت لهم، وقالت: يا بني لا يعتب بعضنا على بعض، إنّه والله ما كان بيني وبين علي في القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه علي معتبتي من الأخيار.

فقال علي رضي الله عنه: صدقت والله، ما كان بيني وبينك إلا ذاك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة.

وسار علي معها مشيعاً ومودعاً أميالاً، ثم سرح بنيه معها بقية اليوم، وكان ذلك في يوم السبت غرة رجب سنة ست وثلاثين، واتجهت في مسيرها إلى مكة فأقامت بها إلى أن حجت في ذلك العام، ثم رجعت إلى المدينة رضي الله عنها وأرضاها[1].

❊ ❊ ❊

مناقب السيدة عائشة

للسيدة عائشة رضي الله عنها مناقب جليلة وفضائل جمة، فهي رضوان الله عليها زاهدة في الدنيا، صوّامة قوّامة، تعبد الله حق عبادته، سخية جوادة كريمة، عالمة متعلمة، فقيهة من فقيهات المسلمين رضوان الله عليهم.

ومن مناقبها ما يلي:

١ ـ الزهد: فقد جاء وصف لصاحب الحلية يدل على زهدها قال: كانت للدنيا قالية، وعن سرورها لاهية، وعلى فقد أليفها باكية.

وقد تحدث عروة بن الزبير ابن أختها عن زهدها فقال: فما كانت عائشة تستجد ثوباً حتى ترقع ثوباً، أو تنكسه.

٢ ـ العبادة: ولعل حديثها عن عبادة النبي ﷺ يجلي صورة عبادتها رضوان الله عليها فقالت عن عبادة النبي ﷺ: كان عمله ديمة، وأيكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع، وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه. متفق عليه[2].

---

(١) انظر البداية والنهاية ٢٤٦/٧، وابن الأثير ٢٥٦/٣ وما بعدها.

(٢) الحديث متفق عليه.

وكانت عائشة رضي الله عنها تحرص على نوافل العبادات، وبخاصة قيام الليل، فكانت لا تدع صلاة الليل وتنصح بالمداومة عليها.

فقد أخرج أحمد عن عبدالله بن قيس قال: قالت لي عائشة: لا تدع قيام الليل، فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه، وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعداً[(١)].

وكانت عائشة رضي الله عنها تحرص على أن تؤدي الصلاة المكتوبة بجماعة، فتصلي بصلاة الإمام في بيتها وهو في المسجد[(٢)] لأن حجرتها متصلة بالمسجد. وكانت تصوم الدهر، وتحمل أيام الصوم في أيام الحر الشديد مهما بلغ منها الجهد والتعب، وقد بلغ شغفها بالصوم أنها كانت تصوم أيام منى وتصوم في السفر[(٣)].

وحجت عائشة واعتمرت مرات كثيرة، حجت مع النبي ﷺ حجة الوداع، وحجت واعتمرت بعد وفاته ﷺ أكثر من مرة.

ولما سألت النبي يوماً عن الجهاد أفضل العمل وقالت له: أفلا نجاهد؟

فقال عليه السلام: «**لا، ولكن أفضل الجهاد حج مبرور**»[(٤)].

٣ - **سخاؤها وكرمها**: كانت السيدة عائشة كريمة سخية، فتتحدث بما يدل على ذلك فتقول: جاءتني امرأة معها ابنتان تسألني، فلم تجد عندي غير تمرة واحدة، فأعطيتها، فقسمتها بين ابنتيها، ثم قامت فخرجت، فدخل النبي ﷺ فقال: «**من يلي من هذه البنات شيئاً فأحسن إليهن كنَّ له ستراً من النار**»[(٥)].

---

(١) أحمد في المسند ٢٤٩/٦.

(٢) المصنف ٨٢/٢.

(٣) المصدر السابق ٥٦١/٢.

(٤) رواه البخاري.

(٥) متفق عليه واللفظ للبخاري.

٤ ـ العلم: ولعل من أبرز صفاتها العلم، فقد بلغ علمها درجة عظيمة، وبلغ أيضاً ذروة الإحاطة والنضج في كل ما اتصل بالدين من (قرآن، وحديث، وتفسير، وفقه) وقال الزهري عن علمها: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل[١].

ومن كلماتها المأثورة:

ـ لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء. [تفسير الخازن].

ـ ما تبالي المرأة إذا نزلت بين بيتين من الأنصار صالحين ألا تنزل بين أبويها[٢].

ـ النكاح رق، فلينظر أحدكم عند من يُرِقُّ كريمته[٣].

ـ لا سهر إلا لثلاثة: مصل، أو عروس، أو مسافر.

وعن سعة علمها روى الترمذي عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه، قال: ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط فسألنا عائشة عنه إلا وجدنا عندها منه علماً[٤].



في وداع الصديقة رضي الله عنها

عاشت السيدة عائشة زمناً طويلاً بعد وفاة رسول الله ﷺ، قيل: امتد لنصف قرن، ففي شهر رمضان من السنة الثامنة والخمسين للهجرة ألمّ بها المرض، وفي ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلون من شهر رمضان توفيت أم

(١) الإصابة.

(٢) عيون الأخبار.

(٣) العقد الفريد لابن عبدربه.

(٤) عيون الأخبار.

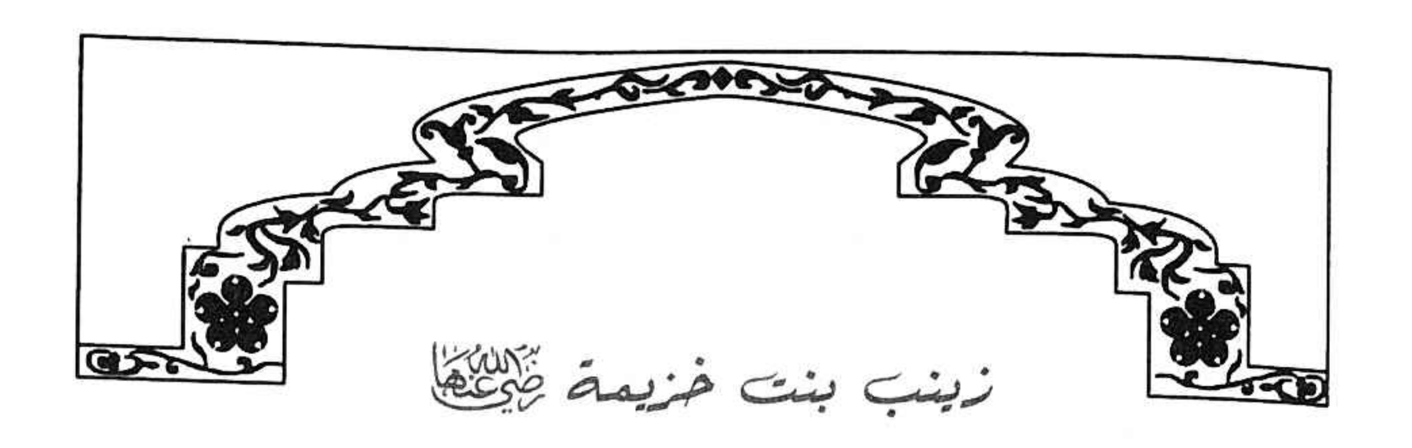
المؤمنين عائشة، ولما سمعت أم سلمة بوفاتها قالت: والله لقد كانت أحب الناس إلى رسول الله ﷺ.

ودفنت عائشة ليلاً بالبقيع، وهي يومئذ ابنة ست وستين سنة[1].

وكانت قد أوصت بدفنها بالبقيع، رضي الله عن أم المؤمنين الصديقة العالمة، التقية الصوامة؛ عائشة بنت أبي بكر الصديق.



(١) طبقات ابن سعد جـ٨، ص٧٦.



صورة مجملة

ـ كانت من الأخوات الأربع اللاتي قال عنهن الرسول ﷺ: «**إن الأخوات لمؤمنات**».

ـ وكانت تدعى أم المساكين لكثرة معروفها. [الذهبي في ترجمتها ج٢ ص٢١٨].

ـ تزوجها النبي ﷺ بعد غزوة أحد.

ـ قتل زوجها عبدالله بن جحش يوم أحد، فتزوجها رسول الله ﷺ، ولكن لم تمكث عنده إلاّ شهرين، أو أكثر، وتوفيت رضي الله عنها. [الذهبي].

ـ كنِّيت أُم المساكين بهذه الكنية في الجاهلية، لأنها كانت كذلك. [أنساب الأشراف ـ البلاذري ١/٤٢٩].

ـ تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة بعد حفصة بعشرين يوماً. [ابن قتيبة في المعارف].

❀ ❀ ❀

بطاقة تعريف

أوجز المؤرخون سيرة أم المساكين رضوان الله عليها إيجازاً شديداً، فعند شيخ المؤرخين الذهبي قال:

- زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية.

- وتدعى أيضاً: أم المساكين لكثرة معروفها.

- قتل زوجها عبدالله بن جحش يوم أحد، فتزوجها رسول الله ﷺ، ولكن لم تمكث عنده إلاّ شهرين أو أكثر، وتوفيت رضي الله عنها.

- وقيل: كانت أولاً عند الطفيل بن الحارث، وما روت شيئاً.

- وقال النسابة علي بن عبدالعزيز الجرجاني: كانت عند الطفيل، ثم خلف عليها أخوه الشهيد عبيدة بن الحارث المطلبي(١).

هذا كل ما جاء به الذهبي في تاريخه عن زينب بنت خزيمة أم المؤمنين، وفي مصادر أخرى تأتي الروايات عن الزوجة الرابعة للرسول ﷺ بعد وفاة خديجة، فقد تزوج بعد خديجة رضي الله عنها وعلى الترتيب: سودة - عائشة - حفصة ثم جاءت زينب بنت خزيمة رابعة أزواجه بعد وفاة خديجة رضي الله عنها.

ويذكر المؤرخون(٢) أن أم المساكين زينب بنت خزيمة القيسية الهلالية، تزوجها رسول الله ﷺ على رأس أحد وثلاثين شهراً من الهجرة، قبل غزوة أحد بشهرين، وكانت تحت الطفيل بن الحارث فطلقها، فتزوجها أخوه عبيدة، فقتل يوم بدر شهيداً، فخطبها رسول الله ﷺ فجعلت أمرها إليه، فتزوجها رسول الله ﷺ وأصدقها اثنتي عشرة أوقية، وقيل في رواية: إنها كانت عند عبدالله بن جحش فقتل عنها يوم أحد فتزوجها رسول الله ﷺ، هكذا ذكره في المواهب اللدنية وهو الأصح، وكذا في السيرة الحلبية.

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٢٠٨ ترجمة رقم ٢٢.

(٢) الأعلام ١٠٦/٣، الإصابة النساء ٤٧٩، الاستيعاب ٣٠٥/٤، عيون الأثر ٣٠٣/٢، الدر المنثور ٢٣٣، أعلام النساء ٤٧٥/١، نهاية الإرب ١٧٨/١٨.

وهي أخت ميمونة بنت الحارث لأمها، مكثت عنده ﷺ ثمانية أشهر، وقيل: شهرين، وقيل: ثلاثة.

وذكر في الحلبين: إنما سميت أم المساكين لأنها كانت تلاحظهم، وتعطف عليهم بالإحسان والصدقة.

وذكر في المعالم من تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا﴾ [الأحزاب: ٥].

قال الشعبي: هي أم المساكين زينب بنت خزيمة الأنصارية، وتوفيت رضي الله عنها في السنة الثالثة من الهجرة، وصلى عليها الرسول ﷺ ودفنها بالبقيع، وقد بلغت من العمر ثلاثين سنة والله أعلم.

وفي تاريخ الطبري: وفي هذه السنة ـ الرابعة من الهجرة ـ تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة من بني هلال في رمضان، وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث فطلقها.

وفي الإصابة عن ابن الكلبي: أن رسول الله ﷺ خطبها إلى نفسها، فجعلت أمرها إليه فتزوجها.

وقال ابن هشام في السيرة: زوَّجه إياها عمها: قبيصة بن عمرو الهلالي، وأصدقها الرسول ﷺ أربعمائة درهم.

واختلف المؤرخون في المدة التي أقامتها ببيت النبي ﷺ.

ففي الإصابة رواية تقول: كان دخوله ﷺ بها بعد دخوله على حفصة بنت عمر، ثم لم تلبث عنده شهرين أو ثلاثة وماتت.

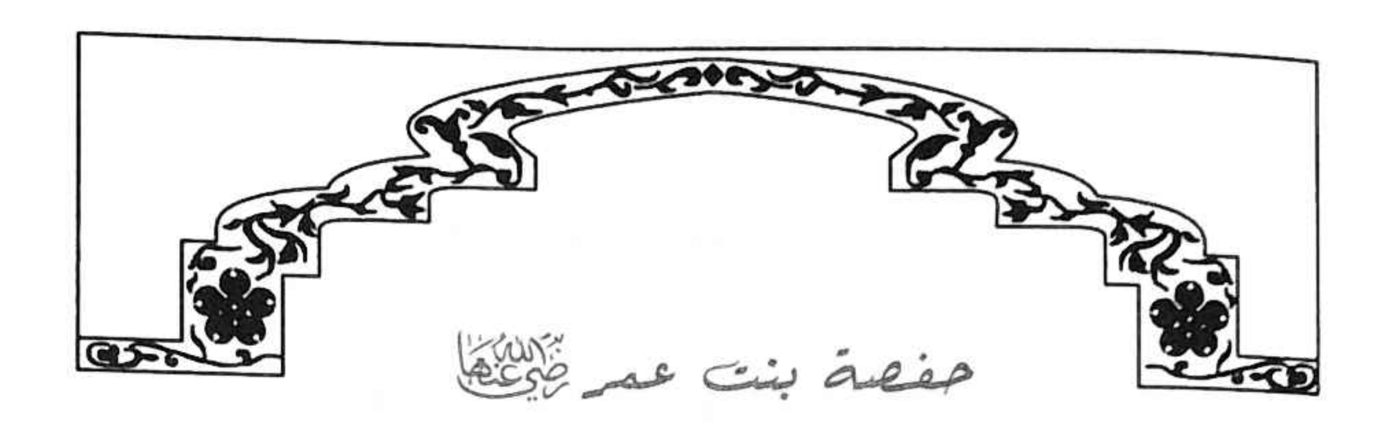
❀ ❀ ❀

وفاتها

والراجح أنها ماتت في الثلاثين من عمرها كما ذكر الواقدي، ونقل «ابن حجر» في الإصابة ذلك أيضاً.

رضي الله عن أم المساكين، فقد نالت الشرف العظيم، لكن حياتها مع الرسول ﷺ كانت قصيرة، هكذا شاء الله وقدّر.





أقوال

ـ كانت حفصة حارسة للقرآن الكريم، وكان لها دور في جمع القرآن.

ـ حفصة صوّامة قوّامة، تقية نقية، من أهل الجنة.

ـ ولدت حفصة وقريش تبني الكعبة قبل مبعث النبي ﷺ بخمس سنين.

ـ شهد بدراً من أهلها سبعة: عمر، وعمها زيد، وزوجها خنيس، وأخوالها: عثمان وعبدالله وقدامة بنو مظعون، والسائب ابن عثمان بن مظعون ابن خالها.

ـ يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها، وحب الرسول ﷺ إياها، والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك، ولولا أنا لطلقك. [عمر بن الخطاب في الصحيحين].

ـ فضائل أم المؤمنين حفصة كثيرة، وتوفيت بالمدينة سنة ٤٥هـ.



حفصة بنت عمر

- **«إنها صوّامةٌ قوّامَةٌ، وإنها زوجتك في الجنةِ»**. [جبريل للرسول ﷺ].

- **«يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة»** [الرسول ﷺ].

❀ ❀ ❀

١ ـ الأصول العمرية في الجاهلية

إذا تحدثنا عن حفصة بنت عمر أم المؤمنين رضي الله عنها، فإننا نجد سيرة عمر بن الخطاب ترتفع أمامنا عالية، لترسم صورة للبيت الذي احتمت به ونشأت فيه حفصة رضي الله عنها.

كان عمر في الجاهلية فارساً تُحكى الحكايات وتُقَصُّ القصص عن فروسيته وفرسه، أمّا عن فروسيته فلا تحدّث، وأما عن جواده فقد كان أدهم اللون، صغير الأذنين، مترفِّعُ الرأس، دقيق الساقين، ضامر البطن، وكان الفارس عمر يعتز بجواده، فإذا جاء موعد السباق، واختيرت حلبة سباق، وامتطى كلٌّ جواده، ودفعه حين أشار المشير، كان عمر وجواده كأنهما قطعة واحدة لا يدري الشاهد أهي تنهب الأرض أم تلقي في يد الريح التراب.

ويُعجب المعجبون وهواة السباق بفوز هذا الفتى، كما كانوا يعجبون به حينما يفوز في حلبة المصارعة على أقرانه من الفتيان المغاوير، وجعلت فروسية عمر وشجاعته مكانة عظمى له في قلوب أهل عصره، حتى ملك على النساء قبل الرجال كل الجوارح.

كل هذه الفتوة وألاعيب اللهو والمتاع كانت تشتد بعمر حين يحين موسم سوق عكاظ كل عام، حتى أصبح أمر عمر كأمر الشعر والشعراء في سوق عكاظ يتعاطونه الناس كل عام مدمنين فروسيته إدمانهم للشعر

العكاظي، ويظل المشهد العمري على هذه الحال سنوات يكبر فيها الفتى وتكبر أفعاله.

لكن التجارة شغلته عن هذا اللهو الشبابي، فقد بدأ يزاول التجارة ويشتغل بها، ولقد اضطلع المهمة التي كان يضطلع بها آباؤه وأجداده من قبيلة عدي بن كعب وهي مهمة السفارة والوساطة بين قريش وغيرها من القبائل كلما حدث بينهم خلاف، ولعل أشهر هذه المهام هي هذه المهمة التي وكلت إليه في أمر ذي أهمية جدًّ بين قريش وإحدى جماعات ثقيف، وقد أتم سفارته على خير حال وأتم وجه، ثم جاء ممتطياً جواده الأدهم ليباشر تجارته في السوق، لكنه لم يترك المصارعة وسباقات الفروسية، فقد كانتا ترويحه المفضل الذي طالما كان يروح به عن نفسه.

وعمر بن الخطاب من قبيلة عدي بن كعب، وهي قبيلة عدنانية من قريش، انتهى إليها الشرف كما انتهى إلى عشرة رهط من عشرة أبطن في مقدمتها هاشم جد النبي ﷺ، وأُمية، وتيم، ومخزوم.

على أن عَدياً قبيلة عمر لم تبلغ من المكانة في مكة قبل الإسلام ما بلغه بنو هاشم وبنو أمية، فلم يكن لها من مناصب مكية سواءً أكانت دينية أو غيرها، ولم تكن ثرية غنية كما كانا (هاشم وأمية)، ومع ذلك كانت تنافس بني عبد شمس الشرف، وتحاول أن تبلغ مكانتهم، وظل هذا التنافس ممتداً عبر الأجيال، حتى اضطر بنو عدي في حياة الخطاب بن نفيل والد عمر بن الخطاب إلى الجلاء عن منازله القائمة عند الصفا، والانحياز إلى قبيلة بني سهم والمقام إلى جوارهم، وقد حفّز هذا التنافس أجداد عمر بن الخطاب، على قلة عددهم وعلى ضعف مكانتهم من القبائل الكبرى على أن يكونوا ذوي دراية وعلم وحكمة.

وكان لهذا العلم والدراية والحكمة أثر عظيم، فقد قدَّمهم بين القبائل إلى مكانة السفارة والحكم في المنافرات والمشاحنات، وكانوا بمثابة المتحدثين الرسميين عن قريش إلى غيرها من القبائل فيما ينجم من خلاف يتسنى حسمه بالمفاوضة، كما يجري حال السياسة في أيامنا هذه.

وكانت أحكامهم تُرضي القبائل في المنافرات والمشاحنات، وكانوا ذوي بلاغة وحسن عبارة، وقد أدت بهم الحكمة إلى أن ظهر بينهم زيد بن عمرو بن نفيل أحد الذين اعتزلوا عبادة الأوثان وأكل ذبائحها التي يذكر اسمها عليها. ثم كان بينهم عمر بن الخطاب، وما عمر بن الخطاب!

هذا عن قبيلة عمر بن الخطاب والد أمنا أم المؤمنين حفصة والتي نحن بذكر سيرتها، أما أبوه الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى بن رياح بن عبدالله ابن قُرط بن رذاح بن عدي بن كعب، وعُدي هو أخو مُرَّة الجد الثامن للرسول ﷺ.

فأما أُمه فهي حنتَمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم.

وقد كان الخطاب والد عمر شريفاً في قومه، لكنه لم يكن ذا مال ولا خدم، وقد تستميلنا النصوص والروايات لبيان ذلك، فنجد عمر عندما يكتب كتاباً لعمرو بن العاص يسأله فيه عن أصل المال الذي جمعه بها، نجد عمرو بن العاص يغضب غضباً شديداً ويجيب على رسالة عمر قائلاً: ... ووالله لو كانت خيانتك حلالاً ما خنتك وقد ائتمنتني، فإن لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتنا عن خيانتك، وذكرت أن عندك من المهاجرين الأولين من هو خير مني، فإذا كان ذلك فوالله ما دَقَقْتُ لك يا أمير المؤمنين باباً ولا فتحت لك قفلاً[1].

وقد اشتد غضب عمرو بن العاص من كتاب عمر بن الخطاب له عن ذمته المالية حتى قال لمحمد بن مسلمة رسول عمر إليه والذي أرسله ليحاسبه على الأموال التي جمعها؛ قال عمرو في غضب شديد: لعن الله زماناً صرت فيه عاملاً لعمر.. والله لقد رأيت عمر وأباه، على كل واحد منهما عباءة قطوانية لا تجاوز مأبض رُكْبَتَيْهِ، وعلى عنقه حزمة حطب، والعاص بن وائل والذي يلبس مزرّرات الديباج والحرير.

---

(١) انظر تاريخ الطبري خلافة عمر.

فقال محمد بن مسلمة: اترك هذا عنك يا عمرو، فعمر خير منك، وأمّا أبوك وأبوه فإنهما في النار..

واتسمت شخصية الخطاب والد عمر بالفظاظة والغلظة، وقد مرَّ عمر يوماً بمكان كثير الشجر يقال له: ضجْنان، فقال: لقد رأيتني وأنا أرعى ماشية الخطاب في هذا المكان، وكان والله ما علمت فظاً غليظاً.

وقيل عن هذه الرواية: أن عمر لما مرَّ بضجنان قال: ..لا إله إلا الله المعطي ما شاء لمن يشاء! كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادي في مدرعة صوف، وكان يتعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصرت، وقد أمسيت وليس بيني وبين الله أحد ـ ثم أنشد يقول:

لا شيء فيما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإلّه ويودِى المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه ... والخلد قد حاولت عادٌ فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الريح له ... والإنس والجن فيما بينهما تردُ
أين الملوك التي كانت نوافلها ... من كل أوْب إليها راكب يغدُ
حوضاً هنالك موروداً بلا كذب ... لا بد من ورده يوماً كما وردوا[1]

أما عن النساء فلم يكن الخطّاب والد عمر يتزوج النساء لشهوة، بل ليكثر ولده، فقد كانت كثرة الولد مفخرة للعرب، ومما يؤكد هذا ما كان من عبدالمطلب جد النبي ﷺ حين أحس بضرورة الولد وأحس بقلة الأولاد حوله، مما جعل كلمته غير مسموعة في قومه، فنذر إن وُلِد له عشرة بنين ثم بلغوا معه أن يمنعوه لَيَنْحرنَّ أحدهم لله عند الكعبة.

وقد كان بني عدي قبيلة عمر يحسون قلة حَوْلِهم لقلة عددهم، ولذلك أجلاهم بنو عبد شمس عن منازلهم عند الصفا، فلا عجب أن يسعى الخطاب للنساء طلباً للولد لا طلباً للشهوة، فهو يلتمس كثرة الولد ليحمي نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) رواية الطبري.

وكان الخطاب رجلاً ذكياً، موفور الاحترام في قومه، شجاعاً يخوض المعارك على رأس بني عدي في جرأة وثبات جنان، وقد اشتركت بنو عدي في حرب الفجار تحت لواء قريش، فكان على رأسها زيد بن عمرو بن نفيل والخطاب بن نُفيل عمه وأخوه لِأُمِّهِ، ذلك أن نفيلاً كان زوجاً لجَيْداء فولدت له الخطاب وعَبْدَلُهم، ثم مات نفيل فتزوج ابنه عمرو زوجته جَيْداء، وكان من أم غيرها، وقد كان زواجاً يتزوجه أهل الجاهلية، فولدت جيداء لعمرو زيد بن عمرو، فكان للخطاب أخاً من أمه وابن أخٍ[(١)] في الوقت ذاته.

وتقارب الرجلين في السن (زيد بن عمرو، والخطاب بن نفيل) جعلهما على رأس بني عدي في حرب الفجار.

ولما اعتزل زيد بن عمرو بن نفيل عبادة الأصنام والأوثان وامتنع عن أكل ما يذبح لها، جعل يقول لقومه: أيرسل الله قطر السماء، وينبت بقل الأرض، ويخلق السائمة فترعى منه وتذبحوها لغير الله! والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين إبراهيم غيري..

وكان زيد بن عمرو بن نفيل إذا استقبل الكعبة داخل المسجد، قال: لبيك حقاً حقاً، تَعبُّداً ورِقاً ثم ينشد:

عُذت بما عاذ به إبراهيم   مستقبل القبلة وهو قائم

عند ذلك خاصمه الخطاب واشتد في خصومته وألّب عليه شباباً من شباب قريش، وسفهاء من سفهائها، فقال لهم: لا تتركوه يدخل مكة، فكان لا يدخلها إلا سرّاً منهم، فإذا علموا بذلك آذنوا به الخطاب فأخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم، وأن يتابعه أحدٌ منهم على فراقه، فقال وهو يعظم حرمته على من استحل منه ما استحل من قومه:

لا هُمّ إنّي مُحْرِمٌ لا حِلّهْ   وإن بيتي أوسط المحلّه

---

(١) انظر الأغاني جـ٣ ص١٣٣ طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية، والسيرة النبوية جـ١ ص٢٢٩، والجيداء هي جيداء بنت خالد بن جابر ابن حبيب بن تهم.

عــنــد الــصــفــا لــيــس بــذي مَــضَــلّــه[1]

ثم خرج يطلب دين إبراهيم عليه السلام، وكان يقول:

وأسـلـمـت وجـهـي لـمـن أسـلـمـت ... لـه الأرض تـحـمـل صـخـراً ثـقـالا
دحـاهـا فـلـمـا رآهـا اسـتـوت ... عـلى الـمـاء أرسـى عـلـيـهـا الـجـبـال
وأسـلـمـتُ وجـهـي لـمـن أسـلـمـتْ ... لـه الـمُـزْن تـحـمـل عـذابـاً زلالا
إذا هــي سـيــقــت إلــى بــلــدة ... أطاعـت فـصـبـت عـلـيـهـا سـجـالا[2]

نعود إلى الخطاب جد حفصة رضي الله عنها لأبيها عمر فهو والده، فقد تزوج الخطاب، فيمن تزوج، حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومي من بني مخزوم، وهي لخالد بن الوليد ابنة عم، فالمغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم جدهما معاً، وكان المغيرة المخزومي سيداً من سادات قريش وبطلاً من أبطالها، وكانت له إمارة الجند التي كانت لسيد بني مخزوم، وكان لذلك يلقب صاحب الأَعِنَّة، وهو أول قرشي نصح عبدالمطلب جد النبي ﷺ ألاّ يذبح ابنه عبدالله وفاءً لنذره؛ فقد قال: والله لا تذبحه أبداً حتى تعذّر فيه، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه.

وكانت حنتمة لمكانتها هذه مرعية الجانب من زوجها الخطاب، متفضّلة عنده على غيرها من ضرائرها، فلما ولدت عمر بن الخطاب فرح الخطاب لمولده كثيراً، وقرب للأصنام مبالغة في إظهار سروره ونال فقراء بني عدي الكثيرون يومئذ من الطعام ما قلَّ عهدهم به، وقد ولد عمر بعد الفيل بثلاث عشرة سنة[3].

❋ ❋ ❋

(١) السيرة النبوية لابن هشام ط دار ابن كثير دمشق تحقيق الأبياري وآخرين جـ١ ص٢٣٠ وما بعدها.
(٢) السجال: جمع سجل، وهي الدلو المملوءة ماء، فاستعارها لكثرة المطر.
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص١٢٣.

٢ ـ نشأة عمر وصباه

نشأ عمر في طفولته وصباه نشأة البادية الخشنة ونشأة أمثاله من أبناء قريش، وقد امتاز على أمثاله من شباب قريش بتعلمه القراءة، فكان ممن تعلموا القراءة، وهؤلاء كانوا قليلين جداً، فلم يكن في قريش كلها حين بعث النبي ﷺ غير سبعة عشر رجلاً يقرؤون ويكتبون، وتعد القراءة في نظر المؤرخين ميزة تميز بها عمر، في حين لم تكن في نظر العرب كذلك، وهم على العكس يبعدون عن تعلمها ويبعدون أولادهم كذلك!!

شب عمر عن الطوق وأصبح فتى يافعاً، وخرج يرعى لأبيه إبله في ضجنان وغيرها من ضواحي مكة المكرمة.

وقد ذكر المؤرخون والمهتمين بسيرة عمر حديثاً بينه وبين النابغة الجعدي، إذ قال عمر يوماً للنابغة الجعدي: أسمعني بعض ما عفا الله لك من غنائك.

فأسمعه النابغة كلمة له.

قال عمر: وإنّك لقائلها؟

قال النابغة: نعم.

قال عمر: لطالما تمنيت بها خلف جمال الخطاب.

ولم يكن رعي الإبل مذلة، بل كان شرفاً يمارسه كل أبناء قريش على اختلاف مكانتهم ودرجاتهم.

تدرج عمر من الصبا إلى الشباب، وبدا عليه مظهر القوة بين أقرانه، فقد فاقهم عمر طولاً وجسامة، حتى قيل: فإذا رجل قد علا الناس ثلاثة أذرع، قيل: من هذا؟ قيل: عمر بن الخطاب[١].

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ترجمة عمر بن الخطاب.

وكان عمر أبيض اللون تعلوه حمرة، أعسر أيسر، في رجليه رَوَحٌ يسرع به في مشيته.

وقد أتقن عمر في مطلع شبابه ألواناً من رياضة البدن، كالمصارعة وركوب الخيل والفروسية، حتى إنه لما أسلم لقي رجلٌ راعياً فقال له: أشعرت أن ذلك الأعسر الأيسر أسلم؟

فقال الراعي: الذي كان يصارع في سوق عكاظ؟

فأجاب الرجل: إنه هو.

صاح الراعي: أما والله ليوسعنهم خيراً، أو ليوسعنَّهم شراً.

وكان ركوب الخيل أحب ألوان الرياضة إليه طول حياته. فقد أقبل يوماً على فرس يركضه حتى كاد يوطئه الناس، وعجب الناس حين رأوه فقال: وما أبكرتم! وجدت نشاطاً فأخذت فرساً فركضته.

وكان له في الحرب مواقف ورثها عن أخواله بني مخزوم، وقد قال أبو بكر فيه يوم وفاته هذا المعنى فقال: وددت أني كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق، فكنت قد بسطت يديَّ كليهما في سبيل الله.

وبقدر شغفه وحذقه الفروسية والمصارعة وغيرهما من ضروب الرياضة وألوانها، بقدر ذلك أحب عمر الشعر وتذوقه ورواه، فقد كان يسمع الشعراء في سوق عكاظ وفي غير عكاظ، فيحفظ عنهم ويروي ما يعجبه من شعرهم، وكانت لعمر أحاديث طويلة مع الحطيئة وحسان بن ثابت والزبرقان وغيرهم، وتعرف عمر على أنساب العرب من أبيه الخطاب، فصار من أنسب العرب للعرب، وكان عمر جيد البيان حسن الكلام، مما جعل قريش تختاره سفيراً لها في أكثر سفاراتها إلى غيرها من القبائل، وكان يحكم في المشاحنات والمنافرات كحكم أبيه وقومه بني عدي من قبله.

ولما تم لعمر شبابه هوت إلى الزواج نفسه، وقد ورث عن بني عدي

ميلهم لكثرة الزوجات طلباً للولد، فتزوج في حياته تسع نسوة ولدن له اثني عشر ولداً: ثمانية بنين وأربع بنات.

- تزوج زينب بنت مظعون فولدت له عبدالله وحفصة أم المؤمنين صاحبة سيرتنا العطرة هذه.

- وتزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب فولدت له زيداً الأكبر ورقية.

- وتزوج أم كلثوم بنت جرول. وقد فرق الإسلام بينهما وولدت له زيداً الأصغر وعبدالله.

- وتزوج جميلة بنت ثابت بن أبي الأفلح فولدت له عاصماً، وكانت جميلة تدعى عاصية، فغيّر النبي ﷺ اسمها، وقال لها: «**بل أنت جميلة**».

- وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة فولدت له فاطمة.

- وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو فولدت له عِياضاً.

- وتزوج لُهيَّة وهي أم ولد، وولدها عبدالرحمن الأوسط.

- وتزوج فكيهة أم ولد كذلك، وقد أنجبت زيداً أصغر ولده.

وقد تزوج عمر رضي الله عنه أربعاً من أولئك النسوة بمكة، وخمساً بعد هجرته، على أن جمعهن لم يكتمل قط في بيته، وقد فرق الإسلام بينه وبين أم كلثوم بنت جرول، وقد طلّق نسوة غيرها، طلق أم حكيم بنت الحارث بن هشام، وطلق جميلة التي ولدت عاصماً.

ولو أن السن امتدت به لتزوج غير أولئك النسوة التسع، فقط خطب أم كلثوم بنت أبي بكر وهي صغيرة، وهو على إمارة المؤمنين، وأرسل فيها إلى أختها عائشة، فسألت أم المؤمنين أختها في ذلك فرغبت عنه، وقالت: إنه خشن العيش شديد على النساء. وخطب كذلك أم أبان بنت عتبة بن

ربيعة، فرفضته وقالت: يغلق بابه ويمنع خيره، ويدخل عابساً ويخرج عابساً.

وكل هذه الأوصاف التي ذكرتها أم كلثوم بنت أبي بكر، وأم أبان، عن شدته وغلظته، وعبوسه، كانت أوصافاً له في شبابه يعترف بها عمر بن الخطاب يوم استخلف خليفة على المسلمين فدعا ربه قائلاً: اللهم إني غليظ فليّني، اللهم إني ضعيف فقوِّني، اللهم إني بخيل فسخِّني.

ولعل غلظته وقسوته تكون ميراثاً من أبيه الذي قسا عليه في صباه، وكذلك بخله حيث إن أباه لم يكن غنياً، وقد ظل متوسط الحال في الغنى طيلة حياته، ولربما غلظته كانت حائلاً بينه وبين التجارة التي كانت مصدر ثراء قريش ورجالها.

وهناك مقولة لقومه تفيد أن غلظته جعلته لم يستطع بالتجارة أن يُنبع الماء من الحجارة، ولا أن يحيل التراب ذَهَباً، ورغم ذلك فقد اشتغل بالتجارة في رحلة الشتاء ورحلة الصيف، وذهب إلى بلاد فارس والروم، فتعلم علوم النسب وأيام العرب في أسفاره وسفاراته لقريش.

وأصبح عمر من خلال كل هذا الموروث والمتواجد أمامه أكثر اعتداداً واعتزازاً بنفسه، فلم يكن في يوم من الأيام أثيراً للمال.

وقد كان عمر رضي الله عنه من أشد شباب قريش على الصابئين والخارجين على دينهم، وأقساهم معاملة، وكان يبالغ في شدته وهو دون الخامسة والعشرين مع معارضيه، فكان يحارب الخارجين على عبادة الأصنام أشد الحرب كما فعل أبوه مع ابن أخيه زيد بن عمرو بن نفيل.

ومن مرويات غلظته في سيرة ابن هشام أن أبا بكر مر به يوماً وهو يضرب جارية ويعذبها لتترك الإسلام، ولقد ظل يضربها حتى ملّ لكثرة ما ضربها. عند ذلك تركها وقال: إني أعتذر إليك، إني لم أتركك إلا ملالة.

وأجابته الجارية: كذلك فعل الله بك.

وابتاع أبو بكر الجارية فأعتقها.

وكان أكثر ما يزعج عمر في جاهليته وحين بُعث النبي ﷺ أنّه إذا خرج إلى قومه رأى تفرق كلمتهم فكان هذا الذي يزعجه، فكان يحرص على أن تعود مكة إلى هدوئها بالقضاء على مصدر تفرقها كما كان يتصور، ولكن حكمة الله وقدرته جعلته يؤمن بمحمد ويصبح الفاروق عمر الذي يخشاه الشيطان، والذي يجل إسلامه كل المسلمين.



٣ ـ عمر في الإسلام

لعل أشهر روايات إسلام عمر هي التي تقول: أن عمر ضاق ذرعاً بدعوة محمد التي فرقت كلمة قريش، وذلك الأمر الذي حمله وأمثاله من شباب قريش على إيذاء من أسلموا ليفتنوهم عن دينهم، ويردّوهم إلى دين قومهم.

فلما أشار ﷺ محمد على أصحابه أن يتفرقوا في الأرض فراراً إلى الله بدينهم، ونصح لهم أن يذهبوا إلى أرض الحبشة، ورآهم عمر يترحلون، رقّ لهم، وشعر بالوحشة لفراقهم.

فقد روي عن أم عبدالله بنت أبي حتمة أنها قالت: والله إنا لنترحَّل إلى أرض الحبشة إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليَّ وهو على شركه، وكنا نلقى منه البلاء أذىً وشدة علينا؛ وقف وقال: إنه للانطلاق يا أُم عبدالله؟

قلت: نعم والله، لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجاً.

فقال: صاحَبَكم الله.

قالت: ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا.

ولما عاد زوجها ذكرت له الحديث الذي دار بينها وبين عمر بن الخطاب وأنها طمعت في إسلامه، فقال لها: لا يسلم هذا حتى يسلم حمار الخطاب.

وقد حزن عمر لترحل بني قومه عن وطنهم، بعد أن عُذبوا وأوذوا، وجعل يفكر في الوسيلة التي تنقذهم مما هم فيه، فرأى أن الحل في قتل محمدٍ.

فأصبح يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ورهطاً من أصحابه ذكر له أنهم اجتمعوا في دار الأرقم عند الصفا، وهم قريب من أربعين ما بين نساء ورجال، وفيما هو في طريقه لقيه نُعيم بن عبدالله فقال له: أين تريد؟

قال: أريد محمداً ـ هذا الصابىء الذي فرق أمر قريش، وسفّه أَخلاقها، وعاب دينها، وسبَّ آلهتها ـ فأقتله.

قال نُعَيْم: والله لقد غرّتك نفسك من نفسك يا عمر. أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أَمرهم؟!

قال عمر: وأي أهل بيتي؟.

فأجابه صاحبه: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما.

فرجع عمر عامداً إلى أخته وصهره وابن عمه سعيد بن زيد بن عمرو، وكان عندهما خبّاب بن الأرَتّ ومعه صحيفة يقرئهما فيها سورة «طه»، فلما سمعوا صوت عمر اختفى خبّاب في مخدع لهم وأخفت فاطمة الصحيفة، ودنا عمر من البيت، وسمع قراءة خبّاب فقال حين دخل: ما هذه الهمنمة التي سمعت؟

قالت فاطمة: ما سمعت شيئاً..

قال: بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه.

وبطش بسعيد بن زيد، فقامت فاطمة لتكفّه عن زوجها فضربها فشجَّها، فلما فعل ذلك قالا له: نعم، قد أسلمنا وآمنّا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

فلما رأى عمر أخته وقد سال الدم على وجهها ندم على ما صنع، فتراجع وقال لأخته: أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد.

فأجابته أخته: إنا نخشاك عليها.

قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنها إليها متى أتمّ قراءتها.

وأعطته فاطمة الصحيفة، فلما قرأ منها صدراً قال: ما أَحسن هذا الكلام وأكرمه!!

فلما سمع خباب عبارته خرج من مخبئه وقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: **«اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب»** فالله الله يا عمر!

عند ذلك قال عمر له: فدلني يا خبّابُ على محمد حتى آتيه فأسلم.

فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا في نفر من أصحابه.

فأخذ عمر سيفه فتوشحه، وسار حتى ضرب الباب على رسول الله ﷺ وأصحابه، وسمع القوم صوته ونظر أحدهم من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف، فرجع فزعاً يقول: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف.

قال حمزة بن عبدالمطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شرّاً قتلناه بسيفه.

وقال رسول الله ﷺ: **«ائذن له»**.

فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله حتى لقيه في الحجرة، فأخذ

بمجمع ردائه، ثم جبذه جبذة شديدة، وقال له: «**ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة!**».

فقال عمر: يا رسول الله جئتك لأؤمن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله.

فكبّر رسول الله تكبيرة عرف منها أصحابه أن عمر قد أسلم.

ورغم ما قيل عن عمر من قسوة وشدة، إلا أنّه كان رقيق القلب، دقيق الحس بمعنى العدل، ومن آيات رقته ما كان منه حين قامت أخته تكفه عن زوجها فضربها فَشجّها، فلما رأى ما بها من الدم ندم وتراجع، وهذا دليل رقته وحواره أيضاً مع أم عبدالله بنت حتمة يوم أزمعت الرحيل مع المهاجرين إلى أرض الحبشة، تشهد هذه المواقف برقة هذا الرجل القوي البطش حين رأى نفسه وقد جاوز الحدَّ، حتى إن أم عبدالله بنت أبي حتمة قالت لزوجها لما أحست رقته: لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا، حتى طمعت في إسلامه.

وقد كان النبي ﷺ حريصاً أشدَّ الحرص على أن يؤيد الإسلام برجل قوي جريء شجاع، لا يخشى أن يحارب معارضيه وخصومه في سبيل عقيدته، ولذلك كان عليه السلام يدعو ربّه: «**اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب**».

وكان أبو الحكم بن هشام رجل عابس الوجه، سليط اللسان، قوي الشكيمة، لا يبالي الحرب ولا يخافها، وكان عمر بن الخطاب كما أسلفنا.

ولكن الفرق بينهما أن أبا الحكم بن هشام تأثر بجاهليته أشد التأثير، ونستشف ذلك من أبي الحكم بن هشام (أبو جهل) نفسه وقد سمع عن دين محمد ﷺ فقال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذا! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه.

ولهذا ظل أبو الحكم ومن معه يعذّبون المسلمين بغياً بغير الحق، وظل المسلمون على دينهم لا يفتنهم العذاب، بل يزيدهم تمسكاً وحُبّاً.

أما عمر فقد كان أكثر حظّاً من أبي الحكم بن هشام، فقد ظلت الدوافع تؤدي به إلى طريق الحق شيئاً فشيئاً، وتحطم من حوله القيود قيود التعصب لقومه ولنظام مدينته مكة رويداً رويداً، وتغلب في نفسه عناصر العدل الأصيل على سائر العناصر.. حتى انتهى إلى الإسلام[1].

ولقد صدقت كلمات الرسول ﷺ، فأعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب، وأذل أبو جهل - أي أبو الحكم بن هشام - بكفره وعناده وسوء حظه.

ومن صور هذا الصدق العظيم ما رواه عمر بعد إسلامه فقال:

لما أسلمت تلك الليلة تذكرت أيّ أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة حتى آتيه فأخبره أني قد أسلمت، فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت على أبي جهل بابه، فخرج إليّ فقال: مرحباً وأهلاً بابن أختي، ما جاء بك؟ قلت: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد وصدّقت بما جاء به، فضرب الباب في وجهي وقال: قبّحك الله، وقبّح ما جئت به.

وكانت حفصة بنت عمر وشقيقها عبدالله يوم أسلم أبوهما يتذكران ويعقلان تلك المشاهد فقد ذكر عبدالله من حرص أبيه على إذاعة إسلامه وتحديه قريشاً في ذلك فيما روي عنه أنه قال: لما أسلم أبي عمر قال: أي رجال قريش أنقل للحديث؟

فقيل له: جميل بن معمر الجمحي.

فغدا عليه فقال له: أعلمت يا جميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد؟

فوالله ما راجعه حتى قام يجرّ رداءه واتبعه عمر، حتى إذا وقف على

---

(١) انظر الفاروق عمر للأستاذ محمد حسين هيكل ص٥١.

باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ!

فيقول عمر من خلفه: كذب ولكني قد أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

عند ذلك ثاروا به، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وأعيا عمر فقعد، وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأقسم بالله أنه لو قد كنا ثلاثمائة رجل تركناها لكم، أو تركتموها لنا.

فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حُلّة حَبَرة وقميص موشيِ، حتى وقف عليهم فقال: ما شأنكم؟

قالوا: صبأ عمر!

قال: فمه! رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا، اخلوا عن الرجل.

فلما هاجر عمر سأله ابنه عبدالله: يا أبت، من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك؟

فقال عمر: ذاك يا بني العاص بن وائل السهمي.

والعاص بن وائل السهمي هو أبو عمرو بن العاص، وقد بلغ من حمايته عمر حين أسلم أكثر مما رأيت.

فقد توعدت قريش عمر بعد أن انفضت عنه، فبات في داره خائفاً يترقب ـ ولربما كانت حفصة في قلق على أبيها في هذه اللحظة الحاسمة، قال عبدالله بن عمر: فبينما هو في الدار خائف إذ جاءه العاص بن وائل السهمي وهو من بني سهم، وهم حلفاؤنا في الجاهلية. فقال له: ما بالك؟

قال عمر: زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت.

قال: لا سبيل إليك.

وبعد أن قالها أمِن عمر، فقد خرج العاص من عنده فلقي الناس قد سال بهم الوادي، فسألهم: أين تريدون؟

قالوا: نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ.

قال: قد صبأ عمر فما ذاك! فأنا جار له؛ فتفرق الناس.

وتعد إجارة العاص بن وائل السهمي لعمر بن الخطاب امتداداً لجوار بني سهم لبني عدي في الجاهلية، وذلك حين نافس بنو عدي بني عبد شمس فغُلبوا على أمرهم، وأجلاهم بنو عبد شمس عن منازلهم عند الصفا واضطروهم إلى جوار بني سهم، وقد زاد هذا الجوار عمر جرأة في إسلامه وتحدياً لقريش، ودفعاً لأذاها عن المسلمين، فزادت شخصيته بروزاً، واعتداده بنفسه ظهوراً، فكان لعمر من المواقف ما لم يكن لغيره ممن سبقه إلى الإسلام.

ومحصلة ذلك نجد أن عمر بعد أن أسلم راح يسأل النبي ﷺ: يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا؟

فقال عليه الصلاة والسلام: «**بلى، والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم أو حييتم**».

قال: ففيم الاختفاء؟! والذي بعثك بالحق لتخرجن.

فما لبث النبي ﷺ أن خرج في صفّين أحدهما فيه عمر، والآخر فيه حمزة، ولهما غبار كأنه الطحين، فدخلوا المسجد وقريش تنظر وتعلوها كآبة، فلا يجرؤ سليط منها ولا حكيم أن يقترب من صفّين فيهما عمر وحمزة.

وقد كان أصحابه الأجلاء يتحدثون عن إسلامه بما يؤكد ما ذكرناه من مصادر السيرة والتاريخ الموثوق بهما، ومن هؤلاء عبدالله بن مسعود الذي قال عن إسلام عمر: كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا.

وكان يقول: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر.

أما صهيب بن سنان فقد قال: لما أسلم عمر أظهر الإسلام ودعا إليه علانيةً، وجلسنا حول البيت وطفنا بالبيت، وانتصفنا مما غَلُظَ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به.

هذه سيرة عمر بن الخطاب الأب رضوان الله عليه نطل بظلالها على سيرة حفصة، وعن ذلك البيت الذي تربت فيه أُم المؤمنين رضوان الله عليها، فلم يكن أثر عمر على ابنته فقط، بل وفي حياة الإسلام الأثر البالغ الذي جعل اسمه علماً على القوة والعدل والرحمة والبر مجتمعةً، وجعل عهده من أعظم العهود رضوان الله عليه.



خنيس بن حذافة - زواج عابر وترمل

خنيس بن حذافة سهمي من بني سهم، وهو خنيس بن حذافة بن عدي بن سعد بن سهم، من بني سهم[1].

وإذا أردت أن ترتب أصحاب رسول الله ﷺ وفق سبقهم الزمني إلى الإسلام فاعلم أن من دخل الإسلام قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم كان خنيس في عداد أول عشرة سبقوا إلى الإسلام[2].

واعلم أن خنيس بن حذافة السهمي قد سبق في إسلامه الفاروق عمر بن الخطاب ابن عمه السهمي، وبني سهم هم بنو عمومة لبني عدي وبينهم حلف في الجاهلية، وبنو عدي هم أهل عمر بن الخطاب.

ذهب خنيس بن حذافة السهمي إلى رسول الله ﷺ وانضم إلى قافلة الإسلام حين كان الإسلام يبزغ بضوئه الباكر الندي من قلب

---

(١) ترجمته في طبقات ابن سعد ج٣.

(٢) انظر الطبقات ج٣ ص٣٩٢.

رسول الله ﷺ ؛ ومن تعاليمه وكلماته عليه الصلاة والسلام التي يلقيها في بعض الأسماع سرّاً وخفية.

كان خنيس بن حذافة واحداً من القلة التي سارعت إلى الله، ولقد نزل به من الأذى والضر ما نزل يومئذ بالمؤمنين الصابرين الصامدين في وجه عتاة الكفر وأئمة الشرك في مكة.

وحين آثر الرسول ﷺ هذه الفئة المؤمنة القليلة المضطهدة بالعافية، أمرهم بالهجرة إلى الحبشة، مؤثراً أن يبقى هو عليه السلام في مواجهة الأذى وحده، وكان خنيس بن حذافة السهمي أحد المهاجرين من بني سهم، فقد خرج مع إخوانه قيس بن حذافة السهمي، وعبدالله بن حذافة بن قيس بن عدي بن معد السهمي.

وقد بلغ عدد السهميين الذين هاجروا إلى الحبشة هجرتها الأُولى أربعة عشر رجلاً[(١)] ، بينهم خنيس بن حذافة السهمي.

وكشأن المهاجرين إلى الحبشة في كلتا الهجرتين: الأولى والثانية، لم يزدَدْ خنيس بن حذافة إلا تمسكاً بالإسلام، واعتصاماً به، ولم تكن هجرة الحبشة إلا دليل على السآمة من جاهلية الأصنام والأوثان بكل ما فيها من جهل وضلال، فلم تعد عقولهم تستسيغ عبادة أصنام منحوتة من حجارة أو معجونة من صلصال أعدها الإنسان ليعبدها..

وفي الحبشة واجهوا أمامهم ديناً غير وثني، فلو كانت قضيتهم قضية هرب من أذى فقط، لنجح رجال الدين في الحبشة في استمالة معظمهم إلى هذا الدين؛ لكنهم خرجوا مؤمنين برسالة محمد ﷺ ، وكلهم في شوق إلى العودة إلى وطنهم الحبيب، ليعبدوا الله وحده، وليأخذوا مكاناً خلف رسولهم الكريم، في المسجد الحرام، وفي المسجد النبوي، ومعه حين

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص٣٢٨ ط دار ابن كثير دمشق ـ من هاجر إلى الحبشة من بني سهم.

يقاتل، وبين يديه حين يرتل القرآن وحوله عزة وشرفاً ورفعة ومكانة للإسلام وذلة لأهل الشرك والكفر.

وبينما خنيس بن حذافة مع إخوانه في دار هجرتهم بالحبشة يعبدون الله، ويتدارسون ما معهم من القرآن ويحملون برغم غربتهم وبعدهم عن أهلهم وذويهم؛ يحملون برغم كل هذا توهج روح منقطع النظير، إذ تأتيهم الأنباء أن قريشاً أسلمت وممن أسلم عمر بن الخطاب، وأن قريشاً كلها سجدت لله عز وجل.

هنالك حمل المهاجرون أمتعتهم وجمع خنيس بن حذافة متاعه وقد انتابته فرحتان: فرحة نصر الإسلام وفرحة إسلام عمر رضي الله عنه، لأن لإسلام عمر شأن خاص يهم خنيس بن حذافة، فهو يريد أن يصاهره في حفصة ويتزوجها.

مضى خنيس بإيمانه وأحلامه مع إخوانه إلى مكة، بيد أنه ما كاد يقترب هو وإخوانه من مكة وهم على مشارفها حتى تبينوا كذب الخبر الذي بلغهم عن إسلام قريش.

وقد سمع كفار مكة بمقدم صيد ثمين طالما طاردوه ونصبوا شباكهم لاقتناصه، وحاولوا صيد هؤلاء ولكنهم عادوا من حيث أتوا، ومنهم من دخل مكة وقد آجره بعض رجالها مثل عثمان بن مظعون خال حفصة بنت عمر الذي آجره الوليد بن المغيرة.

على أن زواج خنيس بن حذافة بحفصة لم يرد توقيته في كتب السير، إلاّ أننا نعرف أنه لم يكن قبل هجرة الحبشة، فلو كان لاصطحبها خنيس معه، ولم تُذْكر حفصة في مهاجري الحبشة، ولكن الثابت أن حفصة حين هاجرت إلى المدينة مع أسرة عمر رضي الله عنه كانت زوجة لخنيس.

كما أن ميلاد حفصة كان قبل البعثة بخمس سنوات، وخنيس مات بعد أُحد وهي في روعة صباها، وقد بلغت الثامنة عشرة من عمرها.

نعود إلى خنيس السهمي رضي الله عنه، فقد هاجر إلى المدينة ومعه

حفصة زوجه، ونزل على رفاعة بن عبدالمنذر، وآخى الرسول ﷺ بينه وبين أبي عبس بن جبر، فخنيس رضي الله عنه من أصحاب الهجرتين.

ولم يشهد بدراً من بني سهم غير رجل واحد هو صاحبنا الجليل الصحابي الكريم خنيس بن حذافة بن عدي السهمي القرشي، وكما ذكرنا فقد كان من أصحاب الهجرتين، هجرة الحبشة وهجرة المدينة، وشهد بدراً ثم شهد أحداً كذلك، ثم مات بعدها في دار الهجرة، من جراحة أصابته في أُحد، وترك من ورائه أرملته حفصة بنت عمر بن الخطاب.

وقد تألم عمر بن الخطاب لابنته الشابة التي ترملت في الثامنة عشرة من عمرها، وآلمه كثيراً أن يرى الترمل يأخذ من شبابها نضارته وحيويته، ويخنق الصبا والشباب، وقد بدا الأب الرقيق يشعر بانقباض أليم كلما دخل بيته ورأى الأرملة الصغيرة، تلبس ملابس الحداد، ويرى ابنته في حزنها الشديد.

وقد أضناه الفكر في شأن تزويج حفصة ممن يحب أن يكون زوجاً لابنة عمر بن الخطاب، ورأى أن يختار لها زوجاً تأنس إلى صحبته، فتسترد بعض الذي أضاعت في حداد استغرق ستة أشهر أو تزيد.



النشأة والنسب

أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنها يكفيها في الإسلام شرفاً أنها من أمهات المؤمنين، ولدت في مكة، وكانت لحظة ولادتها لحظة دوّنها التاريخ لأشراف مكة مع حكيمهم اليافع الصادق الأمين محمد بن عبدالله وقد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره، وقد اجتمعت قريش في هذا اليوم لبنيان الكعبة، وكانت هذه هي المرة الثالثة التي بنيت فيها الكعبة.

فقد ذكر المؤرخون أن الكعبة بنيت خمس مرات:

الأولى حين بناها شيث بن آدم.

والثانية حين بناها إبراهيم عليه السلام.

والثالثة حين بنتها قريش، وكان ذلك قبل الإسلام بخمس سنين.

والرابعة حين احترقت في عهد ابن الزبير.

والخامسة عندما استُخلِف عبدالملك بن مروان أعاد بناءها على ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ[1].

نعود إلى حديثنا عندما اجتمعت قريش لبناء الكعبة ففي هذا اليوم اختلف الأشراف على من يضع الحجر الأسود في مكانه ومن هو الفائز بهذا الشرف، وقد جمعت القبائل من قريش الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حِدَة، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن، فاختصموا فيه، كل قبيلةٍ تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى انحازت كل قبيلة إلى الأخرى وتحالفوا وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبدالدار جَفْنة مملوءة دَماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي قوم عمر بن الخطاب على الموت، وأدخلوا أيديهم في تلك الجفنة، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا وتناصفوا، فوقف أبو أُمية بن المغيرة المخزومي وكان أسن قريش كلها فهو أكبرهم سناً فقال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا وكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين[2]. رضينا هذا محمد، فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر.

عندئذٍ قال ﷺ: «**هلم إلي ثوباً**»، فأُتي به، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده، ثم قال: «**لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً**»، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بنى عليه.

في هذا اليوم ولدت حفصة بنت عمر رضي الله عنها، وعمر غني عن التعريف وقد تحدثنا عنه في مطلع سيرتها الطيبة.

---

(١) تاريخ مكة للأزرقي ـ الروض الآنف.

(٢) انظر سيرة ابن هشام جـ١ ص١٩٧.

أما أمها زينب بنت مظعون بن حبيب، أخت الصحابي الجليل عثمان بن مظعون، وما أدراك ما عثمان بن مظعون، صاحب رسول الله ﷺ من المبكرين السابقين إلى الإسلام، قيل: إن ترتيبه في أوائل المسلمين الرابع عشر فيمن سبقوا إلى الإسلام، وحينما هاجر إلى الحبشة وعاد منها حاولت قريش إيذاءه، إلا أن الوليد بن المغيرة أجاره وأدخله في جواره وحمايته، فامتنع عنه أذى أهل مكة، ولكنه لما رأى إخوانه في الدين قد نزل بهم العذاب وهو في أمان الوليد بن المغيرة قال: والله إن غدوي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقَوْن البلاء والأذى ما لا يصيبني، لنقصٌ كبير في نفسي.

ومشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس وَفَتْ ذمتك، وقد رددت إليك جوارك.

فقال له: لِمَ يا ابن أخي... لعله آذاك أَحدٌ من قومي؟

قال: لا، ولكني أرضى بجوار الله، ولا أريد أن أستجيره لغيره.

وظل ابن مظعون خال حفصة على وفائه للإسلام حتى مات في المدينة، وكان أول من توفي بالمدينة بعد هجرة الرسول ﷺ ودفن بالبقيع، ويومها قال له الرسول ﷺ وهو يودعه: «**رحمك الله أبا السائب، خرجت من الدنيا، وما أصبت منها ولا أصابت منك**».

أي شرف أجلّ من هذا يا حفصة يا ابنة عمر بن الخطاب، فها هو الأب الذي فرق الله به بين الحق والباطل، والذي إذا سلك عمر وادياً سلك الشيطان وادياً غيره، وها هو الخال عثمان بن مظعون رجل الإسلام الذي رَدَّ إجارة سيد قريش وقال: لا أرضى إلا بجوار ربي، ولا أريد أن أستجير بغيره.

أما شقيق حفصة فهو عبدالله، أحد الذين شهد لهم الرسول ﷺ بالتقى والصلاح فقال عنه: «**نعم الرجل عبدالله لو كان يصلي من الليل**».

فكان عبدالله لا ينام من الليل إلا قليلاً، وهو من رواة الحديث الثقاة، وله مشاهد إيمانية عظيمة.

أما عمها فهو زيد بن الخطاب، شهيد اليمامة، أحد القراء الذين خشي على القرآن من استشهادهم، فأسرع عمر وأبو بكر في جمع القرآن بعد اليمامة.

وزيد هو شهيد الإسلام الذي تأثر باستشهاده كثيراً عمر بن الخطاب، فقال عنه رضي الله عنهما: أسلم قبلي، واستشهد قبلي.

وقال عنه أيضاً: ما هبَّت الصّبا إلا وأنا أجدُ ريح زيد.

أما عمة أم المؤمنين حفصة فهي السيدة الفاضلة فاطمة بنت الخطاب إحدى السابقات إلى الإسلام والإيمان مع زوجها وابن عمها سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، والذي رق قلب عمر للإسلام في بيتها بعد أن شجَّها وأسال الدم من وجهها، ولم تعطه الصحيفة التي فيها سورة من القرآن إلا بعد أن توضأ وأصبح طاهراً، وخرج من بيتها وقد أنار الله قلبه وطريقه، فلم يحد عن طريق دار الأرقم حتى لقي محمداً فيه وأسلم وأعز الله الإسلام به.

في هذا الجمع الكريم ووسط هذا البيت المبارك نشأت حفصة بنت عمر أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها، وحين بعث النبي ﷺ وأسلم عمر بن الخطاب دخلت الأسرة العمرية كلها الإسلام عدا إحدى زوجاته وهي أم كلثوم بنت جرول الذي فرّق الإسلام بينها وبين عمر.

وقد نشأت حفصة في بيت يجل العلم والتعلّم، نشأت رضوان الله عليها على حب العلم والمعرفة، فنهلت من علوم الدين والأدب ما قدر لها أن تنهل، حتى قيل عنها إنّها إحدى فصيحات النساء من قريش، وقد تعلمت الكتابة من الشفاء بنت عبدالله القرشية العدوية، واستقام لسانها، وفَصُحَ نطقها حيث إنّها كانت ترتل القرآن ترتيلاً، ولما اكتملت لها أنوثة

الأنثى تزوجها خنيس بن حذافة السهمي، وعاشت معه مسلماً مهاجراً قريرة العين مطمئنة البال والخاطر، وهاجرت معه إلى المدينة، وهناك ترملت بعد وفاته.

❊ ❊ ❊

أرملة محظوظة

«يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة» [الرسول ﷺ].

ظنت قريش ظنون الضعف بالمسلمين.. وأصاب رجالها العجب من جرأة محمد ﷺ على قافلة أبي سفيان بن حرب، فقد خرج لتوه من بين ظهرانيهم في مكة متخفياً مع صاحبه أبي بكر الصديق، وقد نجا منهم بأعجوبة، وأخذتهم الدهشة أن يُخرجَ محمد رجاله الأشداء الأبطال، والذين كانوا ضعفاء أرقاء لهم في مكة، أدهشهم أن يخرجهم ليقطعوا طريقاً لم يُقطع منذ أن عرفوه، ومنذ أن يسره الله لهم ليطعمهم من جوع يصيبهم، لولا ما في هذا الطريق من تجارة تجلب عليهم المال، وتجري بين أيديهم الخبز والطعام والشراب من جراء ما كسبوا من مال حتى ازدادوا قوة، فآمنهم من خوف، وها هم لا يعبدون رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف عندما يسر لهم رحلة الشتاء والصيف.

في هذه الأثناء استعد محمد ﷺ للخروج إلى قريش عند بدر، كانت رقية ابنته زوجة عثمان رضي الله عنه قد وضعت طفلها عبدالله بن عثمان[(١)]، فملأ عليها الدنيا وآنسها في منزلها الجديد بالمدينة، وأقبلت عليه بكل ما أوتيت الأم من حنان وجمال وهي تهدهد وليدها الطفل الصغير، تريد أن تنسى مرارة ولوعة مصابها في أمها خديجة التي ذهبت منذ سنوات قليلة،

---

(١) نسب قريش ٢٢، وانظر الإصابة جـ٨ ترجمة رقية والاستيعاب جـ٣.

وقد كانت مهاجرةً إلى الحبشة فلم تر موتها ولم تحضر فراقها، وأرادت أن تنسى ما ذاقته من متاعب في غربة الهجرة إلى الحبشة.

وقد ظنت خير ظن بأن أيامها الشاقة الصعبة قد ولّت وانتهت، وأنها مقبلة على استقرار أسري مع الزوج الأموي الشريف الحسيب النسيب عثمان رضي الله عنه، ووليدها يرتع بين يديها، تقر به عينها، ولكن الله تعالى امتحنها بمصاب جديد، لعله يكون بلاء المؤمنين، فقد مات عبدالله بن عثمان وانطفأت جذوة الفرحة التي اشتعلت وأضاءت في بيت رقية بنت النبي ﷺ، مات عبدالله بنقرة من ديك، فترنحت رقية واهتزت من وَجْدِها على وليدها الذي بلغ السادسة من عمره، وسقطت تقاوم المرض والحمى، قيل إنّها الحصبة.

واشتدّ المرض على بنت رسول الله ﷺ، وأقام عثمان رضي الله عنه إلى جانبها يمرضها ويرعاها، حتى إذا تناهى إلى سمعه صوت مؤذن الرسول للجهاد والخروج إلى بدر، وقد استنفر الجيش كله والجمع كله مهاجرين وأنصار للقاء عدوهم في بدر كي يكسروا غروره.

عندئذ ما كان لعثمان أن يرد داعي الجهاد في سبيل الله، لولا اشتداد مرض هذه المسكينة، وقد ودَّ عثمان أن يلبي داعي الجهاد، لكن آهاتها وتألمها من المرض ونشيجها وحشرجتها التي وصلت إلى آذان عثمان أشعرته أن الأمر جد خطير، وأن رقية في خطرٍ، فلم يطاوعه قلبه أن يتركها ويفارقها وهي تعالج سكرات الموت، إنها رقية التي أصابه من أجلها حزن شديد يوم أن سمع عن خطوبتها لعتبة بن أبي لهب في الجاهلية.

تخلف عثمان رضي الله عنه عن الخروج لبدر بعد أن أمره النبي ﷺ أن يبقى مع زوجته المريضة رقية رضي الله عنها.

وقسا على رقية صراع المرض وطال، وأعدت نفسها التواقة إلى الجنة فنظرت إلى زوجها عثمان تستودعه الله في الدنيا، على أمل اللقاء به في الآخرة، ومضت إلى بارئها، وقد فاضت دموع عثمان وهو يحتسبها عند الله راضية مرضية.

وجاء الرسول ﷺ وقد منحه الله نصره ببدر، فاقترب من ابنته المسجاة في رفاتها وودعها حزيناً واجِداً عليها، يلملم أحزانه حتى لا يثقل على أخواتها فاطمة وأم كلثوم.

وجعل عليه السلام يمسح دموع فاطمة بطرف ثوبه، وانتحبت النساء، فزجرهن عمر بن الخطاب في قسوة عن النحيب وطلب منهن السكينة والوقار فقال رسول الله ﷺ وهو يكف عمر عنهن: **«مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله الرحمة، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان»**.

وصلى النبي ﷺ على رقية وأصبح عثمان وحيداً بلا أنيس يؤنسه.

ومضت الأيام، وجاء يوم أحد وخرج خنيس بن حذافة مودعاً زوجته حفصة بنت عمر رضي الله عنها على أمل اللقاء بعد طرد الكفار الذين جاؤوا لإطفاء نور الإسلام، وفي أُحد أصيب خنيس بن حذافة، وعاد مصاباً تؤلمه الجراح، ولم يمضِ وقت طويل حتى مات خنيس متأثراً بجراحِهِ وترملت حفصة وأصبحت وحيدة يضنيها فراق زوجها.

وأصبح البيت العمري في حزن شديد ما بعده حزن، كما أطلت الأحزان من قبل على بيت عثمان والبيت النبوي بوفاة رقية.

نعود إلى حديث الرسول ﷺ الذي صدرنا به حديثنا عن الأرملة المحظوظة فقد قال النبي ﷺ: **«تتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة»**[١].

قالها النبي ﷺ لعمر بن الخطاب هاشاً باشاً ملاطفاً حينما جاءه عمر تبدو على وجهه الكآبة، ويكسو محياه الألم، يشكو إليه ﷺ ما كان من إيذاء أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما في شعوره ونفسه، وجرحهما له في كرامته، وذلك عندما ذهب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ليعرض عليه الزواج من ابنته حفصة التي تأيمت من زوجها خنيس بن حذافة السهمي، وهي لا تزال بعدُ شابة صغيرة، وكان في يقين عمر أن أبا بكر سيرحب

---

(١) انظر السمط الثمين ص٨٣، والاستيعاب ج٤، وعيون الأثر ٤٥٠.

بفتاة عمر التقية الصوامة، ابنة صاحبه وحبيبه، وابنة الرجل الذي أعز الله به الإسلام.

فكان جواب أبو بكر رضي الله عنه على ما عرضه عليه عمر رضي الله عنه هو السكوت، لقد سكت أبو بكر وأمسك عن الرد لا يجيب. وانصرف عمر واجِداً حزيناً، لا يكاد يصدق أن صاحبه رفض حفصة بعد أن عرضها عليه.

ومضى عمر رضي الله عنه يفكر في اختيار زوج يأمنه على ابنته الأرملة الحزينة من أصحابه المسلمين، وسارت به قدماه إلى بيت عثمان بن عفان بعد أن تذكر وحدته وحزنه على فراق رقية بنت رسول الله ﷺ، وقد أيقن عمر أن حفصة ستسري عن عثمان حزنه وتذهب وجده وتخرجه من دائرة الحزن التي أصابته، فليعرضها على هذا الأموي الشريف، السابق إلى الإسلام الذي نال شرف مصاهرة الرسول ﷺ.

وذهب إلى عثمان يعرض عليه ما عرض على أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه، وتحدث عمر إلى عثمان، فعرض عليه حفصة وهو لا يزال يشعر بحزن شديد لما يعتريه من مهانة الرفض التي تلقاها من صاحبه أبي بكر، وحاول قدر جهده أن يكظم غيظه، فلعل الله يختار لحفصة زوجاً كعثمان، وما يختاره الله لها فهو خير.

رد عثمان في أدب جم طالباً من عمر أن يمهله أياماً، وجاء بعدها يقول لعمر: ما أريد أن أتزوج اليوم[1].

فكاد عمر يتحيز غيظاً من مهانة الموقف وهو العزيز عِند إخوانه وأصحابه، ولاطف الرسول ﷺ عمر، وقال له: **«تتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة»**.

---

(١) انظر الإصابة جـ٨ ص٥١، والاستيعاب وعيون الأثر - وفي بعض المراجع أن عمر عرض حفصة على عثمان قبل أبي بكر.

وكانت مفاجأة لعمر، فقد بوغت عمر حتى إنه ردَّد متعجباً: **«تتزوج حفصة من هو خير من عثمان؟!»**.

وسكت برهةً يفكر فيما سمع، ولكنه لم يلبث أن أدرك ما يعنيه الرسول ﷺ، وفطن إلى ما يرمي إليه، وإلى ما سوف يقدم عليه، وأشرقت في خاطره لمحة مضيئة، أيتزوج النبي ﷺ حفصة؟ وفرح عمر، واشتد سروره... يا الله..! أيتزوج رسول الله ﷺ من ابنته حفصة، فيدمل جُرْحَهُ، ويمسح بيده الكريمة ما عَلُقَ به من إيذاء نفسي ساقه أبو بكر في صمته فأشعره بالمهانة، وأباح به عثمان، فأكثر عليه الوجد والمهانة.

ونهض الرسول ﷺ يصافحه متهللاً، وقد انقشع وزال عنه هم الحزن والمهانة من رفض صاحبيه مصاهرته.

وانصرف عمر من حضرة النبي ﷺ ووجهه متهلل سروراً، وروحه تطير فرحاً، فقد خطب ابنته الأرملة المحظوظة رسول الله ﷺ، وأصبح يجد نفسه بمكانة عظيمة من رسول الله ﷺ، فإن كان قد حظي أبو بكر رضي الله عنه سعيداً بمصاهرة النبي وزواجه من عائشة، فإن لعمر مكانة أثيرة في نفس النبي ﷺ، وها هو يريد أن يتزوج ابنته ويصاهره.

وفي الطريق كانت ملامح الفرح والسرور تبدو على وجه عمر رضي الله عنه، فكل من يراه لا بد وأن يعرف أن عمر قد منّ الله عليه بشيء أسعده وأفرحه، والتقى عمر بأبي بكر، وعرف أبو بكر ما وراء هذه البشاشة والفرحة المكتومة في نفس عمر رضي الله عنه، فاستوقفه هاشاً ومد يده له مهنئاً وقال له: لعلك وَجَدْتَ عليّ يا عمر حين عرضت عليّ حفصة؟!! لا تجد عليَّ يا عمر!! فإن رسول الله ﷺ ذكر حفصة، فلم أكن لأفشي سرّاً لرسول الله ﷺ، ولو تركها لتزوجتها[1].

فتبسم عمر قائلاً: نعم، إني عرضت على عثمان ابنتي، فردّني وعرضت عليك فسكتَّ، فكنت عليك أشد غضباً.

---

(١) انظر الاستيعاب جـ٤ ١٨١١، والإصابة جـ٨.

قال أبو بكر هاشاً باشاً: إنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت إلا أني قد علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، وقلت لك: لم أكن لأفشي سرَّ رسول الله[1].

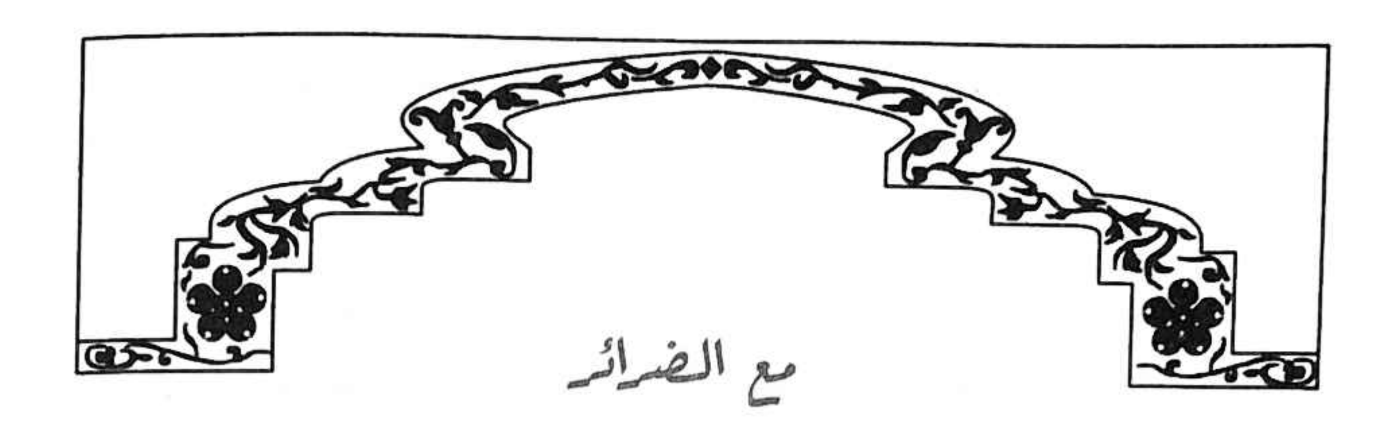
ربت عمر على كتف صاحبه وعرف السبب فيما كان من سكوت أبي بكر، ثم عرف بعد ذلك ما كان من رد عثمان له، فقد كان عثمان لا يزال حزيناً على وفاة زوجته رقية بنت رسول الله، وكان أَمَلُهُ كبيراً أن يكلل الله مسعاه في أن يتزوج بعد ذلك من أختها أم كلثوم.

وتزوج رسول الله ﷺ حفصة سنة ثلاث من الهجرة وأصدقها أربعمائة درهم.

وكان زواج رسول الله ﷺ، إكراماً لأبيها عمر بن الخطاب وزيره ومستشاره بعد أبي بكر، وأكرم الرسول ﷺ في زواجه من حفصة شهيد الإسلام خنيس بن حذافة، فهي أرملة هذا الرجل الذي هاجر فصَدق في هجرته، وجاهد فصدق، وأخلص في جهاده في سبيل الله عز وجل، وكان خنيس بن حذافة في المسلمين الأولين الذين أسلموا في أول الدعوة حين دعاهم أبو بكر إلى الإسلام، وكان من المهاجرين الأولين الذين هاجروا إلى الحبشة فيمن هاجر إليها هرباً من إيذاء مشركي قريش، وكان في أوائل المهاجرين من مكة إلى المدينة حين هاجر إليها رسول الله ﷺ، وكان الرجل الوحيد من بني سهم الذي شهد إلى جانب الرسول ﷺ بدراً.



(١) الحديث في صحيح البخاري بطوله ١٨/٧.



مع عائشة

أين أنت من عائشة..؟! وأين أبوكِ من أبيها؟! [عمر بن الخطاب]

انتقلت حفصة إلى بيت رسول الله ﷺ، وكان ببيته على رأس الزوجات: عائشة بنت أبي بكر، وسودة بنت زمعة، أما سودة فقد استقبلت حفصة بنفس راضية.

واستقبلتها عائشة بنفس بها غيرة وغيظ وقهر، فقد باغتتها حفصة بينما كانت تعيش أسعد أيامها مع زوجها الحبيب، وقد أمّلت كثيراً أنها قد تستطيع، ولو بعد حين أن تناسي الحبيب ﷺ ضرتها خديجة التي ماتت وما زال الحبيب المصطفى يذكرها ويقول لها في تأكيد شديد لحبه لها حتى بعد أن ذهبت إلى بارئها: **«والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء»**[1].

وها هي تباغت بزوج جديدة تدخل بيت النبي ﷺ، وتشغل الحجرة التالية لحجرتها وحجرة سودة، وتشاركها في حياتها الزوجية يوماً بيوم وليلة بليلة.

---

(١) انظر ترجمتها في الاستيعاب لابن عبدالبر، وانظر خديجة في هذه السلسلة.

استقبلتها عائشة بفتور وغيرة، برغم معرفتها مكانة عمر بن الخطاب من نفس النبي ﷺ، وعلمها ويقينها بما بين أبيها أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبين عمر من حب وتآلف وصداقة.

في هذا الجو الأُسري دخلت حفصة الشابة، التقية، الصوّامة، القوّامة بيت النبي ﷺ، وفي قرارة نفسها تريد أن لا تعادي عائشة، وفي تقريرها أن تعمل بكل الجهد على استرضائها، واكتساب محبتها.

فما الذي دعا حفصة الشابة إلى هذه المهادنة؟؟ وما الذي حدا بحفصة ذات الحسب والنسب المشهود، والتي تكاد تضارع مكانة أبيها في نفس محمدٍ ﷺ مكانة أبي بكرٍ والد عائشة؟؟

كل هذا حدا بها إلى اتخاذ قرار بمهادنة عائشة، واكتساب محبتها والسير على هذه الخطة.

وكان وراء هذا القرار وتلك الخطة والدها عمر رضي الله عنه، فهذا الرجل الشديد، الحازم، العادل، يعلم تمام العلم مكانة عائشة في نفس رسول الله ﷺ، فهو يعلم تمام العلم أن ما يرضي عائشة يرضي النبي ولكن بالعدل والإحسان.

وقد أوصى ابنته كثيراً بابنة أبي بكر، كي تبذل قصارى جهدها في كسب صداقة عائشة، ونيل محبتها، واستجلاب مودتها، والاستحواذ على رضاها، وأن تتبوأ مكانة في بيت النبي ﷺ كمكانتها.

ولم يطل الوقت كثيراً حتى استطاعت حفصة أن تصل إلى ما تريد، فكسبت رضا عائشة، ولم تشأ أن تفعل شيئاً يريب عائشة منها، وعلى الجانب الآخر فسريعاً ما اطمأنت عائشة إلى حفصة وجعلتها موضع سرِّها، وقد كانت حفصة لا تثير قلقاً في نفس عائشة لكونها لا تحمل جمالاً أخّاذاً يثير حفيظة ضرائرها، بل كانت هادئة رقيقة.

وقد شهدت علاقة عائشة وحفصة مشاهد كثيرة اتسمت بالود والتآلف، ومن ذلك أنه حينما تزوج الرسول ﷺ أم سلمة ورأتها عائشة فوجدتها جميلة، يأخذ جمالها من ينظر إليها، فتحركت الغيرة في نفس عائشة المحبة لزوجها أشد الحب، الغيرة عليه أشد الغيرة، ولما تحركت الغيرة في صدرها من أُم سلمة لم تجد أحداً أصون ولا أكتم لسرها من حفصة بنت عمر، فذهبت تشكو إِليها، وتبث ما في نفسها مما وجدته من جمال أم سلمة وفتنتها. فكان من حفصة أَن هوَّنَتْ عليها الأمر، وخففت عنها حُرْقَةَ الغيرة، وقللت من جمال أم سلمة في نظرها فقالت لها: إنها ليست كما يُقال عنها، وإنها لكبيرة في السن، سرعان ما يذوي جمالها، وتذبل نضارتها.

ودخل بيت النبي ﷺ على عائشة وحفصة الكثير من نسائه ﷺ، وكان من نسائه زينب بنت جحش، وجويرية بنت الحارث، وصفية بنت حيي بن أخطب، ومارية، التي أهداها إلى النبي ﷺ مقوقس مصر، وكان في هؤلاء النسوة جمال أخّاذ، وكان جمالهن سبباً في إشعال غيرة عائشة رضي الله عنها، مما دعا بعائشة أن تأتلف مع حفصة عليهن جميعاً، وحدا بالاثنتين أن تتحدا، وتتعاونا ضدهُنَّ، مما جعل حفصة تخرج عن وصية أبيها لها: بأن تحب عائشة، وأن تؤاخي جميع ضرائرها.

وذلك الأمر دعا عمر إلى أن يعاود النصح لابنته، ويردها عما انساقت إليه، هي وعائشة، وينهاها عن التشبه بها ومجاراتها، ويحذرها من غضب رسول الله ﷺ ويذكرها بمكانتها ووضعها ويقول لها: يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها وحب رسول الله ﷺ إياها، والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولا أنا لطلقك(١).

لقد أوغر عمر رضي الله عنه صدر ابنته، لكنه ما قصد إلا الحفاظ على العلاقة الطيبة برسول الله ﷺ، فهو يعلم مكانة هذا الرجل العظيمة،

---

(١) رواه الشيخان.

ويعرف الشرف العظيم الذي هو فيه، وكذلك صاحبه أبو بكر، فكان عمر كثيراً ما يقول لها: أين أنت من عائشة؟! وأين أبوك من أبيها؟! ولم يقل عمر لابنته هذا الكلام إلا أنه شعر بأن ما أصبح بين عائشة وحفصة من الود يبعث في النفس القلق ويجعله يتوجس منه خيفة.

وصار ما بين عائشة وحفصة من ود سبباً جعل عمر يخشى من ابنته المشاركة في عمل شيء يغضب رسول الله ﷺ. وإذا كانت عائشة قد اختارت من بين نساء النبي ﷺ أبعدهن عن الخطر في ميدان المنافسة، وهي حفصة بنت عمر، وقد توددت عائشة إلى حفصة أيضاً بلياقة وشجاعة، متخذة من تقاربهما في الأبوة سبيلاً إلى هذا التودد.

وكان لاستجابة حفصة السريع لتودد عائشة أثراً في أن تعترف عائشة بأن حفصة بنت عمر: هي أقرب نساء النبي ﷺ إلى بنت أبي بكر، وأصبحت عائشة تتخذ حفصة مستقرّاً لسرها منذ سمعت بزواج الرسول ﷺ من أم سلمة والتي تعد من النساء اللاتي أثارت غيرة عائشة لجمالها وفصاحتها وحسن حديثها.

ويعد ائتلاف حفصة مع عائشة، ائتلاف بين صاحبتين، ترتاح كل منهما إلى الأُخرى، وما عَدَتْ تدابيراتهما ومؤامراتهما، إذا ما دبرتا أو تآمرتا، إلاّ أن تكون تدبيرات نسوة للتفكه والمزاح فيما بينهما، أو تآمرات غيرة للترفيه والتسلية، لا تبغيان من ورائها أمراً.

ومن أمثلة هذه المشاهد التي تعد من مشاهد الفكاهة بينهما هذا المشهد:

فقد صحبت حفصة وعائشة الرسول ﷺ في سفر من أسفاره، ربما يكون خروجه لبني المصطلق، وبينما رَكْبُ الرسول وموكبه قد أناخ للراحة، اتفقت الصاحبتان حفصة وعائشة على أن تتبادلا بعيرهما، فتركب كل منهما مكان الأخرى، وعلى بعير الثانية، وذلك ربما بقصد التفكه والتسلية، وإن كنت أظن أن عائشة ما قصدت التفكه والتسلية وإنما كانت لا تتوقف عن مخاطبة قلب الرسول ﷺ لها دوماً.

واستأنف ركب الرسول ﷺ السير، وقد ركبت حفصة جمل عائشة،

وركبت عائشة جمل حفصة، وجاء النبي ﷺ إلى جمل عائشة وعليه حفصة، ظاناً أن عائشة عليه فسلَّم، ثم سار معها، ورأت عائشة التي رغبت مع حفصة في الفكاهة، ما كان من النبي ﷺ، فلم تستطع أن تسيطر على شعورها، ومشاعرها، أو أن تخفي انفعالها، فقد انطلق مارد الغيرة في نفسها كأنثى تحاكي بشريتها، فقالت: يا رب، سلط عليّ عقرباً أو حيّة، تلدغني ولا أستطيع أن أقول شيئاً..

وكان الموقف من صِناعتها هي، ومن طاعة حفصة لها لإرضائها. فقد قبلت حفصة أن تكون اختباراً لعاطفة صاحبتها عائشة رضي الله عنها.

فهل كانت حفصة حكيمة عندما نحت جانباً نفسها وأنوثتها من طريق عائشة، فوارت مشاعرها في الظل حتى تكسب ودَّها وتعمل بنصيحة والدها عمر بن الخطاب؟؟



مع زينب بنت جحش

شأنها شأن نساء النبي ﷺ كانت السيدة الكريمة زينب بنت جحش تحب أن تستأثر بقلب الزوج الحبيب، فتتحدث عن ميزة تميزت بها عن غيرها من النساء وكانت السيدة زينب تقول للرسول ﷺ: يا رسول الله، إني والله ما أنا كأحدٍ من نسائِكَ، ليست امرأة من نسائك إلا زوّجها أبوها، أو أخوها وأهلها، غيري، زوجنيكَ الله من السماء[1].

هذا الكلام قالته زينب بنت جحش يوماً لزوجها محمد رسول الله تذكِّرُهُ فيه بما شرّفها الله، وأنعم عليها به إذ زوّجها من رسوله بأمر أنزل عليه، فكان هذا الأمر قرآناً يقرأ، وآيات تتلى، على مرّ السنين، وتوالي الأيام.

(١) طبقات ابن سعد جـ٨/٧٣، المجد، والاستيعاب، والإصابة، وعيون الأثر.

وكما كانت زينب تذكّر رسول الله ﷺ بما أَوْلاها الله، كانت كذلك تفخر على سائر نساء النبي بقولها لهن: زوجكن أهلكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات[1].

وبذلك نجد أن زواج زينب بنت جحش كان له ضجيج شديد في المدينة فقد تزوجها الرسول ﷺ في السنة الخامسة على أرجح الأقوال، وهي بنت خمسٍ وثلاثين[2].

وكان اسمها برة فسماها ﷺ زينب، وفي صحيح مسلم حديث زينب بنت أبي سلمة، ربيبة النبي ﷺ قالت: كان اسمي برَّة، فسماني رسول الله ﷺ زينب، ودخلت عليه زينب بنت جحش واسمها برَّة، فسماها زينب[3].

وقد شعر نساءُ النبي ﷺ بما لزينب من مكانة أولاها الله، وشملها بها رسوله، وشعرن بحب الرسول لها، وأَحْسَسْنَ بميله إليها.

شعرت حفصة بمكانة زينب، وشعرت بحب الرسول لها، وأحست بميله إليها، ولكن عائشة كانت أكثر من حفصة؛ بل أكثرهن جميعاً بهذا الشعور حِسّاً ودراية، فهي زوجة الرسول المحببة إلى قلبه، شعرت عائشة بما احتلت به زينب من مكانة في قلب الرسول ﷺ قاربت أن تساوي مكانتها في قلبه، وأحست بما نالت زينب من رضاه، وحازت من إعجابه، حتى لكانت عائشة تقول في ذلك: لم تكن واحدة من نساء النبي تناصبني غير زينب[4].

كما كانت تقول عن حب الرَّسول ﷺ لزوجتيه: زينب وأم سلمة: كانتا أحب نسائه إليه ـ فيما أحسب ـ بعدي[5].

---

(1) الإصابة عن الواقدي: ٩٣١٨، وعيون الأثر ٣٠٤/٢.
(2) صحيح مسلم رقم ٢١٤٢. ج١٦٨٧/٣.
(3) ابن هشام في السيرة، والاستيعاب والإصابة.
(4) المصادر السابقة.
(5) صحيح مسلم حديث رقم ٢٤٤٢، والسمط الثمين ص١١٠، والإصابة والاستيعاب.

وتحدثت عنها أم سلمة فقالت: كانت زينب لرسول الله ﷺ معجبة، وكان يستكثر منها، وكانت صالحة قوّامة صوّامة.

وكان لشعور زوجات النبي ﷺ بما لزينب من المكانة لدى الرسول أن شعرن بالغيرة من زينب، وعدونها أخطر منافسةٍ لهن في حب الرَّسُول، وكانت أكثر الزوجات أيضاً بهذا الشعور حساسية عائشة، ولم تستطع أن تسكت ولا أن تصبر، حينما كانت ترى رسول الله ﷺ يطيل المقام عند زينب في أثناء دورته اليومية على نسائه لتفقد شؤونِهِنَّ، فكانت تسعى إلى زوجة رسول الله حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ وهي التي كانت عائشة تصطفيها، وتتخذ منها صديقة من دون نساء النبي ـ لتتفق معها على تدبير حيلة تجعل النبي ﷺ لا يُطِيلُ المقام عند زينبَ.

وكان أَن اتفقت هي وحفصَةُ، وأَشركَتَا معهما في هذا الاتفاق سودة بنت زَمْعَةَ، على أَنْ أَيَّتَهُنَّ يجيئُها الرسول بعد خُرُوجه من عند زينب تقول له: رائِحتكَ مغافير. والمغافير طَعَامٌ حُلْوٌ ذو رائِحةٍ كريهةٍ، وكان النبي ﷺ يكره الرائحة الكريهة.

فلما غادر النَّبيُّ ﷺ زينب وجاء إلى عائشة في دورته اليومية على نسائِه، قالَتْ له عائشةُ: إِنِّي أشم رائِحةَ مغافير، أَكَلْتَ مغافيرَ.

فلما أتى حفصة قالت له ما قالت عائشة، وهكذا سَأَلَتْهُ سودَةُ، فلما أجابها بالنفي، سَأَلَتْ: فما هذه الريحُ؟! قال: «**سقتني زينبُ شَرْبَةً من عَسَل**».

قالت سَوْدَةُ بلهجة الَّتي أدركت السبب: رَعَتْ نَحْلَةُ العرفط، أيْ أَنَّ النَّحلة التي تُخرجُ الْعَسَلَ رَعَتِ العرفط، وهي الشجرة التي تثمر المغافير.

فكان من هذه المؤامرة الَّتي تآمَرَتها بعض زوجاتِ الرسول ـ ومنهن حفصة ـ نتيجة غيرتهن من احتباس الرسول عند زينب ـ أن حرَّمَ الرسول شرب العسل عند زينب، وبذلك زال السبب الذي كان يحتبسه عندها أكثر من غيرها، وحُرِمَتْ زينب من مقام الرسول لديها أكثر من ضرائرها.

ورغم كل ما كان بينهن من تنافس وغيرة على حب الرسول ﷺ ومحاولة الفوز بقلبه، إلا أنهن كن يشهدن لبعضهن شهادة صدق كلما خلت الغيرة وذهبت، فهذه عائشة تشهد لأكثرهن منافسة لها عند النبي ﷺ تشهد لزينب فتقول: . . .ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي يتصدق به ويتقرب به إلى الله عز وجل(١).

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب: «**إن زينب بنت جحش أوّاهة**».

فقال رجل: يا رسول الله: ما الأواه؟

قال: «**الخاشع المتضرع**»، ثم تلا عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾(٢).



مع مارية القبطية

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم: ١ ـ ٣].

❁ ❁ ❁

(٢) سورة هود، الآية: ٧٥، والحديث بالاستيعاب والإصابة.

(٢) انظر سيرة ابن هشام جـ٢ ص٢٧٨، ٢٧٩.

أ ـ مارية في مصر

كان لمارية القبطية في بيت رسول الله ﷺ أثر شديد في تأجج غيرة نساء النبي ﷺ، وعلى وجه الخصوص عائشة وبعضهن، وقد كانت حفصة تمالىء عائشة وتميل إلى حزبها في بيت النبي ﷺ.

وإذا تحدثنا عن مارية فإننا نتحدث عن سبب مجيئها من مصر، ومن بين أقباط إلى بيت الرسول ﷺ في جزيرة العرب وفي المدينة المنورة على وجه الخصوص.

ولنقل في البداية: من هي مارية القبطية، ومن الذي أرسلها؟ ولماذا؟ ومن أين جاءت؟

هذه أسئلة لا بد أن نلقي عليها نظرة قبل أن نتطرق إلى حدث هام يربطها بحفصة بنت عمر بن الخطاب وهي أم المؤمنين زوجة النبي ﷺ.

وقبل أن نبدأ الحديث عن مارية وعن موقف حفصة منها نرجع إلى بدء سفارات النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء وخاصة قبل فتح مكة وبعد صلح الحديبية، وكتب النبي ﷺ إليهم يدعوهم إلى الإسلام، فقد خرج النبي ﷺ إلى أصحابه بعد عمرته التي صُدَّ عنها يوم الحديبية فقال:

«أيها النّاس، إن الله قد بعثني رحمة وكافة، فلا تختلفوا عليَّ كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم».

فقال أصحابه: وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟!

قال: **«دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضِي وسلَّم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتثاقل، فشكا ذلك عيسى إلى الله، فأصبح المتثاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأُمة التي بعث إليها»** (١).

---

(١) فتوح مصر والمغرب ص٦٥.

وبذلك وضع الرسول ﷺ منهجاً لسفرائه قبل أن يرسلهم إلى الملوك والأمراء، ومن الملوك الذين أرسل إليهم الرسول ﷺ المقوقس ملك الإسكندرية، والمقوقس هو «قيرس» بطريق الإسكندرية الملكاني الذي جعل له هرقل ولاية «الدين» وجباية الخراج بمصر.

والمقوقس ملك الإسكندرية أي أنه ملك مصر كلها، لأن المقوقس جعل الإسكندرية عاصمة لمصر في أيامه، فإذا أُطلق عليه: ملك الإسكندرية باعتبارها عاصمة كلها، فقد كان عامل هرقل على مصر، فهو ملك مصر غير المتوج، وهو أيضاً بطريق الإسكندرية فكان على السلطتين الدينية والدنيوية في مصر.

وكان المقوقس يقيم بمصر حيناً، وبالإسكندرية حيناً آخر، وتبعاً لإقامته كانت حاشيته تتبعه، وكان أكثر خدمه وجواريه يقيمون حيث يقيم.

أما مارية القبطية وأختها شيرين فقد شبتا وترعرعتا بين قصور المقوقس كجاريتين من جواري المقوقس المترفات المنعمات، وقد ولدت مارية بقرية «حفن» من صعيد مصر، وعلى الضفة الغربية للنيل، ولدت مارية وأختها شيرين لأب قبطي اسمه شمعون ولأُم رومية.

وقد مضى حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه بكتاب رسول الله ﷺ، فلما انتهى إلى الإسكندرية، وجد المقوقس في مجلس يشرف على البحر، يستمتع بهواء البحر الرطب الجميل، فركب حاطب البحر، فلما حاذى مجلسه أشار بكتاب رسول الله ﷺ ورآه المقوقس، فأمر بالكتاب، وأمر بحاطب فأُوصل إليه، ولما دخل حاجب المقوقس يستأذن عليه دخول حاطب بن أبي بلتعة رسول النبي ﷺ وسفيرهُ، وقد وفد من جزيرة العرب، أذن المقوقس لحاطب بالدخول، فدخل عليه رجل يرتدي ملابس العرب، قد جاوز الأربعين بقليل، وقدّم الرسول (حاطب) إلى المقوقس الكتاب الذي كان يحمله من رسول الله ﷺ فقرأ فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم.. من محمد بن عبدالله إلى المقوقس عظيم مصر.. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد..

«فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فإنما عليك إثم القبط: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾»[1].

علم المقوقس من هذا الكتاب أن نبياً قد بُعِثَ بأرض العرب، وأنّه يدعوه إلى دين جديد، لا يشرك بالله شيئاً، ولا يتخذ غير الله رباً.

رفع المقوقس رأسه بعد أن سكت قليلاً وقال لحاطب: أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبيّاً؟

قال حاطب: بلى.

فقال المقوقس: فما له لم يدعُ على قومه حيث أخرجوه من بلدته؟!

فأجابه حاطب: فعيسى ابن مريم رسول الله حين أراد قومه صلبه، لم يدع عليهم حيث رفعه الله.

وقبل المقوقس كتاب رسول الله ﷺ[2]، وأخَذَه وجعله في حُقٍّ من عاج - والحق وعاء صغير ذو غطاء، يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما - وختم عليه[3]، وأكرم حاطباً، وأحسن نزله[4].

وعلى ذلك كان ما فعله المقوقس ردّاً على كتاب محمدٍ ﷺ أن كتب إليه كتاباً جاء فيه:

لمحمد بن عبدالله من المقوقس.. سلام.

أما بعد، فقد قرأتُ كتابك، وفهمت ما ذكرت، وما تدعو إليه، وقد

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤. نص الكتاب النبوي في فتوح مصر والمغرب ص٦٥، ٦٦ وصبح الأعشى للقلقشندي ٣٧٨/٦.

(٢) ابن الأثير ج٢ ص٢١٠.

(٣) فتوح مصر والمغرب ص٦٦.

(٤) فتوح مصر والمغرب ص٨٧.

علمتُ أنّ نبياً قد بقي، وقد كنت أظنّ أنّه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسلك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة أتركبها؟ والسلام[1].

ثم أمر بتجهيز الهدايا لترسل إلى النبي العربي، فجهزت، وكان فيها ملابس وأدوات للزينة. وقيل: إن الهدايا إلى النبي ﷺ في الجواري ثلاث: إحداهن مارية القبطية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وشيرين[2] أخت مارية، وهبها لحسان بن ثابت شاعر النبي ﷺ، فأسلمت مارية وأختها التي ولدت عبدالرحمن بن حسان بن ثابت.

وقيل: إنه لما غادَرَ حاطب بن أبي بلتعة قصر المقوقس، ومعه ما أعده له المقوقس من هدايا، تصحبه الفتاتان مارية وشيرين، يرافقهم جيش من حرس المقوقس ليقوم على حراستهم في أثناء الطريق.

وسار الموكب في طريقه من الإسكندرية نحو الشرق، نحو جزيرة العرب، حيث النبي العربي الذي بعثه الله هدى للناس، سار موكب حاطب ومعه مارية وشيرين والجارية الثالثة التي وهبها النبي ﷺ إلى جَهْم بن قيس العبدري[3]، فهي أم زكريا بن جهم الذي كان خليفة عمرو بن العاص على مصر.

وكان من الهدايا بغلة هي «دلدل»، وحمارٌ هو «يعفور» وكِساء، وبعث مع الجواري خادم لهما يدعى «مابور»، وألف مثقال ذهباً، وعشرين ثوباً، ووهب لحاطب مالاً عظيماً[4].

---

(١) فتوح مصر والمغرب ص٦٧، وصبح الأعشى للقلقشندي ٤٦٧/٦.

(٢) قيل إن اسمها: سيرين، ومعنى اسم شيرين: الحلو أو الحلوة.

(٣) في الطبري ٤٦٥/٢، وابن الأثير ٢/ ٢١١ـ ذكر أن المقوقس أهدى إلى النبي أربع جواري وفي الطبري أيضاً ٢١/٣ وابن الأثير أيضاً ٢٢٥/٢ أنهما جاريتان ـ أما في الاستيعاب وتهذيب الأسماء ذكر عددهن ثلاث.

(٤) التاريخ ٢٥٩/٤.

وفي الطريق لربما تساءلت مارية وشيرين فيما بينهما: إلى أي أرض هما سائرتان؟ وعند أي سيد ستقيمان؟!

لقد عرفتا وسمعتا أنهما مهداتان إلى رجل عظيم من رجال العرب..! فمن هو هذا الحبيب، وكيف حال بلاده التي ستعيشان فيها؟؟!

وتولى حاطب بن أبي بلتعة الإجابة عن أسئلتهما، فقد تحدّث إليهما بإسهاب دون اختصار عن النبي ﷺ.

لقد قصَّ لهما حاطب قصة النبي ﷺ والذي وُلِدَ يتيماً فكفله جده ثم عمه أبو طالب، وأن هذا النبي الكريم قد لاقى من الأذى الكثير، ولاقى من اضطهاد قومه وأذاهم في سبيل دعوته الكثير.

وحدثهم عن قومه الذين حاربوه حتى هاجر من مكة إلى المدينة، وقد نصره إخوانه من أهل المدينة، وكيف جاهد وقاوم حتى استطاع أن يحقق دعوته بَيْنَ الناس.

وحكى لهما أخباراً عن صدقه وأمانته ووفائه وعدله.

وكان لحديث حاطب أثر واضح على الفتاتين، وخشع قلب كل منهما لِمَا سمعتا، وأكبرتا هذا النبي الكريم، وتاقت نفساهما إلى أن تكونا بقربه تحتميان بحمايته وتستظلان بظله، وهَفَتْ روحاهما لأن تدخلا في هذا الدين السمح القويم، ومال قلباهما لأن تعتنقا الإسلام، وأسلمت مارِيَةُ وشيرين لحاطب بن أبي بلتعة قبل أن يريا صاحب الرسالة ﷺ والذي تقصدان إليه.

عاد حرس المقوقس، لما اتجه موكب حاطب ومن معه إلى المدينة وتركوا حدود مصر، فحاطب يعرف مسالك طريق الشام والحجاز من خلال معرفته برحلة الشتاء والصيف.



ب ـ مارية في المدينة

واستقبل النبي محمد ﷺ هدية مقوقس مصر بالقبول والرضا لما جاء في رسالته من إيمان واعتدال، وأسلمت مارية وشيرين ونطقا بشهادة التوحيد أمام رسول الله ﷺ، فاصطفى مارية لتكون في مِلكِهِ، ووهب شيرين لشاعر المسلمين حسان بن ثابت، وضرب الرسول ﷺ على مارية الحجاب، وأنزلها بدار الحارثة بن النعمان، بالقرب من مساكن زوجاته.

ولكن زوجاته اللّاتي كن قد بلغت بهن الغيرة مبلغها من هذه الوافدة الغريبة البيضاء الجميلة، لم يستطعن أن يتركنها تعيش بالقرب منهن في سلام، فكان من نساء النبي ﷺ ما يجعله يخاف على مارية من تضافرهن عليها، وغيرتهن منها، فنقلها إلى مكان يعرف بالعالية محاط بالأشجار في ضاحية من ضواحي المدينة.

وصار عليه السلام يختلف إليها بين الحين والحين، ولم تهدأ غيرة أزواج النبي ﷺ من مارية، بل كانت عائشة أحب زوجات النبي ﷺ تقول: ما غرت من امرأة إلاَّ دون ما غرت من مارية، وذلك لأنها كانت جميلة جعدة، وأعجب بها الرَّسُولُ.

وهكذا غارت نساء النبي ﷺ من مارية، الجاريةُ السّرَية، حتى تضافَرْنَ على الكيد لها والنيل منها.

وإذا كانت عائشة على رأس نسائه اللائي غرن من مارية فإننا نجد حفصة رضي الله عنها على طريق عائشة في غيرتها.

ومما زادَ هذه الغيرة وأشعلها أن مارية أَسرَّت إلى النبي ﷺ بنبأ حملها، فاغتبط عليه السلام لهذا الحمل أشد الاغتباط، وَسُرَّت نفسه أَشد السرور، ولما عرفت زوجاته ذلك لم يملكن أن اغتظن وَحَزِنَّ، واستكثرن على مارية الجارية أن تحمل من دُونهنَّ، وتلد للنبي ﷺ الولد الذي لم يستطعن جميعاً أن يلدنه.



مارية في بيت حفصة

كان من مظاهر المودة والتآلف بين حفصة وعائشة ضد زوجات النبي ﷺ، ومن مظاهر اتحادهما وتعاونهما ـ كونهما لا يخفيان سرّاً على بعضهما بعضاً.

وكان من مظاهر تآلف حفصة وعائشة أيضاً أن ذهبت حفصة ذات يوم في زيارةٍ لأبيها، بعد أن استأذنت النبي ﷺ، وقدر الله أن جاءت ماريةُ القبطية إلى النبي ﷺ في أمر لها، وكان النبي ﷺ يسكنها في مسكن منفردٍ بعيدٍ عن مساكن زوجاته التي كانت بجوار المسجد، فأدخلها النبي ﷺ معه إلى حجرة حفصة رضي الله عنها.

وجاءت حفصة من زيارة أبيها، فوجدت ستر مسكنها مُسْدَلاً، وعلمت أن الرسول ﷺ مع مارية القبطية داخل المسكن.

في هذه اللحظات عصفت بحفصة موجة شديدة من غيرة النساء الشديدة، وتملكها غيظ ما بعده غيظ، وكانت كلما طال الوقت بها وهي تقف في انتظار خروج مارية، اشتعلت غيرتها واشتدت، واشتد معها غيظها، حتى إنَّها حينما خرجت مارية دخلت على النبي ﷺ، باكية، ثائرة النفس، وهي تقول: لقد رأيت من كان عندك.. والله لقد سببتني.. وما كنت لتصنعها لولا هواني عليك(١).

أحس الرسول ﷺ ورأى بنفسه مبلغ ما عليه حفصة من غيظ وقهر، وموجِدَةٍ، وشعور بالإهانة، فأقبل عليها مترفقاً بها، يترضاها، ويُطيِّبُ خاطرها، حتى أقسم لها: أن مارية عليه حرام إن هي ضربت صفحاً عما حَدَث، ولم تَذْكُرْ عنه لأحدٍ شيئاً، واحتفظت به في نفسها، وجعلته سر من أسرارها(٢).

---

(١) تفسير الطبري لسورة التحريم.

(٢) انظر الحديث في صحيح مسلم ـ شرح صحيح مسلم عن القاضي عياض.

رَضيت حفصة وطاب خاطرها بملاطفة النبي لها، وخَفَّفَ عنها رفقه بها وحنانه عليها، وحلمه معها، ورأفته بها، وسرَّها أن يحرم الرسول ﷺ على نفسه سريَّتهُ، وأُم ولده إبراهيم، إن هي لم تذكر لأحدٍ ممّا رأت شيئاً، وكتمت السرَّ كما وعدت.

واعتزمت حفصة في نفسها أن تضرب صفحاً عما حَدَثَ، وأن تتناسى ما رأت، فكأنّه لم يكن، ولكن... هل نسيت صديقتها وصاحبتها عائشة؟ وهل تناست ما بينهما من تآلف وتواد وتعاهد على معاضدة كل منهما لصاحبتها في مواجهة الأُخريات من ضرائرهن زوجات النبي ﷺ؟

وما إن رأت حفصةُ عائشةَ بجانبها حتى حدَّثتها نفسها أن تسر إليها بما كان بينها وبين رسول الله ﷺ بشأن مارية، ففي ذلك اعتداد بنفسها التي نالت رضى الرسول ﷺ حتى إنه أقسم بتحريم مارية إن هي أسرت السرّ ولم تذعه لأحد.

وفكرت حفصة ورجعت إلى نفسها تقول: أَلَمْ يحلف لها الرسول ﷺ أن تكون مارية حراماً عليه، إن هي لم تذكر لأحد شيئاً مما رأت، فلتخفِ السرَّ إذن، ولتسكت، ولتكن مارية حراماً على الرسول ﷺ.

سكتت حفصة، ولم تتكلم، ولكن على مضض شديد، ولكن فكرة تحريم الرسول مارية على نفسه، فكرة أسعدتها وملأت نفسها بهجةً، بل فكرة تدعو إلى الاستخفاف، فمن هي التي حرمها النبي ﷺ من أجل إرضائها؟؟ إنها مارية القبطية الوحيدة بين نساء النبي ﷺ التي أنجبت بعد خديجة، ولذا كان نساء النبي ينقمن عليها، ويشعرن بالغيرة منها، لاهتمامه ﷺ بها، وبولده إبراهيم منها، فكان من الطبيعي أن تضغط عليها أنوثتها وغيرتها، وسرورها مما حدث كي تبيح بالسر، فهي عاجزة تماماً عن حجب ما عندها من سر عن عائشة.

وأصبحت لا تستطيع كتمان السر، ومضت إلى عائشة رضي الله عنها، وقد أملت عليها غريزة الأنثى أن تحدثها عن كل ما دار بينها وبين الرسول ﷺ بشأن مارية. قالت لها: أبشري يا عائشة، فإن رسول الله ﷺ

حرَّم عليه وليدته، وأم ولده.. وقد سألت عائشة عن السر في هذا الخبر والذي أثار في نفسها البهجة والسرور.

ولن يقتصر السرور والبهجة عليها، بل سيعم سائر أزواج النبي ﷺ، وقد بدأت تستفسر عائشة من صاحبتها حفصة عن هذا السر المكتوم، وعن أسبابه ودواعيه؟ ولماذا أقسم الرسول ﷺ وعلى أي شيء أقسم؟ على تحريم مارية؟!!

وثارت نفس عائشة أكثر مما كانت ثورة حفصة صاحبة الموضوع المباشرة، وليس في ذلك غرابة لأنه كما كانت ثورة حفصة بسبب خلوة النبي ﷺ بمارية في مَسْكَنها، فإن عائشة ثارت ثورتها لأن خلوة النبي ﷺ بمارية كانت في يومها وليلتها..

وكانت نتيجة ثورة حفصة وعائشة، أن ثارت نفوس سائر نساء النبي ﷺ، على الرغم من أنهن كن يعرن على عائشة من حب الرسول ﷺ لها، وقربه منها، وقد قلن في ذلك: صبرنا على إيثار الرسول لابنة أبي بكر، وما بقي إلاّ تلك الأمة القبطيةُ، فأَيُّ هَوَانٍ؟!

ولم تُقدّر حفصة وهي تذيع سر النبي ﷺ الزوج الكريم، عواقب هذا الإفشاء، فقد كانت هي التي نبأت بالسر الذي أوصاها الرسول ﷺ أن تكتمه، فأشعلت النار من حيث لا تدري، ولا تقدر أن تمنع.

ولكن ما هو موقف عمر رضي الله عنه من هذا الأمر، وخاصة عندما قيل إن الرسول ﷺ طلق حفصة تطليقة واحدة ثم ارتجعها[1].

وقد ذهبت الروايات إلى أن الرسول ﷺ ارتجع حفصة وأعادها إليه بعد الطلاق رحمة بعمر رضي الله عنه، والذي ما إن علم بالخبر، حتى حثا التراب على رأسه وقال: ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها.

فنزل جبريل عليه السلام من الغد على النبي ﷺ، فقال: «**إن الله**

---

(١) ابن حجر في الاستيعاب.

يأمرك أن تراجع حفصة رحمة بعمر». أو كما جاء في رواية أخرى، أن جبريل نزل على النبي ﷺ فقال له: **«أرجع حفصة فإنها صوّامة قوّامة، وإنها زوجتك في الجنة»**[1].

وقد قيل: إن هذا الطلاق كان قبل أن تثور نساؤه بحجة النفقة، وقد شعرت حفصة رضي الله عنها بالندم الشديد، وشعرت بالخطأ الفادح، فما كان لها وهي التقية النقية الصوّامة القوّامة، بنت عمر بن الخطاب صاحب رسول الله - ما كان لها أن تذيع سرّاً ائتمنها عليه رسول الله ﷺ.

❀ ❀ ❀

ثورة النساء

لعل رسول الله قد طلقك؟ إنه إن كان قد طلقك مرة ثم راجعك من أجلي، فإن طلقك مرّة أخرى لا أُكلمك أبداً. [عمر بن الخطاب لحفصة رضي الله عنهما].

دخل عمر بن الخطاب على حفصة أُم المؤمنين رضي الله عنها، فألفاها تبكي بكاءً مرّاً ندماً على ما فعلت مع الزوج الحبيب محمد ﷺ، فرق قلبه لها، وجعل يواسيها، فهي حفصة التي حظيت بمكانة لائقة عند رسول الله ﷺ، لأنها إحدى زوجاته من قريش وَهُنَّ: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة (رملة بنت أبي سفيان)، وأم سلمة، وسودة بنت زمعة[2]، رضي الله عنهن أجمعين.

وحفصة رضوان الله عليها من خيار النساء - القوّامة الصوّامة - اللائي يؤدين العبادات على أحسن وجه، لأنها عُرفت رضوان الله عليها بكثرة الصيام والقيام، وهل في العبادة أعلى منزلة من الصوم والصلاة؟!

---

(١) الإصابة جـ٨/٥٢، والاستيعاب ٤/١٨١٢، وعيون الأثر لابن سيد الناس ٢/٤٠٢، والمحب الطبري في السمط الثمين.

(٢) انظر صحيح البخاري ٧/١٧ كتاب النكاح. وانظر تاريخ الإسلام للذهبي جـ١ ص٥٩٣.

رق قلب عمر لابنته، وقال لها في هدوء ونصح: يا بنية، لعل رسول الله قد طلقك؛ ثم راجعك ـ إن كان قد طلقك مرّة ـ من أجلي، فإنه إن طلقك مرّة أخرى لا أكلمك أبداً.

سكتت حفصة وهدأ بالها..

وكان من نصائح عمر لحفصة ومراجعته لها، أنّه كان مهموماً ذات يوم بأمر من أموره، فأشارت عليه زوجته برأي لها في هذا الأمر، فغضب واحتدّ عليها، وقال لها: وما لك أنتِ ولما ها هنا؟! وما تكلُّفك في أمرِ أُريدُهُ؟!

يريد بذلك أن ينكر عليها أن تشير عليه، أو حتى تراجعه فيما يقول.

فقالت له زوجته: عجباً لك يا ابن الخطاب! ما تريد أن تُراجَعَ أنت، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان!!

فلما سمع مقالة زوجته قام غاضباً صامتاً لا يتكلم، ثم ارتدى رداءه وخرج من فوره قاصداً إلى بيت رسول الله ﷺ حيث تسكن ابنته حفصة رضي الله عنها.

فلما استأذن ودخل عليها سألها: يا بنيَّةُ، إنّك لتراجعين رسول الله حتى يظل يومه غضبان؟!

فأجابت حفصة قائلةً: والله إنّا لنراجعه ـ تقصد أنها تفعل ذلك ـ[1].

فقال لها عمر ناصحاً ومحذِّراً: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله، وغضب رسول الله ﷺ. يا بنية: لا يغرنك هذه التي أعجبها حُسْنها وحب رسول الله لها ـ يعني عائشة ـ والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك، ولولا أنا لطلقك.

خرج عمر من عند ابنته حفصة فوجد أم سلمة زوجة رسول الله ﷺ وكان له بها قرابة، فخاطبها في شأن مراجعة زوجات النبي للرسول ﷺ، لكن أم سلمة صدت عمر عن أن تدخله بين الرسول ﷺ وزوجاته قائلة:

---

(١) كان يحدث هذا لشدة حنان النبي ﷺ ورفقه بأزواجه رضوان الله عليهن.

عجباً لك يا ابن الخطاب، قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله وأزواجه؟

فقال عمر: فأخذتني أخذاً كسرتني به عن بعض ما كنت أجد[1].

وكان من حزم عمر رضي الله عنه، وأثر ذلك على حفصة، أنه لما خرج يوماً إلى المسجد فوجد أن النبي لم يخرج يومها للصلاة بالناس كعادته، فتساءَل المسلمون عن السبب في ذلك، فاستأذن عمر على الرسول ﷺ ليسأله عن سبب عدم خروجه ليصلي بالنّاس كعادته، وكان أبو بكر قد استأذن على النبي ﷺ من قبلِهِ، فلما أذنَ لعمر، دخل فوجد أبا بكر عنده، ووجد النبي ﷺ جالساً، ساكِتاً، واجماً؛ وَمِنْ حوله نساؤُهُ.

وأدركَ عمر حجم المصيبة، وأدرك ما بين الرسول ﷺ وزوجاته من خلاف، وكبر عليه أن تتسبب زوجات الرسول ﷺ ومنهن حفصة ابنته في إغضابه. فقال محاولاً إضحاك الرسول ﷺ، والتسرية عنه: يا رسول الله، لو رَأيت بنت خارجة (يعني زوجته) تسألني النفقة، فقمت إليها، فوجأتُ عُنُقَها!!

فضحك النبي ﷺ، وقال مشيراً إلى زوجاتِهِ: «**هن حولي يَسْأَلْنني النفقة**».

فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة يَجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنُقَهَا، وكلاهما يقول: تَسْأَلْنَ رسول الله ما ليس عنده؟!

فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً ليس عنده.

ثم كان من عمر رضي الله عنه وأبي بكر بعد ذلك أن قصد كُلٌّ منهما إلى ابنته يقول لها: قد علمت أن رسول الله ﷺ لا يدخر عنكن شيئاً، فلا تَسْأَلْنَهُ ما لا يُجدي، انظري حاجتك فاطلبيها إليَّ.

لقد رغب الرجلان رضوان الله عليهما في إرضاء النبي ﷺ وأبديا

---

(1) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، متفق عليه اللؤلؤ والمرجان ح٩٤٤/جـ٢.

استعدادهما لتلبية متطلبات كل واحدة منهن حتى لا يسألن رسول الله ﷺ.

وقد سعى عمر وأبو بكر بمثل ذلك عند سائر أزواج النبي ﷺ حتى سارا بمثل ذلك إلى أم سلمة، فقالت لهما: ما لكما ولما ها هنا! رسول الله أعلى بأمرنا عيناً. ولو أراد أن ينهانا لنهانا، فمن نسأل إذا لم نسأل رسول الله؟!.. هل يدخل بينكما وبين أهليكما أَحَدٌ؟! فما تكلُّفُكُمَا هذا؟!

ومن أجل هذا الذي كان من زوجات النبي ﷺ بسبب النفقة، ومن أجل أسباب أخرى كثيرة منها إفشاء حفصة لسره وعدم كتمانها له، من أجل كل هذا غضب الرسول ﷺ على نسائه غضباً شديداً، ورأى أن يأخذهن بالحزم، ويعاملهن بالشدة، وأن يترك اللين جانباً ومن ذلك قرر أن يهجرهُنّ شهراً، فإمّا عُذْنَ إلى رشدهن وتُبْنَ إلى عُقُولِهِنَّ، وَإِلاَّ متعهن وسرحَهُنَّ سَرَاحاً جميلاً.

واعتزل الرسول ﷺ نساءَه في خزانة له ذات مشرَبَةٍ، يرقى إليها على جذع من جُذوع النخل، ويجلس على عتبتها غلام رسول الله «رَباحُ» كلما كان محمدٌ ﷺ بها.

وسرت بين الناس إشاعة تقول: إن رسول الله ﷺ طلق نساءَه..

وبلغت الإشاعة عمر، فقام من فوره حتى دخل على ابنته حفصة، فوجدها تبكي، فسألها بحدة وغضب: لعل رسول الله قد طلقك؟!

قالت: لا أدري.

قال: إن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً.

وغادر عمر رضي الله عنه ابنته حفصة تبكي هجر زوج حبيبٍ رفيق بها وبسائر نسائه، بالمؤمنين رؤوف رحيم، وتبكي أيضاً غضب أبٍ كريم، طالما نصحها وزاد في النصح، وأمدها بحكمته، وتبكي مرة ثالثة فوق ذلك غيظاً وقهراً وندماً على ما صَدَرَ منها في حق الرسول، وما فَرَطَ منها في حقه

عليه السلام. فقد خرجت من إفشاء سِرِّه إلى مشاركة النساء في الثورة لطلب النفقة، وها هو الحبيب معتزل عنهن ليس ببعيد.

ومرت الأيام والنبي معتزل لنسائه، تاضٍ أكثر وقته في خزانته التي يقف على بابها خادمه «رباح»، ونساؤه نادمات على إغضابهن لزوجهن الحبيب الرفيق الكريم، والنّاس في همٍّ وغمٍّ وكَمَدٍ لغضب رسول الله على نسائه، مُشفقين جزعين على مصير أمهات المؤمنين، وكانوا يجتمعون في المسجد، فيجلسون مطرقين ينكتون الحصا ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه.

ولم يكن أحد قبيل ذلك قد جرؤ على أن يكلم الرسول فيهن منذ اعتزلهن، لكن عمر - ولربما ابنته أحد هذه الأسباب - لم يطق صبراً لرؤية الرسول معتزلاً بخزانته، بعيداً عن حنان نسائه وعطفهن، وغلبه ما كان يَجِدُ في نفسه من أَلم وأسف على ما كان من ابنته تجاه الرسول ﷺ، ودفعه ما كان يتحدث بِهِ النَّاسُ عن تطليق الرسول لزوجاته، على أَن يذهب إلى حيث كان الرسول ﷺ معتزلاً فينادي على «رباح» طالباً منه الاستئذان في الصعود، فلم يرُدَّ «رباح» على عمر جواباً، فعلم من ذلك أن الرسولَ لم يأذن له، فعاود النداء على رباح، فلم يحظ أيضاً برد.

شعر عمر بخطورة الأمر، فما أشد هذا على نفس عمر، كيف يطلب لقاء الرسول ﷺ وهو الذي يلقاه كلما أحب وأراد، وها هو الآن لا يسمع رداً من رباح، إن هذا يحمل من المعنى أكثر مما يستطيع أن يَسْكُت عليه!، إنّ هذا ليس له إلاّ تفسير واحد وهو أن نفس النبي ﷺ تعاني من الشِّدَّةِ والحزن ما تُعاني، وإنَّ روحه الكريمة بها من جهة أزواجه الشيء الكثير الكثير، أَلِهذا الحد أوصلتم نفس النبي ﷺ وروحه أيتها النساء الطاهرات الطيبات.

إن عمر لا يستطيع أن يترك هذا الأمر على ما هو عليه، ويترك الرسول ﷺ كما هو، وإنّه لا يستطيع أن يصبر وحفصة لها أكبر ضلع فيما أغضب الرسول ﷺ وأحزنه وجعله على هذه الحالة التي تثير في النفس

حزناً وَوَجْداً شديداً، ولا يستطيع عمر أن يترك الإشاعات تنتشر هنا وهناك متكهنةً بأن الرسول ﷺ قد طلّق نساءَه، بل يجب أن يسري عن النبي ﷺ ما بنفسه من حزنٍ وَوَجْدٍ شديدين، ويخفف عنه ما بروحه من ألم؛ بل يجب على عمر رضي الله عنه أن يعرّف الرسول الله ﷺ أنه ما جاء من أجل حفصة، وأن يُعْلِمَهُ بما كان من نصحه الدائم وزجره المستمر لحفصة، وتوبيخه إيَّاها على ما كان منها، وما وقعت فيه من خطأ، وما فرطت فيه من سر عظيم اؤْتمنت عليه.

وكذلك يجب على عمر رضي الله عنه أن يدخل على النبي ﷺ كي يعرف منه مصير أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، بعدما حَدَثَ ما حَدَث وصار ما صار، فإن كان لم يُطَلِّقْهُنَّ، عرف المسلمون ذلك فيطمئن بالُهم، وتستريح نفوسهم، وتنشرح صدورهم، وبذلك يضع حداً للشائعات التي أطلقها الناس، والتكهنات التي تكهنوا بها هنا وهناك.

بعد كل هذا الذي أثير في نفس عمر رضي الله عنه من صمت رباح وعدم سماحه بالدخول على رسول الله ﷺ، وعلى ذلك كله عاود عمر رضي الله عنه مناداة رَبَاحٍ بصوتٍ مُرْتفع، محاولاً بذلك أن يصل صوته إلى رسول الله، فصاح قائلاً: يا رباح، استَأذن لي عندك على رسول الله، فإني أظنه قد ظنَّ أنِّي جئت من أجل حفصة، والله لئن أمرني بضرب عنقها لأضربنَّ عنقها[1]!.

وأَذِنَ الرسول ﷺ لعمر، وارتقى عمر إلى حيث النبي ﷺ، فوجده مضطجعاً على حصير قد أَثَّر في جنبه، متكئاً على وسادة من أَدَم، حشوها ليفٌ، ونظر عمر رضي الله عنه حوله، وأدار بصره في جوانب الغُرفة، فلم ير غير قبضةٍ من شعير، وقبضةٍ من أغصان بعض الشجر. فبكى عمر لِمَا رأى!! فسأله النبي ﷺ: **«ما يبكيك يا عمر؟»**.

فأجاب عمر: وما لي لا أبكي، وهذا الحصيرُ قد أَثَّر في جنبك،

---

(١) انظر حديث عمر لابن عباس رضي الله عنهما ـ وردت في الصحيحين.

وهذه خزانتك لا أرى فيها إلاَّ ما أَرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وهذه خزانتك؟!

فقال الرسول ﷺ: **«ألا يرضيك يا عمر أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟!»**.

وأقبل عمر يتحدث إلى رسول الله ﷺ حديثاً حاول به أن يُسَرِّيَ عنه ما بنفسه من كرب، ويمحو ما بروحه مِنْ ضيقٍ، وإذ لاحظ عمر من رسول الله ﷺ الارتياح لحديثه، ورأى منه الإقبال على الكلام. قال: يا رسول الله، ما يشق عليك من أمر النِّساء؟!. إن كنت طلقتهن فإن الله معك، وملائكتَهُ، وجِبريلَ، وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون مَعكَ.

فكان جواب النبي ﷺ بأنه لم يطلقهن عندما قال لعمر: «**لا**».

فامتلأت نفس عمر بالبشر، وأُفْعم قلبه بالسرور، وقضى مع رسول الله ﷺ وقتاً يحادثه ويسامره ويلاطفه حتى بش الرسول ﷺ وسُرِّي عنه. عندئذٍ اسْتَأْذَنَ عمر الرسول ﷺ في أن يزف إلى المسلمين ما سمعه من أخبار تسرهم وتسعدهم وتشرح صدورهم، فأذن له الرسول.

فنزل عمر رضوان الله عليه إلى الناس ينادي: لم يطلق رسول الله ﷺ نِسَاءَهُ.

فَكَبَّرَ عُمَرُ، وكبَّر النَّاس معه، وقد ابتهجت قلوبهم، وعم نفوسهم الفرح والبشر. وبدت عليهم مشاعر الفرح، وتجلت في تكبيرهم، وسمعت أمهات المؤمنين تكبير عمر، وتكبير المسلمين، فعرفن السبب، وكان أن انشرحت قُلوبُهُنَّ، وأثلِجَتْ صُدُورهُنَّ، واطمأنت نفوسهن التي كادت أن تذهَبَ خشيةً، وأن تتشعب فَرَقاً وخَوْفاً.

واستعدت زوجات الرسول ﷺ لاستقبال زوجهن، وقد مرت العدَّة التي قرر النبي ﷺ أن يهجرهُنَّ فيها، وجاء النبي ﷺ إلى زوجاته بما أنزل الله عليه.

لقد أنزل الله بعد هذا الموقف قرآناً عظيماً يخير نساءه فيه بين الدنيا، وبين الله ورسوله والدار الآخرة.

فقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾[1].

وتخيرت زوجات الرسول ﷺ جميعاً الله، ورسوله والدار الآخرة.

واستبشرن بما أعد الله لهن من أجر عظيم إن شاء الله.

وكان مما أُنزل على الرسول ﷺ من آيات الله فيما كان بينه وبين حفصة بشأن مارية، وفيما كان من تظاهر نسائه عليه، ما خرج النبي ﷺ يتلوه على النّاس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾[2].

عادت حفصة راضية إلى زوجها الحبيب، وعاد الرسول ﷺ إلى أزواجه، وهن مسلماتٌ، مؤمناتٌ، قانتاتٌ، تائباتٌ، عابداتٌ، كما جاء في الآية الكريمة، وقد ندمن على ما فرطن في حق زوجهن رسول الله ﷺ، حذرات كل الحذر أن يصدر منهن ما يسيئه، أو يغضبه، أو يحزنه ﷺ.

وقد كانت حفصة أشد زوجات النبي ﷺ ندماً، وأكثرهن توبة،

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٨، ٢٩.
(٢) سورة التحريم، الآيات: ١ ـ ٥.

فعاشت ما عاش الرسول تعمل بموعظة الله التي أنزلها على النبي ﷺ بسببها، وتسير على نهجه صلوات الله وسلامه عليه.



حفصة مع القرآن

يقتضينا الحديث عن علاقة حفصة بجمع القرآن لأنها كانت من حراسه، وهذا يدعونا إلى أن نتحدث عن غزوة اليمامة، فعلى أثرها بدأت فكرة جمع القرآن، ثم تمَّ تنفيذها.

كانت غزوة اليمامة أعظم الغزوات في حروب الردة، كما كانت من أجلها خطراً وأبعدها أثراً. قضى مقتل مسيلمة بن حبيب الكذاب قضاءً حاسماً على المتنبئين في بلاد العرب، وآذن عود بني حنيفة إلى الإسلام بالقضاء على الردّة بالبحرين، والقضاء على رِدّة البحرين هو الذي طوّع للمثنى بن حارثة الشيباني أن يسير إلى مصب دجلة والفرات، وأن يكون الطليعة الميمونة لفتح العراق ولإقامة صرح الأمبراطورية الإسلامية.

غزوة كهذه مكانتها وشأنها لم يخطىء خالد بن الوليد حين دفع إليها جيوش المسلمين يَقتلون ويُقتلون، ويقضون على مسيلمة الكذاب وأصحابه عند احتمائهم بحديقة الموت، ولم يبالغ المهاجرون والأنصار حينَ اندفعوا إلى وَطيسها مستميتين يبتغون الشهادة، فاستشهد من المسلمين يومئذ مائتان وألف بينهم تسعة وثلاثون من كبار الصحابة[1]، ومن حفاظ القرآن على وجه الخصوص.

وقد جزع أهل المدينة لمن استشهد من المسلمين باليمامة واشتد حزنهم، وإن اختلفت البواعث لهذا الحُزن والجزع، فأواصر القربى وروابط الود والصداقة وتقدير ما كان لكبار الصحابة وحفاظ القرآن من مكانة سامية

---

(١) الفاروق عمر ـ د. محمد حسين هيكل ط المعارف.

عند الرسول ﷺ، كل هذه الدوافع كانت تحز في نفوس المسلمين.

ومن مشاعر الحزن، لقي عمر بن الخطاب ابنه عبدالله رضي الله عنهما بعد أن أبلى في اليمامة أحسن البلاء، وكان عمر شديد الحزن والجزع لمقتل أخيه زيد بن الخطاب باليمامة، فكان أول ما واجه به ابنه أن قال: ما جاء بك وقد هلك زيد! ألا واريت وجهك عني.

وكان جواب عبدالله لأبيه أن قال عن عمه زيد: سأل الشهادة فأعطيها، وجَهدت أن تساق إليَّ أُعطها.

على أن جزع ابن الخطاب لمقتل أخيه زيد وأصحابه الذين استشهدوا باليمامة لم يثنه عن التفكير في أمر خطير، هو لا ريب أجل الأمور في حياة الإسلام والمسلمين خطراً، لقد استشهد من حفاظ القرآن في هذه الغزوات من استشهد، واليمامة ليست إلا واحدة من الغزوات التي واجهت المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ، فما عسى أن يكون الأمر إذا تلاحقت الغزوات فقتل فيها من الحفاظ مثل ما قتل باليمامة؟!

فكر عمر رضوان الله عليه في هذا وطال تفكيره، فلمّا استقر به الرأي ذهب إلى أبي بكر وهو بمجلسه في المسجد فقال له: إن القتل استحر بقراء القرآن يوم اليمامة، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن كلها فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تأمر بجمع القرآن.

ولم يكن أبو بكر قد فكّر في هذا الأمر، لذلك لم يلبث حين سمعه أن قال: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟!!

عند ذلك دار بين الرجلين حوار طويل انتهى باقتناع أبي بكر بعد هذا الحوار برأي عمر رضي الله عنهما.

وقد جاء في صحيح البخاري[1] عن زيد بن ثابت أنه قال: أرسل إليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال

---

(١) انظر حديث جمع القرآن لزيد في صحيح البخاري.

إن القتل استحر يوم اليمامة بالناس، وإني لأخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن.

قال أبو بكر: فقلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله؟ فقال: هو والله خير. فلم يزل يراجعني حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر.

قال زيد: وعنده عمر جالس لا يتكلم، فقال لي أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبّع القرآن فاجمعه.

فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن.

قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ.

فقال أبو بكر: هو والله خير.

فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعُسب، وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع غيره وهما قول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾[١].

فلما نسخنا الصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الأحزاب، كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها، لم أجدها مع أحد إلا مع أبي خزيمة الأنصاري الذي جعل رسول الله شهادته بشهادة رجلين - والآية هي: ﴿مِّنَ

(١) سورة التوبة، الآيتان الأخيرتان: ١٢٨، ١٢٩.

ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[1]. **فألحقتها في سورتها.**

فكانت الصحف التي اجتمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر أم المؤمنين رضي الله عنها.

وقد حذر المؤرخون للقرآن من أن يقع قارىء النص الذي يقول عن الآية السابقة، والآية الأخيرة من سورة التوبة قد يقع القارىء في إشكال إذا ظن أن المقصود بكلمة زيد بن ثابت لم أجدها مع أحد إلا مع أبي خزيمة الأنصاري بأنه لم يجد آخر سورة التوبة: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ والآية الثانية قصد به أن غرض زيد أنه لم يجدها «مكتوبة» إلا مع أبي خزيمة، وقد كان ذلك كافياً لقبوله إياها. لأن كثيراً من الصحابة كانوا يحفظونها[2].

ولأن زيداً نفسه كان يحفظها، ولكنه أراد ـ ورعاً منه واحتياطاً ـ أن يشفع الحفظ بالكتابة ويوثقه، وظل زيد ناهجاً هذا النهج في سائر القرآن الذي تتبعه فجمعه بأمر أبي بكر: فكان لا بد لقبول آية أو آيات من شاهدين، هما: الحفظ والكتابة، وقد قال أبو بكر لعمر بن الخطاب وزيد بن ثابت: اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه[3].

وقد أخرج أبو داود حديثاً لعمر يدل على شدة حرص عمر رضي الله عنه على دقة جمع القرآن، جاء فيه: قَدِمَ عمر، فقال: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان[4].

---

(١) الأحزاب، الآية: ٢٣.

(٢) الإتقان للسيوطي جـ١ ص١٠١ وينقل السيوطي عن أبي شاقه قوله: لم أجدها مع غيره، أي لم أجدها مكتوبة.

(٣) الإتقان للسيوطي ١/١٠٠.

(٤) المصدر السابق.

والمراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ[1].

وقد تم جمع القرآن وكتابته في عهد أبي بكر رضي الله عنه، وحين نتصور كيف جمع هذا القرآن العظيم من الرقاع والعُسُب واللّخاف والأمتاب والجلود في هذه المدة القصيرة، لا يسعنا إلاّ أن نجل ونكبر عزيمة الصحابة الذين بذلوا أنفسهم لله، ولا يسعنا إلا تذكر قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: رحم الله أبا بكر، هو أول من جمع كتاب الله بين اللوحين[2].

وقد خُتِمَ النص الذي رواه البخاري عن زيد بن ثابت بأن الصحف التي كتبت وجمع فيها القرآن كانت عند أبي بكر الصديق رضي الله عنه حتى توفاه الله، ثم صارت إلى عمر وظلت عنده حتى توفاه الله، ثم صارت إلى حفصة بنت عمر لا إلى الخليفة الجديد عثمان بن عفان.

وقد تساءلت «دائرة المعارف الإسلامية»، فقالت: ألم يكن عثمان أجدر من أن تودع هذه الصحف عنده؟

ولكي لا تكون هناك شبهة في هذا التساؤل فإننا نقول: إن حفصة هي الأجدر بذلك، لوصية عمر رضي الله عنه بأن تكون هذه الصحف مودعة لديها، وهي رضوان الله عليها ـ زوجة الرسول ﷺ وأم المؤمنين.

وقد حاول عمر عندما آلت إليه الخلافة أن يعيد جمع القرآن من جديد كنوع من التثبت والتدقيق، ورأى أن تعاد الكتابة من جديد لتكون كلها بلهجة قريش، وبدأ نافع بن طريف بالكتابة حسب أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، غير أن المنية قد عاجلت الخليفة فطعن، وتوقف العمل بالجمع والكتابة، وبقيت رقاق القرآن من العُسُب ـ وهي جريد

---

(١) المصدر السابق قول السخاوي في «جمال القرار».

(٢) البرهان للزركشي ٢٣٩/١، والمصاحف لأبي داود ص٥.

النخل - والكرانين واللخاف - وهي صفائح الحجارة - والرقاع وقطع الأديم وعظام الأكتاف والأضلاع من الشاة والإبل[1].

وظلت عند حفصة ابنة عمر رضي الله عنها صدراً من ولاية عثمان، ويومئذ اتسعت الفتوح وتفرق المسلمون في الأمصار، فأخذ أهل كل بلدٍ ومصرٍ عن رجل من بقية القراء:

فأهل دمشق وحمص أخذوا عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه.

وأهل الكوفة عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وأهل البصرة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وكانوا يسمون مصحفه «لباب القلوب».

وقرأ كثير من أهل الشام بقراءة الصحابي أبيّ بن كعب رضي الله عنه.

وكانت وجوه القراءة التي يؤدى بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التي نزل عليها، فكان الذي يسمع هذا الاختلاف من أهل تلك الأمصار - إذا جمعتهم المجامع واحتوتهم أو التقوا في المواطن على جهاد أعدائهم - يعجب من ذلك أن تكون هذه الوحدة كلها على اختلاف ما بينها في كلام واحدٍ، فإذا عُلِمَ أن جميع القراءات مسندة إلى رسول الله ﷺ وأنه أجازها، لا يمنع أن يحيك في صدره بعض الشك، وأن ينطوي فيها على شيء، وإذا هو كان قد نشأ بعد زمن دعوة الرسول وبعد أن اجتمع العرب على كلمة واحدة، فلا يلبث أن يجري ذلك الاختلاف مجرى مثله من سائر الكلام، فيرى بعضه خيراً من بعضه، ويظن منه الصريح والمدخول والعالي والنازل، والأفصح والفصيح، وأشباه ذلك، ويعتد ما يراه في القرآن من القرآن، وهذا أمر إن هو استفاض فيهم ثم مَرَدُوا عليه خرجوا منه ولا ريب إلى المناقضة والملاحاة وإلى أن يَرتدَّ بعضهم على بعض، هذا يقول: قراءتي وما أخذت به، وذلك يقول: بل قراءتي وما أنا عليه! وليس من وراء هذا اللجاج إلا

(١) إعجاز القرآن للرافعي ص٣٤، ٣٥.

التكفير والتأثيم، ولا جرم أنها الفتنة لا تخلو بعد ذلك من دم.

ولقد نجمت هذه الناشئة يومئذ، فلما كانت غزوة أرمينية وغزوة أذربيجان، كان فيمن غزاها مع أهل العراق حبيب بن مسلمة الفهري، ومعه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي كان قد صالح أهل أرمينية أيام خلافة عمر بن الخطاب إلاَّ أنهم لم يلبثوا أن منعوا ما عاهدوا عليه، فتقدم إليهم حبيب بن مسلمة من ناحية الغرب، فاجتمع له عدد كبير من جند الروم، فخافهم وطلب النجدة فأنجده الوليد بن عقبة بمدد عليه سلمان بن ربيعة الباهلي.

فالتقى أهل الشام وأهل العراق بهذا الغزو، فوجد حذيفة بن اليمان خلافاً في لفظ بعض كلمات كتاب الله. فيرى بعضه خيراً من بعضه، وَرأى كثرة اختلاف المسلمين في وجوه القراءات أنهم لا يجرون من ذلك على أصل في الفطرة اللغوية كما كان العرب يقرؤون بلحونهم ولغتهم ـ لغة قريش ـ، ورأى ما يبدر على ألسنتهم حين يأتي كل فريق منهم بما لم يسمع من غيره، إذ يتمارون فيه حتى يكفّر بعضهم بعضاً، ولم ير عندهم نكيراً لذلك ولا إكباراً له، بل كانوا قد ألفوه بين أنفسهم، وصار من عاداتهم وأمرهم[1]، ففزع حذيفة بن اليمان إلى عثمان رضي الله عنه وقال له:

يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأُمَّة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

وكان عثمان قد رُفع إليه أنّ شيئاً من ذلك حصل بين المسلمين الذين يُقرئون الصبية ويأخذونهم بحفظ القرآن، فينشؤون وبهم من الخلاف بعضهم على بعض، فأعظم رحمه الله أمر هذه الفتنة، وأكبره الصحابة جميعاً، لأن الاختلاف في كتاب الله مَدْرجة إلى مخالفة ما فيه؛ ومتى أهملوا بعض معانيه لم يكن بد أن يتصرفوا ببعض ألفاظِهِ، وإنما هو اجتراءٌ واحد فيوشك أن يكون ذلك مساغٌ للتحريف والتبديل، فأجمعوا أمرهم أن يواجهوا هذا

(١) الرافعي في إعجاز القرآن ص٣٧.

الأمر، وصعد عثمان بن عفان المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

إنما عهدكم بنبيكم ﷺ، ثلاث عشرة سنة، لِمَ أنتم تختلفون في القراءة؟ يقول أَحَدُكُمْ لصاحبه: ما تَتِمُّ قراءَتكَ.

وطلب عثمان مِنْ كل مَنْ كان عنده شيء من القرآن أن يجيء به، فجاء الناس بما عندهم، فجعل يسألهم البينة أنهم سمعوه من رسول الله ﷺ.

ثم قال: من أَعَربُ الناس؟

قالوا: زيد بن ثابت كاتب رسول الله ﷺ.

قال: فليُمل سعيد بن العاص، وليكتب زيد.

وأرسل عثمان بن عفان إلى حفصة رضي الله عنها: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك.

فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرجال الثلاثة القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم.

نسخ الرجال المصحف من صحف حفصة، ثم ردها عثمان إليها، وأرسل إلى كل أُفق وبلد من بلاد المسلمين بمصحف، وأمر بما سواه من القرآن من كل صحيفة أو مصحفٍ أَن يحرق[(١)].

وقد لبث عثمان في كل أفق بمصحف من تلك المصاحف ـ وكانوا سبعة ـ في قول مشهور، فأرسل منها إلى: مكة، والشام، واليمن، والبحرين، والبصرة، والكوفة. وحبس بالمدينة واحداً، وهو المصحف الذي يسمى الإمام.

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن. باب جمع القرآن. فتح الباري ٩/١١.

وسمي بمصحف الإمام لأن عثمان لما بلغه في القرآن كما ذكرنا من قبل، قال: عندي تكذبون به وتلحنون فيه! فمن نأى عني كان أشد تكذيباً وأكثر لحناً، يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً[١].

وقد أراد عثمان رضي الله عنه بذلك حسم مادة الاختلاف، لأنه أمرٌ يَمدُّ مع الزمن وتتشعب به الأيام، وهو إن أمِنَ في عصره لم يدرِ ما يكون بعد عصره، وقد أدرك عثمان أن العرب لا يستمرون عرباً على الاختلاف بينهم والفتوح الإسلامية الجديدة، وأن الألسنة تنتقل، واللغات تختلف، ثم هو رأى ما وقع من الشعر وروايته، وأن الاختلاف كان باباً إلى الزيادة والابتداع، فلم يفعل شيئاً أكثر من أنّه حصّن القرآن وأحكم الأسوار حوله، ومنع الزمن أن يتطرق إليه بشيء، وجعله بذلك فوق الزمن.

ومن هذا نستنتج أن أمنا حفصة رضي الله عنها حملت أمانة ندين لها بها نحن المسلمين، وهي حراستها للقرآن وحفظها له في صدرها وبيتها، ولعلنا كلما قرأنا آية دعونا لها، بل وغبطناها على ما كانت فيه من خيرٍ أتاها من الله أن تكون زوجة للرسول ﷺ مؤمنة به، حافظة لكتاب ربها في صدرها وبيتها.

أما عن مصير مصحف حفصة رضي الله عنها، فقد ذكرت الروايات أنها رضوان الله عليها أوصت به إلى أخيها عبدالله بن عمر رضي الله عنه الرجل التقي النقي، فلما ماتت أرسل عبدالله بالصحيفة بعزَية فأعطاهم إيّاها فغسلت غسلاً[٢].



مع عمر بن الخطاب

كان عمر رضي الله عنه شديداً عن أهل الريبِ والتشكيك، وفي

(١) إعجاز القرآن بالهامش ص٣٩.

(٢) قول أبو نعيم في الحلية جـ٢ ص٥١.

حق الله صلباً حتى يستخرجه، وليناً سهلاً فيما يلزمه حتى يؤديه، وبالصحيف رحيماً رؤوفاً.

وكان عمر إذا أراد أن يأمر المسلمين بشيء أو ينهاهم عن شيء مما فيه صلاحُهُمْ بَدَأَ بأَهْلِهِ، وتقدم إليهم بالوعظ لهم، والوعيد على خلافهم أمرَهُ[1].

ومما روي أن عمر رضي الله عنه صعد المنبر وقال: إني قد نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، وإني والله لا أُوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه مني، فمن شاء منكم فليتقدم، ومن شاء فليتأخر. وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فَعَلَهُ إلا أَضعفت له العقوبة.

تُرى أكانت حفصة تسمع هذا الكلام؟!

وفي حوار لا يترك في هذا المكان، وقد جرى هذا الحوار بين الأب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها.

كان ذلك في أَوَجّ خلافة عمر، وفي زمن الفتوحات والنصر العظيم الذي تحقق للمسلمين، فقد أصبحت المدينة مقصداً للوفود والملوك والأُمراء وشيوخ القبائل والبلاد الذين جاؤوا يقدمون واجب الطاعة للإسلام الذي يمثله خليفة المسلمين وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

في هذه الأثناء نظرت حفصة لأبيها فوجدته يلبس ثياباً خشنة لا تصلح لأمير المؤمنين، ربما تكون ممزقة في جوانب منها، كما أنّه زاهد لا يطعم أحداً حرصاً على مال المسلمين وتجنباً للبذخ، وحُبّاً في زهد الدنيا ومتاعها.

قالت حفصة في لين ورقة لأبيها عمر بن الخطاب: يا أبي، البس ألين

---

(١) تاريخ الطبري.

الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق، ومُرْ طعاماً تطعمه وتطعم من حضر.

فقال عمر رضي الله عنه: يا حفصة، أَلست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل هم أهل بيته؟

قالت حفصة: بلى.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قد ناشدتك الله يا حفصة هل تعلمين أن رسول الله ﷺ لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غُدْوةً إلا جاعوا عشية، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غُدْوةً؟

وناشدتك الله هل تعلمين أن النبي ﷺ لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر؟

وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قربتم إليه طعاماً على مائدة فيها ارتفاع، فشق ذلك عليه حتى تغير لونه، ثم أمر بالمائدة فرفعت، ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض؟

وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله ﷺ كان ينام على عباءَةٍ مَثْنيَّةٍ فثنيت له ليلة أربع طاقات فنام عليها، فلما استيقظ قال: «**منعتموني قيام الليل بهذه العَباءَة، اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها؟**».

فما زال يقول حتى أبكاها وبكي عمر وانتحب[(١)].

هذا هو الأب صاحب القلب الكبير الذي أجزل النصح لابنته أم المؤمنين حفصة رضوان الله عليها، ولقد نهلت حفصة من أب ناصح وهو نعم الأب، وسمعت من أمير المؤمنين الحكيم وما الحكيم أمير المؤمنين.

لقد كان عمر بن الخطاب مدرسة عظيمة في العبادة والحكمة والعلم

---

(١) إحياء علوم الدين جـ٤ ص١٩٢.

والنصح والغيرة على دينه والعدل، وقد ضرب مثلاً عظيماً وقدوة هائلة فيما وصفناه به.

وها هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: رأيت عمر بن الخطاب، رضوان الله عليه، على قتبٍ يعدو، فقلت: يا أمير المؤمنين أين تذهب؟

فقال: بعيرٌ ندَّ من إبل الصدقة أطْلُبُه.

فقلت: لقد أذللت الخلفاء من بعدك.

فقال: يا أبا الحسن، لا تلمني، فوالذي بعث محمداً بالنبوة، لو أن عِناقاً[1] ذهبت بشاطىء الفرات، لأخذ بها عمر يوم القيامة[2].

هذا هو عمر رضي الله عنه الذي كان قريباً من أُم المؤمنين حفصة رضوان الله عليها، حارساً لها وناصحاً وموجهاً ومُحبّاً.

كان عادلاً حتى إنه حينما رأى ابنه عبدالله قد اشترى إبلاً وساقها إلى الحِمى، وقد سمنت، فلما رآها عمر قال: لمن هذه؟

قيل: لعبدالله بن عمر.

فجعل يقول: يا عبدالله.. بَخٍ.. بَخٍ.. ابن أمير المؤمنين، ثم وجه حديثاً وكلاماً حاسماً لابنه عبدالله فقال: يا عبدالله بن عمر، خذ رأس مالك، واجعل الربح في بيت مال المسلمين.

وكان عمر بن الخطاب أشد ميلاً في اجتهاده إلى الصرامة والحزم مع ما عرف عنه من لين مع الضعفاء والرفق بهم، كان الحزم وكانت الصرامة شأنه مع كل المشارب. مع المؤلفة قلوبهم، ومع الذين يطَلّقون ثلاثاً بكلمة واحدة، فقال بعد أن أجازها: إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت لهم فيه أناه، فلو أمضيناه عليهم.

---

(١) العناق: الأنثى من ولد الماعز.

(٢) انظر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

وكان الحزم والصرامة مع الذين يكثرون من رواية الحديث، فلما استخلف عمر وأصبح خليفة، أمر الناس ألا يحدثوا عن رسول الله ﷺ حتى لا يختلفوا، وقد بلغ من شدته في تنفيذ هذا الأمر أن حبس ثلاثة من كبار الصحابة هم: ابن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو مسعود الأنصاري، لأنهم أكثروا الحديث عن رسول الله ﷺ هذا مع شدة احتياطهم في رواية الحديث، وقد كان من أثر ما أمر به عمر أن قلّت الرواية ـ رواية الحديث ـ حتى قال أبو عمرو الشيباني: كنت أجلس إلى ابن مسعود حولاً كاملاً لا يقول: قال رسول الله ﷺ، فإذا قال: قال رسول الله ﷺ استقلته الرِّعدة والخوف وقال: هكذا، أو نحو ذا، أو قريب من ذا.

وكان أبو هريرة ممن يكثرون الحديث عن رسول الله ﷺ بعد عهد عمر، فسأله أبو سلمة يوماً: أكنت تحدث في زمان عمر هكذا؟

فقال: لو كنت أُحدِّث في زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربني بمخفقته[١].

وقد كانت السيدة الطاهرة حفصة أم المؤمنين ـ إلى جانب تعلمها لكتاب الله تعالى وحفظه ـ راوية لحديث رسول الله، وواعية له، وكان الناس من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين يحرصون كل الحرص على سماع ما عندها من حديث النبي الكريم ﷺ، وقد روت عن رسول الله ﷺ ستين حديثاً، اتفق لها الشيخان على أربعة أحاديث، وانفرد مسلم بستة أحاديث[٢].

وممن روى عنها أخوها عبدالله بن عمر وابنه حمزة وزوجه صفية بنت أبي عبيد، وأم مُبشِّر الأنصارية، وعبدالرحمن بن الحارث ابن هشام، وغيره كثير[٣].

---

(١) انظر الفاروق عمر للدكتور هيكل الصفحة ٢٦٨ وما بعدها.
(٢) سير أعلام النبلاء جـ٢/٢٣٠.
(٣) أسد الغابة ترجمة حفصة ٦٨٤٥.

ومن مروياتها ما رواه عبدالله بن عمر رضي الله عنه عن أخته حفصة أن رسول الله ﷺ كان إذا سكت المؤذن من الأذان لصلاة الصبح صلّى ركعتين خفيفتين قبل أن تقام الصَّلاة[1].



الصوامة العابدة القوامة

في ترجمتها في الإصابة تحدث ابن حجر عن صوم أُمّ المؤمنين فقال: ماتت حفصة حتى ما تفطر[2].

ووُصفت رضوان الله عليها في ترجمتها في كتب التراجم بأنها: الصوامة القوامة، المزرية بنفسها اللوّامة، حفصة بنت عمر بن الخطاب، وارثة الصحيفة الجامعة للكتاب رضي الله عنها[3].

وكفى ما جاء على لسان جبريل من أنها صوامة قوامة عندما طلقها رسول الله فجاءه جبريل وقال: «**إنها صوامة، قوامة، وهي زوجتك في الجنة**»[4].

هكذا كانت حفصة صوامة صوم زوجها رسول الله ﷺ عملاً بقوله: «**من صام يوماً في سبيل الله بَعَّدَ الله وجهه عن النار سبعين خريفاً**»[5].

وقوله عليه السلام: «**صوموا تصحوا**».

---

(١) انظر أسد الغابة ترجمة رقم ٦٨٤٥.

(٢) الإصابة جـ٤.

(٣) الحلية ٢/٥٠.

(٤) حديث صحيح، أخرجه أبو داود ٢٢٨٣، وابن ماجه ٢٠١٦ من حديث عمر أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها.

(٥) حديث أبي سعيد رضي الله عنه أخرجه البخاري في ٥٦ـ كتاب الجهاد والسير: ٣٦ باب فضل الصوم في سبيل الله.

وكانت رضوان الله عليها قوامة، تقوم الليل، وتحافظ على الصلاة عملاً بأمر الله تعالى لرسوله ﷺ بقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾[١].

وقد أخذت حفصة من أركان الإسلام ما جعلها قدوة فيه ومضرباً للمثل، وهل هناك أطيب ولا أطهر من الصائم القوام المصلي ليل نهار لربِّهِ، فالصوم جُنَّةٌ، والصلاة تنهى عن كل فحشاء ومنكر، وتديم طهارة البدن والنفس، وقد تكرر ذكر هذه الفضائل لأم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنها على لسان الصحابة والتابعين بإحسان، رضوان الله عليهم أجمعين. وإذا كنا سننهي الحديث عن حفصة مع عمر رضي الله عنه، فإننا لا نجد أنسب من قول عائشة عنها: إنها ابنة أبيها.



بشارة ووداع

إذا تحدثنا عن البشارة فإن بشارة حفصة بالجنة ماثلة أمامنا بالقول والفعل، فالقول شهوده كثيرة، ذلك مما ورد عن عمر رضي الله عنه أن النبي الكريم طلَّق حفصة تطليقة ثم راجعها بأمر جبريل عليه السلام بذلك، وقال: «**راجع حفصة فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك في الجنة**»[٢].

وما ورد من النصوص أيضاً عن بشارة حفصة بالجنة قول الرسول ﷺ: «**أزواجي في الدنيا هُنَّ أزواجي في الآخرة**»[٣].

أما عن الفعل، فكان كثيراً ولا تحدث، فهي الصوامة ما عاشت، القوامة ما قويت على القيام ـ قيام الليل ـ، حارسة للقرآن أمينة عليه وعلى

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

(٢) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، انظر مجمع الزوائد ٩/ ٢٤٥ـ وسير النبلاء جـ٢.

(٣) تفسير الماوردي ٣/٣٠٥.

صحائفه التي أمّنها عليها أبو بكر، ثم تبعه عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فظل في بيتها محروساً، وفي صدرها محفوظاً، إلى أن يشاء الله سبحانه عز وجل.

وفي وداعها لا ننس أنها كانت فقيهة تُحسب لها استشارة أشارت بها على أبيها حين وُلي أمر المسلمين أميراً للمؤمنين.

وقد حفظ التاريخ شيئاً من سيرة السيدة حفصة، يدلُّ على أنها كانت تؤثر في مجريات الأمور حتى آخر حياتها.

فقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خرج عمر فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل واسودَّ جانبه ... وَأرقني أن لا حبيب أُلاعبه
فوالله، لولا الله، أني أُراقبه ... لزعزع من هذا السرير جوانبه

فقال عمر: ما لك؟

قالت: أغربت زوجي واشتقت إليه.

قال: أردت سوءاً؟

قالت: معاذ الله.

قال: فاملكي عليك نفسك فإنما هو البريد إليه.

ثم دخل على حفصة فقال: إني أسألك عن أمر قد أهمني فأفرجيه عني، في كم تشتاق المرأة إلى زوجها؟ فخفضت رأسها واستحيت، وقالت: فإن الله لا يستحيي من الحق، فأشارت بيدها ثلاثة أشهر وإلا فأربعة أشهر.

فكتب عمر: لا تحبس الجيوش فوق أربعة أشهر(١).

وفيما روي عنها كذلك موقفها من أخيها عبدالله، عندما عزم معاوية بن أبي سفيان على أن يبايع لابنه يزيد بالخلافة من بعده، وجعل كل

---

(١) رواه عبدالرزاق في كنز العمال ج١٦ ص٥٧٦.

اهتمامه بكبار الصحابة الذين ما زالوا على قيد الحياة، فهم أهل الحل والعقد بالنسبة لعامة النّاس، فخرج للحج في نحو ألف رجل.

يقول القاضي أبو بكر بن العربي: وقدم معاوية المدينة، وعلى منبر رسول الله ﷺ عرض ابنه يزيد وزكّاه، ثم رحل إلى مكة لقضاء المناسك، وفي طريق عودته قابل كبار الصحابة، كُلاً على حدة، وعندما انفرد بعبدالله بن عمر قال له: إني أحذرك أن تشق عصا المسلمين، وأن تسعى في فساد ذات بينهم!!!

فقال ابن عمر: إنك تحذرني أن أشق عصا المسلمين، ولم أكن لأفعل، وإنما أنا رجل من المسلمين، فإذا اجتمعوا على أمر فإنما أنا واحد منهم.. وخرج من عنده.

يقول القاضي أبو بكر بن العربي: فيما روى البخاري عن عكرمة بن خالد أن ابن عمر قال: دخلت على حفصة ونوساتها تطف[١]، قلت: قد كان من الأمر ما ترين، فلم يجعل لي من الأمر من شيء.

فقالت: إلحق بهم فإنهم ينتظرونك، وأخشى أن يكون احتباسك عنهم فرقة. فلم تدعه حتى ذهب[٢].

وخرج عبدالله وبايع يزيد بن معاوية بالخلافة.

وعبدالله بن عمر هو الذي وَرِثَ عن حفصة بيتها الذي عاشت فيه مع رسول الله ﷺ أمّاً للمؤمنين، وعندما أرادوا توسعة المسجد النبوي بضم بيوت نساء النبي ﷺ، لم يرض أن يأخذ فيه ثمناً، وجعله هبة، وهُدِمَ بيت أم المؤمنين، وأُدْخِلَ في المسجد.

وبعد حياة حافلة بالإيمان، وفي شعبان من السنة الخامسة والأربعين، انتقلت السيدة حفصة إلى الرفيق الأعلى، ولها من السن قرابة الثلاثة والستين

---

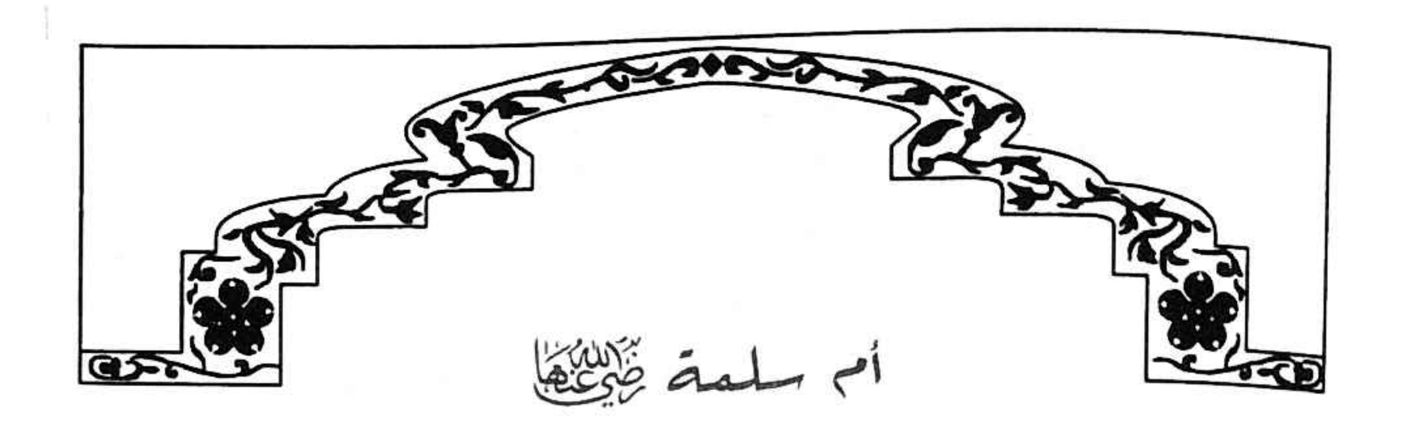
(١) نوساتها تطف: ذوائب شعرها تقطر ماء.

(٢) العواصم والقواصم: ص٢١٦، ٢٢٣.

عاماً، وصلى عليها مروان بن الحكم والي المدينة من قبل أمير المؤمنين معاوية، ودفنت في البقيع، ونزل قبرها عبدالله وعاصم ابنا عمر، وسالم وعبدالله وحمزة وبنو عبدالله بن عمر.

رضي الله عن أم المؤمنين، الصوامة القوامة، الصابرة، التقيّة النقية حفصة بنت عمر أم المؤمنين.





أقوال وصور

- لما تزوج رسول الله ﷺ «أم سلمة» حزنت حزناً شديداً لِمَا ذكِر لنا من جمالها، فتلطفتُ حتى رأيتها، فرأيت أضعاف ما وصفت به. [عائشة رضي الله عنها] (طبقات ابن سعد).

- ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]. هذه الآيات نزلت في بيت أم سلمة.

- اخرج يا رسول الله، ثم لا تكلم أحداً حتى تنحر بدنك، ثم تدعو بحالقك، فيحلقك. [أم سلمة يوم صلح الحديبية].

- كانت من فقيهات النساء، عالمة، فصيحة، قارئة.

- كانت أم سلمة من راويات الحديث، وقد روت (٣٧٨) حديثاً.

- عجباً لك يا ابن الخطاب.. قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله وأزواجه؟ [أم سلمة لعمر].

فقال عمر «فأخذتني أخذاً كسرتني به عن بعض ما كنت أجد» [من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان رقم ٩٤٤].

ـ « . . فتزوجني رسول الله، فنقلني إلى بيت زينب بنت خزيمة، أم المساكين، بعد أن ماتت، فنظرت فإذا جرّة، فاطَّلَعْتُ فيها، فإذا فيها شيءٌ من شعيرٍ، وإذا رَحىً وبُرْمةٌ، وقِدرٍ به فضلةٌ مِن شحْم، فأخذت ذلك الشعير، فطحنته، ثم عصدته في البُرْمة وأخذت الشَّحم فأدَمْتُهُ بِهِ، فكان ذلك طَعَامَ رسول الله وأهله ليلة عرسه».

[أم سلمة تصف ليلة زفافها على الرسول ﷺ]



صورة من قريب

في مستهل سيرتها قال الذهبي رحمه الله عن أُم سلمة: السيدة المحجَّبةُ، الطاهرةُ، هند بنت أُمية بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم، فهي مخزومية، قرشية، بنت عم خالد بن الوليد، سيف الله، وبنت عم أبي جهل بن هشام، من المهاجرات الأول، كانت قبل زواجها بالنبي ﷺ عند أخيه من الرضاعة: أبي سلمة بن عبدالأسد المخزومي، الرجل الصالح، كانت من أجمل النساءِ وأشرفهن نسباً[١].

اشتهرت أم المؤمنين بأُم سلمة، فعرفت بكنيتها، حيث كانت أُماً لابنها الأكبر سلمة، ولم تعرف باسمها «هند».

أبوها أبو أُمية بن المغيرة يلقب بزاد الركب وهو سهيل[٢]، ويقال: إن اسمه حذيفة[٣]، أمّا جدها لأبيها فهو المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة[٤].

وهو أحد أبناء قريش المعدودين، وأجوادهم المشهورين، وقد مات

---

(١) الذهبي في سير أعلام النبلاء جـ٢ ترجمة أم سلمة رقم ٢٠ ص٢٠١.
(٢) طبقات ابن سعد جـ٨ ص٨٦.
(٣) أسد الغابة ٥٨٨/٥ ـ ط العلمية بيروت.
(٤) سيرة أعلام النبلاء، جـ٢ ص٢٠١.

وهو على لقب «زاد الركب» لأنه كان إذا سافر لا يترك أحداً يرافقه ومعه زاد، بل يكفي رفقته مِن الزاد (الطعام والشراب والراحلة).

وأُمها: عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن جذيمة بن علقمة[(١)] الكنانية، من بني فراس الأمجاد، وكان جدها علقمة يلقب بجذل الطعان.

ونتبين من ذلك النسب الضارب في جذور الأصالة، أن أم سلمة رضي الله عنها انحدرت من أصول عالية عربية الأصل والأرومة، فكان والدها «زاد الركب» سيداً في قومه، مشهوراً مطاعاً، مشهوداً له بكرمه وسخائه.

ويذكر النسابون أن جدها علقمة ـ وهو جدها لأُمها ـ كانوا يلقبونه بجذل الطعان، لفروسيته وشجاعته التي فاقت كل أقرانه.

وكلّما أرّخ المؤرخون لأُم سلمة ذكروا أنها من سليلة آباء لهم شهرتهم ومكانتهم بين أبناء قريش، وقد اكتسبوا نسباً عالياً صريحاً، وأم سلمة منهم، وهي مخزومية قرشية، وقريش معروف عنها أنها القبيلة التي حازت على الرئاسة والشرف الرفيع، ومخزوم أحد آباء وبطون هذه القبيلة، فهو ابن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب[(٢)].

ولأُم سلمة رضوان الله عليها نسب ببعض الرجال المشهورين والمشهود لهم، وهم أقرباؤها ـ ومنهم:

ـ خالد بن الوليد سيف الله المسلول، وهو ابن عم أم سلمة[(٣)].

ـ وعامر بن أمية المخزومي، أخوها، وقد أسلم يوم الفتح، وروى عن أخته أم سلمة، وروى عنه سعيد بن المسيب وشهد حجة الوداع[(٤)].

---

(١) الإصابة ٤/٤٥٨.
(٢) انظر لسان العرب مادة: خزم.
(٣) سير أعلام النبلاء ٢/٢٢.
(٤) الإصابة ٢/٢٤٨.

ـ وكذلك عبدالله بن أُمية المخزومي، أخوها، وهو حذيفة أو سهل. له ذكر في الصحيحين من طريق زينب بنت أبي سلمة عن أُم سلمة. كان أول الأمر شديد العداوة للنبي ﷺ، وهو الذي قال له: «لَنْ نؤمن حتى تفجِّر لنا من الأرض ينبوعاً» ثم هداه الله إلى الإسلام، وهاجر قبل الفتح، والتمس الدُّخول على النبي ﷺ مع أبي سفيان بن الحارث فمنعهما، فكلمته أم سلمة فقالت: يا رسول الله ابن عمك ـ تعني أبا سفيان لأنه ابن الحارث بن عبدالمطلب ـ وابن عمتك عبدالله ـ فقال: **«لا حاجة لي فيهما، أمّا ابن عمي فهتك عرضي، وأمّا ابن عمتي فقال لي بمكة ما قال»**.

ثم أذن لهما فدخلا وأسلما وشهدا الفتح وحنيناً والطائف. واستشهد عبدالله في الطائف[1].

ـ وأبو جهل، وهي ابنة عمه، وهو عمرو بن هشام المخزومي القرشي، كان أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وللدعوة الإسلامية، وقتل يوم بدر في السنة الثانية من الهجرة.



إسلامها

ذكرنا أن أم سلمة رضي الله عنها ـ وهي هند بنت أبي أُمية بن المغيرة القرشية المخزومية، كانت بنتاً لرجل من أجواد العرب الذين عرفوا بالجود واشتهروا بالكرم، واشتهر بين الناس باسم: زاد الركب، وكانت أم سلمة رضي الله عنها إلى جانب مجدها هذا على جانب عظيم من الجمال والذكاء وقوة الشخصية.

وكانت حين بزغ نور الدعوة الإسلامية، وحين دعا محمد أول دعوة للإسلام، زوجة لرجل من شجعان قريش، هو عبدالله بن عبدالأسد بن

(١) الإصابة ٢/٧٧٢، والاستيعاب ٢/٢٦٣.

المغيرة، ابن عمة رسول الله ﷺ - برة بنت عبدالمطلب، وكان أخاً للرسول ﷺ في الرضاعة، وكان عبدالله من أوائل الملبين لدعوة محمد حين دعاهم إليها صديق محمد الحميم أبو بكر الصديق، فأسلم وأسلمت زوجته هند بعد إسلامه، ويذكر المؤرخون أنه أسلم بعد عشرة أفراد[1].

❀ ❀ ❀

المهاجرة الأوَّابة

قاسى المسلمون الأولون من اضطهاد قريش الشيء الكثير، فَأُوذوا في سبيل دينهم وعذّبوا من أجل عقيدتهم، وحاول المشركون بشتى السُّبل أن يفتنونهم في دينهم، وأن يردوهم عن الإسلام، حينئذ أذن النبي ﷺ للمسلمين في الهجرة، وأشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة لأنها أرض صدق، ولأن لها ملكاً لا يظلم عنده أحدٌ، فهاجر نفرٌ كبيرٌ من المسلمين، كان فيهم عبدالله بن عبدالأسد، وزوجه هند بنت زاد الركب.

فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من عافية، بمكانة من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء؛ قال لهم: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها مَلِكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صِدْق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه**»، فخرج عند ذلك المسلمونَ من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام[2].

وهاجر من بني مخزوم بن يقظة بن مرة: أبو سلمة بن عبدالله بن هلال ومعه امرأته أُم سلمة، وقد ذكر المؤرخون أن أبا سلمة هاجر بأُم سلمة الهجرتين إلى الحبشة[3].

---

(١) الإصابة ٢/٣٣٥.

(٢) ابن إسحاق في السيرة مجلد ١ ص٣٢٢ ط دار ابن كثير دمشق.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات ٢/٣٦١.

وتعد أُم سلمة من أدق من روى أحداث الهجرة إلى الحبشة فأرخ منها المؤرخون أحداث هجرة الحبشة.

ولنترك الحديث لأُم سلمة لتروي لنا خبر هجرة الحبشة كما رأته عيناها وسمعته أذناها.

قالت أم سلمة: لما نَزَلْنا بأرض الحبشة لقينا فيها خير جوار فأَمِنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى ربّنا من غير أن نؤذَى أو نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريش ائتمرت بنا، فأرسلت إلى النجاشي رجلين جلدين من رجالها، هما: عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة، وبعثت معهما بهدايا كثيرة للنجاشي ولبطرياركته، مما كانوا يستطرفونه من أرض الحجاز، ثم أوصتهما بأن يدفعا إلى كل بطريرك هديته قبل أن يكلما ملك الحبشة في أمرنا.

فلما قَدِما الحبشة لقيا بطرياركة النجاشي ودفعا إلى كل بطريرك هديته، فلم يبق أحد منهم إلا أَهْدَيَا إليه وقالا له: إنّه قد حلَّ في أرض الملك غلمانٌ من سفهائنا، صَبَؤُوا عن دين آبائهم وأجدادهم، وفرَّقوا كلمة قومهم، فإذا كلَّمنا الملك في أمرهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا دون أَن يسألهم عن دينهم، فإن أشراف قومهم أبْصَرُ بهم وأعلم بما يعتقدون.

فقال البطرياركة: نعم.

قالت أُم سلمة: ولم يكن هناك شيءٌ أكرَهُ لعمرو وصاحبه من أن يستدعي النجاشي أحداً منّا ويسمع كلامه..

ثم أَتيا النَّجاشيَّ وقدَّما إِليه الهدايا، فاستطرفها، وأعجب بها، ثم كلماه فقالا: أيها الملك إنّه قد أوى إلى مملكتك طائفة من أشرار غلماننا، قد جاؤوا بدين لا نعرفه نحن ولا أنتم، ففارقوا ديننا ولم يدخلوا في دينكم.

وقد بَعَثَنَا إليك أشرافُ قومِهِمْ من آبائِهِمْ وأعمامهم وعشائرهم لتردَّهم إليهم، وهم أعلم النّاس بما أحدثوه من فتنةٍ.

فنظر النجاشيُّ إلى بطرياركته، فقال البطرياركة: صدقا أيها الملك.. فإن قومهم أبْصَرُ بهم وأعلم بما صنعوا، فردَّهم إليهم ليروا رأيهم منهم.

فغَضِبَ الملك غضباً شديداً من كلام بطرياركته وقال: لا والله، لا أسلمهم لأَحَدٍ حتّى أدعوهم، وأسألهم عما نسب إليهم، فإن كانوا كما يقول هذان الرجلان أسلمتهم لهما، وإن كانوا على غير ذلك حميتهم، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت أم سلمة رضي الله عنها: ثم أرسل النجاشي يدعونا للقائه، فاجتمعنا قبل الذهاب إليه وقال بعضنا لبعض: إن الملك سيسألكم عن دينكم فاصدعوا بما تؤمنون به، وليتكلم عنكم جعفر بن أبي طالب، ولا يتكلم أحدٌ غيرَهُ.

قالت أُم سلمة: ثم ذهبنا إلى النجاشي فوجدناه قد دعا بطرياركته، فجلسوا عن يمينه وعن شماله، وقد لبسوا طيالستهم، واعتمروا قلانِسَهُم، ونشروا كتبهم بين أيديهم. ووجدنا عنده عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة.

فلما استقر بنا المجلس التفت إلينا النجاشيُّ وقال: ما هذا الدين الذي استحدثتموه لأنفسكم وفارقتم بسببه دين قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا في دين أيٍّ من هذه الملل.

فتقدم منه جعفر بن أبي طالب وقال: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسِيءُ الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف، وبقينا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً مِنّا نعرف نَسَبهُ وصِدْقه وأمانته وعفافه..

فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبدَه، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارةِ والأوثان.

وقد أَمَرَنا بصدق الحديث، وأداءِ الأمَانَةِ وصلة الرَّحمِ وحسن الجوار

والكف عن المحارم وحقن الدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مالِ اليتيم، وقذف المحصنات.

وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، وأن نقيم الصلاة ونؤتي الزكاة ونصوم رمضان.

فصدَّقناه وآمنّا به، واتبعناه على ما جاء به من عند الله فحلَّلنا ما أحلَّ لنا، وحرَّمنا ما حرَّم علينا.

فما كان من قومنا أيها الملك إلاَّ أن عدوا علينا فعذبونا أشدَّ العذاب ليفتنونا عن ديننا ويردُّونا إلى عبادة الأوثان، فلما ظلمونا وقهرونا، وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا ألاّ نظلم عِندك.

قالت أم سلمة: فالتفت النجاشي إلى جعفر بن أبي طالب، وقال: هل معك شيءٌ مما جاء به نبيكم عن الله؟

قال: نعم.

قال النجاشي: فاقرأه عليَّ.

فقرأ عليه: ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ﴿٤﴾﴾ حتى أتم صدراً من سورة مريم.

قالت أم سلمة: فبكى النجاشي حتى اخْضَلَّتْ لحيته بالدُّموع، وبكى أساقفته حتى بللوا كُتُبَهُمْ، لما سمعوه من كلام الله.

قالت أم سلمة: وهنا قال لنا النجاشي: إن هذا الذي جاءَ به نبيكم والذي جاءَ به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدة. ثم التفت إلى عمرو وصاحبه وقال لهما: انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما أبداً.

قالت أم سلمة: فلما خرجنا من عند النجاشي توعَّدنا عمرو بن العاص وقال لصاحبه: واللَّهِ لآتيَن الملك غداً، ولأذكرن له من أمرهم ما يملأ

صدره غيظاً منهم ويشحن فؤاده كرهاً لهم، ولأحملنّه على أن يستأصلهم من جذورهم.

فقال له عبدالله بن أبي ربيعة: لا تفعل يا عمرو، فإنهم من ذوي قربانا وإن كانوا قد خالفونا.

فقال له عمرو: دع عنك هذا.. والله لأخبرنّه بما يزلزِلُ أَقدامهم، والله لأقولن له: إنّهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عَبْدٌ.

فلما كان الغد دخل عمرو على النجاشي وقال له: أيها الملك، إنّ هؤلاء الذين آويتهم وحميتهم، يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً. فأرسل إليهم، وسلهم عما يقولونه فيه.

قالت أم سلمة: فلما عرفنا ذلك، نزل بنا من الهم والغم ما لم نتعرض لمثله قط، وقال بعضنا لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه الملك؟

فقلنا: والله لا نقول فيه إلا ما قال الله، ولا نخرج في أمره قيد أنملة عما جاءنا به نبينا، وليكن بسبب ذلك ما يكون. ثم اتفقنا على أن يتولّى الكلام عنّا جعفر بن أبي طالب أيضاً.

فلما دعانا النجاشي دخلنا عليه فوجدناه عنده بطرياركته على الهيئة التي رأيناهم عليها من قبل.

ووجدنا عنده عمرو بن العاص وصاحبه، فلما صرنا بين يديه بادرنا بقوله: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟!

فقال له جعفر بن أبي طالب: إنما نقول فيه ما جاءَ به نبينا ﷺ.

فقال النجاشيُّ: وما الذي يقوله فيه؟

فأجاب جعفر: يقول عنه: إنّه عبد الله ورسوله، وروحه وكلمته التي ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فما إن سمع النجاشي قول جعفر حتى ضرب بيده الأرض وقال: والله

ما خرج عيسى ابن مريم عمّا جاء به نبيكم مقدارَ شَعْرَة.

فتناخرت البطرياركة من حول النجاشي استنكاراً لما سمعوه منه.

فقال النجاشي: وإن نخرتم، ثم التفت وقال: اذهبوا فأنتم آمنون، من سبَّكم غرم، ومن تعرض لكم عُوقبَ. ووالله ما أُحِبُّ أن يكونَ لي جبل من ذهب، وأن يصاب أحدٌ منكم بسوء.

ثم نظر إلى عمرو وصاحبه وقال: رُدّوا على هذين الرجلين هداياهما، فلا حاجة لي بها.

قالت أُم سلمة: فخرج عمرو وصاحبه مكسورين مقهورين يجران أذيال الخيبة. أَما نحن فقد أقمنا عند النجاشي بخير دار مع أكرم جار[١].

قالت أُم سلمة: فوالله إنا لعلى ذلك، إذ نزل به رجلٌ من الحبشة ينازع النجاشي في ملكه.

قالت: فوالله ما علمتُنا حَزِنَّا حزناً قط كان أشد علينا من حُزْنٍ حزنّاه عند ذلك، تخوفاً أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي، فيأتي رجلٌ لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه.

قالت: وسار إليه النجاشي، وبينهما عَرضُ النيل.

قالت أم سلمة: فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من رجلٌ يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟

قالت أم سلمة: فقال الزبير بن العوام: أنا.

قالوا: فأنت، وكان من أحدث القوم سناً.

قالت: فنفحوا له قربةً فجعلها في صدره، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم.

---

(١) حديث أم سلمة في سيرة ابن هشام مجلد ١ ص٣٣٧، ٣٣٨.

قالت: فدعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوّه، والتمكين له في بلاده.

قالت أم سلمة: فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن، إذ طلع الزبير وهو يسعى، فلمع بثوبه وهو يقول: ألا أبشروا، فقد ظفر النجاشي، وأهلك الله عدوّه، ومكّن له في بلاده، فوالله ما علمتنا فَرِحنا فرحةً قط مثلها.

قالت أُم سلمة: ورجع النجاشي، وقد أهلك الله عدوَّه، ومكَّنَ له في بلاده، واستوسق عليه أمر الحبشة، فكنّا عنده في خير منزل، حتى قَدِمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة[1].

وبالحبشة وَلَدت هند لزوجها ابنها سلمة، ومن ذلك الحين عُرِفَتْ هند بأم سلمة، وعُرِف زوجها بأبي سلمة.

ومرت الأيام على أُم سلمة وزوجها، وهما والمهاجرون عند نجاشي الحبشة في خير جوار، حتى جاءت إليهم الأخبار تقص عليهم نبأ إعزاز الإسلام بدخول نفر كبير من أبناء قريش فيه، حينئذ رأى أكثر المهاجرين - وقد عزَّ الإسلام، وبات المسلمون لا يخشون اضطهاد قريش لهم - أن يعودوا إلى موطنهم مكة.

وعلى ذلك ارتحل إلى مكّة نفرٌ من المهاجرين، كان فيهم أبو سلمة وامرأته أُم سلمة رضي الله عنهما.

وفي الطريق جاءت الأخبار من جديد إلى القادمين تعرفهم أن قريشاً حينما رأت دخول الناس في الإسلام أفواجاً ضاعفت من إيذائهم وزادت في اضطهادهم، بل زادت أن كتبت على نفسها صحيفة علقتها في جوف الكعبة، آلت على نفسها ألاّ تتعامل مع بني هاشم الذين انضموا إلى محمد، وألا يتعاملوا معها، وضربت عليهم حصاراً اقتصادياً وحاصرتهم في شعب

---

(1) سيرة ابن هشام مجلد ١ ص٣٣٩.

أبي طالب، وهدفها من ذلك أن تميت محمداً ومن يناصره جوعاً.

ماذا يفعل القادمون من الحبشة، وقد واجهتهم هذه الأنباء السيئة؟؟

أيعودون ومنهم أم سلمة وزوجها من حيث جاؤوا، أم يدخلون مكّة ليواجهوا مِن أذىٰ قريش أكثر مما واجهوا قبل الهجرة؟!

وتشاور العائدون فيما يفعلون، فقرر بعضهم أن يكروا راجعين من حيث جاؤوا، وقرر البعضُ الآخر أن يدخل مكة ويُلاقي فيها ما يلاقي المسلمون.

❀ ❀ ❀

أبو سلمة وأم سلمة يدخلان مكة

وكان فيمن قرّر دخول مكة أبو سلمة وزوجته أم سلمة رضي الله عنهما.

ورأى أبو سلمة أن يدخل في جوار خاله أبي طالب، عم رسول الله، ليجيرَهُ من أذى المشركين، ولكن بني مخزوم لم يرضهم أن يحمي أبو طالب أبا سلمة وقد طمعوا أن ينالوا من أبي سلمة حتّى يفتنُوهُ عن دينه، فساروا إلى أبي طالب يقولون له: يا أبا طالب؛ لقد منعت منّا ابن أخيك محمداً، فما لَكَ ولصاحبنا تمنعه منّا؟!

قال أبو طالب: إِنَّهُ استجار بي، وهو ابن أختي، وإن أَنا لم أمنع ابن أُختي لم أمنع ابن أخي.

وبقي أبو سلمة رضي الله عنه في جوار خاله أبي طالب، وبموته - موت أبي طالب - نال المشركون من محمد، ومن أتباعه ما لم ينالوه.

وبقيت أم سلمة رضي الله عنها إلى جانب زوجها تقاسي ما يقاسي من الآلام والعذاب، حتى بايع الأنصار من أهل المدينة رسول الله ﷺ، فكانت

هي وزوجها من أوائل من أعدوا أنفسهم لتركِ ديارهم وَبَلَدِهم، والمهاجرة إلى المدينة في سبيل دين الله.

ولكن، هل استطاعت أم سلمة وزوجها أن ينجوا من إيذاء المشركين، وأن ينفذا إلى مطلبهما من تربُّصِ المتربصين؟!

لا.. فقد كان المشركون لا يزالون يطمعون في أن يردوا أُم سلمة وزوجها عن دين الإسلام، ولا يزال في مقدورهم أن ينالوهما بالإيذاء، وأن يفتنوهما بالتعذيب، وكان لهم معهما قصةٌ أليمةٌ، كانت أم سلمة ترويها كما روت قصة هجرة المسلمين للحبشة.



أم سلمة تهاجر إلى المدينة

حدثت أم سلمة رضي الله عنها، قالت[1]: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة، رحَّل لي بعيراً، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة، وخرج يقود بي البعير، فلما رآه رجال بني المغيرة - وكانوا أهل أم سلمة - قاموا إليه فقالوا: هذه نفسُك غَلَبْتَنا عليها، فعلام نتركك تسير بصاحبتنا هذه في البلاد؟

يريدون أن يقولوا له: أنت حر في نفسك، أمَّا زوجتك فإنّها قريبتنا، ومن حقها علينا أن نحميها منك، ومن واجبنا لها أن نمنعها من الهجرة معك.

قالت أم سلمة: فنزعوا خطام البعير من يَدِهِ، وأَخذوني مِنْهُ، وغضب عند ذلك بنو عبدالأسد (رهط أبي سلمة) فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا.

---

(١) ابن إسحاق في سيرة ابن هشام مجلد ١، والسمط الثمين ص٨٧، انظر ترجمتها في الإصابة ٤/٤٥٨، والاستيعاب.

قالت أم سلمة: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبدالأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، ففرقوا بيني وبين زوجي وبين ابني؛ فكنت أخرج كل غداةٍ فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حَتّى أُمْسِيَ، سنةً أو قريباً، حتى مرَّ بي رَجُلٌ من بني عمّي، فرأى ما بي، فرحمني، فقال لبني المغيرةِ: ألا تخرجون هذه المسكينة؟! فرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها.

فكان أن قالوا: الحقي بزوجك إن شئتِ.

وردّ بنو عبدالأسد إليَّ عند ذلك ابني، فرحَّلْتُ بعيري (أي وضعت على ظهره الرحل)، وأخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أُريد زوجي بالمدينة، وما معي أحدٌ من خلق الله، حتى إذا كنت بالتنعيم (على بعد فرسخين من مكة) لقيت عثمان بن أبي طلحة (وكان لا يزال على شِرْكِهِ).

فقال لي: إلى أين يا بنت زاد الركب؟

قلت: أُريد زوجي بالمدينة.

قال: أَو معك من أحد؟!

قلت: لا والله، إلا الله وابني هذا.

قال: والله ما لكِ من مَتْرِكٍ، (أي لا يصح أن أتركك وحدك).

فأخذ بخطام البعير فانطلق معي، فوالله ما صحبت رَجُلاً من العرب قَطُّ، أرى أنّه كان أكرم مِنْهُ، كان إذا حطَّ بمنزلٍ أناخ بي، ثم استأخر عني؛ حتى إذا نزلتُ استأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده إلى شجرة، ثم تنحىٰ إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، وعزم على استئناف المسير قام إلى بعيري فَقَدَّمَهُ فَرَحَّلَهُ، ثم استأخر عني، وقال: اركبي.

فإذا ركِبتُ واستويتُ على بعيري أتى فأَخَذَ بخطامِهِ، فقاده، حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى قدم بي المدينة، فلما شارفنا قرية بني عمرو بن عوف بقباءٍ (وكان أبو سلمة نازلاً بها) قال: زوجك في هذه

القرية، فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة.

هذا ما قصته أم سلمة عن مسألة خروجها من مكة، وهذا ما كانت تحكيه عن مأساة مُهاجرتها إلى المدينة، ثم كانت تذكر ما مرّ بها فتقول: والله ما أعلم أهل بيتٍ في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن أبي طلحة.

وأقامت أُم سلمة مع زوجها بقُباء، فكانت أول الزوجات المهاجرات إلى المدينة، كما كان زوجها من قبلها من أول المهاجرين.

وكان إذا سمع منها أهل المدينة أنها بنت زاد الركب أبي أُمية ابن المغيرة يكذّبونها ويقولون: ما أكذب الغرائب!!

حتى إذا ما أزمَعَ نفرٌ منهم السفر إلى مكة للحج قالوا لها: أتكتبين إلى أهلك؟

فكتبت معهم إلى أهلها، فلما رجعوا ـ وقد ثبت عندهم صِدقها ـ زادوا لها إكراماً وإجلالاً.

وتوالت بعد ذلك وفود المهاجرين، فسبقت هجرتهم هجرة رسول الله من مكة إلى المدينة ثم هاجر الرسول ﷺ بعدهم.



أم سلمة في المدينة

وفي المدينة أنجبت أم سلمة ـ أول الزوجات المهاجرات ـ لزوجها: عمر، ودُرَّةَ، وزينب، وفي المدينة أيضاً واصل زوجها ـ أول المهاجرين ـ جهاده إلى جانب رسول الله ﷺ، في سبيل دعوة الإسلام، فشهد موقعة بدر، ثم موقعة أحد.

وكان أبو سلمة موضعاً لثقة النبي ﷺ، فحينما خرج النبي ﷺ في غزوة العشيرة استعمله على المدينة، وحينما عاد النبي ﷺ والمسلمون من

موقعة أحد كان أبو سلمة جريحاً، فلما التأم جرحه، عقد له النبي ﷺ على سرية تبلغ عدتها مائة وخمسين رجلاً، للخروج لتأديب بني أسد الذين طمعوا بعد هزيمة المسلمين في أن ينالوا من المسلمين منالاً.

ونجح أبو سلمة في مهمتِهِ، وعاد إلى المدينة ظافراً منتصراً، إلاّ أنّ جرحه الذي أصيب به يوم موقعة أحد ثم التأم، كان التئامُهُ ظاهراً سطحياً، فقد عاد فانفجر عليه، وما زال به حتى أسقمه وألزمه الفراش أياماً طويلة.

***

وفاة أبي سلمة

بقيت أُم سلمة رضي الله عنها إلى جانب زوجها تمرضه وتُعْنَى به، وداوم الرسول ﷺ عيادته وزيارته والسؤال عنه، فهو صاحبه وابن عمته، وظل على هذه الحال، حتى نزل قضاء الله في أبي سلمة، فلفظ أنفاسه والنبي ﷺ بجانب فراشه يدعو له بخير حتى مات، فأسبل عينيه، وكبر عليه تسع تكبيرات.

وقيل للرسول ﷺ: يا رسول الله، أسهوت أم نسيت؟!

فأجاب: **«لم أسه، ولم أنس، ولو كبَّرت على أبي سلمة ألفاً كان أهلاً لِذاك»**[(١)].

وبكت أُم سلمة، وجزعت أشد الجزع لوفاة زوجها، ثم تذكرت قول أبي سلمة الذي كان يردِّدُهُ على لِسانِهِ عن رسول الله ﷺ: **«من أُصيب بمصيبة فقال: كأمر الله، إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أْجرني في مصيبتي، وأعقبني خيراً منها**[(٢)]**، فعل الله به ذلك»**.

---

(١) تاريخ الطبري ٢/ ١٧٧- وفي حديث ابن عباس: أن أول من يعطى كتابه بيمينه أبو سلمة - الإصابة ٣٣٥/٢.

(٢) المسند ٢٩١/٦.

وتعزت أُم سلمة بقول الرسول هذا، وكان عزاءُ الرسول ﷺ لها في مصابها أن قال: «**اللهم عز حزنها، واجبر مصيبتها، وأبدلها خيراً منه**».

وتحدثت أم سلمة عن مصابها الجلل بزوجها الحبيب، وكانت تستذكر منه دائماً البر والوفاء وتقول: من خيرٌ من أبي سلمة.

فقالت: لما مات أبو سلمة قلت: غريب في أرض غريبة، لأبكينَّهُ بكاءً يتحدث به، وكنت قد تهيأت للبكاء عليه إذ أقبلت امرأة تريد أن تسعدني، فاستقبلها رسول الله ﷺ فقال: «**أتريدين للشيطان بيتاً أخرجه الله منه مرتين**»، فكففت عن البكاء فلم أبكه[(١)].

ومرت الأيام وانقضت على وفاة أبي سلمة أربعة أشهر، وفيما كانت تفكر في أيامها في الحبشة مع أبي سلمة تقدم أبو بكر إلى أم سلمة خاطباً، فرفضت، وتقدّم عمر بن الخطاب فردته كذلك، فقد كانت رضوان الله عليها تريد أن تجعل وقتها كله لأولادها، وأن تصرف كل عنايتها إلى تربيتهم ورعايتهم، ولكن الله كان يدَّخر لأُم سلمة مصيراً أكرم، ولأولادها راعياً أبر وأرحم.

وقبل أن نتحدث عن زواجها من رسول الله ﷺ نعرج على أولادها فهم جميعاً من زوجها أبي سلمة، وقد مر بنا أنها رضوان الله عليها قد ولدتهم جميعاً في الحبشة، وفي روايات أخرى أن سلمة وحده الذي ولد في الحبشة، بينما وُلِدَ الباقون في المدينة.

أما سلمة فهو الذي زوّج رسول الله ﷺ بأُمه أم سلمة، وكان سلمة أكبر من أخيه عمر، ولم يكن مشهوراً بالرواية العلمية[(٢)].

أما ابنها عمر فهو أبو حفص القرشي المخزومي، وُلِدَ قبل الهجرة بسنتين أو أكثر، وكان ربيب النبي ﷺ، تعلَّم في بيت النبوة الآداب الشرعية والأحكام، ودأب على سؤال رسول الله ﷺ، ومن ذلك ما أخرجه مسلم

---

(١) تحفة الأشراف ٢٤/١٣.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ٤٠٨/٣.

في صحيحه[1] أن عمر سأل النبي ﷺ: «أيُقَبِّل الصائم؟».

فقال النبي ﷺ: **«سل هذه - يعني أم سلمة -»**.

فأخبرته أنه يصنع ذلك.

وقد حدّث عمر عن أمه أُم سلمة بأحاديث كثيرة، وروى عنه سعيد ابن المسيب، ووهب بن كيسان، وكان مع علي يوم الجمل وتوفي سنة **٣٨هـ** بعد أن طال عمره وصار شيخاً من شيوخ بني مخزوم[1].

وابنتها زينب ولدتها في الحبشة ثم أصبحت ربيبة رسول الله ﷺ وقد روت عن عائشة وزينب وأم حبيبة أمهات المؤمنين، وروى عنها عروة والقاسم بن محمد وعلي بن الحسين وتوفيت سنة **٢٦هـ** على وجه التقريب[2].

وقد تزوجت زينب بنت أبي سلمة ربيبة رسول الله ﷺ عبدالله بن زمعة بن الأسود الأسدي، فولدت له، وتعلمت فكانت أفقه نساء أهل زمانها، وفي يوم الحرّة حدثت مقتلة عظيمة في المدينة فكانا ممن قتل ابنا زينب، فحُملا ووُضعا بين يديها مقتولين فقالت: إنّا لله وإنا إليه راجعون[3].

ودخلت زينب على النبي ﷺ مرّة وهو يغتسل، فنضح الماء في وجهها، فلم يزل ماء الشباب في وجهها حتى كبرت وعجزت[4].

❋ ❋ ❋

(١) مسلم رقم الحديث ١١٠٨ - ١٣ كتاب الصيام.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠١/٣.

(٣) الاستيعاب ٣٢٠/٤.

(٤) المصدر السابق.

زواجها من رسول الله ﷺ

عادت أم سلمة يوماً بذاكرتها إلى أيام أبي سلمة، فقد قالت لأبي سلمة يوماً: بلغني أنه ليس امرأة يموت زوجها وهو من أهل الجنة، ثم لم تتزوج إلاّ جمع الله بينهما في الجنة، فتعال أعاهدك أن لا تتزوج بعدي، وألا أتزوج بعدك!!

قال: أتطيعينني؟

قالت: نعم.

قال: إذا مِتُّ تزوجي، اللهم ارزق أُم سلمة بعدي رجلاً خيراً مني، لا يحزنها ولا يؤذيها[1].

وتحدثت أم سلمة يوماً عن أبي سلمة فقالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ، فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررت به، قال: «**لا يصيب أحد من المسلمين مصيبة، فيسترجع عند مصيبة ثم يقول: اللهم أْجُرني في مصيبتي، وأخلف لي خيراً منها إلا فُعل به**».

قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه»، فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم أْجُرني في مصيبتي، وأخلف لي خيراً منها، ثم رجعت إلى نفسي فقلت: من أين لي خيرٌ من أبي سلمة[2].

وفيما هي في ذكرياتها هذه، بعث رسول الله ﷺ إلى أُم سلمة يخطبها إلى نفسه، وترددت أُم سلمة فيما تجيب به الرسول ﷺ، على هذا الشَّرف الذي أُرسل إليها ليوليها إيَّاهُ، وتحيرت فيما تقدمه إليه من أعذار، وأخيراً رأت أن تعتذر إليه بأنها تخطت الشباب، وتبين له حالها من كثرة الأولاد، وأَنَّ غيرتها شديدة صارمة، قد تسبب لها متاعب، وأنها ليس لها وليٌّ يزوِّجها إذا رفض أولياؤها الموافقة على هذا الزواج.

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٢٠٣.

(٢) طبقات ابن سعد جـ٨ ص٨٧.

فكان رد النبي ﷺ على أعذارها التي تقدمت بها أنها تغار وأنها مسنة وأنها صاحبة عيال أن قال: **«أما أنك مسنة، فأنا أكبر منك، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك، وأمّا العيال فإلى الله ورسوله»**[١].

أوجز عليه السلام قوله وردّه عليها، وأسبغ عليها شرفاً فوق شرفها، وحكمةً فوق حكمتها، فإذا كانت كبيرة السن فهو أكبر منها على حد قوله الشريف صلوات ربي وسلامه عليه، وأما أولادها فعلى الله ورسوله، وأما غيرتها فقد دعا ربه أن يذهبها عنها، وأن أحداً من أوليائها لن يمانع في زواجها منه سواءً كان حاضراً أو غائباً.

فقبلت أُم سلمة الزواج من رسول الله ﷺ، وتولى زواجها من رسول الله ابنها سلمة، وعندما حضر رسول الله ﷺ رحبت به أُم سلمة رضي الله عنها وقالت لابنها: قم فزوِّج رسول الله، ثم قالت: لقد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه: رسول الله ﷺ.

وتتحدث أم سلمة رضي الله عنها وتصف جانباً من ليلة زفافها فتقول: فتزوجني رسول الله ﷺ، فنقلني إلى بيت زينب بنت خزيمة، أم المساكين، بعد أن ماتت، فنظرْتُ فإذَا جَرَّةٌ، فاطَّلَعتُ فيها، فإذا فيها شيءٌ من شعير، وإذا رَحىً وبُرْمَةٌ وقِدْرٌ، بِهِ فَضْلَةٌ من شَحْم، فأخذت ذلكَ الشعيرَ، فطحنته، ثم عصدته في البُرْمةِ، وأخذت الشَّحْمَ، فأدمته به، فكان ذلك طعامَ رسول الله وأهله ليلة عُرْسِه.

وهكذا ضم رسول الله ﷺ أم سلمة إلى أمهات المؤمنين تكريماً لها، ورفعاً لمكانتها.

وقد دخلت على رسول الله ﷺ أول العشاء عروساً، وقامت آخر الليل تطحن[٢]. وقد نقلها رسول الله ﷺ كما تحدثت هي إلى بيت زينب أُم المساكين.

---

(١) انظر سيرتها في الاستيعاب والإصابة وعيون الأثر ٣٠٤/٢، والسمط الثمين والمحير.

(٢) طبقات ابن سعد جـ٨ ص٩٢.

وأتاها رسول الله ﷺ مرَّةً ليدخل بها، وكانت زينب في حجرها، فانصرف رسول الله ﷺ، فعلم ذلك عمار بن ياسر، وكان أخاها مِنَ الرضاعة[(١)]، فذهب عمار بزينب، فدخل عليها رسول الله ﷺ فجعل يضرب ببصره في نواحي البيت، فقال: «**ما فعلت ذُناب؟**».

قالت أم سلمة: جاء عمار فأخذها فذهب بها.

فدخل بها رسول الله ﷺ، وقال: «**إن شئت سَبَّعْتُ لك، وإن شئت ثلَّثت**»[(٢)].

وكان ﷺ يداعب ابنتها زينب حين ضمَّها إلى كنفه، ويذكرون أنّه دخل مرَّةً إلى بيته، وكان الظلام شديداً، فتعثرت قدمه بقدم ابنتها زينب فصاحت، فقال النبي ﷺ: «**ما هذا؟**».

قالوا: زينب.

ثم دخل عليها ليلة أخرى في ظلمة، فقال: «**انظروا زينب هذه لا أطأ عليها**»[(٣)].

وعلمت زوجات الرسول ﷺ بزواجه من أُم سلمة: ذات الجمال والعزّة، والشرف والشخصية الأَخَّاذةِ الجذّابة القويَّة، وقابلت سودة الخبر كعادتها بالرِّضا والتسليم، أمّا عائشة فقد استبد بها التفكير، واستولت عليها الغيرةُ، وتملكها لذلك حزنٌ شديدٌ، لِما وُصِفَ لها من جمال أُم سلمة، فتحايلت حتّى رأتها، فرأت فيها أضعاف ما وُصفَتْ لها به، فشَكَتْ عائشة ما بها إلى ضَرَّتها حفصة التي كانت تتخذها في مثل هذه الأُمور صاحبة لها، فهونت عليها حفصة خطر جمال أُم سلمة وقالت لها: إنّها ليست كما تقولين، وإنما هي الغيرةُ.

وكان الرسول ﷺ يقول عن عائشة قبل أن يتزوج بأُم سلمة: «**إن**

(١) أزواج النبي لابن زبالة ص٦٢.

(٢) مسند الإمام أحمد ٦/٢٩٤.

(٣) أزواج النبي لابن زبالة ص٦٢.

لعائشة مِنّي شعبةً، ما نَزَلَها مِنّي أحدٌ».

فلما تزوَّج أُم سلمة وسُئِلَ: يا رسول الله، ما فعلت الشعبة؟

سكت، فعرف أن أم سلمة قد حظيت لديه بحظٍّ وافر، وشغلت من قلبه مكاناً.

وأحسَّت عائشة ما لأُم سلمة من منزلةٍ، وأحست أنها نافستها، حتّى إنها لكانت تقولُ عن أُم سلمة، وعن زينب بنت جحش التي تزوَّجها النبي ﷺ بعد أُم سَلَمَة: كانتا أَحبَّ نسائه إليه، فيما أَحسبُ بعدي.

وفي طبقات ابن سعد عن الواقدي، حديث عائشة رضي الله عنها تقول: لما تزوّج رسول الله ﷺ أُم سلمة، حزنت حزناً شديداً لما ذكر لنا من جمالها. فتلطفت حتى رأيتها، فرأيت والله أضعاف ما وصفت به، فذكرت ذلك لحفصة، فقالت: ما هي كما يقال، وَذَكَرت كبر سنّها.

قالت عائشة: فرأيتها بعد ذلك فكانت كما قالت حفصة، ولكنّي كنت غيرى.

وشأنها شأن أي أُنثى، فقد سرها أن ترى غيرة عائشة رضي الله عنها واضحة، فهل حقّاً كما يقول البعض - إنها - قد رضيت أن تبعث بطفلتها الصغيرة إلى حاضنة، كي تتفرغ لواجباتها الزوجية[(١)]؟؟

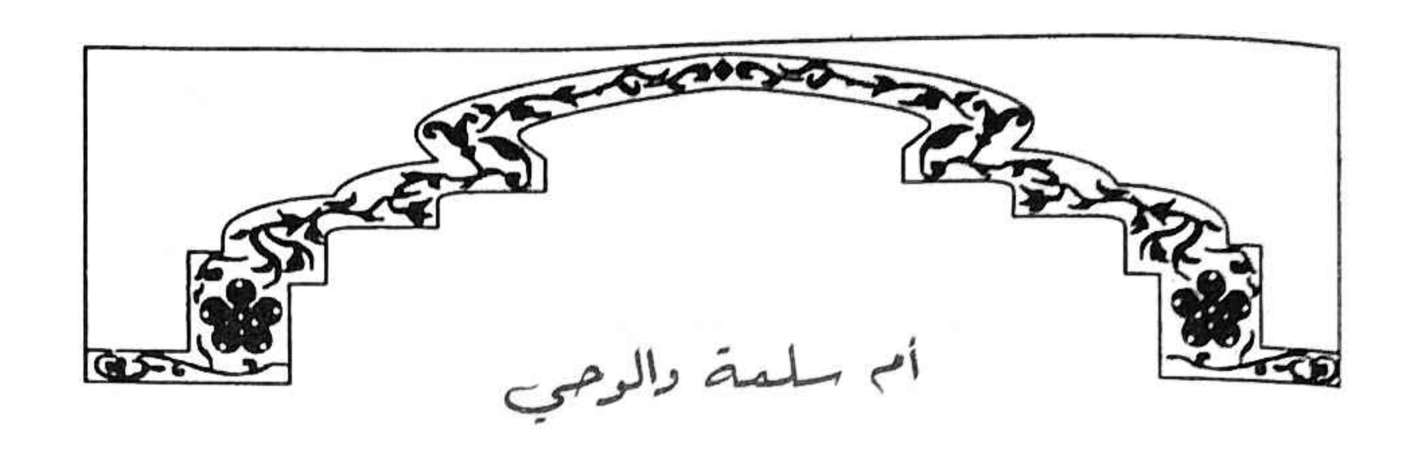
وقد ورد في الصحيحين حديث أُم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، هل لي من أجر في بني أبي سلمة أن أنفق عليهم؟ ولست بتاركتهم هكذا وهكذا، إنما هم بنيَّ؟؟

قال: «**نعم، لك أجر ما أنفقت عليهم**»[(٢)].



(١) السمط الثمين ص٩٠.

(٢) اللؤلؤ والمرجان ٢٣٤/١ حديث رقم ٥٨٥.



أم سلمة والوحي

أ ـ مع أبي لبابة

أبو لبابة صاحب من أصحاب رسول الله ﷺ، وأبو لبابة بن عبدالمنذر الأنصاري أرسله الرسول ﷺ في مهمة يوم غزوة بني قريظة.

في هذه الغزوة، غزوة بني قريظة، أبىٰ رسول الله ﷺ إلاّ أن ينزل يهود بني قريظة على حكمه، وذلك بعد خيانتهم الله ورسوله، فأرسلوا إليه أن ابعثْ إلينا أبا لبابة بن عبدالمنذر الأنصاري لنستشيره في أمرِنا، وكانوا حلفاءَ أبي لبابة.

فذهب إليهم أبو لبابة، فلما رأَوْهُ، قام إليه الرِّجال، وجهش إليه النساءُ والصبيان يبكون في وجهه، فرقَّ لهم، وقالوا له: ما ترى، أننزلُ على حُكم محمد؟

فقال أبو لبابة: نعم فانزلوا، وأومأ إلى حلقه بالذَّبح.

ولكن أبا لبابة شعر أنه قد أفشى سر رسول الله، وخان الله ورسوله، فندم وقال في خوفٍ شديدٍ: إنا لله وإنا إليه راجعون، وسَرْبله الندم، وعلاه القهر، وملكته الهموم، وجعل يؤنب نفسه، فقال له أحد أحبار اليهود: ما لك يا أبا لبابة؟

فقال في صوت مملوء بالندم: خنت الله ورسوله.

وبكى أبو لبابة من شدة حزنه وقفل عائداً، ولم يأت رسول الله ﷺ، بل فعل أمراً غريباً، لقد ذهب إلى المسجد النبوي، وكان الحر شديداً في ذلك اليوم، وربط نفسه بعمود من أعمدة المسجد بسلسلةٍ ثقيلةٍ، وكان هذا العمود عند باب أم المؤمنين أُم سلمة رضي الله عنها، وكان أكثر تنقل النبي ﷺ عند ذلك العمود.

ولما كان هذا الذي فعله أبو لبابة غير مألوف للناس، جاء الناس ليعرفوا خبر أبي لبابة، فقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت، أو يتوب اللَّهُ عليَّ ممّا صنعتُ.

ظل أبو لبابة مرتبطاً في العمود تأتيه امرأته أو ابنته؛ فتحلَّه للصلاة، ثم يعود فيرتبط، وأقام على ذلك بضع ليال، وجعل أبو لبابة يرهف سمعه لعلَّه يسمع أن قد تاب الله عليه، فقد كان على يقين من أن الله يغفر الذنوب جميعاً، وأنَّه هو الغفور الرحيم. ونزلت توبة أبي لبابة من فوق سبع سماوات... يقول عز وجل: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢].

وقد نزلت هذه الآيات بتوبة أبي لبابة على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة.

عرفت ذلك أم سلمة عندما كان رسول الله ﷺ يبيت عندها فسمعته يضحك، فسألته: مِمَّ تضحك يا رسول الله! أضحك الله سِنَّك؟

قال النبي ﷺ: **«تيبَ على أبي لبابة»** أي تاب الله على أبي لبابة.

فعلمت أُم سلمة أنَّ الله قد أوحى إلى رسوله بتوبته على أبي لبابة الذي كان وقتئذٍ يربط نفسه في عمودٍ من أعمدةِ المسجد تكفيراً عن ذنب أَحسَّ أنَّه أتاهُ ضد الله ورسوله.

وقالت أُم سلمة للرسول ﷺ: أفلا أبشره يا رسولَ الله؟

قال: **«بلىٰ، إن شئت!»**.

فوقفت أُم سلمة على باب حجرتها - وذلِكَ قبل أَن يُضرَبَ على النساءِ الحجاب - فنادت: يا أبا لبابة؛ أبشر، فقد تاب الله عليك.

وسمع النّاسُ ما بشَّرت به أُم سلمة أبا لبابة، فخفوا إليه ليُحلُّوا قيده، ويطلقوه، فأبىٰ عليهم إلاّ أن يكونَ رسول الله هو الذي يطلقه بيده، فلما مرَّ عليه رسول الله خارجاً إلى الصلاة أطلقه، وكان قد مضى على أبي لبابة وهو في قيده هذا ستُّ ليالٍ تأتيه امرأتُهُ في كل وقتِ صلاةٍ، فتحله للصَّلاةِ، ثم يعود فيرتبط بالجذع - وكانت الآيَة التي أنزلها الله على نبيه في أبي لبابة وهو ببيت أم سلمة رضي الله عنها، جعلها تفخر وتحس أن الله شرَّفها وأكرمها بنزول الوحي على رسول الله وهو في بيتها، وقد كان الوحي لا ينزلُ على النبي ﷺ إلاّ وهو في حجرة عائشة.

وكانت عائشة تتيه وتفخر بذلك على سائر ضرائرها وتقول: ما نزل الوحي على الرسول إلا وهو معي، حتى إذا ما كان سمر ليلةٍ، وكان الرسول ﷺ يبيت فيها عند أم سلمة فسمعته يضحك، . . . وذكرت قصة توبة الله على أبي لبابة.



ب - مع الثلاثة الذين خُلِّفوا

كان كعب بن مالك أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك - وتحدّث عن توبة الله عليهم أيضاً فقال: نهى رسول الله عن كلامي وكلام صاحِبَي، ولم ينه عن كلام أحدٍ من المتخلفين غيرنا، فاجتنب النّاس كلامَنا فلبثت كذلك حتى طال عليَّ الأمر، وما من شيء أهم إليَّ مِنْ أن أموت فلا يصلي عليَّ النبي ﷺ، أو يموت رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمني أحدٌ منهم، ولا يصلي عليَّ، فأنزل الله توبتنا على نبيه حين بقي الثلث الأخير من الليل، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة رضوان الله عليها، وكانت أُم سلمة محسنة

في شأني، معينة في أمري، فقال رسول الله ﷺ: **«يا أُم سلمة تيب على كعب»**.

قالت: أفلا أُرسل إليه فأبشره؟

قال: **«إذاً يحطكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليلة»**، حتى إذا صلى رسول الله ﷺ صلاة الفجر، آذن بتوبة الله علينا[1].

والآية الكريمة التي نزلت في توبة هؤلاء - تقول: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٨].

وبذلك نعمت أُم سلمة بهذه البركة وهذا الشرف العظيم أن ينزل قرآناً في بيتها على رسول الله، فتكون الوحيدة من نساء النبي ﷺ بعد عائشة رضي الله عنها التي ينزل في بيتها وحياً يوحى على رسول الله ﷺ، مما يجعل لأُم المؤمنين أم سلمة مكانة وأي مكانة، وفضل - وأي فضل -، وشرف يحق لها إن أرادت أن تفخر على صاحباتها، وترضي غريزة الأنثى لديها، ولكن لم تفعل، بل داومت على حمد الله وشكره وتسبيحه.



مكانتها وقوة شخصيتها

ومما يدل على مكانة أم سلمة وقوة شخصيتها، ما حدث منها حينما تعرض عمر بن الخطاب للتدخل بين محمد ﷺ وزوجاته عند حدوث سوء التفاهم بينهنَّ وبينه، فقد صدت أم سلمة عُمَرَ الشديدَ - الصارم الحازم - في معاملته للنساء، حينما جاءها (وكان قريباً لها) ليخاطبها في أمر مراجعة نساء

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير برقم ٤٦٧٧، وأخرجه في كتاب الاستئذان برقم ٦٢٥٥.

النبي ﷺ لزوجهن، فقد علم عمر من زوجته أن ابنته حفصة تراجع النبي ﷺ حتى يظل يومه غضبان، فقصد من فوره إلى حفصة، فسألها في ذلك، فلمّا أجابته بأنَهُ حقٌّ، قال لها لائماً محذراً زاجراً: تعلمين أنّي أحذرك عقوبة الله، وغضب رسوله. يا بنيَّةُ لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها وحب رسول الله لها (يعني عائشة) والله لقد علمت أن الرسول لا يحبك، ولولا أنا لطلّقك.

ويترك عمر رضي الله عنه حفصة ليدخل على أُم سلمة يكلمها في هذا الأمر الذي قصد ابنته من أجله، ولكن أُم سلمة تصده وتنهاهُ عن أن يتدخَّل بين نساء النبي ﷺ وزوجهنَّ بقولها له: عجباً لك يا ابن الخطاب، قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله وأزواجه!!

وقال عمر رضي الله عنه في سياق سرده لهذه القصة: فأخذتني أخذاً كسرتني به عن بعض ما كنت أجد[1].

وهكذا أخذت أم سلمة عمر أخذاً، كسرت به من حِدَّة ما كان يجدُ في نفسه من مراجعة نساء النبي ﷺ لزوجهن.

ومما يدل على مكانة أُم سلمة وقوة شخصيتها ما حدث منها أيضاً لعمر وأبي بكر عندما غضب النبي ﷺ على نسائه لمطالبتهن إياه بما لا يملك لهن من نفقة، ونهى عمر ابنته حفصة، ونهى أبو بكر ابنته عائشة عن أن يطالبا النبي ﷺ بما ليس عنده، ثم سارا بمثل هذه النصيحة إلى سائر زوجات النبي ﷺ.

فلمّا أتيا أُم سلمة يذكران لها ما ذكر لضرائرها لم تقبل منهما تدخلهما بين الرسول ﷺ وزوجاته، فقالت لهما: ما لكما ولما ها هنا! رسول الله أَعْلَى بأمرِنا عيناً، ولو أرادَ أن ينهانا لنهانا، فمن نسأل إنْ لم نسأل رسول الله..؟!

فكان أن تركاها وانصرفا، وكان أن حَمَدَت لها زوجات النبي ﷺ ما

---

(1) من حديث عمر رضي الله عنه ـ متفق عليه.

قالت لعمر وأبي بكر، وقلن لها: جزاك الله خيراً حين فعلت ما فعلت، ما قدرنا أن نرد عليهما شيئاً.

كذلك كانت أُم سلمة شخصية قوية حازمة عاقلة رصينةً.

❀ ❀ ❀

مشاهد الجهاد والمشورة

شهدت أُم سلمة رضوان الله عليها مشاهد عظيمة من مشاهد الجهاد، ونالت شرف صحبة النبي ﷺ، فشاركت أم سلمة رضي الله عنها وخرجت مع زوجها الحبيب رسول الله ﷺ في غزوة المريسيع، وفي غزوة خيبر. وفي تلك الغزوة قالت رضي الله عنها مع نسوة أخريات: ليت الله كتب علينا الجهاد، كما كُتبَ على الرجال، فيكون لنا مِنَ الأجر مثل ما لهم، فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾(١).

وخرجت يوم فتح مكة، وفي حصار الطائف، وفي غزوة هوازن وثقيف، وصحبته رضوان الله عليها في حجة الوداع.

❀ ❀ ❀

في عمرة القضاء (صلح الحديبية)

رأى رسول الله ﷺ في منامه، أنّه دخل مكةَ، هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، وأنّه ﷺ دخل البيت، وأخذ مفتاحه، وطاف هو وأصحابه مع الطائفين.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٢- وانظر أعلام النساء لرضا كحالة ٥/٢٢٤.

ورؤيا الأنبياء حق، وما رأى رسول الله ﷺ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[1].

قصَّ الرسول ﷺ رؤياه على أصحابه، وخرج ﷺ لأداء العمرة وخرجت معه زوجه أم سلمة أُم المؤمنين، وبعض نساء الصحابة مثل أم عمارة، وأم منيع، وأم عامر الأشهلية وغيرهن من نساء الأنصار.

ومضى رسول الله ﷺ مع أصحابه في طريقه ملبياً: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك...».

ومنعت قريش دخول المسلمين إلى مكة، واستعدت لصدهم وقتالهم، وأرسلت رسلها إلى محمد والمسلمين تستخبر عن نواياهم، وعن الغرض من مجيئهم، وعلمت قريش أنَّ محمداً وأتباعه ما جاؤوا إلاَّ لحج بيت الله. معظمين له ومكرمين، ولكنهم مع ذلك أبوا أن يسمحوا للمسلمين أن يدخلوا مكة لحج بيت الله في عامهم هذا.

وكان أن كتب النبي ﷺ مع سهيل بن عمرو أحد رسل قريش عهداً سُمِّيَ: صلح الحديبية، تهادن فيه الطرفان على عدم القتال لمدة عشر سنوات، وتعهد فيه محمد ﷺ لقريش أن يعود هو وأتباعه من حيث أتوا، على أن يعودوا لحج بيت الله في مثل هذا الوقت من العام القادم.

ولم يرضَ أكثر المسلمين عن هذا العهد الّذي عدوه انخذالاً لهم، ولم يتبنوا في ذلك الحين حكمة الرسول ﷺ التي ينشدها من ورائه، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأتيت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله: ألست نبي الله.

قال: «**بلى**».

قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل.

---

(١) انظر رؤيا الأنبياء والصالحين - عبدالمنعم الهاشمي مكتبة ابن كثير - الكويت.

قال: **«بلى»**.

قلت: فلمَ نعطي الدَّنيةَ في ديننا إذاً؟

قال: **«إني رسول الله، ولستُ أعصيه، وهو ناصري»**.

قلت: أو لست كنت تحدثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف حقّاً؟

قال: **«بلى، فأخبرتك أنك تأتيه العام؟»**.

قلت: لا.

قال: **«فإنّك آتيه ومطوف به»**.

قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبيّ حقّاً؟

قال: بلى.

قلت: فلم نعطي الدَّنية في ديننا إذاً؟

قال: أيها الرجل، إنّه رسول الله، وليس يعصي الله، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه (استمسك به واتبعه) حتى تموت، فوالله إنّه لعلى الحق.

قلت: أو ليس كان يحدثنا أنّا سنأتي البيت، ونطوف به؟

قال: بلى، فأخبرك أنك تأتيه العام.

قلت: لا.

قال: فإنك آتيه ومطوّف به[1].

ودعا الرسول ﷺ المسلمين إلى نحر هديهم، وحلق رؤوسهم، ليكروا راجعين بعد أن يتحلّلوا من إحرامهم.

وكرر النبي ﷺ دعوة المسلمين، وتباطأ المسلمون في تلبية الدعوة وقد عزّ عليهم أن يعودوا دون أن يحجوا بيت الله، وأن يطوفوا بالكعبة.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.

وغضب الرسول ﷺ ، ودخل إلى خيمة أم سلمة تبدو على وجهه آثار هذا الغضب، ولاحظت أم سلمة ما بالرسول من كَدَرٍ، فسألته: ما بكَ يا رسول الله؟

وأجاب الرسول ﷺ : **«ألا ترين يا أُم سلمة كيف آمُر الناسَ بأمرٍ فلا يفعلونه؟!»**.

وأخبر الرسول أم سلمة بما كان، وأدركت أُم سلمة أن النبي ﷺ غاضب بحق، وأن الأمر إن لم يتدارك فسيكون بين المسلمين أمرٌ خطيرٌ.

قالت أم سلمة ـ تهون على الرسول ﷺ ، وتخفف عنه ـ: يا رسول الله، لا تلمهم، فإنهم قد دخلهم أمرٌ عظيم مما أَدْخَلْتَ على نفسك من المشقة في أمر الصُّلح، ورجوعهم بغير فتحٍ.

ثم أشارت عليه أن يخرج فينحر هديَهُ، ويحلق رأسه، دون أن يكلم أحداً من المسلمين.

وفعل النبي ﷺ ما أشارت به أُم سلمة عليه فخرج، فنحر هديه، وهو يكبّر رافعاً صوته: **«باسم الله، والله أكبر!»**، ثم دخل إلى خيمة له من أدمٍ، ودعا بمن حَلَقَ لَهُ رأسَهُ، ورأى الناس ما فعل النبي ﷺ ، فقاموا إلى هديهم ينحرونها، وسارعوا بحلق رؤوسهم بعضهم لبعض.

وهكذا أنقذت مشورة أُم سلمة المسلمين من فتنةٍ كادت أن تستشري بينهم بسبب عَهْدِ الحديبية الذي اعتبر بعد ذلك فتحاً عظيماً للمسلمين.

ونجا الصحابة من مخالفة رسول الله ﷺ ، وذلك بحكمة أم المؤمنين أُم سلمة رضي الله عنها.



راوية الحديث

تُعدُّ أُم سلمة من نساء النبي ﷺ بعد عائشة اللائي أكثرن الحديث

عنه ﷺ، وتبلغ الأحاديث التي رَوتها أم سلمة رضي الله عنها ثلاثمائة وثمانية وسبعين حديثاً، حفظتها عن رسول الله ﷺ. وقد أخرج لها في الصحيحين ٢٩ حديثاً، والمتفق عليه (١٣) حديثاً، انفرد البخاري بثلاثة أحاديث، ومسلم بثلاثة عشر[١].

ومن مرويات أم سلمة رضي الله عنها ما رواه الشيخان؛ أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، هل لي أَجْر في بني أبي سلمة أنفق عليهم، ولست بتاركتهم هكذا وهكذا، إنما هم بنيّ؟

قال ﷺ: **«نعم لك أجر ما أنفقت عليهم»**[٢].

ومن مروياتها أيضاً، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنّما أنا بشرٌ، وإنه يأتيني الخصمُ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعةٌ من النار، فليأخذها أو فليتركها»**[٣].

ومن مروياتها في دعاء النبي ﷺ عن شهر بن حوشب قال: سألت أم سلمة، قلت: يا أم المؤمنين، ما أكثر دعاء رسول الله ﷺ، إذا كان عندك؟

قالت: كان أكثر دعائه: **«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»**.

قالت: فقلت له: يا رسول الله، ما أكثر دعاءك **«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»**.

قال: **«يا أم سلمة، إنّه ليس من آدمي إلاّ وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، ما شاء الله أقام وما شاء أزاغ»**[٤].

---

(١) ابن الجوزي في المجتبى.

(٢) أخرجه البخاري برقم ١٤٦٧، ومسلم ١٠٠١، وأحمد ٢٩٢/٦.

(٣) أخرجه البخاري في مواضع عدة مثلاً في كتاب المظالم برقم ٢٤٥٨ واللفظ له، ومسلم في الأقضية برقم ١٧١٣.

(٤) مسند أبي يعلى ٤١٩/١٢، ٤٢٠ - الترمذي برقم ٣١٥٧.

وعن دعاء النبي ﷺ في السفر قالت أم سلمة: كان النبي ﷺ إذا خرج في سفر يقول: «**اللهم إني أعوذ بك أن أذل، أو أضلّ، أو أظلم، أو أجهل، أو يجهل علي**»[1].

ومما روته من الأحاديث أيضاً: أن عبدالرحمن بن عوف دخل عليها فقال: يا أُمَّه قد خفت أن يهلكني مالي، أنا أكثر قريش مالاً.

قالت: فأنفق، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن من أصحابي من لا يراني بعد أن أفارقه**».

فخرج عبدالرحمن فلقي عمر رضي الله عنه فأخبره بالذي قالت أم سلمة، فدخل عليها عمر فقال: بالله منهم أنا؟ فقالت: لا، ولا أبرىء أحداً بعدك[2].

ودلت الروايات على أن النبي ﷺ كان يحتفل بها وينزلها منزلتها التي كانت تستحقها، وذلك مما رواه ابن حجر أن أم سلمة قالت: نَزَلت في بيتي: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى فاطمة وعلي والحسن والحسين، فقال: «**هؤلاء أهل بيتي**».

قالت: فقلت: يا رسول الله، أنا من أهل البيت؟

قال: «**بلى، إن شاء الله**».

وفي رواية ثانية ذكرها صاحب السمط[3] عنها قالت: غطى رسول الله ﷺ علياً وفاطمة والحسين والحسن بخميصة سوداء، ثم قال: «**اللهم إليك لا إلى النار، أنا وأهل بيتي**».

---

(١) انظر العقد الفريد ٢/٢٢٤.

(٢) انظر حياة الصحابة ٢/٢٦٥.

(٣) السمط الثمين ص٧٥.

قالت: قلت: وأنا يا رسول الله؟ قال: **«وأنتِ»**.

وكان رسول الله ﷺ يمنح أُم سلمة رضي الله عنها بعض أُعطياته، ففي رواية: أنّه لما تزوجها قال لها: **«يا أُم سلمة إني قد أهديت إلى النجاشي حِلَّةَ وأواقي مسك، وإني لا أراه إلاّ قد مات، وما أرى الهديَّة الّتي أهديت إليه إلا ستُرَدّ إليَّ، فإن رُدّت عليَّ فهي لك»**.

قالت: فكان كما قال، مات النجاشي، وردّت عليه الهدية، فأعطى كل امرأة من نسائه أُوقية أوقية، وأعطى أُم سلمة بقية المسك والحلة[(١)].

وقد أدرك أزواج النبي ﷺ ما تملكه أم سلمة من ملكات وقدرات في موازنة الأمور، وسعة الأفق، والخبرة، فكُنَّ يتحاكمن إليها[(٢)].

❀ ❀ ❀

أم سلمة والغيرة

لم يخلُ قلب أُم سلمة رضوان الله عليها من الغيرة على زوجها رسول الله ﷺ، وإن كانت في بعض الأحيان تتحرج من إظهارها، والتمادي فيها: فحينما حملت مارية القبطية جارية رسول الله التي أهداها إليه المقوقس - حاكم مصر - لم تستطع نساء النبي ﷺ إخفاء غيرتهن منها، بل زدن على ذلك أن سعين في العمل على الكيد لها، وشاركتهن أُم سلمة فيما ذهبن إليه، وآزرتهن فيه.

وكان رسول الله ﷺ يوماً في بعض أسفارِهِ، ومعه في ذلك السفر زوجتاه: أم سلمة وصفية بنت حُيَيٍّ، وذات يوم - وكان يوم أم سلمة - أقبل الرسول ﷺ على هودج صفية، وهو يحسبه خطأ - هودج أم سلمة - وتمشى رسول الله يتحدث مع صفية على أنها أُم سلمة، فلما تبين خطَؤُهُ،

---

(١) المصدر السابق ص٧٦.

(٢) شذرات الذهب ١/٦٩/٧٠.

وانصرف إلى أُم سلمة - بادرته بما كانت تجد في نفسها من لذع الغيرة، فقالت: تتحدث مع ابنة اليهودي في يومي يا رسول الله؟!

ولكن أُم سلمة ما لبثت أن أحسَّت بالندم على ما قالت، فكانت تستغفر من ذلك وتقول للنبي ﷺ: يا رسول الله؛ استغفر لي، فإنما حملني على ذلك الغيرة.

وهكذا كانت شخصية أُم سلمة القوية تحاول أن تسمو بحكمتها، وتعلو بإرادتها فوق ما جبلت عليه النساء.

❊ ❊ ❊

موقف من وقعة الجمل

وكانت حياة أم سلمة بعد وفاة النبي ﷺ تُبدي من شخصيتها ما يدل على روحها الطيبة هذه، من ذلك ما كان من موقفها الجليل المشرف الذي وقفته يوم خروج أُم المؤمنين عائشة وأتباعها إلى البصرة، في فتنة تأليب الناس على خلافة علي بن أبي طالب، والمطالبة بدم عثمان بن عفان الذي قتل بيد جماعة من الثائرين الخارجين عليه وعلى عماله.

وقد أرسلت أُم سلمة إلى أُم المؤمنين عائشة تثنيها عن خروجها إلى وقعة الجمل فقالت:

من أُم سلمة زوج النبي ﷺ إلى عائشة أم المؤمنين، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو.. أما بعد..

فقد هتكتِ سدّة بين رسول الله ﷺ وأمته، حجاب مضروب على حرمته، فقد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه (أي لا توسعيه بخروجك للبصرة) وسَكن الله من عقيراك فلا تصحريها[1].

(1) لا تصحريها: لا تبرزيها إلى الصحراء، أي أسكنك الله بيتك وعقارك وسترك فلا تبرزيه.

الله من وراء هذه الأُمة.

لو علم رسول الله ﷺ أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك.

أما علمتِ أنه قد نهاك عن الفراطة[1] في الدين، فإن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال، ولا يرأب بهن إن انصدع. جهاد النساء غض الأطراف وضم الذيول وقصر المودة، ما كنت قائلة لرسول الله ﷺ لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصّة قعوداً من منهل إلى منهل، وغداً تزوين على رسول الله ﷺ وأقسم لو قيل لي: يا أُم سلمة ادخلي الجنة لاستحييت أن ألقى رسول الله ﷺ هاتكةً حجاباً ضربه عليَّ، فاجعليه سترك، وقاعة البيت حصنك، فإنك أنصح ما تكونين لهذه الأُمة، ما قعدت عن نصرتهم، ولو أني حدثتك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ لنهشت نهش الرقشاء المطرقة[2]. والسلام.

❊ ❊ ❊

في وداع أم سلمة

توفيت أم سلمة رضي الله عنها في ذي القعدة سنة ٥٩هـ، وقيل سنة ٦٠هـ[3] وغيرها، وصلى عليها أبو هريرة، ودفنت بالبقيع، وقد تجاوزت الرابعة والثمانين، وقيل: بل عمرت تسعين سنة. وممن حضر وفاتها سلمة وعُمَر ابناها.

وهي آخر زوجات النبي ﷺ موتاً، وقيل: بل ميمونة أو صفية.

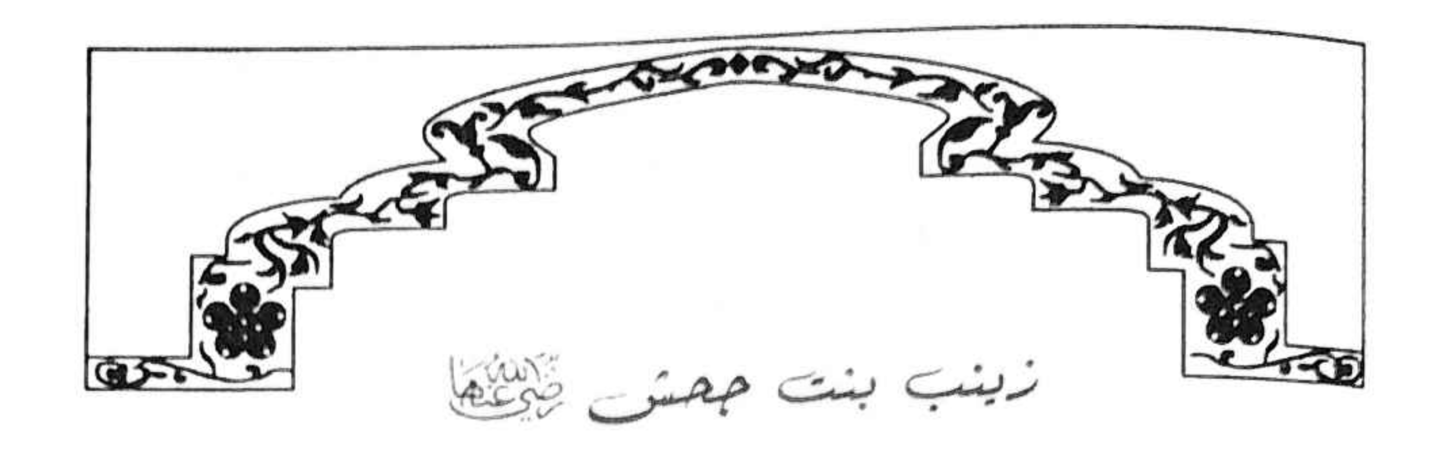
رضي الله عن أم سلمة الحكيمة العاقلة زوج رسول الله ﷺ.



(١) الفراطة في الدين: يعني السبق والتقدم ومجاوزة الحد.

(٢) انظر أعلام النساء ٥/٢٢٥.

(٣) انظر سير أعلام النبلاء ٢/٢٠٢، ونهاية الإرب ١٨/١٧٩، زاد المعاد ١/٤١.



صورة من قريب

- لم أر امرأة قَطُّ خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صَدَقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تَصدَّقُ به، وتتقرب به إلى الله تعالى. [عائشة رضي الله عنها].

- كانت زينب صالحة صوّامة قوّامة، تعمل بيدها وتتصدق بذلك كله على المساكين. [أم سلمة].

- زوَّجكن أهاليكن، وزوَّجني الله من فوق عرشه. [أم المؤمنين زينب لنساء النبي ﷺ].

- «**إنها الأوَّاهة**». [الرسول ﷺ].

- هذه امرأة يراد بها خيراً. [عمر بن الخطاب].

- نزل فيها قرآنٌ، وعرفت في كتاب الله بالمؤمنة ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

❊ ❊ ❊

بطاقة تعريف

عرفت زينب بنت جحش أم المؤمنين باسمها، فهي زينب بنت جحش بنت رئاب بن صبرة بن مرة بن خزيمة الأسدية[(١)].

وكان اسمها برة فسماها رسول الله ﷺ زينب[(٢)].

أَما كنية زينب فهي «أم الحكم»[(٣)]، وقولنا الأسدية نسبة إلى القبيلة المعروفة بهذا الاسم، وأسد هو أبو قبيلة مضر، وهو أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وبلادهم مما يلي الكرج من أرض نجد[(٤)].

وذكر صاحب «الأعلام» أن ولادتها كانت في السنة الثالثة والثلاثين قبل الهجرة[(٥)].

أُمها أميمة بنت عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، وهي والدة زينب، وعبدالله، وعبيدالله، وأبي أحمد، وحمنة، وهم أولاد جحش بن رئاب الأسدي.

أسلمت أُمها وهاجرت، وأطعمها رسول الله ﷺ أربعين وسقاً من تمر خيبر[(٦)].

وكانت زينب أم المؤمنين من سادة النساء، ديناً وورعاً وجوداً ومعروفاً[(٧)].

ولدت في مكة المكرمة، وكانت رضوان الله عليها من علية النساء في

---

(١) الطبقات لابن سعد ٨/ ١٠١- سير أعلام النبلاء ٢/٢/٢١١.
(٢) صحيح مسلم ٣/١٦٨٧.
(٣) أسد الغابة ٥/٤٦٣.
(٤) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ص٦٠.
(٥) الأعلام ٣/٦٦.
(٦) سير أعلام النبلاء ٢/٢٧٤.
(٧) المصدر السابق.

قريش، ومن كريمات أهل مكة، كانت خاشعة متضرعة عابدة راضية صوّامة قوّامة كثيرة الخير والصدقات.

أخوها: عبدالله بن جحش، وهو أخ شقيق لأم المؤمنين زينب، وهو حليف لبني عبد شمس، عرف بأنه أحد السابقين إلى الإسلام، فقد أسلم قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم، هاجر الهجرة الأُولى إلى الحبشة، ثم عاد إلى مكة لما بلغه إسلام أهلها.

بيد أنّه عاد إلى الحبشة ثانية عندما لم يجد ما يشجعه على البقاء، ثم عاد أخيراً إلى مكة، وقد أبلى عبدالله في سبيل الدعوة بلاءً حسناً، وكان في طليعة المهاجرين إلى المدينة، وآخى النبي ﷺ بينه وبين عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح.

كان عبدالله قائداً لبعض السرايا منها سرية نخلة، وفيها غنم المسلمون أول غنيمة في الإسلام، وكان عبدالله قائدها أول من قسَّم المغنم، وأعطى الخُمس في الإسلام، وأول من سُمِّي أمير المؤمنين في الإسلام في هذه السرية[1].

وأختها: حمنة بنت جحش، تزوجت ثلاث مرات[2]، وأول أزواجها الصحابي الجليل عبدالرحمن بن عوف، وثانيها الصحابي الشهيد مصعب بن عمير، وكان له منها ابنة، وبقي معها إلى أن استشهد يوم أحد، ثم تزوجها طلحة بن عبيدالله، فولدت له محمداً وعمران.

وخرجت يوم غزوة أحد تسقي العطشى وتداوي الجرحى، ولما انتهت المعركة مضى النساء يسألن عن أزواجهن وأولادهن.. وكانت حمنة ممن ذهب يسأل رسول الله ﷺ فأخبرها رسول الله باستشهاد خالها حمزة بن عبدالمطلب ـ رضي الله عنه ـ فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، رحمه الله وغفر له.

---

(١) انظر الطبقات لابن سعد جـ٣ ص٩٠.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢/٢١٥.

ثم قال: «**يا حمنة احتسبي أخاك عبدالله**». فاسترجعت وطلبت له الرحمة والغفران.

ثم قال لها: «**يا حمنة احتسبي زوجك مصعب بن عمير**»، فقالت صارخة: يا حرباه، فقال النبي ﷺ: «**إن زوج المرأة منها لبمكان**»[1].

نعود إلى زينب، فقد كانت ذات يد طولى في المعروف، تعمل بيدها، وتتصدق، وردت قصتها في القرآن الكريم وسماها رب العزة مؤمنة، وبسببها نزلت آية الحجاب، وقد تزوجت رسول الله ﷺ بأمرٍ من الله بعد أن طلقها زيد بن حارثة.

❊ ❊ ❊

أول الأزواج زيد

كان أول أزواجها زيد بن حارثة حِبُّ رسول الله ﷺ والذي قال عنه ﷺ: «**وايم الله لقد كان زيد بن حارثة خليقاً بالإمرة، ولقد كان أحب الناس إليَّ**».

ولكن!! ماذا عن زيد بن حارثة؟؟ تقول المصادر[2]: إن سعدى بنت ثعلبة أم زيد بن حارثة مضت ذات يوم في الجاهلية قبل الإسلام تبتغي زيارة قومها بني معن، وكانت تصحب معها غلامها الجميل زيد بن حارثة الكعبي ـ غلاماً صغيراً يلعب، فما كادت تحل ديار قومها، حتى أغارت عليهم خيل لبني القَينِ فأخذوا المال، واستاقوا الإبل، وسبوا الذراري.

وكان من جملة من احتملوه معهم ولدها زيد بن حارثة، وكان زيد إذ ذاك صغيراً، غلاماً يَدْرُجُ نحو الثامنة من عمره، فأتوا به سوق عكاظ ـ وهو سوق كانت تقيمه العرب في الأشهر الحُرم للبيع والشراء وتتناشد فيه

---

(١) الطبقات ٨/٢٤١.

(٢) سير أعلام النبلاء ـ الطبقات لابن سعد ـ أسد الغابة وغيرها.

الأشعار - وعرضوه للبيع، فاشتراه ثريٌّ من سادة قريشٍ هو حكيمُ بنُ حزام بن خويلد بأربعمائة دِرْهَم.

واشترى معه طائفة من الغلمانِ، وعاد بهم إلى مكَّةَ، فلما عرفت عمَّته خديجة بنت خويلد بمقدمه زَارَتْهُ مُسَلِّمةً عليه، مُرَحِّبَةً به، فقال لها: يا عمَّة.. لقد ابتعتُ من سوق عكاظِ طائفةً من الغلمان، فاختاري أيّاً منهم تشائينَهُ، فهو هديَّةٌ لكِ.

فتفرستِ السَّيدَةُ خديجةُ وجوه الغلمان.. واختارت زيد بن حارثة، لما بدا لها من علامات نجابته وذكائه وفطنته، ومضت به.

وما هو إلاَّ قليل حتى تزوَّجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبدالله ﷺ، فأرادت أن تطرفَهُ وتهدي له، فلم تجد خيراً من غلامها الأثير زيد بن حارثة فأهدته إليه.

وفيما كان الغلامُ المحظوظُ يتقلَّبُ في رعاية محمد بن عبدالله ﷺ، ويحظى بكريم صحبته، ويَنْعُمُ بجليل خِلالِهِ، كانت أُمه المفجوعة بفقده لا ترقأُ لها عبرة، ولا تهدأُ لها لوعةٌ، ولا يطمئن لها جنبٌ، وكان يزيدها أسىً على أساها أنها لا تعرِفُ أحيٌّ هو فترجوه، أم ميت فتيأس منه[1].

أَما أبوه فأخذ يتحراه في كل أرضٍ، ويسائل عنه كُلَّ رَكْبٍ، ويصوغ حنينه إليه شعراً حزيناً تتفطَّر له الأكباد حيث يقول:

بكيت على زيد ولم أدر ما فَعَلْ ... أَحَيٌّ فيرجى أَمْ أتىٰ دونه الأَجَل
فوالله ما أدري وإني لسائل ... أغالك[2] بعدي السَّهل أم غالك الجبل
تُذَكِّرُنِيه الشمس عند طلوعها ... وتعرِض ذكراه إذا غَرْبها أفل
سأعمل نَصَّ العيس في الأرض جاهداً ... ولا أسأَم التطواف أو تسأم الإبل

(١) رجعنا لأخبار زيد في الإصابة ترجمة ٢٩٠، الاستيعاب على هامش الإصابة ٥٤٤/١. سيرة ابن هشام - صحيح مسلم، ١٣١/٧ باب فضائل الصحابة.
(٢) غالك: سرقك.

وفي موسم من مواسم الحج قصد البيت الحرام نفرٌ من قوم زيدٍ، وفيما كانوا يطوفون بالبيت العتيق، إذا هم بزيد وجهاً لوجهٍ، فعرفوه وعرفهم وسألوه وسألهم، ولما قضوا مناسكهم وعادوا إلى ديارهم أخبروا حارثة بما رأوا، وحدّثوه بما سمعوا.

فما أسرع أَنْ أعدَّ حارثة راحلته، وحمل من المال ما يفدي به فلذة الكبد، وقرة العين ابنه زيد، وصحِبَ معه أخاه كعباً، وانطلقا معاً يغدان السَّير نحو مكة، فلما بلغاها دخلا على محمدٍ بن عبدالله وقالا له: يا ابن عبدالمطلب، أنتم جيران الله، تفكُّونَ العاني، وتطعمون الجائع، وتغيثونَ الملهوف، وقد جئناك في ابننا الذي عندك، وحملنا إليك من المال ما يفي به، فامنن علينا، وفاده لَنَا بما تشاءُ.

فقال محمد ﷺ: **«ومن ابنكما الذي تعنيان؟»**.

فقالا: غلامك زيد بن حارثة.

فقال: **«وهل لكما فيما هو خيرٌ من الفداء»**.

فقالا: وما هو؟

فقال: **«أدعوه لكم، فخيِّروه بيني وبينكم، فإن اختاركم فهو لكم بغير مال، وإن اختارني فما أنا ـ والله ـ بالذي يرغب عمَّن يختارُهُ»**.

فقالا: لقد أنصفت وبالغت في الإنصاف.

فدعا محمدٌ ﷺ زيداً وقال: **«مَنْ هذان؟»**.

قال: هذا أبي حارثة بن شُراحيل، وهذا عمّي كعبٌ.

فقال: **«قد خيَّرتُكَ: إن شئت مضيت معهما، وإن شئت أقمت معي هنا»**.

فقال زيد ـ في غير إبطاءٍ ولا تردُّدٍ ـ: بل أُقيم معك.

فقال أبوه: وَيْحَكَ يا زيد، أتختار العبوديَّةَ على أبيكَ وأُمِّك.

فقال زيد: إني رأيت من هذا الرجل شيئاً، وما أنا بالذي يفارقه أبداً.

فلما رأى محمدٌ ﷺ من زيد ما رأى، أخذ بيده وأخرجه إلى البيت الحرام، ووقف به بالحِجْر على مَلأ من قريش وقال: يا معشر قريش، اشهدوا أنَّ هذا ابني يرثني وأَرثه..

فطابت نَفْس أبيه وعمه، وخَلَّفَاه عند محمد بن عبدالله، وعادا إلى قومهما مطمئني النفس.

ومنذ ذلك اليوم أصبح زيدُ بن حارثة يدعى بزيد بن محمد ﷺ، وظل يُدْعَىٰ كذلك حتى بُعث الرسول ﷺ، وأبطل الإسلام التبني حيث نزل قوله جل وعز: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[1].

فأصبح زيد يدعى: «زيد بن حارثة» بدلاً من زيد بن محمد.

❀ ❀ ❀

زواج زيد من زينب

ما لم يكن يعرفه زيد - أن محمداً هذا الذي اختاره على أُمه وأبيه هو سيد الأولين، ورسول الله إلى خلقه أجمعين.

فلم يمض على حادثة تخييره هذه إلاّ بِضْعُ سنين حتى بَعَثَ الله نبيه محمداً بدين الهدى والحق، فكان زيد بن حارثة أول مَنْ آمن به من الرجال.

أحبَّ النبي ﷺ زيداً حُبّاً عظيماً حتى أطلق عليه لقب حِبُّ رسول الله ﷺ وَدَعُوه «بزيد الحُبّ».

ولكن ما هي علاقة زيد بزينب بنت جحش؟

توافد فتيان مكة وشبابها على أهل زينب بنت جحش صاحبة الحسب والنسب يخطبونها، وفي زحام هذا التوافد كلفت زينب أختها حمنة بنت

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥.

جحش كي تستشير رسول الله ﷺ في أمر بعض الرجال الذين خطبوها، فعرضت حمنة الأمر على النبي ﷺ، ولكن كان لرسول الله رأي آخر، فقد قال: «**أين هي ممَّن يُعلِّمها كتاب ربِّها وسُنة نبيها ﷺ؟**»[1].

إذن فإن لرسول الله ﷺ رؤية ورأي في زوجها القادم، إنه يراه صاحب دين واستقامة وعلم، فمن هو هذا الرجل يا ترى؟

ولما ألحت حمنة لتعرف اسم هذا الرجل، قال لها رسول الله: «**إنّه زيد بن حارثة**».

غضبت حمنة على الفور وجاءت ردة فعلها سريعة، فقالت: يا رسول الله أتزوِّج ابنة عمتك مولاك زيداً.

لم تدر حمنة أن الإسلام له معايير أخرى غير معايير الجاهلية، فمرضاة رسول الله ﷺ زيداً زوجاً لزينب ـ وزيد هو من الموالي، في الوقت التي تفخر فيه زينب بنسبها وحسبها القرشي الذي لا يخفى على أحد ـ.

ومفهوم مرضاة رسول الله ﷺ لهذا الزواج يقوم على أساس: اعتبار أن الدين في الكفاءة أصلاً وكمالاً، فلا تتزوج مسلمة بكافر، ولا عفيفة بفاجر، ولم يعبر القرآن والسنة في الكفاءة أمراً وراء ذلك، فإنّه حرَّم على المسلمة نكاح الزاني الخبيث، ولم يعتبر نسباً ولا صناعة، ولا غنى ولا حرية، فأجاز للعبد القِنّ نكاح الحرة النسيبَة الغنية إذا كان عفيفاً مسلماً، وجوَّز لغير القرشيين نكاح القرشيات، ولغير الهاشميين نكاح الهاشميات، وللفقراء نكاح الموسرات[2].

عادت حمنة بنت جحش إلى أختها زينب التي كانت تنتظر مشورة الرسول ﷺ.

---

(١) انظر الحلية لأبي نعيم: ٥٢/٢.

(٢) ابن القيم في زاد المعاد جـ٥ ص١٥٩، ١٦٠.

فأصاب زينب ذهولاً عميقاً ووجوماً شديداً، فقد غضبت غضباً أشدَّ من غضب أختها، بل قالت قولاً أشدّ من قولها.

أما عن زيد فقد التقى برسول الله ﷺ ويسمع منه عليه السلام أنه أرسل مع حمنة يخطب زينب له، فسُرَّ زيد أَيَّما سرور، ولكن رسول الله ﷺ لا يُخفي على زيد أمر المصاعب التي تحيط بهذا الاقتراح وتنفيذه، فيقول لمولاه زيد: «**لا أراها تفعل، إنها أكرم من ذلك نفساً**».

ويتابع زيد رجاءه ويعرف مكانة الرسول ﷺ عند الجميع، ويطلب منه أن يكلمها بهذا الشأن، ويذكر لها مكانة زيدٍ في قلب رسول الله ﷺ، فأجابه: «**إنّها امرأة لَسْناء**»[(١)].

ويلح زيد على الرسول ﷺ، وهو لا يدري أن الرسول ﷺ يريد تحقيق هذا الزواج لغاية عظيمة وهدف نبيل - يقتضي تضييق الهوة الهائلة بين الطبقات الاجتماعية في المجتمع المسلم، وإعلان شأن الكفاءة المبنية على الدين والعلم والتقوى، وتكون كفاءة التدين والخلق في طليعة كل ما يرجى من الكفاءة، ويرسل الرسول ﷺ لأهل زينب - فيقول: «**قد رضيته لكم وأقضي أن تُنكحوه فأنكحوه**»[(٢)] - أي زوّجوه.

فتجيب زينب قائلة في إصرار: أنا خير منه حسباً يا رسول الله ولست بناكحته، لا أرضاه لنفسي وأنا أيم قريش، أنا سيدة أبناء عبد شمس.

ويعاود الرسول ﷺ قضاءه: «**قد رضيته لك فانكحيه**».

ثم تطلب زينب رضي الله عنها من الرسول ﷺ إمهالها قليلاً وتقول: يا رسول الله أُؤامر نفسي.

وفيما كان الحوار يدور في هذا الشأن نزل قضاء الله عز وجل ولا رادَّ لقضاءه يقول عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن

---

(١) انظر مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش - د. زاهر عواض الألمعي.

(٢) طبقات ابن سعد ١٠١/٨، السيرة الحلبية ٣٢٠/٣.

يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ولما أخبرها رسول الله ﷺ بما نزل من قضاء الله وأمره أُذعنت للأمر وأعلنت الطاعة والرضا، فتقول لرسول الله ﷺ: قد رضيته لي يا رسول الله زوجاً؟

فأجابها: «نعم».

فقالت: إذن لا أعصي الله ورسوله، قد أنكحته نفسي.

وهنا أراد رسول الله ﷺ أن يحقق المساواة الكاملة بتزويجه من شريفة من بني هاشم قريبته زينب ليسقط تلك الفوارق الطبيعية بنفسه من أسرته، وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف بحيث لا يحطمها إلاّ فعل واقعي من رسول الله ﷺ تتخذ منه الجماعة المسلمة أسوة، وتسير البشرية كلها على هداه في هذا الطريق[1].

وتحدث الرسول ﷺ في غير موضع بشأن تذويب الفوارق بين الطبقات، فيقول صلوات الله وسلامه عليه: «**إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه**».

وهل يُعز على هذا نسب وحسب وقد اختار صحبة رسول الله ﷺ على أُمه وأبيه. إنه حِبُّ رسول الله ﷺ. لقد أراد النبي ﷺ بتزويجه فتاة هاشمية هي زينة الهاشميات مكافأته وذلك بطمس معالم الرق التي كانت ماثلة في ذهنه.

وسُرَّ رسول الله بهذا الزواج المبارك، وشارك في تجهيز مؤونته حيث ساق للعروسين عشرة دنانير وستين درهماً وخماراً وملحفة وإزاراً وخمسين مُدّاً من الطعام وعشرة أمداد من التمر، أعطاه ذلك كله رسول الله ﷺ وأولم عليها وأطعم المساكين خبزاً ولحماً[2].

---

(١) الظلال للأستاذ سيد قطب ٥/٢٨١٥.

(٢) انظر السيرة الحلبية: ٣/٣٢٠.

ومرت الأيام هادئة في بيت الزوجية مع زيد، مرّ عام كامل وبدأت العلاقة بين زينب وزوجها زيد بن حارثة تفتر شيئاً فشيئاً.

وقد كان زيد يدعى زيد بن محمد، فخفف ذلك عن زينب في البداية إذ قالت: ومن أعز من زيد بن محمد؟ ولهذا استمرت العشرة بينهما في بداية الأمر حتى أبطل الله التبني، فصار يقال لزيد: زيد بن حارثة بدلاً من زيد بن محمد، ومن هنا نشأت جذور الخلاف وأخذت ترفع على زيد[1].

كانت زينب رضي الله عنها تؤذي زيد بلسانها وترد عليه كلامه، فما كان منه إلا أن ينطلق إلى حبيبه ﷺ ليشرح له ما كان بينه وبينها، ويبدي رغبته في طلاقها وفراقها، لكن رسول الله ﷺ كان يهدىء من نفسه ويدعوه للتريث وسعة الصدر ويقول له: «**أمسك عليك زوجك**».

وتكررت شكوى زيد منها ـ فيقول للرسول ﷺ: يا رسول الله.. أفارقها ـ أي أُطلقها ـ.

فيجيب عليه السلام: «**مالَكَ، أرابك منها شيء؟**».

فيقول زيد رضي الله عنه: لا والله يا رسول الله ما رابني منها شيء، ولا رأيت إلا خيراً، ولكنها تتعظم عليّ لشرفها، وإن فيها كِبراً، تؤذيني بلسانها[2].

فقال عليه السلام: «**أمسك عليك زوجك**».

كان النبي ﷺ يقول لزيد: «**أمسك عليك زوجك**»، وقد سبق إليه علم من الله، أن زيداً سوف يطلق زينب ثم تتزوج النبي ﷺ من بعده.

وفاضت نفس رسول الله بالنصح لزيد، وبالتوجه إلى الله عسى أن تنفع الشفاعة، ولكن الله أوحى إليه بأنه لا راد لقضائه وأمره، وأن هذا الأمر قد شُرّع من السماء لا يُنظرُ فيه لقول هذا وذاك.

---

(1) مع المفسرين ص٦٢ مصدر سابق.

(2) تاريخ الطبري جـ٣ ص٤٢.

ونزل قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

ذكر جمهور المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن زواج زينب بزيد وطلاقهما، وقالت طائفة من الصحابة: ما أنزل الله على رسوله أشد عليه من هذه الآية، وقال الحسن وعائشة رضي الله عنهما: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ لشدتها عليه(١).

وجاء قول الله عز وجل واضحاً وأمره صريحاً بعد ذلك إذ يقول جل وعلا: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وأمسك زيد عليه زوجته، ولكن كان ذلك إلى حين فما استطاع زيد أن يمسك على زينب بعد ذلك، فقد ظل زيد دائم الشكوى من كِبَرِ زينب وتعاظمها عليه حتى انتهى بهما الأمر إلى الطلاق.

وانتهت عدّة زينب من زيد، والنبي ﷺ متردد في التقدم إلى خطبة زينب، فقد كان العرب يحرمون زواج الرجال من أرامل أدعيائهم ومطلّقاتهم، لأنهم كانوا يجعلونهم في منزلةِ الأبناء، كما كانوا يحرِّمون زواج الأدعياء من أرامل الذين يتبنّونهم ومطلقاتهم، لأنهم كانوا يجعلونهم في منزلة الآباء، وكان زيد من الرسول ﷺ بمنزلة الابن، وكانت زينب بزواجها من زيد بمثابة زوجة الابن، فكيف يتقدّم لخِطبتها لنفسِه..؟ أو ما الذي سوف يقوله النّاس عليه؟! وكيف يستنُّ لهم سُنَّةَ زواج المتبني من زوج متبناه، وزواج المدعي من زوج من ادَّعاهُ، وهم على ما هُمْ عليه من رسوخ في عقيدتهم.

ومرّت بالرسول ﷺ لحظات من الحيرة والتساؤل كما مرت أوقات من الحيرة والحرج، وهو يخشى الإقدام على خطبةِ زينبَ، كاتماً بنفسه من

(١) انظر تفسير القرطبي ص٥٢٧١ في تفسير الآية.

الرغبة في الزواج منها، حتى جاءه الوحي يوماً وهو جالس إلى عائشة يتحدث إليها، ثُمَّ سُرِّيَ عنه وهو يبتسم ويقول: «**من يذهب إلى زينب يبشرها بأن الله زوجنيها؟**».

وتلا رسول الله ﷺ ما أنزله الله عليه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

وقالت عائشة تصف ما اعتراها عندما علمت أن الرسول ﷺ سوف يتزوج زينب! فأَخذني ما قرب وما بَعُدَ لما يبلغنا من جمالها، وأخرى هي أعظم الأُمور وأَشرفُها، ما صنع الله بها زوجها!! فقلت: تفخر علينا بهذا.

ومضت سلمى خادمة الرسول ﷺ تبشر زينب بما أنعم الله عليها به بتزويجها من رسوله ﷺ.



الزواج المبارك

تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش رضي الله عنها بنص كتاب الله ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ فكانت تزهو بذلك أمام أمهات المؤمنين قائلة: إن الله أنكحني رسول الله ﷺ من فوق سبع سموات وزوجكن أهلوكنَّ، وزوجني الله من فوق عرشه.

وقد تزوج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش بعد عودته من غزوة المريسيع[1]، وقيل: سنة خمس في ذي القعدة، وقد صنع رسول الله ﷺ وليمة من خبز ولحم. وقد تحدث أنس خادم الرسول عن هذا اليوم فقال:

---

(١) بني المصطلق ـ انظر طبقات ابن سعد ١١٤/٨.

ما أولم رسول الله ﷺ على امرأة من نسائه أكثر وأفضل ممّا أولم على زينب؛ أطعم خبزاً ولحماً حتى تركوه[1].

ولما دخلت زينب على رسول الله قال لها: ما اسمك، قالت: بِرَّة فسماها زينب[2].

❋ ❋ ❋

مع نساء النبي ﷺ

وشعر نساء النبي ﷺ بما لزينب من مكانة أولاها الله إياها، وشملها بها رسوله، وشعرن بحب الرسول ﷺ لها، وأحسسن بميله إليها.

وكانت أكثرهُنَّ بهذا الشعور حِسّاً ودراية، زوجة الرسول ﷺ المحببة إلى قلبه عائشة رضي الله عنها، فقد شعرت بما احتلت زينب من مكانة في قلب الرسول ﷺ قاربت أن تساوي مكانتها هي في قلبه، وأحست بما نالت زينب من رضاه، وحازت من إعجابه، حتى لكانت عائشة تقول في ذلك: لم تكن واحدة من نساء النبي ﷺ تناصبني غير زينب.

كما كانت تقول عن حب الرسول ﷺ لزوجتيه: زينب وأم سلمة: كانتا أحب نسائه إليه - فيما أحسب - بعدي، وكان لشعور زوجات النبي ﷺ بما لزينب من المكانة لدى الرسول أن شعرن بالغيرة من زينب، وعددنها أخطر منافسة لهن في حب الرسول ﷺ، وكانت أكثر الزوجات أيضاً بهذا الشعور حساسية عائشة بنت أبي بكر، فلم تستطع عائشة أن تكتم ما بنفسها من غيرة من زينب، حينما كانت ترىٰ رسول الله ﷺ يطيل المقام عند زينب في أثناء دورته اليومية على نسائه لتفقد شؤونهنَّ، فكانت تسعى

---

(١) رواه مسلم ١٠٤٩/٢.
(٢) أسد الغابة: ٤٦٤/٥.

إلى زوجة رسول الله حفصة بنت عمر بن الخطاب، وهي التي كانت عائشة تصطفيها وتتخذها صديقة.

وكانت أن اتفقت هي وحفصة، وأشركتا معهما في هذا الاتفاق سودة بنت زمعة، على أنَّ أيَّتهنَّ يجيئها الرسول ﷺ بعد خروجه من عند زينب تقول له: رائحتك مغافير «والمغافير طعام حلو ذو رائحة كريهة». وكان النبي ﷺ يكره الرائحة الكريهة.

فلما غادر النبي ﷺ زينب وجاء إلى عائشة في دورته اليومية على نسائه، قالت له عائشة: إني أَشَمُّ رائحة مغافير أكلت مغافير؟

فلما أتى حفصة قالت له ما قالت عائشة، وهكذا سألته سودة، فلما أجابها بالنفي، سألت فما هذه الريح؟!

قال: **«سقتني زينب شربةً من عسل»**.

قالت سودة بلهجة التي أدركت السبب: رعت نحلة العرفط - أي النحلة التي تخرج العسل رعت العرفط، وهو الشجرة التي تثمر المغافير -.

فكان من هذه المؤامرة التي تآمرتها بعض زوجات الرسول نتيجة غيرتهن من احتباس الرسول عند زينب؛ أن حَرَّم الرسول ﷺ شرب العسل عند زينب، وبذلك زال السبب الذي كان يحتبسُهُ عندها أكثَرَ من غيرها، وحُرِمَتْ زينب من مقام الرسول لديها أكثر من ضرائرها.

وكما كانت عائشة الزوجة الحبيبة من الرسول تغار ممَّن ينافسها في حب زوجها، كانت زينب أيضاً تغار من شدّة تعلق النبي ﷺ بعائشة رضي الله عنها.



مع عائشة والضرائر

بالرغم من أن الرسول ﷺ كان يُقَسِّمُ أوقاته بالعدل بين نسائِهِ، فيدور

عليهن كل يوم يتفقد أُمورَهُنَّ ويَرْعَى شؤونهن، ثم يبيت عند كل واحِدة منهن ليلةً؛ وبالَرغم مِن أَنَّهُ يساويهنَّ - في النفقة، ويقسم بَيْنهنَّ ما يُهْدىٰ إليه من هدايا المسلمين - كانت زينب ونساء النبي ﷺ ينقمن على عائشة تحري المسلمين بهداياهم يَوْمها، إذ يبعثون بها إلى الرسول في بيتها، ناشدين من وراء ذلك مرضاة الرسول، لما يعلمون من منزلة عائشة ومكانتها عنْدَهُ.

وتَزعمت زينب مجتمعاً لزوجات النبي ﷺ يتناقشن ويتشاورن في هذا الأمر، واتفقت معهن في هذا المجتمع على أن يطلبن من فاطمة بنت رسول الله ﷺ السِّفارة بينهن وبين أبيها، بأن تطلب منه مساواتهن بعائشة، بأن يأمر الناس أن يرسلوا إليه هداياهم أينما كان.

ودخلت فاطمة على الرسول وعائشة عندَهُ تقولُ: إنَّ نِسَاءكَ أرسلنني إليك، وهُنَّ ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة!!

وسأل النبي ابنته: «**أي بنية، ألست تحبين ما أُحِبُّ؟**».

قالت: بلى.

قال: «**فأَحبيها**» - يعني عائشة -.

وعادت فاطمة إلى زوجات الرسول تُعرِّفُهُنَّ ما كان، ولكِنَّ زوجات الرسول لم يقتنعنَ بما جاءتْهُنَّ به فاطِمَةُ، وطلبن منها أن تعاود سفارتها بينَهُنَّ وبين أَبيها، ورفضت فاطمة أن تعاود أَباها فيما ردَّها عَنْهُ، فلم تجد زوجات النبي حينئذ أحداً خَيْراً من زينب يوفدنها سفيرة لَهُنَّ إلى زوجهنَّ الرَّسول.

فذهبت تقوم بوساطتها وهي تعلم حق العلم مكانتها عند الرسول ﷺ، وتحسُّ بمقدرتها على مواجهة عائشة الحبيبة المقرَّبة إلى قلب زوجها. ولما استأذنت زينب على الرسول ﷺ، قال: «**هذه زينب فأذنوا لها**».

وكلمت زينب الرسول ﷺ وعائشة معه فيما وفدت إليه من أجله. واستطال بزينب الكلام حتى نالت بكلامها عائشة بمنالٍ كبيرٍ، وغضبت

عائشة لما نالتها به زينب، وتحفزت للرد عليها بما نالتها به، ولكن الرسول ﷺ أشار لها أن تسكت، وسكتت، ولكن زينب اندفعت بكل ما تُحسُّهُ من غيظٍ وغيرةٍ، وبكل ما تشعر به مِنْ أَنَّ مركزها ومكانتها يؤهلانها، إلى المبالغة في النيل مِنْ عائشة حتى لم يجد معه الرسول بُدّاً مِنْ أن يترك لعائشة حقَّ الردِّ عليها[(١)].

وكان من تأثير ما كانت تشعر به زينب من غيرة، تجاه ما كان يهدىٰ إلى الرسول ﷺ في يوم عائشة، فقد أُهديت إلى الرسول ذاتَ يوم شاةٌ، فأمر بذبحها، وطلب من عائشة أن ترسل إلى كلٍّ من زوجاتِهِ بنصيبٍ مِنْها؛ ولكن زينب لم تقبل نَصيبَها، وردّته على الرَّسول، فطلب الرسول من عائشة أن تزيدها؛ فزادت عائشة في نصيب زينب، ولكن زينب ردَّته كذلك، عندئذٍ قالت عائشة للرسول ﷺ : أقمأت وجهك حين تَردُّ عليك الهديَّة - أَيْ أذلَّتْ وَجْهَكَ -.

فغضب رسول الله من ذلك القول وقال: «**أنتن أَهْوَنُ على الله من أن تقمئنني. . والله لا أدخل عليكن شهراً**».

وكان هذا السبب مضافاً إلى أسباب أُخرى أتتها بعض أُمهات المؤمنين سبباً في اعتزال رسول الله ﷺ نساءه شهراً؛ لا يدخل عليهن فيه، حتى وجفت قلوبُ زوجاتِ الرسول خوفاً وجزعاً، وامتلأت نفوسهن ندماً على ما فرَّطن في حَقِّ زوجهنَّ الكريم.



الصالحة التقية

كانت عائشة رضي الله عنها برغم غيرتها صادقة صديقة، فرغم ما جاء

---

(١) انظر الحديث الذي أخرجه البخاري ٥/١٥١، ١٥٣ في الهبة - باب من أهدى إلى صاحبه.

من مرويات عما بينها وبين زينب رضي الله عنهما من أمور الغيرة والضرائر إلاَّ أن عائشة أوجزت فضائل أم المؤمنين زينب في حديث لها تقول فيه: . . .ولم أرَ امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقىٰ لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدَّق به، وتقرب به إلى الله تعالى(١).

وبالمقابل كانت زينب تقية ورعة تحمي سمعها وبصرها، فقد كان لها في حديث الإفك الذي اتهمت فيه عائشة رضي الله عنها ظلماً وزوراً وكذباً؛ كان لها موقف عظيم دلَّ على صلاحها، وأظهر تقواها، فقد شهدت حين سُئِلت عما تعلم من أمر عائشة، فقالت: أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلاّ خيراً.

وبذلك نتبين أن صلاح زينب وورَعَها وتقواها يمنعانها من أن تؤذي عائشة رضي الله عنها.

وكانت زينب إلى جانب صلاحها وتقواها امرأة نشيطة عاملة تدبغ وتحرز، وكان من المعروف عنها والمشهور أنّها صوامة قوامة تعمل بيديها ما تُحسِنُهُ، ثم تتصدق بما تعمل في سبيل الله على الفقراء والمساكين.



وفاتها

ظلت زينب رضي الله عنها على حالها بعد وفاة النبي ﷺ حتى ماتت، وكانت أول من لحقت بزوجها من زوجات النبي ﷺ فقد ظلت تقية، بارَّة بالفقراء، متصدقة بما تعمل بيديها على الأيتام والمساكين، حتى بلغ من إحسانها في هذا السبيل أنّه حينما أرسل عمر بن الخطاب وهو أمير

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٤٢٢ من طريق الزهري أخبرني محمد بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام.

المؤمنين إلى أمهات المؤمنين بعطائهن الذي خصّصه لهن، وكان عطاء زينب الذي بعثه إليها اثني عشر ألفاً، لم تستطع زينب أن تنظر إلى هذا المال، ولا أن تمسّه بيدها، بل استترت منه، وقالت: غفر الله لعمر... صُبُّوهُ واطرحوا عليه ثوباً.

ثم قالت لبرزة بنت نافع: مُدّي يدكِ، فاقبضي من هذا المال، ثم اذهبي به إلى بني فلان.. وبني فلان.. وجعلت تذكر لبرزة أسماء الكثيرين من الأيتام والأرامل وذوي الحاجة، حتى لم يبق تحت الثوب من المال إلاّ النزر اليسير، فقالت لها برزة: يا أُم المؤمنين، والله لقد كان لنا في هذا حَقٌّ.

قالت زينب: فكم ما تحت الثوب؟

ورفعت زينب يدها إلى السماء تبتهل إلى الله بقولها: اللهم لا يدركني عطاءٌ لعمر بعد عامي هذا... اللَّهُمَّ لا يدركني هذا المال في قابل، فإنه فتنةٌ[1].

وبلغ عمر ما فعلت زينب، فقال: هذه امرأةٌ يُرادُ بها الخيرُ. وجاءَ فوقف على بابها، وأرسل إليها بالسلام وقال: قد بلغني ما فرقتِ.

ثم أرْسَلَ إلَيْها بأَلْفِ دِرْهَم، لِتُنْفِقها على نَفْسها، ففعلَتْ بها ما فعلت بالمال الذي أرسل إليها من قبل.

وظلت زينب تعمل بما أوصى الرسول ﷺ زوجاته به، وتجنبت ما نهاهُنَّ عنهُ، حتى إنَّها رفضت أن تغادر دارها لحج بيت الله، لأن رسول الله ﷺ قال لزوجاته في آخر حجة حجَجْتها معه: **«هذه الحجة ثم ظهور الحصر»** ـ أي لكنَّ هذه الحجة ثم تلزمن بيوتكن وتجلسن على الحصير ـ فكانت زينب وسودة هما الوحيدتان من زوجات الرسول اللتان لم تخرجا للحج بعد وفاة النبي ﷺ.

---

(1) انظر طبقات ابن سعد ١٠٩/٨.

وكان من أقوال النبي ﷺ لزوجاته، يبشرهن بأول من تلحق به منهن بعد موته: **«أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً»**[(١)].

فكان نساء النبي ﷺ إذا اجتمعن في منزل إحداهن بعد موت رسول الله ﷺ يمدون أيديهن إلى الجدار، يتطاولن في أيتهن أطول يداً، فلم يَزَلْنَ يفعلن ذلك حتى ماتت زينب ولم تكن بأطولهن، فعرفن حينئذ أن النبي ﷺ إنما أراد بطول اليد الصدقة.

وكان من تصدُّق زينب على الفقراء وذوي الحاجة ومن حرصها على ألا تُخَلِّف أو تترك شيئاً من بعدها دون صدقة ـ أنها كانت قد أعدت كفنها الذي تُكفَّنُ فيه بعد موتها.

ثم خطر ببالها حين مرضت، وحضرتها الوفاة، أَنَّ عمر ربما أرسل إليها بكفن؟ فقالت توصي من حولها من أهلها: إني قد أعددت كفني، ولعل عمر يبعث إليَّ بكفن، فإن بعث فتصدقوا بأحدهما، فلما ماتت وبعث عمر إليها بكفنٍ تصدقت عنها أُختها حمنة بنت جحش بكفنها الذي كانت قد أعَدَّتْهُ.

وأوصت زينب أن تحمل إلى قبرها على سرير النَّبي ﷺ، وكان لم يحمل عليه غير صديق الرسول الحميم، خليفة المسلمين، أبو بكر الصديق فحملت عليه وسُتِرَ النعشُ بغطاءٍ أشارت أسماء بنت عميس على عمر بستر النعش به[(٢)]، كما يفعل أهل الحبشة، وكانت أسماء ممن هاجرن بصحبة أزواجهن إلى الحبشة.

وكان موت زينب في يوم حار قائظ من سنة عشرين للهجرة، فأمر

---

(١) رواه مسلم ٢٤٥٣ في فضائل الصحابة، باب فضل زينب أم المؤمنين من طريق عائشة بنت طلحة. وأخرجه البخاري ٢٢٦/٣ من حديث عائشة رضي الله عنها أن بعض أزواج النبي ﷺ... انظر سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٢١٣، ٢١٤، ٢١٥.

(٢) إسناده صحيح، وهو في طبقات ابن سعد ١١١/٨.

عمر بضرب فسطاط على قبرها، ليقي الحفارين الذين يحفرون القبر شدة حرارة الشمس، فكان أول فسطاطٍ ضُرِب على قبر في البقيع.

ووقف عمر على قبر زينب قبل أن تنزل فيه ـ وكان يَسُرُّهُ أن يشارك في إنزالها ـ يقول للناس: إني أرسلت إلى نساء النبي ﷺ حين مرضت زينب: من يمرضها ويقوم عليها؟! فأرسلن: نحن، فرأيت أن قد صدقن.

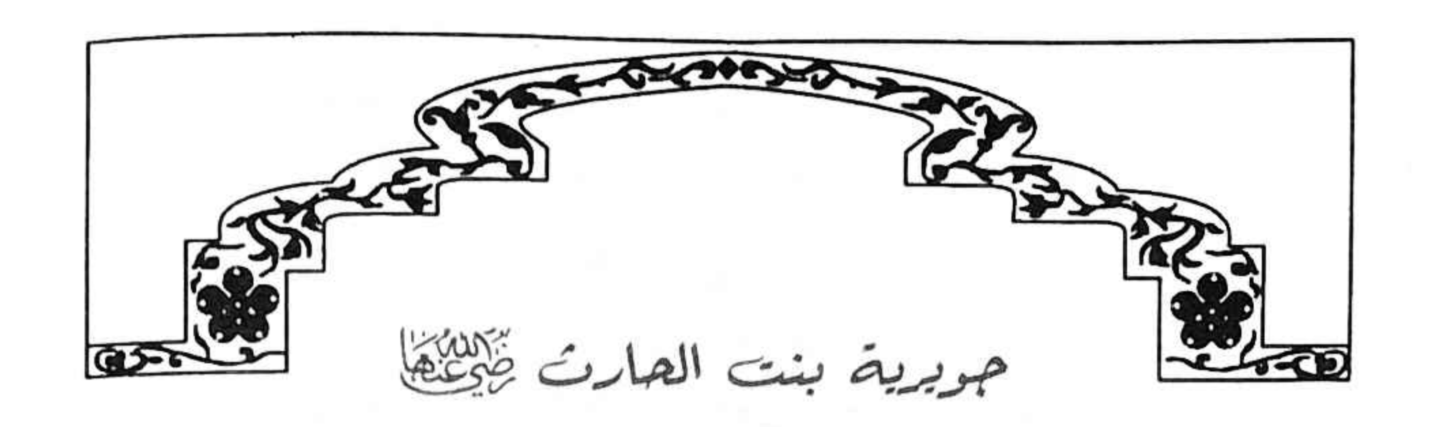
ثم أرسلت إليهن حين قبضت: من يغسّلها ويكفّنها؟ فأرسلن: نحن، فرأيت أن قد صدقن.

ثم أرسلت إليهن: من يدخلها قبرها؟ فأرسلن: مَنْ يحلُّ له الدخول عليها في حياتها، فرأيت أن قد صدقن، فاعتزلوا أيُّها الناس.

فتنحى النّاس عن القبر، وصلى عمر على زينب، وكبّر عليها أربع تكبيرات، وقام بإنزالها القبر بنو أخيها، وبنو أُختها.

رحم الله زينب فقد كانت أواهة، خاشعة، متضرعة، رحم الله زينب فقد كانت صوّامة قوّامة نزل فيها قرآنٌ وصفها بالمؤمنة، رحم الله أم المؤمنين زينب.





جويرية بنت الحارث رضي الله عنها

كلمات

ـ كانت أعظم الناس بركة على قومها.

ـ لما قسّم رسول الله سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس أو لابن عم له فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحة. لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، فوالله ما هو إلاَّ أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنْ سيرى فيها ﷺ ما رأيت. [عائشة بنت أبي بكر في سيرة ابن هشام].

ـ كانت عاقلة، صاحبة رأي حكيم.

ـ كانت قانتة ذاكرة، صوّامة قوّامة، تقية، نقية القلب والسريرة.

ـ كان أبوها الحارث بن ضرار سيد قومه، وأنعم الله عليه بالإسلام.

ـ توفيت سنة ٥٠هـ عن عمر قارب السبعين، ودفنت في البقيع مع أمهات المؤمنين.

ـ يا رسول الله، أنا بنت الحارث بن أبي ضرار، سيد قومه، وقد

أصابني من البلاء، ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك عَلَى أمْري. [برة بنت الحارث بن ضرار].

❊ ❊ ❊

حديث في البداية

هذه الكلمات، جاءت من برّة بنت الحارث بن ضرار، لرسول الله ﷺ، ترى من هي برةُ؟ وما هي قصتها؟ وما الذي أصابها من البلاء حتى وقعت في نصيب الصحابي الجليل ثابت بن قيس، فكاتبته على نفسها، وجاءت تستعين بالرسول ﷺ علىٰ أمرها؟

كانت برَّةُ بِنْتَ سَيِّدِ قَوْمِهِ، وزعيم أهله، كانت بنت سيد بني المصطلق ـ الحارث بن ضرار ـ، وبنو المصطلق فرع من قبيلة خزاعة، وتقع منازلهم على مسافَةٍ غَيْرِ بعيدةٍ من المدينة؟[1]؟.

وكانت برَّة فتاة حلوة ملاحة، شديدة الحلاوة، لا يراها أَحدٌ إلاَّ أخذت بنفسه، ونالت إعجابه، وكانت زوجاً لابن عمٍّ لها، هو مسافع بن صفوان؛ وكانت برَّة لما لها من جمالٍ ومَلاحَةٍ، ولِما لأبيها في قومه من شرفٍ وعزَّةٍ وسيادةٍ تتمتَّع بمكانةٍ مرموقةٍ، وتنال من بين أترابها منزِلَةً من الترفِ والرفاهَةِ تُحْسَدُ من أَجلها.

وبلغ بني المصطلق ما كان من أَمر رسول الله، ومقدار ما وصلت إليه دعوتُهُ للإسلام من انتشارٍ عمَّ الكثير من قبائل العرب، فها هو ذا منذ هجرته من مكَّة إلى المدينةِ وهو يحقق للإسلام نصراً كبيراً، فهو في مدىٰ ستِّ سنوات كانت رسالته تغمر الجزيرة كلها بالنور، نور التشريع العظيم والدين

---

(١) أخرجه ابن هشام في «السيرة» ٢/٢٩٤، ٢٩٥ وإسناده صحيح ـ عن ابن إسحاق ومن طريقه أحمد ٦/ ٢٧٧ـ وانظر ترجمتها رقم ٣٩ في سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٢٦١.

القويم، فدخل في دعوته وفي دينه من العرب والعجم أفواجٌ، رجالاً ونساء، وحالَفَهُ كثيرٌ من القبائل.

وها هو ﷺ قد انتصر على أعدائه من قريش وحلفائهم في غزوة الأحزاب، فانصرفوا عن المدينة مخذولين مدحورين بعد أن حاصروهم بجموعهم ما يقرب من الثلاثين يوماً؟[1]؟.

وها هو محمد ﷺ بنفسه يستأصل شأفَةَ اليهود الذين حالفوه وعاهدوه حين مقدمه إلى المدينة، ثم نقضوا حلفهم، وأرادوا أن يغدروا شَرَّ غدرِ.

وها هو ذا يرسل بجيوشه ﷺ لتأديب العصاة من القبائل الذين حالفوه ثم غدروا بِهِ، ويبعث بِرُسُلِهِ لتأليف النّاس، ودعوتهم إلى الإسلام.

❀ ❀ ❀

وماذا عن الحارث بن أبي ضرار

فكر الحارث بن أبي ضرار - سيد بني المصطلق - في أمر محمد ﷺ، وفي أمر انتشار دعوته، وقبول رسالته، وفي مدىٰ خطر انتشار هذه الدعوة على قبيلته، وعلى أمثالها من قبائل المشركين، فرأىٰ أن يسعى إلى تحريض قبائل العرب، وجمع جموعهم، ليخرج بهم إلى محاربة محمد ﷺ على غُرَّةٍ عَسَىٰ أنْ ينال منه منالاً.

وبلغ النبي بالمدينة ما بيَّتَ بنو المصطلق، وما دبَّر الحارث بن أبي ضرار، فقرَّر أن يسارِعَ هو إلى غزوهم قبل أن يغزوه.

أعد محمد ﷺ عُدَّته، وجهَّز جيشَ المسلمينَ على عَجَلٍ، وخرج على رأسِهِ يقصِدُ منازل بني المصطلق تصحبُهُ من نسائه زوجته عائشة.

---

(١) انظر السيرة غزوة الأحزاب، المغازي للواقدي، غزوات النبي - عبدالمنعم الهاشمي ط دار النفائس بيروت ص٥٧.

وباغتت جموع المسلمين الأبطال بقيادة النبي ﷺ، باغت جيش بني المصطلق قبل أن يتم استعداده، ويأخُذَ أهبَتَهُ، فكان أنْ تفرَّقَتْ الجموعُ عن بني المصطلقِ هاربة، تاركة إيّاها هدفاً سهلاً ومنالاً هيِّناً لجيش المسلمين.

❀ ❀ ❀

المعركة

والتقى الجمعان بالقرب من ماء لبني المصطلق، اسمه «المريسيع» فلم يدم القتال طويلاً، فسرعان ما هزمت بنو المصطلق، ووقعت إبلهم وماشيتهم وأبناؤُهُم ونساؤهم في أيدي المسلمين.

وكان في قتلى بني المصطلق مُسافِعُ بن صفوان، وكانت في الأسرى الذين أسرهم المسلمون زوجَتُهُ: بَرَّةُ بنت الحارث بن أبي ضرار، وسُرَّ المسلمون بانتصارهم، وفرحوا بما أنعم الله به عليهم من النصر، وحطّوا بجوار ماء المريسيع يستقون ويستريحون.

وتتحدث السيدة برَّة عن هذا اليوم فتقول: فلبثت أرىٰ من النَّاس والخيل والسِّلاح ما لا أصف من الكثرة، فلما أسلمت وتزوجني رسول الله ﷺ ورجعنا إلى المدينة فجعلت أنظر إلى المسلمين، فليسوا كما رأيت، فعلمت أنّه رُعْبٌ من الله يلقيه في قلوب المشركين.

وفيما كان المسلمون يستريحون عند ماء المريسيع، وتزاحم المسلمون على البئر، فكانَ من ذلِكَ أن تشاحَنَ رجل من الأنصار مع رجُلٍ من المهاجرين، وكانَ أنْ تَفوَّهَ عبدالله بن أُبَيٍّ رَأْسُ المنافقين في المدينة بألفاظ ضِدَّ المهاجرينَ، خشِيَ معها النَّبيُّ ﷺ أن تستعر نار الفتنةِ بين المسلمين، فأمر بالارتحال سريعاً إلى المدينة.



الطريق إلى المدينة

وَارتَحَلَ المسلمونَ عَنْ منازلِ بَنِي المصْطَلِقِ، في وقتِ حرٍّ وقيظٍ لم يألف الناس من النبي ﷺ الرحيل فيه، وقد حملوا معهم ما غنموا من متاع وأَسْرَىٰ، وساروا مسرعين لأمر الرسول، لا يحطون إلاَّ لِنَوْمٍ، أو لضرورةٍ قصوى.

وبين نساء بني المصطلق الأسيرات اللاَّتي أخذهن جيش المسلمين، بَرَّةُ بنت سيد بني المصْطَلَقِ، وقد استبد بها الحزن والهَمُّ لما تتوقع من ذُلُ الأَسْرِ، وتَرْكِ الأَهْلِ، وأخذها التفكير فيما ينتظرها من مصير مجهولٍ.

وشارفَ الرَّكْبُ المدينَةَ وقد نالَ من أفرادِه التَّعَبُ، وأَحسوا الإرهاقَ، فأَمر النبي ﷺ أن يحطوا للنوم والرَّاحة، ومع بزوغ الفجر استأنف الجيش المسيرَ حتّى دَخَلَ المدينَةَ وانتظر النَّاسُ أَمْرَ النبي ﷺ في تقسيم ما أنعم الله به على المسلمين من غنائم بني المصطلق وسباياهم، فهذا من فضل الله عليهم ونعمته.

❊ ❊ ❊

فهل لك في خير من ذلك؟

اطمأن المقام برسول الله ﷺ بالمدينة، وأقبل يُقَسِّمُ ما أفاء الله على جيش المسلمين في غزوة بني المصطلق.

وفَرِحَ المسلمون بما آتاهم الله من فضله، وفرحوا بما قُسِّمَ عليهم وانصرف كل منهم يدبِّر ما أصابَ من نعم، وما حصل عليه من مال وشاة وإبل.

كانت برّة بنت سيد بني المصطلق تسير إلى بيت النبي ﷺ وكلها أمل في أن يُفَرِّجَ كربتها، ويزيل غمها، ويؤنس وحشتها هذا الرَّجل الّذي سَمِعَتْ بكرَمِهِ صلوات الله وسلامه عليه، هذا الرجل الذي سيزيل عنها ما تَشْعُرُ من مهانَةِ السَّبْيِ وذُلّ الأَسْرِ.

فقد وَقَعَتْ بَرَّةُ عند تَقْسِيم السَّبَايَا في نصيب ثَابتِ بن قَيْس، فأرادَتْ أَن تتخلَّصَ من الأَسر وأنْ تفتدي نفسها من ثابتٍ، ولكنَّ ثابتاً ساومها، وأَغْلى عليها الفِداءَ، وبالَغَ فيه مبالغةَ شديدَةَ، فرأت أَنْ تَلْجأ إلى رَسُولِ المسلمين تستنجد به في مِحْنتها، وتستعدي بِهِ على ثابت.

واستأذنت برَّة في الدُّخُولِ على الرسول ﷺ وانتقبت عائشة إلى الباب لترى من تلك، فإذا أمام امرأة حلوة ملاحة، مفرطة الملاحة فاتنة، تأخذ بمجاميع القلب[1]، وتشرح الصدر وتُبْهج النفس، شابَّةٌ في نحو العشرين من عمرها[2] ترتجف قلقاً وذُعراً، وقد زاد انفعالها حيوية وسحراً.

عرفت عائشة فيها سَبيَّةً من سبايا بني المصطلق جاءت إلى رسول الله في أمرٍ من أمورها.

وكرهت عائشة برَّةَ لأول ما رأتها، وكرهت ـ وقد علمت أنّها أَمَةٌ ـ أن تدخل على رسول الله ﷺ فيرى فيها ما رأت هي: فقد كان رسول الله ﷺ لا ينظر إلى المرأة عندما يخاطبها إلاَّ إذا كانت أَمة ـ ولكن.. كيف تحول عائشة بين سَبيَّةٍ من السَّبايا، وبين الاستئذان لها في الدخول على رسول الله؟!

ألحّت الشابة الغريبة في الدخول على رسول الله ﷺ فلم تملك «عائشة» إلاَّ أن تستأذن لها كارهة، وفي نفسها خاطر قلق.

ودخلت «برة» الشابة على الرسول ﷺ تستنجد به ممَّا أَلَمَّ بها وتستعينه على أمرها تقول: يا رسول الله، أنا بنت الحارث بن أبي ضرار، سيِّد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي[3].

---

(١) انظر ابن إسحاق في السيرة ٣٠٧/٣، وتاريخ الطبري ٦٦/٣، والاستيعاب ٨٠٤/٤، والسمط الثمين ١١٧.

(٢) سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٢٦٣ ترجمة جويرية رقم ٣٩.

(٣) انظر سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٢٦٢.

فنظر محمد ﷺ إلى برة نظرة عطفٍ وإشفاقٍ، وتحرك في نفسه ما عُرِف عنه من النجدة والنخوة والكرم، وتأثر الفارس العربي لهذه الكريمة المهانة والعزيزة المستذلة. واستثار شهامته موقفُ هذه السيدة الحرة الأصيلة، والتي تلوذ به ـ وهو الذي هزم قومها ـ وها هي تريد أن تنجو من مهانة السبي وعار الرق.

ورق قلبه صلوات الله وسلامه عليه لبرة، العربية الخزاعية، بنت سيد بني المصطلق، في موقفها ببابه مستطارة اللُّب، ولا من ينقذها من محنتها سواه.

فقال لها ﷺ في رحمة وحنو: «**فهل لك في خير من ذلك؟**».

فقالت متلهفةً: وما هو يا رسول الله؟

قال: «**أقضي عنك كتابك، وأتزوجك!**».

فانشرحت أساريرها، وتهلل وجهها الجميل، وكادت أن تطير من فرحتها، فهذه نقلة كبيرة وشرف عظيم، إنّه على غير المتوقع، فمن سبيَّة أسيرة، جاءت إلى النبي ﷺ تستعينه على أمرِها، فإذا بالنبي ﷺ يعرض عليها الحرية والزواج والشرف، يا إلهي كم كان عظيماً هذا الرجل.

وانتبهت من مفاجأتها وأجابت الرسول على الفور: نعم يا رسول الله!!

قال ﷺ: «**قد فعلت**»[1].

وانصرفت برّة من حضرة رسول الله ﷺ بنفسٍ راضية مطمئنة، حتى يقضي رسول الله ﷺ عنها كتابها، ويؤدي ثمن خلاصها من الرق وولوجها الحرية والشرف والمكانة الطاهرة.

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر السيرة: ٣٠٧/٣ وترجمة جويرية في الاستيعاب ١٨٠٤/٤.

الزواج المبارك

زفت السيدة الجليلة جويرية بنت الحارث سيد قومه إلى رسول الله ﷺ، وسرى نبأ زواجها من النبي ﷺ سريعاً هامساً ندياً. فسمعه المسلمون فرحين بما آتاهم الله من فضله وما أنعم على رسوله ﷺ بالعزة، فأصبح هو الأعز لا كما قال المنافق عبدالله بن أبي بن سلول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وكان هو ومن معه من المنافقين هم الأذلاء، والرسول ﷺ ومن معه هم الأعزاء الذين أعزوا الذليل ممن كان بين أيديهم من أسارى.

قال المسلمون عندما سمعوا هذا النبأ السار وقد كان عدد أسرى بني المصطلق أكثر من سبعمائة، وكانت غنائم الإبل ألفي بعير، وغنائم الشاة خمسة آلاف شاة، وكان السَّبيُ من النساء والذراري أهل مائتي بيت تقريباً.

وقد تحدثت جويرية بنت الحارث وأهلها عن هذا اليوم الذي زلزل فيه الإسلام أركان الشرك في نفوسهم، فقال أبوها الحارث بن أبي ضرار عندما أتاهم رسول الله وهم على ماء المريسيع: أتانا ما لا قبل لنا به.

أما جويرية فتقول: فلبثت أرى من الناس والخيل والسلاح ما لا أصف من الكثرة. فلما أسلمت وتزوجني رسول الله ﷺ ورجعنا، جعلت أنظر إلى المسلمين فليسوا كما كنت أرى، فعلمت أنه رعبٌ من الله يلقيه في قلوب المشركين[1].

وذكر الواقدي ـ رحمه الله ـ قال: كان رجل من بني المصطلق قد أسلم فحسن إسلامه يقول: لقد كنا نرى رجالاً بيضاً على خيل بلْقٍ، ما كنا نراهم قبل ولا بعد[2].

تلك هي أحاديثهم التي تدل على شجاعة المسلمين وجرأتهم في قول

---

(١) سيرة دحلان ١٠٣/٢.

(٢) المغازي للواقدي ٤٠٩/١.

سيد بني المصطلق عن الرسول ﷺ: أتانا ما لا قبل لنا به.

وتلك هي أحاديثهم عن الإسلام عندما رأت جويرية المسلمين وعاشت بينهم فعلمت أنه رعب من الله يلقيه في قلوب المشركين، وطمأنينة وسكينة يتحلى بها أتباع محمد ﷺ.

وها هي أحاديثهم تروي عن جنود لم يروها جاءت لنصر المؤمنين مسومين وعددهم بالآلاف، عندما قال رجل من بني المصطلق: لقد كُنّا نرى رجالاً بيضاً على خيل بلْقٍ، وما كنا نراهم قبل ولا بعد.

نعود إلى الزواج المبارك والزفاف السعيد، فقد خرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج بنت الحارث بن أبي ضرار، فتداعوا لتكريم السيدة التي أعزَّها نبيهم بالزواج، وأقبلوا على من بأيديهم من أسرى قومها، فأُرسلوا أحراراً وهم يقولون: أصهار رسول الله ﷺ.

نعم لقد قالوا عما كان بأيديهم من أسارى: أصهار رسول الله ليسترقون.. أيُعقل هذا؟! إنهم يكرهون أن يروا أصهار رسول الله الجدد ـ أهل جويرية ـ أرقاء، أسرى، ولم يلبثوا جميعاً حتى أعتقوا ما أصابوا من سبي بني المصطلق، فبلغ ما أعتقوا مائةَ أهل بيت منهم، حتى قالت عائشة عن جويرية في ذلك: لا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها.

وهكذا أيضاً نال بنو المصطلق الشرف كل الشرف إذ صاروا أصهاراً لرسول الله وحظوا ـ وقد أسلموا ـ بنعمة الدنيا والآخرة.



وماذا عن الحارث بن أبي ضرار؟

لم يهدأ بال هذا الرجل العربي الأصل والأرومة، الخزاعي القبيلة، لم يهدأ بال الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق منذ أن أُخِذت ابنته أسيرة ضمن الأَسرىٰ الذين وقعوا غنيمة في أيدي المسلمين، فراح يفكر ويدبر ويعمل على فدائها واستردادها بأسرع ما تمكّنه من ذلك ظروفه ومواردُهُ.

وعلى ذلك سار الحارث إلى المدينة، وقد ساق معه جمعاً من الإبل لفداءِ ابنته بها من المسلمين.

وبينما هو ينزل بمكان اسمه «العقيق» للراحة قبل دخولِهِ المدينة، وقد سرحت الإبل التي جاء بها لفداء ابنته أمامه، أعجبه منها بعيران، وَدَّ لو احتجزهما وأبقاهما لنفسه، ونفَّذَ الحارث ما قامت نفسه إليه، فاحتجز البعيرين، وغَيَّبهما في شعبٍ من شعاب العقيق، ثم أتى المدينة يسوق باقي الإبل مَعَهُ لفداءِ ابنته.

وقصد الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق إلى النبي ﷺ ومعه الإبل يقول: يا محمد أَصَبْتُمُ ابْنَتي وَهٰذَا فداؤُهَا.

قال الرسول ﷺ: **«فأين البعيران اللذان غيَّبهما بالعقيق؟»**.

فدهش الحارث أشد الدهشة لمعرفة الرسول ﷺ بما كان منه، ولم يَسْتَطِعْ إِلاَّ أَنْ يهتف مسلماً: أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّكَ محمدٌ رسول الله، فوالله ما اطَّلَعَ على ذلِكَ إلاَّ اللَّهُ!

وهكذا أسلم الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق الذي كان يجمع جموع العرب لمحاربة محمدٍ والقضاء عليه، كما أسلم معه ابنان لَهُ.

وأرسل الحارث فأتىٰ بالبعيرين ليفدي ابنته قائلاً للرسول ﷺ: هذا فداء ابنتي، فإنَّ ابنتي لا يسبى مثلها!

فقال الرسول ﷺ: **«أرأيت إن خيَّرناها؟ أليس قد أَحْسَنَّا؟»**.

أجاب الحارث: بلى.

وسُئِلت برَّة فيما تختار، فقالت: اخترت رسول الله ﷺ، وأسلمت برّة، وأعتقها النبي ﷺ وتزوَّجها وسماها «جويرية»، كراهة أن يقال: خرج من عند برَّة[1].

---

(١) انظر ترجمتها في سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٢٦١ وما بعدها ترجمة رقم ٣٩.

وهكذا نالت جويرية الشرف الذي لم تكن تظن أنه سيواتيها، وحظيت بنعمة الدنيا والآخرة.

❀ ❀ ❀

جويرية وأمهات المؤمنين

تحدثت الصديقة عائشة رضي الله عنها عن قصة زواج جويرية بنت الحارث من الرسول ﷺ، ولم تكتم مشاعر الأنثى، بل كانت صديقة مثل أبيها أبي بكر الصديق، فلندعها توجز القصة كلها في روايتها الصادقة، تقول عائشة:

لما قَسَّم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشمَّاس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حُلوةً ملاحة لا يراها أحد إلاَّ أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها.

قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي، فكرهتها وعرفت أنَّه سيرى فيها ﷺ ما رأيت، فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس - أو لابن عم له -، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي.

قال: «**فهل لك في خير من ذلك؟**».

قالت: وما هو يا رسول الله؟

قال: «**أقضي عنك كتابك وأتزوجك**».

قالت: نعم يا رسول الله.

قال: «**قد فعلت**».

قالت عائشة: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج

جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، وأرسلوا ما بأيديهم.

قالت عائشة: فلقد أعتق لتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها[1].

وقبل أن نتحدث عن جويرية بنت الحارث وعلاقتها بأمهات المؤمنين، فإننا نتوقف عند نظر الرسول ﷺ إليها، وقد كانت مملوكة، أتت النبي تطلب منه إعانةً في فكاك نفسها، فقال: «**أو خير من ذلك**»، وأعتقها وتزوجها، وجعل صداقها عتق كل مملوك من بني المصطلق، وكانت من ملك اليمين فأعتقها وتزوجها.

عند ذلك كله نتوقف مع السهيلي في شرحه للسيرة الهشامية فنجده يقول قولاً طيباً، جاء فيه: وأمَّا نظره عليه السلام لجويرية حتى عَرَفَ من حُسْنها ما عرف، فإنما كان ذلك لأنها امرأة مملوكة، ولو كانت حرَّة ما ملأ عينه منها، وجائز أن يكون نظر إليها لأنَّه أراد نكاحها، وقد ثبت عنه عليه السلام الرخصة في النظر إلى المرأة عند إرادة نكاحها، وقال للمغيرة حين شاوره في نكاح امرأة: «**لو نظرت إليها، فإن ذلك أحرىٰ أن يؤدم بينكما**»، وقال مثل ذلك لمحمد بن مسلمة حين أراد نكاح بثنة بنت الضحاك[2].

نعود إلى جويرية وأمهات المؤمنين، فلم تستطع جويرية أن تنضم إلى الحزب الراجح من حزبي زوجات الرسول ﷺ الذي يضم عائشة الزوجة الحبيبة المقرَّبة إلى قلب النبي ﷺ، فانضمت إلى حزب زوجات الرسول ﷺ الذي كانت تترأسه أم سلمة، إلاَّ أنَّها لم تكن لتبتعد عن عائشة إذا ما ضَرَبَ زوجات الرسول أمر مشترك، فقد صاحبت عائشة وحفصة وزينب بنت جحش، عندما ذهبن إلى دار حارثة بن النعمان متخفيات

---

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة **٢/٢٩٤، ٢٩٥**، عن ابن إسحاق ومن طريقه أحمد **٦/٢٧٧** حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير عن عائشة ـ وإسناده صحيح.

(٢) إنظر الروض الأُنف للسهيلي **٣/١٩**، وانظر طبقات ابن سعد **٨/١١٧** عن طريق الواقدي.

لمشاهدة ضرَّتهنَّ الجديدة صفية بنت حيي بن أخطب التي تزوجها النبي ﷺ من السبايا اللَّاتي غنمهن المسلمون في غزوتهم ليهود خيبر، ووفد بها النبي ﷺ إلى المدينة، وأنزلها أول ما أنزل بدار حارثة بن النعمان.

ولما رأت عائشة ما عليه الزوجة الجديدة من الملاحة والجمال ثارت غيرتها، وتحدثت مع صاحباتها قائلة: ما أرَىٰ هذه الجارية إلاَّ ستغلبنا عند الرسول ﷺ..!

سارعت جويرية تقول بلهجة الخبير الواثق تطمئن عائشة وتحد من غيرتها، وتهوِّن عليها الأمر: كلا! إنَّها من نساءٍ قلّما يحظين عند الأزواج.

وإذا كان من أمر الضرائر، فقد كان ما توقعت «عائشة» وخافت، فقد نظر إلى الأسيرة الحسناء، وعندما وصفتها عائشة قالت: لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه[1]، فقد أصبحت جويرية ضرَّةً وشريكة لعائشة في بيت الرسول ﷺ، كما أصبحت ـ وقد أسلمت وحَسُن إسلامها ـ أمّاً للمؤمنين، شأنها شأن أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن.

على أن عائشة، ما لبثت أن شُغِلت عن «جويرية»، وغيرها، بما أعقب تخلفها عن الركب العائد من بني المصطلق، من قيل وقال[2]، حتى انجلت غمة الإفك، وعادت عائشة إلى بيت النبي ﷺ معتزة بما أنزل الله في براءتها من آيات، ولما واجهتها «جويرية» بملاحتها الأخّاذة، فما كان من عائشة إلا أن قالت في زهو وهي تنقل بصرها بين جويرية، وزينب بنت جحش، وأم سلمة، وحفصة، وطيف مائل من خديجة: لم يتزوج ﷺ، بكراً سواي.

ذلك أن جويرية كانت كما ذكرنا قبل أن تسبىٰ زوجة لمسافع بن صفوان المصطلقي الذي قتل ضمن عشرة من المشركين اعتدوا على المسلمين يوم بني المصطلق[3].

---

(١) الاستيعاب لابن عبدالبر ١٨٠٤/٤، والسمط الثمين ١١٧.
(٢) الدكتورة عائشة عبدالرحمن تراجم سيدات بيت النبوة ص٣٦١.
(٣) انظر تاريخ الطبري جـ١٧٧/٣.

وكانت بعض أمهات المؤمنين يذكُرن جويرية بالسَّبي (الأَسر)، فقالت جويرية لرسول الله ﷺ: إن أزواجك يفخرن عليَّ ويقلن: لم يتزوجك رسول الله ﷺ.

قال: «**أو لَمْ أعظم صداقك؟ أوَ لم أعتق أربعين رقبة من قومك؟**».

وذلك ما يؤكده المؤرخون[1] في تعريفهم بالسيدة الجليلة جويرية بنت الحارث عندما يقولوا: أعتق رسول الله ﷺ جويرية، واستنكحها، وجعل صداقها عتق كل مملوك من بني المصطلق، وكانت من ملك اليمين، فأعتقها وتزوجها[1].

ومهما يكن من معرفتنا عن أمهات المؤمنين القانتات العابدات الجليلات الطاهرات، فإننا نعزو للأنثى فطرتها، فكانت السيدة عائشة بغيرتها على الحبيب ﷺ تمثل ما في الأنثى على مرّ الزمان من فطرة، وكذلك جويرية، فالنساء يغرن على من أحببن ومن غير رسول الله يغرن عليه كما قالت عائشة: وما لي أن لا يغار مثلي على مثلك.

❀ ❀ ❀

سبحان الله عدد خلقه

كان بيت رسول الله ﷺ يضج بالتسبيح والتلاوة، وكانت زوجاته أمهات المؤمنين عابدات، قانتات، صابرات يسبحن بالغدو والآصال، وكانت جويرية قانتة لربها، خاشعة في سجودها، طيبة في ذكرها وتسبيحها.

وقد مر عليها رسول الله ﷺ، وهي في مصلاّها أول النهار، ثم مر عليها في الظهيرة فوجدها جالسة خاشعة تسبح ربها فقال لها: «**ما زلت على حالك؟**».

لقد مضى على حالها هذا وقت طويل، وهي خاشعة مسبحة عابدة

---

(1) أخرجه ابن سعد ١١٧/٨ من طريق الواقدي - وانظر سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٢٦٢.

قانتة، عند ذلك أتحفها رسول الله ﷺ بخصوصية في الذكر والدعاء والابتهال، أراد أن يعلمها تسبيحاً يليق بما رآه عليها من خشوع في العبادة وإخلاص فيها فقال لها: **«ألا أعلمك كلمات تقولينهن:**

«سبحان الله عدد خلقه» - ثلاث مرات.

«سبحان الله رضا نفسه» - ثلاث مرات.

«سبحان الله زِنة عرشة» - ثلاث مرات.

«سبحان الله مداد كلماته» - ثلاث مرات.

هنيئاً لأُم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها هذه الأقوال الطيبة التي منحها إياها رسول الله ﷺ.

وتقول جُويرية بنت الحارث رضي الله عنها: أتى عليَّ رسول الله ﷺ فقال: **«ولقد قلتُ بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وُزِنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»**[1].

رضي الله عن جويرية بنت الحارث أم المؤمنين.



راوية الحديث

كانت السيدة جويرية أم المؤمنين رضي الله عنها مستمعة جيدة لحديث رسول الله واعيةً لما يقول، عالمة لما يريد، وكانت تحب الخير للناس حُبّاً جماً، وقد روى عنها حبر الأمة عبدالله بن عباس، وجابر بن عبدالله الأنصاري، وعبدالله بن عمر رضوان الله عليهم أجمعين، وروى عنها أيضاً:

(١) أخرجه مسلم برقم ٢٧٢٦، وأبو داود وأحمد في المسند ٦/٤٢٤، ٣٢٧، ٤٢٩، ٤٣٠، وابن سعد في الطبقات الكبير ١/١١٩.

الطفيل ابن أخيها، ومجاهد، وآخرون.

ولأم المؤمنين جويرية رضي الله عنها سبعة أحاديث، منها حديث عن الإمام البخاري، وفي صحيح مسلم حديثان[(١)].

ومن مروياتها: حديثها عند الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ عن قتادة عن أبي أيوب عن جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها يوم الجمعة، وهي صائمة فقال: «**أَصُمْتِ أمس؟**».

قالت: لا.

قال: «**تريدين أن تصومي غداً**».

قالت: لا.

قال: «**فافطري**»[(٢)].

ومن هذا الحديث نتبين كراهة صوم يوم الجمعة منفرداً، وفي حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «**يوم الجمعة يوم عيد، فلا تجعلوا يوم عيدكم يوم صيامكم إلاَّ أن تصوموا قبله أو بعده**»[(٣)].



في وداع جويرية

عاشت جويرية ببيت رسول الله ﷺ عيشة راضية هانئة، وكانت حياتها كما لحظنا هي حياة مسلمة خاشعة قانتة متعبدة، حتى لكان رسول الله ﷺ يخرج من بيتها عند صلاة الفجر ويتركها وهي تصلي وتتعبد، ثم يمر عليها إذا ما ارتفع الضحى فيجدها كما تركها، تصلّي وتتعبد، فيحمد الرسول ﷺ

---

(١) سير أعلام النبلاء ترجمتها رقم ٣٩ جـ٢ ص٢٦١.

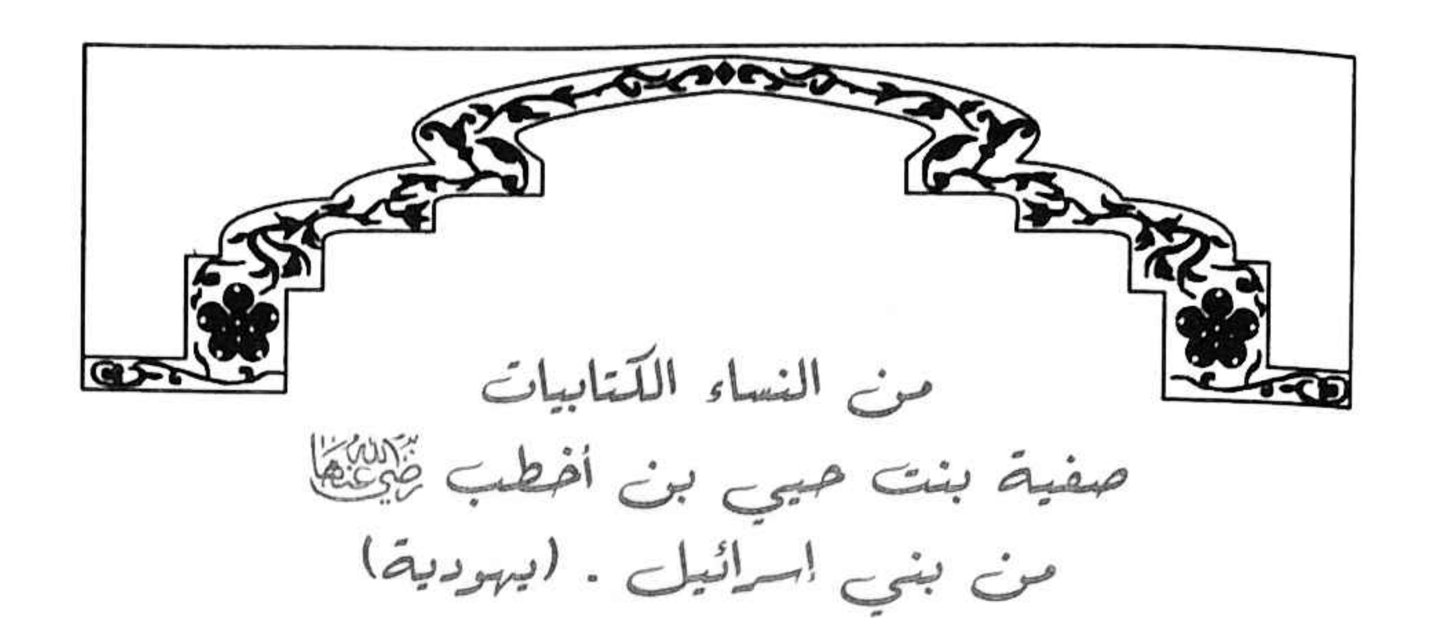
(٢) أخرجه البخاري في الصوم. باب صوم يوم الجمعة ـ فتح الباري ٢٧٣/٤ حديث رقم ١٩٨٦، وأخرجه أحمد ٤٣٠/٦، وأبو داود برقم ٢٤٢٢.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣٠٣/٢.

منها ذلك ويقبل عليها يرشدها بما تستطيع به أن تشبع رغبة في نفسها في العبادة وتسبيح الله.

وهكذا عاشت جويرية من بعد حياة الرسول ﷺ حتى وافاها أجلها في خلافة معاوية، وقد بلغت السبعين، وتوفيت في سنة **٥٠** هجرية، وصلى عليها مروان بن الحكم، وكان إذ ذاك أمير المدينة المنورة.





من النساء الكتابيات
صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها
من بني إسرائيل . (يهودية)

كلمات ومشاهد

ـ **«إنَّكِ لابنة نبيّ، وإن عمّك لنبي، وإنك لتحت نبي»**.

[الرسول ﷺ لصفية].

ـ **«والله إنها لصادقة»** [الرسول ﷺ].

ـ وأمر النبي ﷺ بصفية فحيزت خلفه وألقى عليها رداءه فعرف الناس أنه اصطفاها لنفسه. [صحيح مسلم].

ـ **«ألاَ قلت: وكيف تكونان خيراً مني، وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمي موسى»**(١) [الرسول لصفية بنت حييّ].

ـ وَلَدَ صفيَة مائة نبي، ومائة مَلِك، ثم صيَّرها إلى نبيّه ﷺ، وليس ممن توجب لدحية الكلبي لكثر مَنْ مِنَ الصحابة مثلِ دحية وفوقه، وقلة من كان من السَّبيّ مثل صفية في نفاستها جمالاً ونسباً، فلو خصَّهُ بها لأمكن تغيير خاطر بعضهم، فكان المصلحة العامة ارتجاعها منه، واختصاصه ﷺ

---

(١) انظر الإصابة ٨/١٢٧، والاستيعاب، والسمط الثمين ١٢١.

بها، فإن في ذلك رضا الجميع. [ابن حجر عن السيرة الحلبية ٢/٢١٨].

❀ ❀ ❀

عداوة لمحمد ﷺ

قالت صفية بنت حيي بن أخطب، والتي ينتهي نَسَبها إلى هارون أخي موسى عليه السلام تتحدث ببعض ذكرياتها:

كنت أَحبُّ وَلَدَ أَبي إليه، وإلى عمي ياسر، لم ألقهما قط مع وَلَدٍ لهما إلاَّ أخذاني دونه.. فلما قدِم رسول الله المدينة، ونزل قباء، في بني عمرو بن عوفٍ غَدَا عليه أبي: حُيَيُّ بنُ أخطَبَ، وعمي أبو ياسر بن أخطب قبل شروق الشمس، فلم يرجعا حتى كانا مع غروبها، فأتيا كالَّيْن، كسلانين، ساقطين، يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التَفَتَ إليّ واحد منهما، لما بِهما من الغمِّ، وسَمِعتُ عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي، حُيَيَ بن أخطب: أهو هو؟!

فيجيب أبي: نعم والله.

فيسأل عمي: أَتَعْرِفه وَتُثبتُهُ؟!

فيقول أبي: نَعَمْ.

فيقول عمّي: فما في نَفْسِكَ منه؟

فيجيب أبي: عداوته والله ما بقيت[1].

هذا حديث قصته صفية بنت حُيَيّ بن أخطب من ذكرياتها عن بعض ما سمعته من حديث دار بين أبيها «حُيَيّ بن أخطب» سيد يهود بني النضير وعمها، عن رسول الله حينما قدِم إلى المدينة مهاجراً إليها من مكَّة، وذهب

(١) السيرة النبوية جـ١ ص٥١٨، ٥١٩.

أبوها وعمها ليريا هذا القادم الذي كانت التوراة تعلمهم عن صفته، ويترقب أخبارهم مَبْعَثَهُ، ومع أن أباها رأى في محمد ﷺ ما عَرَفَ به من أنّه هو النبي ﷺ الذي حدَّثتهم عنه كتبهم، وثبت عِنْدَهُ أنه هو الرسول الذي كان يترقب مبعثه أحبارُهُمْ، فقد جاهر أمام أخيه بعداوته لمحمدٍ ﷺ ما بقي حيّاً.

ولم يكتف حيي بن أخطب بعداوته الشديدة لمحمد، ولم يكتفِ بعدم طاعته، والخروج عليه والنفور منه، بل يزيد على ذلكَ أنه يتحدّاه ويعانده، ويدبر له المكائد، ويؤلب الناس عليه.

كان هذا الفعل الذي فعله كله ضد محمد برغم العهود التي عقدها محمد ﷺ مع يهود المدينة: من بني قينقاع وبني النضير، وبني قريظة، وبرغم الموادعات التي وادعهم فيها النبي على دينهم وأَموالهم، وبرغم تقربه ﷺ لليهود، ومجاملته لرؤسائهم.

ومن العجيب أن يهود المدينة كرهوا محمداً بعد حسن استقبالهم له، وفرحهم بقدومه، فقد كانوا يطمعون في ضمه إلى دينهم ومتابعته لدعوتهم، ليشتدوا به على الأوس والخزرج الذين يساكنونهم في المدينة، ولينتصروا به على أعدائهم في الدين من أهل النصرانية.

ولكن محمداً جاء يدعو إلى دين الإسلام، دين الله وحدَهُ، الذي بعث به المرسلون من قبل، لا ليدعوَ بدينهم الذي غيَّره وبدّله أَحبارُهُمْ ورؤَسَاءُ دينهم في كُتُبِهِ.

وكرِهَ اليهود محمداً وقد خشوا اهتداء جيرانهم من الأوس والخزرج لهديه، وخافوا اتحادهم واشتداد جانبهم بخروجهم من ظلمات الشرك والضلال، إلى نور الحق والإيمان وهم الذين كانوا يودون لهم أن يظلوا في جهلهم وضلالهم، ليسهل عليهم بث روح البغضاء والشقاقِ بينهم، لتضعف بذلك شوكتهم فيأمنوا جانبهم.

فكان من هذا أن نقض بنو قينقاع عهودهم لمحمد، فحق لهم أن يقاتلهم وأن يحاصرهم[1].

وظل يهود بني النضير وبني قريظة على ريائهم ونفاقهم للرسول وتآمرهم لفتنةِ المسلمين وخديعتهم حتى تبين للرسول غدر يهود بني النضير به، ومجادَلتهم قَتْلَهُ، فأرسل إليهم أن: «**اخرجوا من بلادي، فإنكم قد نقضتم العهد بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً، فمن رئي بعد ذلك ضُرِبَ عُنُقُهُ**».

وعبدالله بن أبي، رأس المنافقين بالمدينة، أظهر إسلامه وأخفى عداوته للإسلام والمسلمين، فحرَّض بني النضير على عدم الخروج ووعدهم بمؤازرتهم ونصرتهم، ولذلك أرسل حُيَيُّ بن أخطب كبير بني النضير إلى محمد يقول: إنّا لن نخرج من ديارنا وأموالنا، فاصنع ما بدا لك.

قال لهم عبدالله بن أبي بن سلول يحرضهم بعد أن أنذرهم المسلمون وحاصروهم وقال لهم: اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم.

ونزل في ذلك المعنى قول الله تعالى يذكر موقف المنافقين في هذا اليوم، فقال عز وجل: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾[2].

ولما مرت الأيام العشر التي أمهل النبي ﷺ اليهود إياها دون أن يغادر المدينة ـ أمر النبي ﷺ بحصارهم وقتالهم، فحوصروا وقوتلوا حتى هزموا، وانتهى أمرهم بمغادرتهم للمدينة امتثالاً لأمر الرسول ﷺ، فقصد أكثرهم

---

(١) انظر تاريخ الإسلام للذهبي ـ السيرة النبوية، وسيرة ابن هشام.

(٢) سورة الحشر، الآيات: ١١ ـ ١٣.

إلى خيبر، وسار نفر منهم إلى حدود الشام.

ولم يسكت يهود بني النضير على ما أصابهم من المسلمين، فسار زعماؤهم - وعلى رأسهم حُيَيّ بن أخطب - إلى قريش، يحثونها على قتال محمد، وإلى غيرها من قبائل العربِ، يُحرِّضونَهُمْ على الخروج معهم لمحاربة المسلمين.

ولبَّتْ قريش وكثير من القبائل نداء اليهود، فحزَّبوا أحزابَهُم وجمعوا جموعهم وساروا إلى المدينة للقضاء على محمد، وأتباعه المسلمين.

ولم تستطع هذه الأحزاب أن تَنَالَ من المسلمين منالاً، فَإِنَّ المسلمين كانوا قد اتخذوا لذلك أهْبَتَهُمْ، فحفروا حول المدينة خندقاً لم تقدر جيوش أعدائهم على اجتيازه.

ولم يُسَلِّمْ حُيَيٌّ بن أخطبَ، بَلْ سَعَى إلى حُصُونِ يهود بني قريظة يحتال عليهم في نقض عهدهم لمحمد ﷺ، حتى تستطيع الأحزاب بمعاونتهم أن تقضي على المسلمين.

وخشي يهود بني قريظة نقضهم لعهد محمد ﷺ، ومُحالفة الأحزاب على قتاله خوفاً من أن يهزِمَ المسلمون الأحزاب، فتكون في ذلك نهايتهم والقضاء عليهم.

ولم يُسَلِّمْ حُيي بن أخطب أيضاً، فما زال يسعى لدى بني قريظة وهو يعدهم بالدخول معهم وفي حصونهم، والموتِ إلى جانِبِهِمْ، إذا ما هزم المسلمون الأحزابَ، حتى مال بنو قريظة إلى نقض عهدهم للمسلمين، وبيَّتوا الغدر بمحمد ﷺ.

وأَحَسَّ مُحَمدٌ ﷺ بما أضمر بنو قريظة للمسلمين، فأرسل إليهم بسيد الخزرج سعد بن عبادَةَ، وبسيد الأوس سعد بن معاذ - وكان حليف قريظَةَ - ليستوثِقا مِمَّا جاء إلى محمد عن غدرهم ونكث عهدهم للمسلمين.

ووَجَدَ رَسُولا مُحَمَّد ﷺ من بني قريظَةَ شرَّ حالٍ، وعَرَفَا فيهم الخيانة والغَدْرَ، فعادا إليه يعرِّفانِهِ بما كانَ.

وبغدر بني قريظة بالمسلمين، حَقَّ للمسلمين محاربتهم وحق عليهم قتالهم.

وانتهت غزوة الأحزاب (الخندق) بهزيمة الأحزاب، وبنصر الله للمسلمين، ثم سار المسلمون لمحاربة بني قريظة الذين عدوا عليهم وغدروا بهم، فانتهى الأمر بينهم بأَمرِ محمدٍ ﷺ لهم أن يتخيروا من حلفائهم الأوس رجلاً يرتضون حُكْمَهُ ليفصل في أمرهم.

فتخيروا ـ لِسوءِ حظِّهِم، وَنَكَدِ طالِعِهِمْ ـ سعد بن معاذ، وحكم سعد... فكان حكمه أن قضى بقتل الرجال وسبي النساء والأطفال. وَنُفِّذَ حكم سعد.. فضربت أعناق الرجال، وعلى رأسهم حيي بن أخطب سيد يهود بني النضير.

ولم يأمن محمد ﷺ بعد ذلك جانب اليهود، فإنه وإن كان قد قضىٰ على اليهود في المدينة، فإن اليهود الذين كانوا يسكنون في غيرها وهم يهود خيبر، ويهود بني النضير، ويهود بني قينقاع الذين أُخرِجوا من المدينة، كانوا لا يزالون مصدر خطر على المسلمين وذلك لطبع الخيانة والغدر المتأصِّل في نفوسهم.

❋ ❋ ❋

تتمنين ملك الحجاز

ذاع خبر ما أصاب يهود بني قريظة لدى سائر اليهود المنتشرين في شتى أنحاء جزيرة العرب. وعلم يهود بني النضير، بما كان من مقتل رئيسهم حيي بن أخطب الذي خرج يحزِّبُ الأحزاب ويجمع الجموع، للقضاء على محمدٍ، وأدركت ابنتُهُ صفية أَنَّ أباها الذي سمعته، وهي بعد طِفْلَةٌ حَدَثَةٌ، يعلن لعمها أبي ياسر عداوته لمحمد ما بَقِيَ، قد ظَلَّ حقّاً على عداوتِهِ له حتى قَتَلَتْهُ هذه العداوة، وقضت عليه.

وكانت صفية حينذاك قد شبت فتاةً نضرةً حُلْوَةً تُجَمِّلُهَا وضاءة أَخاذَةٌ،

ويزيِّنها عقلٌ راجحٌ ثابت مترو، ويطبعها هُدُوءٌ مُحَبَّبٌ، ورزانةٌ مرغوبَةٌ.

وكانت حينذاك زوجة لِرَجُلٍ من كبار يهود بني النضير، ومن أوائل أصحاب الرأي والمشورة فيهم، هو سلاّم بن مشكم. وفارقها سَلاّمٌ، ليتزوجها من بعدِهِ كنانَةُ بن الرَّبيع بن أبي الحقيق، وهو من كبار رجال بني النضير أيضاً، وصاحِبُ حِصْنِ (القموص) أمنع حُصُونِ خَيْبَرَ، وصاحِبُ كَنْزِ اليهودِ (أي المتولّي أمر أموالهم والمؤتمن على حُليِّهم وذهبهم).

وفي ذات يوم قامَتِ العروس صفية من نومها تَقُصُّ على زوجها كنانة رؤيا رأتها في المنام، كانَتْ مَوْضِعاً لِعَجبها ودهشتها فقالت: رأيت في المنام أن قمراً أقبل مَن ناحِيَةِ المدينةِ حتى وقع في حِجْرِي.

وما إن أتمت صفية ذكر رؤياها لزوجها، حتى رَأَتْهُ وقد تطاير شَرَرُ الغضب من عينيه ثم ما أَحَسَّتْ إلاَّ وَيَدُهُ تهوي بقوة وشدة على وجهها تلطمها وهو يقول: ما هذا إلاَّ أَنَّكِ تتمنين ملك الحجاز: محمداً.

واحتقن ما حول عين صفية من أثر اللطمة، ثم تحول هذا الاحتقان مع مرور الزمن إلى كدمة زَرْقاء قاتمة.



الله أكبر.. خربت خيبر

كان يهود خيبر يبطنون العداوة والبغضاء للرسول ﷺ وللإسلام، وكانت خيبر هذه ذات حصون ومزارع على بعد ستين أو ثمانين ميلاً من المدينة المنورة في جهة الشمال.

وكان أهل خيبر يتحينون الفرص للنيل من الإسلام ورسوله ﷺ والمسلمين، وأثناء عودة المسلمين بعد صلح الحديبية إلى المدينة، وقد عُرِف أن قريش لم تسمح لهم بدخول مكة، وظنوا بذلك الظنون من أنه لولا ضعف أصاب محمداً ﷺ والمسلمين لما قبل شروط هذا الصلح المجحف، فهرولوا إلى غطفان وأعراب البادية، ليدعوهم لحرب

الرسول ﷺ ويؤلبوهم على المسلمين.

بلغت هذه الأنباء الرسول ﷺ فآثر أن يفاجئهم ﷺ قبل أن يفاجئوه.

وجاء المخلفون عنه في الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة، وكانوا من المنافقين الذين رجعوا عن الخروج معه يوم الحديبية.

وجاء أمر الله عز وجل بأنه لا يخرج إلى خيبر إلاَّ المؤمنون حقاً، وهؤلاء المنافقون لا يخرجون معه ولا يتبعوه أبداً فقال عز وجل: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [الفتح: ١٥].

لذلك فقد حدد رسول الله ﷺ من يخرج معه إلى خيبر وهم أهل الشجرة الذين بايعوه تحت الشجرة فرضي الله عنهم لأنهم لم يبايعوا الرسول ﷺ فحسب، بل بايعوا الله عز وجل ـ وذلك كما قال تعالى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح: ١٨، ١٩].

ولم يعتبر هذا المنافق عبدالله بن أبي بن سلول وأرسل إليهم ـ إلى يهود خيبر ـ يقول: إن محمداً قصد قصدكم، وتوجه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه، فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، عُزّل لا سلاح معهم إلا قليل.

ويبدو أن عبدالله بن أبي رأس النفاق في المدينة، لم يكن يعرف أن جيش المسلمين أقوى مما يتصور ومما يتمنى من ضعفه وانهزامه.

خرج جيش المسلمين يحمل الراية السوداء العظيمة المعروفة بالعقاب ـ وهو النسر الأسود، سيد الطيور ـ وكانت الراية من بُرْدٍ لعائشة رضي الله عنها، ولما أشرف الرسول ﷺ على خيبر قال لأصحابه الأبطال: «**قفوا**» فوقف الجيش.

ثم دعا دعاءه المستجاب فقال: «**اللهم ربَّ السماوات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، وربَّ الرياح وما أذرين، نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، ونعوذ بك من شرِّها وشر ما فيها، أقدموا باسم الله**»(١).

وأراد الرسول ﷺ أن يفاجىء أهل خيبر، فبات والمسلمون تلك الليلة واليهود لا يشعرون بهم، فلما أصبح النبي ﷺ صلى الفجر بغلس، وركب المسلمون.

وبينما المزارعون من يهود خيبر يخرجون في هذا الصباح إلى بساتينهم ومزارعهم، وهم يحملون فؤوسهم وأدوات زراعتهم، إذ بأهليهم وأصحاب حصونهم، يسمعون صياحهم ونداءاتهم، وهم مقبلون عليها في هَرَجٍ وَمَرَجٍ واضطراب، واختلاط، لأنهم قد تملكهم الرُّعْبُ، واستبدَّ بهم الفزع، وكانوا يقولون: هذا محمد قد جاء والجيش معه. لقد هتفوا: محمد والله، محمد والخميس.

أما النبي ﷺ فقد هتف قائلاً: «**الله أكبر، خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحَةِ قوم فساء صباح المنذرين**»(٢).

وخربت خيبر كما تنبأ الرسول ﷺ، فقد سقطت حصونها بعد قتال عنيفٍ شديدٍ حصناً بعد حِصْنٍ في أيدي المسلمين، واستولى المسلمون على ما بالحصون مِن عتادٍ ومؤنٍ وسلاحٍ، ووقع في أيديهم ما كان فيها من نساءٍ وأطفالٍ سبايا لهم وأسرى.

❀ ❀ ❀

---

(١) ابن الأثير جـ٢ ص٢١٧.

(٢) انظر غزوة خيبر - غزوات النبي ﷺ - عبدالمنعم الهاشمي دار النفائس. والحديث في فتح الباري ٥٣٤/٧ برقم ٤١٩٧، ٤١٩٨.

كنانة بن الربيع الكذاب

لم تجد اليهود بداً من الصلح، فعرضوا الصلح على محمد ﷺ، فصالحهم على أن يكون للمسلمين نصف ثمار خيبر، ولليهود النصف الآخر نظير عملهم في الأرض.

وسأل النبي ﷺ كنانة بن الربيع عن أموال اليهود وذهبهم اللذين حملهما بنو قينقاع وبنو النضير معهم عندما غادروا المدينة، فأنكر كنانة وجودهما قائلاً: يا أبا القاسم، أنفقناهما في حربنا، فلم يبق منها شيءٌ.

فقال النبي ﷺ لكنانة: «**برئت منكم ذمة الله، وذمة رسوله، إن كان عندكم شيءٌ من أموالكم وذهبكم**».

أجاب كنانة: نعم.

وقال النبي ﷺ: «**أأرأيت إن وجدناه عندك، أأقتلك؟**».

قال كنانة: نعم.

فأشهد النبي ﷺ طائفة من اليهود، وطائفة من المسلمين على ذلك، ثم أمر بالبحث عن أموال اليهود وذهبهم اللذين أنكر كنانة وجودهما، وأقسم عليه.

واكتُشِفَ كَنْزُ اليهود، وقد خبَّأَهُ كِنَانَةُ في خربَةٍ من خَرِبَاتِ خيبر، وبذلك حَلَّ دَمُ كنانة للمسلمين، فقتلوه.

❀ ❀ ❀

زواج الرسول ﷺ بصفية

ترفق الرسول ﷺ باليهود، وأكرمهم بعد استسلامهم، وكان من ترفقه بهم أن عاملهم بالحسنىٰ، وردَّ إليهم صحائف من التوراة كانت فيما غنم المسلمون، وكان من إكرامه لهم حينما أتاهُ رجل من المسلمين يقول له: يا

رسول الله، أتعطي دِحْيَةَ صَفيَّةَ سيدَةَ قريظة والنضير وهي لا تصلح إلاَّ لك.

قال: «**ادعوه (يعني دِحْيَةَ) نعطه غيرها**».

وأرسل من يأتي بصفية بنت حيي بن أخطب ليكرمها ويكرم فيها قومها، وكانت صفية حين فتح المسلمون حصن القموص في خيبر، كانت قد أخرجت منه فيمن أُخرج من الأسرىٰ والسَّبايا، الذين وقعوا غنيمة في أيدي المسلمين.

وتخير دحية الكلبي صاحب رسول الله ﷺ سيدة بني النضير لتكون في نصيبه عند تقسيم الأسرىٰ وتوزيع الغنائم(١).

وبينما كانت صفية تنتظر مع عمومتها ما يجريه عليهن حكم الأسر، أتاها بلالٌ يدعوها لتمثل بين يدي رسول الله ﷺ. وصحبت صفية بلالاً إلى الرسول ﷺ، ومعها إحدى بنات عمها، وفي الطريق مر بهما بلال على جثث قتلى قومهم وأشلائهم. ورأت صفية وابنة عمها قتلاهما، ورأيا شِدّة ما فعلت قوة الحرب بهم جزاء خيانتهم.

لم تستطع صفية أن تمسك نفسها عن البكاء فانحدرت دموعها على خدها في حين صرخت ابنة عمها وولولت وصاحت صياحاً شديداً، ومثلت صفية وابنة عمها وهما على هذا الحال أمام الرسول ﷺ، ورأى الرسول ﷺ أمامه فتاتين: إحداهما تكتم شعورها، وتبكي في سكوت وصمت، والثانية تولول، وتصك وجهها، وتحثو التراب على رأسها، وأشاح بوجهه عن هذه الناحبة المولولة وقال: «**أغربوا عني هذه الشيطانة**»(٢).

فأبعد المسلمون ابنة عم صفية من حضرة رسول الله ﷺ، أمّا صفية فقد أمر النبي ﷺ فحيزت خلفه، وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أن رسول الله قد اصطفاها لنفسه.

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٢٣٢. ترجمة صفية رقم ٢٦.

(٢) تاريخ الطبري ٩٤/٣.

وعلم رسول الله بما كان من بلال حين مرَّ بالفتاتين على قتلى قومهما فاستنكر من بلال هذا الفعل، وقال له: «**أنزعَتْ منك الرحمة يا بلال، حتىٰ تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟!**».

فقال بلال معتذراً: يا رسول الله، ما ظننتُ أنك تكره ذلك، فأحببت أن يريا مصارع قومهما؟

وأمر النبي بعد ذلك بابنة عمِّ صفية لتكون من نصيب دحية الكلبي. وحينما همَّ الرسول ﷺ بمغادرة خيبر، بعد أن انتهىٰ من تدبير أمر اليهود كانت صفية قد أسلمت وتخيرت رسول الله، فحينما خيّرها الرسول ﷺ بين الإسلام واليهودية قالت: يا رسول الله، لقد هويت الإسلام، وصدقت بك قبل أن تدعوني إلى ذلك، فأعتقها رسول الله، وجعل عتقها صداق زواجه منها.



الزفاف المبارك

شد جيش المسلمين الرحال لمغادرة خيبر، حينئذ تقدم رسول الله ﷺ إلى صفية، فقدّم إليها البعير لتركب، وثنى لها رِجْلَهُ لتضع قدمها على فخذه مساعدة لها على الركوب، فأبت صفية أن تضع قدمها على فخذ رسول الله، ووضعت ركبتها بدلاً من قدمها، وعلى بعد ستة أميال من خيبر حط النبي ﷺ يبغي الزفاف بعروسه فأبت عليه صفية ذلك.

ووجَدَ النبي ﷺ في نفسه وحزن لما بدا من صفية، فلما كان بالصهباء (وهي موضع على بعد مرحلة من خيبر) نزل النبي ﷺ، وطلب من أم سليم أن تعد صفية لزفافها.

وقبل أن نتحدث عن تفاصيل الزفاف ـ نذكر سنها ـ من رواية أوردها الذهبي ـ عن آمنة بنت قيس الغفارية، قالت: أنا إحدى النساء اللائي زففن

صفية يوم دخلت على رسول الله ﷺ فسمعتها تقول: ما بلغت سبع عشرة سنة يوم دخلت على رسول الله ﷺ[1].

أمر النبي ﷺ «أم سليم بنت ملحان» أُم خادمه أنس بن مالك أن تعد صفية لزفافها به.

تقدمت أُم سليم وبعضُ النساء التابعات لجيش المسلمين من صفية ليُزيِّنَّها ويمشطنها، فاتخذن من عباءَتين أقمنها فوق شجرة سِتاراً، ومن خلف هذا الستار زَيَّنَتْ أيدي النسوة عروس رسول الله ﷺ، فلما فرغن من تزيينها وتمشيطها كانت صفية بشهادة ماشطاتها قد أضحت من أنضر النساء وأجملهن.

وبعد ذلك أعرس النبي ﷺ بعد أن أصبحت حَلالاً له، ولما أصبح رسول الله ﷺ سأل صفية: **«ما حملك على الامتناع من النزول أولاً؟»**.

قالت صفية رضي الله عنها: خشيت عليك من قرب اليهود[2].

كانت هذه الجملة الحكيمة سبباً في إعلاء مكانتها عند رسول الله ﷺ.

ولما دخل النبي ﷺ على عروسه وجد عندها سروراً به، وبشاشة له، وأحسَّ منها حفاوةً وائتناساً بِهِ.

عظمت صفية كما ذكرنا في عين الرسول ـ لما قالت: خشيت عليك من قرب اليهود ـ، وحازت رضاه وإعجابه، فأقبل عليها محدثاً مسامراً مؤنساً، مهوناً عليها ما يكون بنفسها من أثر لما أصاب قومها، فلما ذكرت له شيئاً عن أبيها قال: **«لم يزل أبوكِ من أشد يهود لي عداوة حتى قتله الله»**.

ويوجز لنا أنس بن مالك رضي الله عنه قصة زواج صفية رضي الله

(١) طبقات ابن سعد ١٢٩/٨، والمستدرك ٢٩/٤.

(٢) الإصابة ٣٣٨/٤.

عنها في حديثه الذي أورده البخاري، فيقول أنس رضي الله عنه: قدمنا خيبر، فلما فتح الله عليه الحصن، ذُكِر له جمال صفية بنت حُيَيّ بن أخطب، وقد قُتِلَ زوجها، وكانت عروساً، فاصطفاها النبي ﷺ لنفسه، فخرج بها، حتى بلغنا سدَّ الصهباء حلّت، فبنى بها رسول الله ﷺ، ثم صنع حيساً في نِطعٍ صغير، ثم قال لي: آذن من حولك، فكانت هذه وليمته على صفية، ثم خرجنا إلى المدينة فرأيت النبي ﷺ يحوي لها وراءه بعباءة، ثم يجلس عند بعيره، فيضع ركبته، وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب(١).

ومرت ليلة عرس رسول الله بصفية كأحسن ما تمر الليالي، وسألها ﷺ عما بأعلى عينها من خضرة قائلاً: **«وما هذه؟»**.

فقالت: قلت لزوجي، إني رأيت فيما يرى النائم كأن قمراً وقع في حجري، فلطمني وقال: أتريدين ملك يثرب، أو قال: والله ما تتمنين إلاّ ملك العرب(٢).

ولما أَصبح رسول الله ﷺ وغادر الخيمة التي زفت إليه فيها صفية وجدا أبا أيوب خالد بن يزيد الأنصاري وقد بات يطوف متوشحاً سيفه، فسأله النبي ﷺ: **«ما لك يا أبا أيوب؟!»**.

أجاب: يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة، قد قَتَلْتَ أباها، وزوجها، وقومها، وكانت حديثة عهدٍ بكفرٍ، فخفتها عليك.

فيقال أن الرسول ﷺ دعا لأبي أيوب بقوله: **«اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني»**.

وأولم الرسول ﷺ للناس على صفية بالحيس (وهو طعام من التمر والسمن والدقيق) ودعاهم فأكلوا فرحين بفرحةِ زفاف الرسول.. وبفرحة انتصارهم على اليهود.

❋ ❋ ❋

---

(١) البخاري - انظر فتح الباري ٤٥٧/٧ حديث رقم ٤٢١١.
(٢) البداية والنهاية ٤٦/٨.

في بيت النبي ﷺ

واستقبل أهل المدينة جيش المسلمين المنتصر بالفرح والسرور، واستعد كل بيت كان له رجل أو محاربٌ في الجيش إلى استقبال هذا المحارب العائد إليهم بما غنم من طيبات خيبر، وتهيأت نساء النبي ﷺ لاستقبال رَبِّ بيتهن الظافر المنتصر وهن فرحات مسرورات.

لكن فرحتهن بعودة زوجهن محمد ﷺ لم تستطع أن تمحو ما شاب نفوسهن من ألم عندما حملت إليهن الأخبار نبأ زواج الرسول ﷺ من صفية بنت حيي بن أخطب اليهودية الجميلة الرائعة الجمال.

وكان النبي ﷺ قد قدّر ما سوف يصيب نفوس زوجاته من ألم الغيرة، فلم يشأ أن يأتي بصفية إلى داره أول ما يأتي بها المدينة، فأنزلها أولاً في بيت حارثة بن النعمان.

وعلمت نساء الأنصار بخبر زواج النبي ﷺ بصفية، وتسامعن بجمالها الوضاء، فتوافَدْنَ إلى دار ابن النعمان يشاهدنها معجبات بما حباها الله من جمال.



مهمة سرية

شكلت عائشة رضي الله عنها وفداً للقيام بمهمة سرية إلى دار حارثة بن النعمان لترى هذه الفتاة الصغيرة الوضيئة التي دخلت البيت النبوي لتثير غيرتها وتستفز فطرة الأُنثى عندها، فتنقبت عائشة وكذلك صاحباتها الثلاث: حفصة بنت عمر، وزينب بنت جحش، وجويرية بنت الحارث.

أقبلت عائشة مع النساء الثلاث رضوان الله عليهن جميعاً إلى دار حارثة بن النعمان، وهن متنقبات متخفيات، ينظرن إلى العروس الجديدة، ضرتهن المقبلة.

وفيما كن ينظرن إليها في زحام البيت، أبصر النبي ﷺ بعائشة متنقبة فعرفها رغم تخفِّيها، فلما نظرت إلى العروس وهمت بالانصراف أمسك بثوبها وسألها ملاطفاً: **«كيف رأيت يا شقيراء؟»**. وبغتت عائشة لمعرفة النبي ﷺ لها، واكتشاف مهمتها، فقالت لما تجِسُّهُ من حرجها وَشِدَّةِ الغيرة بها: رأيت يهودية. فقال الرسول ﷺ: **«لا تقولي هذا يا عائشة، فإنها قد أسلمت فَحَسُنَ إِسلامها»**[1].

وانصرفت عائشة عائدة إلى بيتها تصحبها ضرائرها وهي لا تستطيع أن تمنع نفسها من التحدث إليهن عن جمال صفية وتقول: ما أرى هذه الجارية إلاَّ ستغلبنا عند رسول الله..!

فقالت لها جويرية بنت الحارث رضي الله عنها مطمئنة: كلا، إنها من نساء، قل ما يحظين عند الأزواج.



إناء مثل إناء وطعام مثل طعام

من مظاهر الغيرة التي انتابت عائشة من ضرتها صفية، أنها عرفت أن صفية تجيد الطهي والطبخ، فغبطت عائشة عليها هذه الإجادة وغارت منها ولم تكتم السيدة عائشة رضي الله عنها هذه الغيرة بل هي التي روتها ومن حديثها عرفناها، قالت: ما رأيت صانعة طعام مثل صفية بنت حيي بن أخطب، صنعت لرسول الله طعاماً وهو في بيتي فأخذني أفكل - أي قشعريرة - فارتعدت من شدّة الغيرة، فكسَرْتُ الإناء ثم نَدِمتُ فقلت: يا رسول الله ما كفارة ما صنعت؟

قال: **«إناء مثل إناء، وطعام مثل طعام»**.

ولكن صفية التي كانت ذات عقل راجح حظيت عند زوجها،

(١) انظر سير أعلام النبلاء ٢٣٦/٢، وانظر الإصابة ٣٣٨/٤.

واستطاعت أن تنال من قلبه ونفسه، وعقله، مكانة تحسدها عليها ضرائرها.

ودخلت صفية البيت ـ مع نساء النبي ﷺ وفي عزمها أن تسالم زوجاته، وأن تعمل ما بوسعها لاكتساب ودُهِنَّ، وقيل رضائهن، ووجدت صفية نفسها في مشكلة محيرة: كانت عائشة ومعها حفصة وسودة في جانب، أما الزوجات الأخريات فكن في جانب آخر تقف فيه السيدة فاطمة الزهراء، رضي الله عنهن أجمعين.

وكان على صفية أن تقف إلى جوار الحزب الراجح من حزبي زوجات الرسول، وهو الحزب الذي يضم عائشة الزوجة المحببة إلى قلب النبي ﷺ، فانحازت إلى جانبه.

وأرادت صفية أن تعزز دورها، فأظهرت لعائشة وحفصة وداً وتقرّباً، وكان من مظاهر الود الذي أبدته صفية لتكسب به عطف وحب آل البيت ـ بيت رسول الله ﷺ أهدت إلى فاطمة الزهراء حلية كانت تمتلكها من الذهب[1].

وبالرغم من هذا الود الذي أبدته صفية لزوجات النبي ﷺ ولآل بيته، فإنها لم تستطع أن تبتعد بذهن زوجات الرسول عن أصلها اليهودي، ولم تستطع زوجات النبي ﷺ أن يتغاضين عن هذا الأصل عندما يغضبن عليها، أو يتشاحَنَّ معها.

لذلك فقد وجدت صفية عند النبي ﷺ خير حامٍ لها من إيذاء ضرائرها، وخير مدافع عنها إذا ما نلن من أصلها.

فعندما تشاحنت عائشة وحفصة معها ذات يوم، وتفاخرتا عليها بقولهما: نحن أكرم على رسول الله منها، نحن أزواجه وبنات عمه (تريدان بذلك أنهما أكرم على النبي من صفية، لأنهما وإن اشتركتا معها في صِفَةِ الزوجية، إلا أنهما تمتازان بالقرابة).

(١) الإصابة جـ٨ ص١٢٧.

وشكت صفية إلى رسول الله ﷺ ما لقيت منهما، وما قالتا عنها، فقال لها الرسول مطيباً لخاطرها، مباهياً لها بنسبها: **«ألاّ قلت: وكيف تكونان أكرم مني وزوجي محمد، وأبي هارون، وعمّي موسى؟»**[(١)].

❀ ❀ ❀

لو أعطيتها بعيراً من إبلك

يروى أن الرسول ﷺ غضب ذات يوم من أيام حجة الوداع على زوجته زينب بنت جحش غضباً شديداً حتى بلغ مقدار هذا الغضب أن هجرها وقاطعها، حتى كادت زينب أن تيأس من عفوه وصفحه ورضاه.

وكان ذلك أن الرسول ﷺ حجَّ بأزواجه، وبينما هم بطريق العودة من مكة إلى المدينة اعتل بعير صفية، فبرك بها وعاقها عن مصاحبة الركب، فبكت.

وعلم النبي ﷺ بما حدث، فجاء إلى صفية يمسح دموعها بيده ويهون عليها الأمر.

وكان في إبل السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها متسع لأن تحمل على حُمُولتها، فأتاها النبي ﷺ يقول: **«إنّ بعيراً لصفية اعتل، فلو أعطيتها بعيراً من إبلك..»**.

فقالت زينب غاضبة مترفعة مستنكرَةً: أنا أُعطي تلك اليهودية؟!

فكان من ذلك أن غضب رسول الله على زينب، فتجنبها ما بقي من الرحلة، وامتنع من الدخول عليها في بيتها عندما عاد الجميع إلى المدينة، وظلَّ الرسول ﷺ على حالته هذه مع زينب ما يقرب من ثلاثة أشهر، حتى كادت زينب أن تيأس من عفوه ورضائه عليها.

---

(١) انظر الإصابة ـ والاستيعاب ٤/١٨٧٢، والسمط الثمين ١٢١.

وبينما هي ذات يوم في حجرتها وقد تبلبلت أفكارها، وذهب بها الحزن كُلَّ مذهب لغضب الرسول عليها؛ أبصرت ظلاً مألوفاً لديها لشخص حبيب إلى قلبها، يتقدم من حجرتها، فهبت فرحة مسرورة تستقبل الشخص الذي أبصرت ظله، فعرفت فيه شخص رسول الله ﷺ.

ودخل رسول الله ﷺ على زينب، وَعَرَفَتْ زينب منه الصفح عنها، فلم تدرِ لفرطِ سرورها وغبطتها ما الذي تأتي، ولا ماذا تصنع لِتُعَبِّرَ للرسول عن سرورها...! ولم تملِك إلاَّ أن تهتف فرحة مسرورة: يا رسول الله، ما أصنع؟!

وكان لزينب جارية تحبّها وتعتز بها، فوهبتها من ساعتها للرسول ﷺ[1].

وهكذا كان الرسول ﷺ ينصب من نفسه حامياً لصفية مدافعاً عنها إذا ما نال منها أحد منالاً، فكان النبي يُحس غربة صفية بين نسائه فيدافع عنها كلما أتيحت له فرصة.

وكان من أثر هذه الحماية وهذا الدفاع، أن مُنِعَ عن صفية الكثير مما كان يمكن أن ينالها لولا حماية النبي ﷺ ودفاعه عنها.



في مرض رسول الله ﷺ

ظل النبي ﷺ ما عاش لا يذكر شيئاً لصفية عن عداوة أبيها حيي بن أخطب له، ولا عمّا سببته هذه العداوة من صعوبات، ولا عمّا جرَّته عليه وعلى المسلمين من متاعب ومصائب.

---

(١) هذه قصة الحديث الذي أخرجه أحمد في المسند ٣٣٧/٦، ٣٣٨. وأخرجه ابن سعد في الطبقات ١٢٦/٨، ١٢٧ من حديث عائشة بسنده إليها، وابن حجر في ترجمة صفية بالإصابة.

وظل النبي ﷺ يحيط صفية برعايته، ويشملها برعايته، حتى آخر لحظات حياتِهِ، فقد حَدَثَ بينما كان الرسول ﷺ مريضاً مرضه الأخير الذي مات فيه، ونساءه مُلتفاتٍ من حوله، حزينات لأجله، يتألمن لألمه؛ أن قالت صفيَّةُ: أما والله يا نبي الله لوددت أن الذي بك فِيَّ - تودُّ أن المرض الذي أصاب الرسول ﷺ ينتقل إليها -.

فنظرت زوجات الرسول بعضهن إلى بعض يتغامزن من قول صفية، فإذا بالنبي ﷺ يقول لهن: **«مضمضن»**.

نظر بعضهن إلى بعض مستعجبات، ثم سأَلْنَ: من أي شيءٍ يا نبي الله؟

قال: **«من تغامزكُنَّ بصاحبتكن.. والله إنَّها لصادِقَةٌ»**.

ومات رسول الله ﷺ وخلَّف صفية ولا حامي لها، ولا مدافع عنها إلا الله، وما كانت تمتاز به من رجاحة العقل، وتتصف به من حكمة وروية في تصريف الأمور.



مع عمر بن الخطاب

انتهى التشاحن والتحاسد والتنافس بين زوجات النبي ﷺ بوفاته عليه السلام، ولم يعرف أن صفية قد أُوذِيَتْ في نسبها، أو طعنت في أصلها من زوجات الرسول بعد ذلك. إلا من مؤامرة أو فرية افترتها عليها جارية لها، إذ أَتَتْ هذه الجارية إلى عمر بن الخطاب تقول: إن صفية تحب السبت، وتصل اليهود!!

فبعث عمر إلى صفية يسألها في ذلك، فأجابت:

أما السبت فإني لم أُحبُّهُ منذ أبدلني الله به الجمعة، وأمّا اليهود فإن لي فيهم رَحماً، فأنا أَصِلُهَا.

وسألت صفية جاريتها: ما حملك على هذا؟!

أجابت الجارية: الشيطان!

فقالت لها صفية: اذهبي، فأنت حُرّة[1].

وهكذا تخلّت صفية عن جاريتها التي أرادت الإساءة إليها بأن حاولت طعنها في حسن إسلامها، وفي الوقت نفسه أحسنت إليها فأعتقتها.

أمّا ذووا الرحم لصفية، فقد ظلت تصلهم ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً لا تحس لذلك حرجاً، ولا ترى أن يتخذ من ذلك منفذاً للطعن في حُسْن إسلامها، حتى أنّها أوصت لابن أُخت لها يهودي بمبلغ من المال، ورفض ذوو الشأن أن يعطوه المال ليهوديته، فلما سألوا عائشة في ذلك؛ قالت لهم: اتقوا الله وأعطوه وصيته.



مع عثمان بن عفان

كانت صفية رضوان الله عليها صاحبة مروءة ونجدة، وكان من مروءتها ونجدتها أن خرجت يوم مقتل عثمان رضي الله عنه من دارها على بغلة يقودُها مَوْلَىً لها، تحاول ردّ الثائرين وتدفعهم عن خليفة المسلمين عثمان بن عفان، وتَصُدّ الخارجين عليه، الذين حاصروه، ومنعوا عنه الطعام والشراب بغية قتله، فلما لم تستطع ذلك، وضرب الناس البغلة التي تركبها في وجهها وهم لا يعرفون أن صاحبتها أُمٌّ من أمهات المؤمنين - قالت لمولاها: رُدَّني ولا تَفْضَحْني[2].

---

(١) الإصابة ترجمة صفية ٣٣٨/٤، وسير أعلام النبلاء ترجمة صفية ٢٣٢/٢.

(٢) انظر الإصابة ترجمة صفية ٣٣٩/٤، والطبقات جـ٨ ص١٢٨، وترجمتها رقم ٢٦ في سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٢٣١ وما بعدها.

ثم وضعت بين دارها ودار عثمان جسراً، كانت تعبُرُهُ لتنقل إلى دار عثمان ما استطاعت نقله إليه من الماء والطعام.



في وداع صفية

عاشت صفية رضي الله عنها في حظوة اختيارها من نسوة النبي ﷺ وفي مكانة أم من أمهات المؤمنين رضوان الله عليها، وكانت كما أمرهن الله، فهي تتلو كتاب الله عملاً بقوله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وعاشت ما عاشت تروي عن رسول الله ﷺ ما حفظت ذاكرتها ووعت، وقد ورد لها عشرة أحاديث روتها عن النبي ﷺ، منها حديث واحد متفق عليه في الصحيحين عند البخاري ومسلم، وقد حدَّث عنها عدد من أكابر التابعين منهم علي بن الحسين، وإسحاق بن عبدالله بن الحارث، وكنانة مولاها، وابن أخيها[(١)].

ومن مروياتها: قال رسول الله ﷺ: «**لا ينتهي الناس من غزو هذا البيت حتى يغزوه جيش، حتى إذا كانوا ببيداءَ من الأرض، خسف بأولهم وآخرهم، ولم ينجُ أوسطهم**».

قالت صفية: قلت: يا رسول الله، أرأيت المكره منهم؟

قال: «**يبعثهم الله - عز وجل - على ما في أنفسهم**»[(٢)].

ومن مروياتها قالت: دَخَلَ عليَّ رسول الله ﷺ، فقربت إليه كتفاً

---

(١) الذهبي في سير أعلام النبلاء ج٢.

(٢) أخرجه أحمد ٣٣٦/٦، ٣٣٧، والترمذي ٢١٨٥، وابن ماجه ٤٠٦٤. مسند أبي يعلى ٣٤/١٣ حديث رقم ٧١١٦.

بارداً، فكنت أسحاها، فأكلها، ثم قام فصلى[1].

وكان من صلاح صفية رضوان الله عليها أن تصدقت بدار لها قبل أن تموت.

وعاشت صفية بعد وفاة النبي ﷺ أربعين سنة.

وفي سنة خمسين من الهجرة، توفيت السيدة صفية رضي الله عنها، وقد قيل لابن عباس يومها: ماتت صفية زوج النبي ﷺ؛ فسجد ابن عباس.

فقيل له: أتسجد هذه الساعة؟

قال: أليس قال رسول الله ﷺ: «**إذا رأيتم آية فاسجدوا**» فأي آية أعظم من ذهاب أزواج النبي ﷺ؟[2].

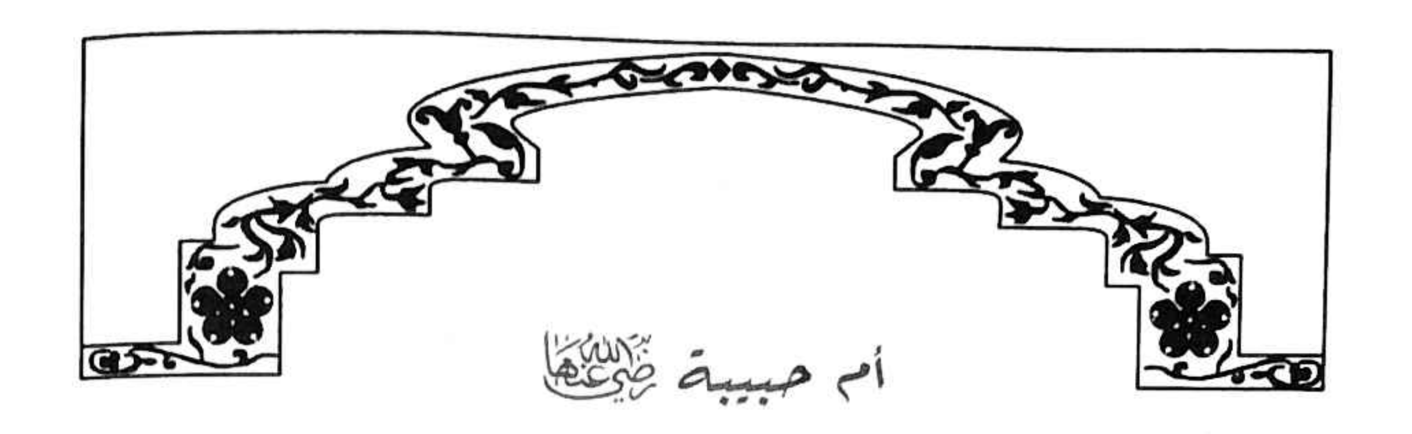
ودفنت السيدة صفية رضي الله عنها إلى جوار أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن أجمعين، بعد أن شيع جثمانها عدد من كبار الصحابة إلى البقيع.

رضي الله عن أم المؤمنين الطاهرة التقية الصادقة، صفية بنت حيي بن أخطب.



(١) انظر مجمع الزوائد للهيثمي ٢٥٣/١ - ومسند أبي يعلى ٣٣/١٣، ٣٤.

(٢) الطبقات لابن سعد ١٢٨/٨.



١ ـ آيات وكلمات

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ [الممتحنة: ٨].

وفسرت هذه الآيات الكريمة وتحدث عنها المفسرون فقال ابن عباس: فكانت المودة التي جعل الله عز وجل بينهم تزويج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما، فصارت أُم المؤمنين، وصار معاوية خال المؤمنين.

وأم حبيبة رضي الله عنها كانت سيدة قوية الإرادة بإسلامها وصبرها على ما امتحنت في زوجها عبيدالله بن جحش، وهي سيدة ذات عقل راجح، وعقيدة متينة.

وأم حبيبة رضي الله عنها من مهاجرة الحبشة، ثبتت في وجه العواصف والأعاصير، ولم ترتدَّ عن دينها رغم ما تعرضت له.

وأم حبيبة رضي الله عنها أصبحت أُماً للمؤمنين وهي في هجرتها إلى الحبشة ولم تعد إلى المدينة بعد.

وأم حبيبة ولدت بمكة قبل البعثة بسنوات طويلة قيل: سبعة عشر

عاماً، وتوفيت بالمدينة سنة ٤٤هـ، وكانت أكثر نساء النبي صداقاً رضوان الله عليها.

❀ ❀ ❀

٢ ـ أطياف وذكريات

تذكرت أُم حبيبة ذلك اليوم السعيد الذي جاء إليها فيه زوجها ـ عبيدالله بن جحش ـ يبشرها بدخوله في دين محمد، دين النبي الذي عُرِف مبعثه وعُرِفت نبوته من التوراة والإنجيل قبل أن يبعث بقرون عديدة، ويدعوها إلى اعتناق الإسلام.

وعلى الفور أسلمت أم حبيبة، ونعمت بالإسلام، ونعمت بالخروج من ظلام الجاهلية إلى نور الهدى والإيمان، وسكنت إلى ركن الحق القويم.

هذا هو ما كان عليه حال المسلمين الأولين، الذين هداهم الله بهديه، فسارعوا إلى الدخول في حظيرة الإسلام يلتمسون الحقيقة، وينشدون عبادة الله وحده.

وتذكرت أم حبيبة قريش التي لم تبال بهؤلاء المسلمين الداخلين في دين الله العظيم، والخارجين على دين أجدادهم في أول الأمر، ولكن قريش إذ رأت تكاثر عددهم، وثباتهم على دينهم، وتعلقهم به، وتقديم أموالهم وأرواحهم للدفاع عنه ـ لم تستطع أن تسكت عليهم أكثر مما سكتت وشمرت عن ساعِد جدها، تحاول أن تفتنهم في دينهم الجديد، وتردهم عنه، فحارب المشركون من أبناء قريش المسلمين واضطهدوهم وأصلوهم شتى أنواع العذاب، فما كان أمام المسلمين سوى الصبر على إيذاء المشركين لهم في سبيل دينهم، واحتملوا بصدر رحب كل ما أصابهم من عذاب واضطهاد.

ولكن المشركين كانوا قد آلوا على أنفسهم أن يقضوا على محمد ﷺ، وأن يفتنوا كل من اتبعوه، فآذوا محمداً، وسبوه، وشتموه،

ونعتوه بأسوأ النعوت وأقذرها، وقالوا عنه: إنّه ساحر، وإنه كاهن، وإنه مجنون!! ثم زادوا حتى تآمروا على التربص به وقتله[1].

ثم زادوا في إيذاء أتباعه المستضعفين حتى تجاوزوا كل حدٍّ للتعقل والاتزان؛ فنبذت كل قبيلة مسلميها، وحقّرت من شأنهم، وسخرت منهم، وتمادى المشركون في القسوة على أتباعهم وخدمهم ومواليهم ممّن اتبعوا دين محمدٍ، فعذبوهم بالحبس والضرب والجوع والعطش، وطرحوهم على رمضاء مكة، فوق حَصْباء الصحراء الملتهبة، وتحت شمسها المحرقة، وكان من تعذيبهم أن كووا أجسادهم بالنار، وأغرقوهم في الماء.

وتذكرت أم حبيبة رضي الله عنها ما كان من النبي ﷺ، لما رأى ما حلَّ بهم من عذاب وإيذاء، فأشار عليهم بالهجرة، فلما سألوه: وإلى أين نذهب يا رسول الله؟

نصح لهم أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، لأن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدقٍ.

عندئذ خرجت أم حبيبة في فوج المسلمين الأول مهاجرة إلى أرض الحبشة مستخفية مع من تخفّى من المسلمين خشية من قريش وفرسانها الذين قد يلاحقونهم في الطرقات، وكان فيمن خرج معها مهاجراً إلى الحبشة زوجها عبيدالله بن جحش، وأخيه عبدالله بن جحش.

وعادت أم حبيبة لأطياف ذكرياتها تستعرض بخيالها ما لاقت هي والمسلمون في رحلتهم من مكة إلى الحبشة من مصاعب ومتاعب، هونتها عليها نفسها المؤمنة بدينها، وعقيدتها القوية، وحبها للجهاد في سبيل دينها.

وتنفست أم حبيبة بأسىً عميق حينما تذكرت أنها كانت تحمل جنيناً في بطنها، وكيف كان الحمل يرهقها وقتئذٍ، وكيف كانت تضيق بمتاعبه وآلامه، ولكنها تحملت المتاعب، وبددتها في غمرة فرحتها وغبطتها بأن ما

---

(١) انظر تفاصيل ذلك كله في السيرة الهشامية جـ١، والبداية والنهاية لابن كثير جـ٨، والسيرة الحلبية جـ١.

ونعتوه بأسوأ النعوت وأقذرها، وقالوا عنه: إنّه ساحر، وإنه كاهن، وإنه مجنون!! ثم زادوا حتى تآمروا على التربص به وقتله(١).

ثم زادوا في إيذاء أتباعه المستضعفين حتى تجاوزوا كل حدٍّ للتعقل والاتزان؛ فنبذت كل قبيلة مسلميها، وحقّرت من شأنهم، وسخرت منهم، وتمادى المشركون في القسوة على أتباعهم وخدمهم ومواليهم ممّن اتبعوا دين محمدٍ، فعذبوهم بالحبس والضرب والجوع والعطش، وطرحوهم على رمضاء مكة، فوق حَصْباء الصحراء الملتهبة، وتحت شمسها المحرقة، وكان من تعذيبهم أن كووا أجسادهم بالنار، وأغرقوهم في الماء.

وتذكرت أم حبيبة رضي الله عنها ما كان من النبي ﷺ، لما رأى ما حلَّ بهم من عذاب وإيذاء، فأشار عليهم بالهجرة، فلما سألوه: وإلى أين نذهب يا رسول الله؟

نصح لهم أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، لأن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدقٍ.

عندئذ خرجت أم حبيبة في فوج المسلمين الأول مهاجرة إلى أرض الحبشة مستخفية مع من تخفّى من المسلمين خشية من قريش وفرسانها الذين قد يلاحقونهم في الطرقات، وكان فيمن خرج معها مهاجراً إلى الحبشة زوجها عبيدالله بن جحش، وأخيه عبدالله بن جحش.

وعادت أم حبيبة لأطياف ذكرياتها تستعرض بخيالها ما لاقت هي والمسلمون في رحلتهم من مكة إلى الحبشة من مصاعب ومتاعب، هونتها عليها نفسها المؤمنة بدينها، وعقيدتها القوية، وحبها للجهاد في سبيل دينها.

وتنفست أم حبيبة بأسىً عميق حينما تذكرت أنها كانت تحمل جنيناً في بطنها، وكيف كان الحمل يرهقها وقتئذٍ، وكيف كانت تضيق بمتاعبه وآلامه، ولكنها تحملت المتاعب، وبددتها في غمرة فرحتها وغبطتها بأن ما

---

(١) انظر تفاصيل ذلك كله في السيرة الهشامية جـ١، والبداية والنهاية لابن كثير جـ٨، والسيرة الحلبية جـ١.

تقاسيه ما هو إلاّ في سبيل حريتها في عبادة الله، وفي سبيل فرارها بعقيدتها الجديدة، وبدينها الجديد.

وتذكرت كيف استقبلها النجاشي ملك الحبشة مع من استقبل من المهاجرين إلى بلاده من المسلمين بالحفاوة والترحيب، وكيف أنزلهم بجواره في خير جوار، وكان من فضله وكرمه أن ردَّ رُسُل قريش الذين أرسلتهم إليه يطلبون منه أن يرد عليها المسلمين، اللاجئين إلى جواره، وتذكرت أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان يوم أن وضعت ابنتها حبيبة بنت عبيدالله بن جحش، ومن ذلك اليوم عرفت رملة بنت أبي سفيان «بأم حبيبة».

ومع مرور الأيام.. كان المسلمون يعيشون في أمن وسلام حتى جاءتهم الأخبار من مكة تعرفهم أن المسلمين بها قد ازداد عددهم، وبذلك اشتدَّ أزرهم، وقَوِيَ عودهم، وباتوا لا يخشون من قوة المشركين من قريش وسطوتهم.

انتعش الأمل في نفس المسلمين المهاجرين وتاقت نفسهم إلى العودة إلى وطنهم بعد أن زالت الأسباب التي دعتهم إلى مغادرته، وعلى ذلك غادر الحبشة عدد من المسلمين عائدين إلى مكة، كان فيهم عبدالله بن جحش شقيق عبيدالله زوج «أم حبيبة» رملة بنت أبي سفيان.



٣ ـ المحنة الكبرى

وحلَّقت أطياف حزينة ذكّرتها بما كان يحكىٰ عن أربعة من رجالات قريش، زوجها عبيدالله بن جحش هو رابعهم، عرف عنهم أنهم على دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، يُحَرّمون الخمر ولعب الميسر، ويتجنبون عبادة الأوثان، ويفتدون الموؤودة من مالهم، هم: «زيد بن عمرو بن نُفَيْل، وورقة بن نوفل، وعثمان بن الحارث» وكما ذكرنا فإن رابعهم هو «عبيدالله بن جحش» ـ وقفوا ذات يوم في فناء الكعبة وراحوا ينادون:

يا معشر قريش.. يا أبناء «إبراهيم».. طهروا بيت الله.. وكسروا ما أقمتم فيه من أصنامٍ وأحجارٍ صَماء، تطوفون بها وتنحرون لها.

يا قوم: التمسوا لكم ديناً غير الذي أنتم عليه.

يا قوم: لقد أظلكم زمان فيه نبي من أنفُسكم، ورد ذكره في التوراة والإنجيل، واستدل عليه الأَحْبار والرهبان والكهان، فتوبوا لأنفسكم وازقبوه، تكن لكم الدنيا وثواب الآخرة.

لكن قريشاً أبت أن تنصت لهؤلاء الرجال الذين يعيبون آلهتها ويحقرون أصنامها، وانصرفوا عنهم غير آبهين بهم، ولا منصتين لهم.

يومها زفت «رملة» إلى «عبيدالله»، فرأت نفسها عروساً لرجل لا يرضى لنفسه أن يعبد ما يعبد آلُهُ وعشيرته.

ويومها ظنت أمُ حبيبة أنها زوجة لرجل يبحث عن دين حق يستطيع أن يعبد به الله وحده، وظنت أنها وجدت فيه ما لم تعهده في أهلها وقومها.

ويومها ظنت أيضاً أن زوجها على حق فيما يفكر فيه، ويقول به، وأن قومها على باطل، فلما أسلم تجاوبت معه وتفاعلت.

وتذكرت تلك الليلة التي رأت فيها رؤيا أحزنتها وأفزعتها، فقد رأت زوجها عبيدالله بن جحش في أسوأ صورة، وعلى أبشع خلقة، فهبت من نومها وقد أخذها الرعب واستبد بها الفزع، وأخذت تفكر فيما رأته من رؤيا، وتستعرض ما لحظته من تغيير وتبديل في أحوال زوجها، فلم تملك أن تمتمت تقول: تغيرت والله حاله.. فلما أصبحت إذ بزوجها يعلن فيقول: يا أُم حبيبة.. إني نظرت في الدين، فلم أرَ ديناً خيراً من النصرانية، وكنت قد دنت بها، ثم دخلت دين محمدٍ، ثم هأنذا أعود فأرجع إلى النصرانية..

يومها بهتت أم حبيبة لما سمعت من زوجها برغم ما تبينته من تغير حاله، فما كانت تظنُّ قط أن زوجها الذي جاهد طويلاً في سبيل البحث عن دين حق يعبد به الله، يخرج على هذا الدين بعد أن وجده..! وما كان

يخطر ببالها أن زوجها بعد أن ترك دياره، وخلَّف بلادَهُ، من أجل أن يتفرغ إلى دين الإسلام، سوف ينبذ هذا الدين ويدخل في دين غيره.

ولم تُجدِ مع عبيدالله بعد ذلك نصائح زوجته في هدايته، وبقائه على ما كان عليه من دين، ولم يستطع المسلمون المهاجرون بالحبشة أن يعودوا به إلى حظيرة الإسلام، بل كان إذا مرَّ على جماعاتهم يقول: فقَّحنا وصأصأتم..! (أيْ إنا قد فتحنا أَعْيُننا فَأبصَرْنَا، وأنتم ما زلتم تحاولون فتح عيونكم تلتمسون البصر).

وكان حتماً على أم حبيبة رضي الله عنها ـ التي تابعت دينَ محمدٍ، ودانت بالإسلام، ورفضت محاولة زوجها أن يردها عن دينها ـ أَنْ تفارق زوجها الذي تنصَّر، ففارقتهُ وعاشت وحيدة مع ابنتها حبيبة.



٤ ـ البشارة العظيمة

وفيم كان الحزن يخيم على أم حبيبة رضي الله عنها، وهي في وحدتها، وهي في مهجرها بالحبشة، دقَّ باب دارها الحبشي، فقامت أم حبيبة إلى الباب تفتحه لتنظر من الطارق، فإذا بالطارق جَارية من جواري النجاشي، نجاشي الحبشة تُدْعىٰ «أبرهة» تقول لها: أبشري إن الملك يقول لك إن محمداً رسول الله كتب إليه أن يزوجك منه، فوكلي من يزوجك.

كان الخبر مباغتاً، فَبُغِتَتْ أُم حبيبة بهذا الخبر، واستولت عليها الدهشة وتملكها العجب..! ولم يكن في زواجها من محمد ﷺ من عجب ودهشة، بل العجب والدهشة في الرؤيا التي رأتها لزوجها عبيدالله بن جحش.

والدهشة والعجب أيضاً في هذه البشارة أن محمداً رسول الله ﷺ يرسل إلى نجاشي الحبشة ليزوجه منها، محمد بمكانته العظيمة، ودعوته السامية، وبطهره ونقائه، وصدقه وأمانته يتزوج هذه السيدة المكلومة في

زوجها الذي ارتد عن دينه وتنصر وتخلى عنها ومات غريباً.

هذه رحمة رسول الله وقلبه الرحيم، فلربما علم بمحنة أم حبيبة فأراد أن يبدد عنها اليأس، ويخفف آلام الغربة وعذاب الوحدة، ما أرحمك يا رسول الله!! وما أهنأك يا أم حبيبة!! فقد شملتك رقة رسول الله أنه «رحمة للعالمين» أرسله ربه ليكون رحمة للعالمين.

وطاف ببال أم حبيبة ذكرى لرؤيا أخرىٰ رأتها في المنام منذ عهد قريب، فقد رأت في المنام هاتفاً يهتف بها: يا أم المؤمنين وروّعت أم حبيبة يومئذ، واستبعدت ما رأته في منامها سوف يكون ظِلٌّ من الحقيقة.

ولكن ها هي تسمع من «أبرهة» ـ جارية نجاشي الحبشة ـ أن محمداً رسول الله قد أرسل إلى النجاشي ليخطبها عليه، وأن النجاشي يطلب منها أن توكِّلَ عنها من يزوجها لتصير زوجة لرسول الله ﷺ، وتصبح أُمّاً للمؤمنين..!

يا لنعمة الله التي أَنعمها على أُم حبيبة..! ويا لكرم رسوله الذي سوف يكرمها به!

ولما تيقنت أُمُّ حبيبة من الخبر، ووثقت بصحة ما تحملُهُ إليها «أبرهة» من نبأ سارٍّ وسعيد، قالت فرِحَةً مستبشرةً تردُّ لأبرهة على النجاشي: بشَّره اللَّهُ بالخير.

وسيطرت فرحة الخبر السار على أُم حبيبة فخلعت من يديها سوارين من فضة أعطتهما لأبرهة بشارةً لها على ما حملت إليها من بشرىٰ سارَّةٍ مُفْرِحةٍ.

وأرسلت إلى كبير المهاجرين من بني أُمية وهو من قومها ـ خالد بن سعيد بن العاص ابن أُمية توكله عنها في زواجها من رسول الله ﷺ الذي سيتولاه النجاشي نيابة عن النبي ﷺ.

وانصرفت أبرهة فرحةً مسرورة بما حملت إلى أم حبيبة من نبأ أَفْرَحها وأسعدها، وتلقىٰ خالد بن سعيد توكيل أم حبيبة له في زواجها من

رسول الله ﷺ مغتبطاً بما ستناله هذه المسلمة المؤمنة من خيرٍ وبركةٍ جزاءاً لها بما صبرت في سبيل دين الله.

وجلست أُم حبيبة في بيتها الذي تعيش فيه وحيدة إلى جانب ابنتها الطفلة حبيبة تسبح لله حمداً، وتسجد له شكراً، وتستعرض في خيالها بعض ما مرّ بحياتها من أحداث، وما جاز بها من حوادث ومواقف.

❀ ❀ ❀

٥ ـ في قصر النجاشي

في قصر النجاشي بالحبشة اجتمع المسلمون المهاجرون إليها، ومحياهم يفيض بالبشر، ووجوههم يغمرها السرور، وكان اجتماعهم وسرورهم لأنّ النجاشي دعاهم لحضور الحفل الذي سيتولّى فيه تزويج رسولهم من المهاجرة الكريمة أُم حبيبة بنت أبي سفيان، وكان على مقدّمة المهاجرين جعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ، وكان من بين الحاضرين عمرو بن أمية الضمري الذي أرسله محمد ﷺ إلى نجاشي الحبشة ليخطب عليه أم حبيبة، كما أرسله إلى المسلمين المهاجرين بالحبشة يطلب منهم العودة إلى بلاد العرب [(١)] بعد أن اشتد أزر المسلمين بها، وزالت الأسباب التي هاجروا من أجلها، وحين انعقد الجمع، وقف النجاشي يعلن بين الحاضرين ما أنابه محمدٌ فيه فقال:

الحمد لله الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمن العزيز الجبار، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنّه الذي بشر به عيسى ابن مريم، أما بعد..

فإن رسول الله ﷺ، كتب إليَّ أن أُزوّجه أم حبيبة بنت أبي سفيان،

(١) انظر سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٢٢٠ ترجمة أم حبيبة رقم ٢٣، طبقات ابن سعد جـ٨ ص٩٨.

فأجبت إلى ما دعا عليه رسول الله ﷺ، وقد أصدقها أربعمائة دينار، ثم سكب الدنانير وسأل: فمن أولاكم بها؟

قال الحاضرون: خالد بن سعيد بن العاص.

فقال النجاشي لخالد: فزوِّجها من نبيكم!

فقام خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه يجيب دعوة النجاشي بتزويج النبي ﷺ لأُم حبيبة رضي الله عنها فقال: الحمد لله أحمده، وأستعينه وأستنصره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

أما بعد.. فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وزَوَّجتُهُ أم حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسول الله ﷺ[1].

وقدم النجاشي ما أصدقه لأُم حبيبة من دنانير، فقبض خالد الصداق، وبذلك صارت أم حبيبة أماً للمؤمنين، وتحقق قول الهاتف الذي هتف بها في نومها يناديها، بهذا اللقب، فقد رأت في المنام ذات ليلة هاتفاً يهتف بها: يا أُم المؤمنين، وردعت أُم حبيبة وقتئذ، واستبعدت أن يكون ما رأته في المنام أن يكون له ظل من الحقيقة، ولكن ها هو النجاشي يصدقها وخالد بن سعيد يزوجها للنبي ﷺ.

ولما همَّ النّاس بالانصراف من قصر النجاشي، قال لهم: اجلسوا فإن سُنَّة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج، فدعا النجاشي بطعام، ونهض القوم إلى وليمة النجاشي التي أولمها لهم، فأكلوا وشربوا فرحين مسرورين، ثم انصرفوا مسرورين.

وحمل إلى أم حبيبة صداقها، وأرسلت نساء النجاشي إليها هدايا من طيب وعود وعنبرٍ، حملتها إليها جارية النجاشي «أبرهة»، وتقبلت أم حبيبة هدايا نساء الملك.

❋ ❋ ❋

---

(١) طبقات ابن سعد جـ٨ ص٩٧، ٩٨، والمستدرك ٢٠/٤، والإصابة ٢٩٩/٤.

٦ ـ حديث العروس

وتحدثت الزوجة الحبيبة، أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها عن لحظات عزيزة على نفسها مرَّت بها في حياتها، وهي لحظات وصول مهرها وإتمام إجراءات زواجها من النبي ﷺ في الحبشة فقالت أُم المؤمنين حينما جيء لها بالمهر:

لما وصل المال وهو مهري من النجاشي، أرسلت إلى الجارية أبرهة التي بشّرتني، فأتت، فقلت لها يا أبرهة، إني كنت أعطيتك ما أعطيتك بالأمس، ولا مال بيدي، فهذه الخمسون مثقالاً، فخذيها فاستعيني واستغني بها.

ولكن الجارية أبت ذلك، وأَخرجت حُقّاً فيه كل ما كنت أعطيتها فردته عليَّ وقالت: عَزَمَ عليَّ الملك ألاَّ أرزأكِ شيئاً، وأنا التي أقوم على ثيابه ودهنه، وقد اتبعت دين محمد رسول الله ﷺ وأسلمت لله عز وجل، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر.

قالت أم حبيبة: فلما كان الغد، جاءتني بعود (وهو نوع من الطيب والبخور) وورس (وهو نبات أصفر يتخذ من الزعفران) وعنبر، فقدمتُ بذلك كله على رسول الله ﷺ، فكان يراه عليَّ فلا ينكره.

ثم قالت الجارية أبرهة: يا أُم حبيبة إن حاجتي إليك أن تقرئي رسول الله ﷺ مني السلام، وتبلغيه أني قد اتبعت دينه.

قالت أُم حبيبة: ثم لطفت الجارية أبرهة بي، وكانت هي التي جهزتني، وكانت كلما دخلت علي تقول: يا أُم حبيبة لا تنسي حاجتي إليك.

فلما قدمت على رسول الله ﷺ أخبرته كيف كانت الخطبة، وما

فعلت بي أبرهة، فتبسم رسول الله ﷺ، وأقرأته منها السلام، فقال ﷺ: **«وعليها السلام ورحمة الله وبركاته»**[1].

❋ ❋ ❋

٧ ـ الطريق إلى المدينة

ساعدت أبرهة أم حبيبة في إعداد حاجاتها، وعاونتها في تجهيزها وتجهيز ابنتها حبيبة بما يلزم للرحيل.

وإذ تجهزت أُم حبيبة وتجهز المسلمون لمغادرة الحبشة إلى بلادهم وأوطانهم، ودَّعهم النجاشي، وبعث برُسُلٍ من لدنه ساروا معهم حتى ركبوا البحر على ظهر سفينتين كان الملك قد أمر بإعدادهما لهم.

وهكذا غادر المهاجرون أرض الحبشة التي استقبلتهم، وأضافتهم، وأقاموا فيها خير مُقَامٍ.

وعلى شاطىء الجزيرة العربية نزل القوم، وساروا ميممينَ نحو المدينة، وقد استخفهم الفرح لعودتهم إلى بلادهم، واستبد بهم الشوق إلى لقاء الرسول ورؤية الصحاب والأحباب. وكانت أم حبيبة رضي الله عنها من أشدهم شوقاً إلى لقاء رسول الله ﷺ الزوج الحبيب، ومن أشدهم شوقاً أيضاً إلى لقاء الصحاب والأحباب.

❋ ❋ ❋

٨ ـ أين زوجي؟

وإذ شارف المهاجرون المدينة، استقبلتهم الأخبار تقص عليهم نبأ

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء ترجمة أم حبيبة رقم ٢٣ جـ٢ ص٢١٨، طبقات ابن سعد جـ٨ ص٩٨.

خروج الرسول ومعه جيش المسلمين لغزو يهود خيبر، وتحكي لهم خبر النصر الذي نصره الله لنبيه على اليهود، وتعرفهم قرب عودة جيش المسلمين، وعلى رأسه الرسول ﷺ إلى المدينة، ودخلت أم حبيبة المدينة مع العائدين من الحبشة، فاستقبلهم أهل المدينة بالفرح والسرور والترحاب.

ثم لم يمض على ذلك بضعة أيام، حتى قدم الرسول ﷺ إلى المدينة على رأس جيش المسلمين الظافرين المنتصرين، فكانت فرحة أهل المدينة فرحتين، فكان سرورهم بمقدم الرسول على رأس جيشه الظافر، وبعودة مهاجري الحبشة إلى أهلهم وأوطانهم ـ لا يعادله سرورٌ.

وكان فرح النبي ﷺ بلقاء المهاجرين، يُعَبّرُ عنه، ويبيِّنُ مقداره، فمن ذلك سرورُهُ بلقاء ابن عمه جعفر بن أبي طالب الذي صَدَّره الرسول ﷺ بقوله وهو يعانقه: «**ما أدري! بأيهما أُسَرُّ؛ بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر!!**».

ولما قدمت أم حبيبة من الحبشة ذكر المؤرخون[1] أن رسول الله ﷺ أمر بلالاً فأخذ بخطام بعيرها، فأنزلها المنزل، منزله هو لا منزل حارثة بن النعمان الذي أنزل فيه صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها.

فلما أنزلها بلال حيث أمره النبي ﷺ، فإذا فيه كناسة، فقالت لمولاة لها: إن شئت كفيتني السقي وكنستُ، وإن شئت استقيتُ وكنستِ.

قالوا: فكنست البيت، ثم بَسطت فيه بساط شعر، ثم بسطت عليه شيئاً، ثم أسرت، ثم أذَّن رسول الله ﷺ بالدخول على أهله، فلما دخل عليها وجد ريح الطيب.

وقال ﷺ: «**إنهنَّ قرشيات بطاحيات قرويات، لَسْنَ بأعرابيات ولا بدويات**».

هكذا كانت مكانة القرشيات من نسائه في نفسه فهن بنات عمومه، وصاحبات أرومه لا يفت فيها منافق أو نسَّابة يدعي معرفة النسب، وقد

---

(١) تاريخ ابن عساكر، تراجم النساء ص٨٧.

كانت كلمته حبّاً في فعلهن ولم تكن تمييزاً بين عرق وعرق، أو نسب ونسب، بين نسائه صلوات الله وسلامه عليه.

وحَظيت أم حبيبة بحفاوة الرسول ﷺ وإكرامه، وحظي أهل المدينة بوليمة حافلة أولمها لهم عثمان بن عفان زوج بنت النبي ﷺ تكريماً لبنت عمه أُم حبيبة التي شرَّفها الله ورسوله فرفعاها إلى مصاف أمهات المؤمنين.

ودخلت أُم حبيبة بيت الرسول ﷺ، في الوقت الذي دخلت إليه عروس أُخرى هي صفية بنت حُيَيّ بن أخطب، التي اصطفاها الرسول ﷺ من سبايا خيبر لرزانتها وعقلها، وأعتقَهَا وتزوجها، فأكرم فيها بذلك اليهود.

ولم يكن الرسول ﷺ قد مضى على زواجه ﷺ - من عقيلة بني النضير، غير أيام معدودات إلاَّ أنه كان في التباين الذي استقبل به زوجات الرسول ﷺ، ما يدل على ما لأُم حبيبة في نفوسهن من مكانة ومنزلةٍ؛ فقد قابلن دخولها إلى بيت النبي ﷺ بسكون وهدوء واحترام، في حين كان تأففهن وتذمرهن بدخول صفية إلى بيت رسول الله ظاهراً واضحاً.

وحينما تزوج رسول الله ﷺ صفية كان قد قدر ما سوف يصيب نفوس زوجاته من ألم الغيرة فلم يشأ أن يأتي بصفية إلى داره أول ما يأتي بها المدينة، فأنزلها أولاً في بيت حارثة بن النعمان(١).

وتسامعت نساء الأنصار بجمال صفية ووضاءَتها، فتوافدن إلى دار ابن النعمان يشاهدنها معجبات، ومن بين النساء المحجبات اللاّئي جئن ينظرن إلى صفية بعض زوجات النبي ﷺ عائشة، وحفصة وزينب بنت جحش، وجويرية، وهن متنقبات متخفيات، ينظرن إلى العروس الجديدة، ضرتهن المقبلة، وأبصر النبي ﷺ بعائشة متنقبةً، فعرفها رغم تخفيها، فلما نظرت إلى العروس، وهمت بالانصراف أمسك بثوبها وسألها ملاطفاً: «**كيف رأيت يا شقيراء؟**».

---

(١) انظر الإصابة ٣٣٨/٤.

وبُغِتت عائشة وفوجئت لمعرفة النبي ﷺ لها، فقالت لما تحسه من حرجها وشدّة لَذْعِ الغَيْرة بها: رأيت يهودية.

فقال رسول الله ﷺ: **«لا تقولي هذا يا عائشة، فإنها قد أسلمت فحسن إسلامها»**(١).

أمّا أُم حبيبة فقد استقبلنها نساء النبي ﷺ بشيء من الود والمجاملة، ولم ترَ عائشة فيها أول الأمر ما يثير غيرتها وتشعلها، إذ كانت رملة تقترب من عامها الأربعين، وانسحب من وجهها سحر الناظر وليس لها سحر صفية، ولا ملاحة جويرية، ولا حسن أُم سلمة، ولا جمال زينب رضوان الله عليهن..

وقد ظنت عائشة أن أُم حبيبة ستكون صورة من حفصة تنحاز لها وتكون في صفها، ولكنها وجدت غير ذلك، فابنة أبي سفيان الأموية القرشية، أنفت أن تكون تابعة لأيٍ من نساء النبي ﷺ.

ولربما أنكرت عائشة عدم استجابة أُم حبيبة إلى كسب رضاها والمسارعة إِليها، ولكن أُم حبيبة في تكوينها وشخصيتها ما ينكر على عائشة رضي الله عنها أن تكون زعيمة نساء البيت النبوي تقودهن حيثما أرادت أو شاءت، بها شخصيتها الطامحة إلى القيادة والتقدم.

ولم يرد في سيرة أم حبيبة ما يدل على أنها كانت على خلاف مع عائشة أو أَيٍّ من نساء النبي رضوان الله عليهن.

ونعود فنقول: إن التباين الذي استقبل به نساء النبي العروسين الجديدين صفية وأم حبيبة ما يدل على ما لأم حبيبة في نفوسهن من مكانة ومنزلة وتقدير.

❊ ❊ ❊

(١) انظر طبقات ابن سعد جـ٨، وابن حجر في الإصابة، والسمط الثمين ص٨٠.

٩ - أبو سفيان في المدينة

بلغ أبو سفيان بن حرب، زواج ابنته «رملة بنت أبي سفيان» أم حبيبة من النبي ﷺ، فلم يسعه إلاّ أن يقول، وقد بلغه زواج محمد من ابنته التي لم يرها منذ سنوات طويلة، قال: هذا الفحل لا يُقذع أنفُهُ، أي أن محمداً رجل شريف لا يرد عن مصاهرة ولا مواصلة، وَيَسُرُّ كل إنسان أن يزوِّجه ابنته.

ورغم العداوة التي كانت بين المشركين والمسلمين، ومع النفور والمقاطعة التي كان لا يرجى معها أن يتقابل أب مُشْرِكٌ كافر مع ابن له مسلم أو ابنة مسلمة، فقد أجبرت الظروف وقضت الأوضاع على أبي سفيان أن يسير إلى المدينة على الرغم مما كان بين المشركين والمسلمين من عداوة، وأن يلتقي مع ابنته أُم حبيبة على الرغم من النفور والمقاطعة التي لا يرجىٰ بسببها أن يتقابل يوماً مع ابنته.

وكانت هذه الظروف التي أجبرت أبا سفيان أن يسير إلى المدينة، ودعته إلى أن يسعى لمقابلة ابنته هي ما حدث من نقض قريش لعهد الحديبية الذي عقدته مع محمد ﷺ، ولكن ماذا عن قصة نقض الصلح، صلح الحديبية أو معاهدة الحديبية؟؟

فقد ذكر أن في وقعة الحديبية أن بنداً من بنود هذه المعاهدة يفيد أن من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءاً من ذلك الفريق.

وحسب هذا البند دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وصارت كل من القبيلتين في أمن من الأُخرى، وقد كانت القبيلتان على عداوة وتواترت في الجاهلية، فلما جاء الإسلام، ووقعت هذه الهدنة، وأمن كل فريق من الآخر، اغتنمها بنو بكر، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فخرج نوفل بن معاوية الدِّيلي في جماعة

من بني بكر في شهر شعبان سنة ٨هـ، فأغاروا على خزاعة ليلاً، وهم على ماء يقال له: «الوتير» فأصابوا منهم رجالاً، وتناوشوا واقتتلوا، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك، فقال كلمة عظيمة: لا إله اليوم يا بني بكر، أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتَسرقون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه.

ولما دخلت خزاعة مكةَ لجؤوا إلى دار بُدَيل بن ورقاء الخزاعي، وإلى دار مولى لهم يقال له: رافع، وأسرع عمرو بن سالم الخزاعي، فخرج حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف أمامه وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال:

يا رب إني ناشد محمدا … حلفنا وحلف أبيه الأتلدا

قد كنتم وُلْداً وكنا والدا … ثمة أسلمنا ولم ننزع يدا

فانصر هداك الله، نصراً أبدا … وادع عباد الله يأتوا مددا

إلى أن قال:

وقتلونا رُكَّعاً وسُجَّدا

فقال رسول الله ﷺ: **«نصرت يا عمرو بن سالم»**.

ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة، فأخبروه بمن أصيب منهم، وبمساعدة ومظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم رجعوا إلى مكة.

❋ ❋ ❋

١٠ ـ السفير الفاشل

لا شك أن ما فعلت قريش وحلفاؤها كان غدراً محضاً ونقضاً صريحاً

للعهد والميثاق، لم يكن له أي مبرر، ولذلك سرعان ما أحست قريش بغدرها، وخافت وشعرت بعواقبه الوخيمة فعقدت مجلساً استشارياً، وقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان ممثلاً لها ليقوم بتجديد الصلح.

وخرج أبو سفيان ـ حسب ما قررته قريش ـ فلقي بديل بن ورقاء بعُسفان ـ وهو راجع من المدينة إلى مكة ـ فقال: من أين أقبلت يا بُديل؟ وظن أنّه أتى النبي ﷺ.

فقال: سرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي.

قال أبو سفيان: أو ما جئت محمداً.

قال بديل: لا.

فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى، فأتى مبرك راحلته، فأخذ من بعرها، ففته، فرأى فيها النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً[1].

وبذلك يكون أبو سفيان قد علم أن محمداً قد سارت إليه الأخبار بما حدث من قريش، وأن ذهابه إلى المدينة لمقابلة مُحمدٍ قد أصبح خبر عسير.

وعلى ذلك لم يستطع أبو سفيانٍ أن يقصد إلى محمد مباشرة فيما جاء من أجله، ورأى أن يقصد إلى ابنته أُم حبيبة زوج الرسول، لتكون واسطة بينه وبين محمد.

وقصد أبو سفيان إلى بيت أُم حبيبة، ودخل على ابنته التي لم يرها ولم تره منذ وقت طويل.

وفوجئت السيدة أم حبيبة رضي الله عنها لرؤية أبيها بدارها، فوقفت وقد تملكتها الحيرة، لا تدري ماذا تعمل؟!! ولا ماذا تقول؟!!

---

(١) انظر السيرة لابن هشام.

وتقدم أبو سفيان ليجلس على الفراش الذي مُدَّ بجانب من جوانب الحجرة، فإذا بابنته تسرع فتطويه عنه، حائلة بينه وبين الجلوس عليه.

ودهش أبو سفيان لما فعلت ابنته، فسألها: يا بنية، ما أدري!! أرغبت بي عن الفراش، أو رغبت بالفراش عنّي؟!

فأجابت: بل هو فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك، فلم أُحبَّ أن تجلس عليه.

فغضب أبو سفيان من ابنته غضباً شديداً وقال لها: والله يا بنية لقد أصابك شرٌّ بعدي(١).

فأجابت قائلة: بل أصابني كل الخير.. أَن هُديتُ للإيمان، ونعمت بالإسلام.

وغادر أبو سفيان ابنته متأثراً غاضباً، وبقيت أُم حبيبة واجمة آسفة ساكنة، وقد بلغ بها التأثر مبلغاً عظيماً، فها هو ذا أبوها أبو سفيان الذي لم تره منذ سنين طويلة، منذ أن هاجرت إلى الحبشة، بعد أن فرق الإسلام بينها وبينه.. ها هو ذا تراه بعد هذا الأمد الطويل فلا تستطيع أن تلقاه كما تلقى الابنة أباها بعد طول الغياب وطول الاغتراب، ويدخل دارها فلا تقدر أن ترحب به وتكرمه بما يجب أن تقدم البنت لأبيها من ترحيب وإكرام، ذلك أن شركه بالله قد حال بينها وبينه، ولأن كفره وعناده قد وقف عقبة بينه وبين ابنته لا تستطيع اجتيازها.

تملك الحزن قلب أُم حبيبة، وربما فاضت دموعها من الحزن، ولكنها لا تملك لأبيها من شيء إلاَّ أن تتجه بقلبها وروحها إلى الله عز وجل تطلب منه، وتبتهل إليه، أن يهدي أباها من الضلال، أن يهديه بهدي الإيمان، وينعم عليه بنعمة الإسلام، فينضم إلى قافلة الحق، ويترك قافلة الباطل إلى غير رجعة.

---

(١) انظر طبقات ابن سعد جـ٨، والسيرة لابن هشام، تاريخ الطبري جـ٣ ص١١٣.

ثم خرج أبو سفيان من عند ابنته أُم حبيبة حتى أتى رسول الله ﷺ فكلّمه، فلم يرد عليه شيئاً.

ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: ما أنا بفاعل.

ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم به.

ثم جاء فدخل على عليّ بن أبي طالب وعنده فاطمة، وحسن غلام يدب بين يديهما، فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائباً، اشفع لي إلى محمد؟!

فقال: ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

فالتفت أبو سفيان إلى فاطمة، فقال: هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟

قالت فاطمة: والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ.

وحينئذ أظلمت الدنيا أمام عيني أبي سفيان، فقال لعلي بن أبي طالب في هلع وانزعاج ويأس وقنوط: يا أبا الحسن، إني أرى الأمور قد اشتدت علي، فانصحني.

قال علي: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك.

قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟

قال: لا والله ما أظنه، ولكني لم أجد لك غير ذلك.

فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، وانطلق.

ولما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك؟

قال: جئت محمداً فكلمته فوالله ما ردّ علي شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت عمر بن الخطاب فوجدته أدنى العدو، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، قد أشار علي بشيء قد صنعته، فوالله ما أدري هل يغني عني شيئاً أم لا؟

قالوا: وبم أمرك؟

قال: أمرني أن أجير بين النَّاس، ففعلت.

قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟

قال: لا.

قالوا: ويلك، إن زاد الرجل على أن لعب بك!!

قال: لا والله، ما وجدت غير ذلك.

❊ ❊ ❊

١١ ـ أبي مسلمٌ

واصلت أم حبيبة الدعاء لأبيها بالهداية والإيمان والإسلام، ولم يطل انتظارها لما تمنت، فقد فشل مسعى أبي سفيان لمد الهدنة التي بين قريش ومحمدٍ، وخرج رسول الله ﷺ بعد أن جهز جيشه لمحاربة قريش وفتح مكة[١].

ثم لم تلبث الأخبار أن جاءت إلى أهل المدينة تقصّ عليهم أخبار الرسول، وتحكي لهم أنباء قريش، فكان من أبهج الأخبار عند أهل المدينة خبر فتح الرسول لمكة دون حرب، ودون مقاومة، وكان من أحلى الأنباء عند أُم حبيبة هو نبأ إسلام أبيها أبي سفيان بين يدي

(١) انظر السيرة لابن هشام والمغازي للواقدي ـ فتح مكة.

رسول الله، وبمساعدة عمه العباس رضي الله عنهم أجمعين.

سجدت أم حبيبة لربها شاكرة، وحمدت ربها، فقد اطمأن قلبها، وهدأت نفسها، ووجدت في نفسها رغبة عارمة في أن ترى أباها، أبا سفيان، وقد انضم إلى قافلة الحق وترك قوافل الباطل، بل وكرمه الإسلام فأصبحت داره في مكة دار أمان وإجارة لكل من خالف شرع الله، فجعل المنادي ينادي بأمر رسول الله: **«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»**.



١٢ - المودة بينهم

قال تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [الممتحنة: ٧].

في هذه الآية قال ابن عباس، فكانت المودة التي جعل الله عز وجل بينهم تزويج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما، فصارت أم المؤمنين، وصار معاوية خال المؤمنين.

قال القرطبي رحمه الله - وهذا بأن يسلم الكافر، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة وخالطهم المسلمون، كأبي سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام.

وقيل: المودة تزويج النبي ﷺ أُم حبيبة بنت أبي سفيان، فلانت عند ذلك عريكته، واسترخت شكيمته في العداوة.

وقال الطبري في تفسيره: ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ أيها المؤمنون أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم من أعدائي من مشركي قريش مودة، ففعل الله ذلك بهم، بأن أسلم كثير منهم، فصاروا لهم أولياء وأحزاباً[1].

(١) تفسير الطبري الآية ٧ من سورة الممتحنة.

أما في التفسير الكبير فقد قال الإمام الفخر الرازي ـ رحمه الله: الله تعالى قادر على تقليب القلوب، وتغيير الأحوال، وتسهيل أسباب المودة، قال بعضهم: لا تهجروا كل الهجر، فإن الله مطلعٌ على الخفيات والسرائر، ويروى: «أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما»[(١)].

❀ ❀ ❀

١٣ ـ بعد وفاة الرسول ﷺ

عاشت أم حبيبة رضي الله عنها إلى خلافة أخيها معاوية رضي الله عنه، حيث توفيت عام أربع وأربعين وقد ناهزت السبعين عاماً من عمرها[(٢)].

في هذه الرحلة العمرية الطويلة المباركة، كانت أم المؤمنين أُم حبيبة رضي الله عنها ممن يحببن كتاب الله عز وجل، ويقبلن على حفظه والتفقه فيه، كما أنها كانت راوية لحديث رسول الله ﷺ.

ولم تنغمس أم حبيبة في موقف خلاف مع أخواتها أمهات المؤمنين، ولا نقل ضرائرها زوجات النبي ﷺ الأخريات أي خلاف، فكانت تلزم بيتها عابدة ساجدة متهجدة، تقوم الليل وتصوم النهار وتنفق من مالها بسخاء وكرم على المحتاجين والمساكين.

وكان لها موقف يوم حوصر عثمان بن عفان رضي الله عنه في داره، فقد جاءت على بغلة لها، فقيل: أُم المؤمنين، أُم حبيبة.

وارتد عليها المحاصرون يضربون وجه بغلتها لإبعادها عن المكان. فقالت لهم: إن وصايا بني أُمية إلى هذا الرجل ـ تعني عثمان رضي الله عنه ـ فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل.

---

(١) الفخر الرازي في تفسيره جـ٢٩/٢٦٢.

(٢) سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٢٢٣.

فردوا عليها بجفاء وغلظة، وقد طغت عليهم سوء فعلتهم وأخذتهم العزة بالإثم، وقالوا: كاذبة، وأهووا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف فندت بأم حبيبة، فتلقاها الناس وقد مالت رحالتها، فتعلقوا بها وأخذوها وقد كادت تقتل، فذهبوا إلى بيتها.

وفي صراعات الخلافة التزمت رضوان الله عليها جانب الحياد في النزاع الذي وقع بين كل من علي بن أبي طالب من جانب وبين عائشة وطلحة والزبير من جانب آخر.

وأيضاً التزمت جانب الحياد في النزاع الذي نشب بين أخيها معاوية رضي الله عنه، وبين علي كرم الله وجهه، ولم يذكر أن جاء على لسانها عبارة تبين انحيازها لأي من هؤلاء جميعاً، حتى معاوية أخيها رضوان الله عليهم أجمعين.



١٤ - راوية الحديث

كانت رضوان الله عليها زوجة مطيعة لزوج عظيم، بالمؤمنين رؤوف رحيم صلوات الله وسلامه عليه، فكانت تسمع من رسول الله ﷺ وتروي عنه، وقد بلغ مسندها رضوان الله عليها خمسة وستين حديثاً، اتفق الشيخان (البخاري ومسلم) على حديثين - في النكاح باب: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[1].

ومما روي عنها: عن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله... انكح أختي بنت أبي سفيان.

قال: **«أو تحبين ذلك؟»**.

---

(١) الحديث في فتح الباري ٩/٦٤.

فقلت: نعم،.. لست لك بمخلِية، وأَحَبُّ من شاركني في خير أُختي.

فقال النبي ﷺ: «**إِنَّ هذا لا يحلُّ**».

قلت: فإنا نتحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة.

قال: «**بنت أم سلمة**».

قلت: نعم.

قال عليه السلام: «**لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلَّت لي.. لأنها ابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وإياه ثويبة، فلا تعرضن عليَّ بناتكن ولا أخواتكن**».

قال عروة: ثويبة مولاة أبي لهب أعتقها فأرضعت النبي ﷺ.

ومما رواه لها الإمام البخاري بسنده عن حميد بن نافع عن زينب ابنة أُم سلمة، عن أم حبيبة بنت أبي سفيان: لما جاءها نعي أبيها، دعت بطيب، فمسحت ذراعيها وقالت: ما لي بالطيب من حاجة، لولا أني سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يحل لامرأةٍ تؤمن بالله واليوم الآخر تحدُّ على ميت فوث ثلاث، إلاَّ على زوج أربعة أشهر وعشراً**»[1].

وفي رواية: مسحت عارضيها وذراعيها، وقالت: إني كنت عن هذا لغنية.. ولولا أني سمعت.... إلى آخر الحديث.

وعنها رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من صلى اثنتي عشرة ركعة في يومه وليلته بني له بيت في الجنة**».

قالت أم حبيبة: فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ[2].

وفي مسنده أخرج أبو يعلى الموصلي - رحمه الله - بسنده عن أبي الجراح مولى أُم حبيبة، عن أم حبيبة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لولا أن أشق على أُمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة، كما يتوضؤون**»[3].

---

(١) فتح الباري ٩/٤٠٣ برقم ٣٥٤٥.

(٢) أخرجه مسلم ٧٢٨.

(٣) رواه أحمد ٦/٣٢٥، وفي مسند أبي يعلى برقم ٧١٢٧.

وروت عن الصلاة وفضائلها فقالت: قال رسول الله ﷺ: **«من صلى أربعاً قبل الظهر، وأربعاً بعدها، حرَّمه الله على النار»**[1].

ومن مروياتها أيضاً عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«كلام ابن آدم عليه، لا لَهُ، إلاّ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وذكر الله عز وجل»**[2].

❀ ❀ ❀

١٥ - في وداعها

عاشت أم حبيبة رضي الله عنها حتى أدركت خلافة معاوية بن أبي سفيان، وتوفيت في خلافته، وتروي عائشة رضي الله عنها فتقول: دعتني أم حبيبة زوج النبي ﷺ عند موتها، فقالت: قد كان بيننا ما يكون بين الضرائر، فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك.

فقلت: غفر الله لك ذلك كله، وتجاوزه، وحللتك من ذلك كله.

فقالت: سررتني سَرَّك الله.

وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك[3].

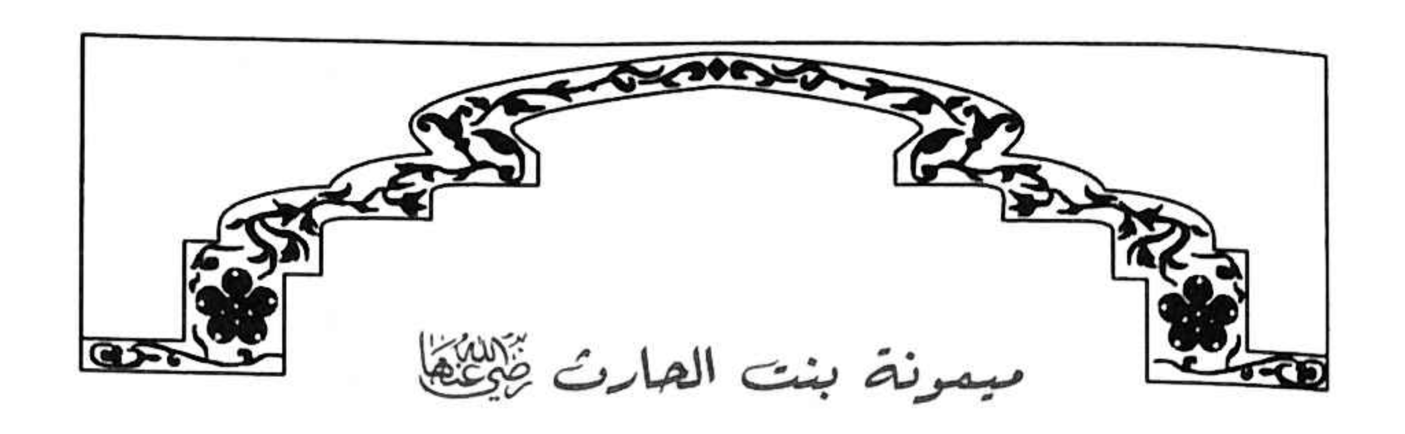
رحم الله أم حبيبة فقد توفيت بالمدينة، في دار علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان ذلك في عام ٤٤ هجرية.

رضي الله عن أم المؤمنين أم حبيبة.



---

(١) أخرجه أحمد ٤٢٦/٦، وأبو داود ١٢٦٩، والنسائي ٢٦٦/٣.
(٢) رواه ابن ماجه ١٣١٥/٢ حديث رقم ٣٩٧٤. وأخرجه الترمذي ٢٤١٤.
(٣) انظر طبقات ابن سعد جـ٨ ص١٠.



أقوال في ميمونة

قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٠].

- قال رسول الله ﷺ: **«إن الأخواتِ لمؤمنات»**.

- أم ميمونة أكرم عجوزٍ في الأرض أصهاراً.

- ميمونة رضي الله عنها تقية نقية، تصل الرحم.

- ميمونة هي آخر امرأة تزوجها رسول الله ﷺ - يعني مِمَّن دخل بهن -. [ابن سعد في الطبقات].

- دخلت ميمونة البيت النبوي ولم تتجاوز السادسة والعشرين. [الذهبي في ترجمتها].

- ذهبت والله ميمونة.. أما إنها والله كانت من أتقانا وأوصلنا للرحم. [عائشة بنت أبي بكر].



الأخوات الأربع

قال رسول الله ﷺ: الأخوات الأربع مؤمنات: ميمونة، وأم الفضل، وأسماء، وسلمى.

فمن هؤلاءِ الأخوات اللآتي شهد لهن الرسول ﷺ بالإيمان..؟! ولقبهن بالمؤمنات؟ ومن هي ميمونة..؟ ومن يَكُنَّ أم الفضل، وأسماء، وسلمى؟!

هؤلاء الأخوات الأربع كانت أمهن: هند بنت عوف بن زهير أكرم عجوز في مكة.

وأخوات أم المؤمنين ميمونة لأبيها وأمها هُنَّ:

- أم الفضل لبابة بنت الحارث الكبرى زوج العباس بن عبدالمطلب.

- ولبابة الصغرى بنت الحارث زوج الوليد بن المغيرة وهي أُم خالد بن الوليد.

- وعصماء بنت الحارث كانت تحت أبي بن خلف فولدت له أبان وغيره.

- وعزة بنت الحارث كانت تحت زياد بن عبدالله بن مالك الهلالي.

أما أخوات ميمونة لأمها هند بنت عوف، فَهُنَّ:

١ - أسماء بنت عميس زوج جعفر بن أبي طالب، فولدت له عبدالله وعوناً ومحمداً، ثم خلف عليها أبو بكر الصديق فولدت له محمداً، ثم خلف عليها علي بن أبي طالب فولدت له يحيى.

٢ - وسلمى بنت عميس الخثعمية أُخت أسماء كانت تحت حمزة بن عبدالمطلب.

٣ - وزينب بنت خزيمة أم المؤمنين أختها لأمها.

وُلِدْن هؤلاء الأخوات الأربع، والأخوات الأخريات اللائي ذكرناهن،

وُلِدْنَ جميعاً بأرض مكّة، وشببن بين أهل يدينون بدين قومهم: دين عبادة الأوثان، والشرك بالله، وذلك قبل أن يبعثَ الله نبيه محمداً رسولاً إلى الناس، يهديهم إلى دين الحق، ويدعوهم إلى الإسلام.

تزوجت الأخوات، وكان أزواج أكثرهِنَّ من أبناءِ عِلْيَةِ القومِ بمكة، ومن شرفاء قريش.

فتزوجت لبابة (وهي أم الفضل) بالعباس بن عبدالمطلب، وتزوجت سلمى بأخي العباس حمزة بن عبدالمطلب، كما تزوجت أخت لهن من الوليد بن المغيرة، أما أسماء فقد تزوجت بعد ذلك جعفر بن أبي طالب، كما تزوجت ميمونة - وكانت تعرف وقتئذٍ ببرة - من أبي رُهْم بن عبدالعزَّى القرشيِّ العامريِّ.

وبعث محمد رسولاً، فآمن به أول من آمن زوجته خديجة، ثم تبعها آل بيته، وصديقه الحميم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ودخل في الإسلام عدد كبير من الرجال والنساء.

أسلمت أم الفضل فكانت أول مسلمة من النساء بعد خديجة، ثم كان أن أسلم أكثر أخواتها عن قلوب تفتحت للهدى، ونفوس أُفعمت بالإيمان.

وتزوجت أسماء أخت أم الفضل جعفر بن أبي طالب وكانت هي وزوجها من المهاجرين الأولين الذين هاجروا إلى الحبشة عندما أشار عليهم النبي ﷺ بالهجرة فراراً بأنفسهم من اضطهاد قومهم لهم، مخلفين ورائهِم ديارهم ومتاعهم في سبيل الله.

ومرت السنوات، وهاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة بعد أن اضطهده قومُهُ وحاربوه وآذوه في سبيل دعوته، وكذلك هاجر أتباعه من المسلمين مخلفين من ورائهم كل ما ملكت أيديهم، لم يتخلف منهم إلاَّ من لم يستطع إلى المهاجرة سبيلاً.

وكان فيمن تخلَّف عن المهاجرة من مكة إلى المدينة من المسلمين أم الفضل وأخوات لها، ولكنهن برغم تخلفِهنَّ عن متابعة المسلمين

المهاجرين، فقد ظلت قلوبهن عامرة بالإيمان، وبقيت نفوسهن تحنُّ وتهفو إلى معاونة المسلمين.

فعندما انتصر المسلمون في غزوة بدر على المشركين من قريش، وجاءت أخبار هذا النصر إلى أهل مكة، لم يستطع أبو لهب عم النبي الذي كان من أشد الناس عداوة لمحمدٍ وللمسلمين والإسلام أن يبقى بمنزله، فخرج يسعى إلى ما يؤكد أو ينفي له هذا الخبر، وما زال يجر قدميه جرّاً يلتمس من يأتيه بالنبأ اليقين حتى حملته قدماه إلى حجرة بجوار زمزم كان يجلس فيها أبو رافع مولى أخيه العباس ينحت الأقداح. وعند أبي رافع وقتئذ أم الفضل زوجة العباس.

وما كاد أبو لهب يجلس بطرف الحجرة حتى أقبل من يقول: هذا المغيرة بن الحارث قد قَدِمَ.

وكان المغيرة ممن شهد بدراً، فنادى أبو لهب المغيرة: هلم إلي فعندك - لعمري - الخبر..!

فجاء المغيرة فجلس إلى عمه أبي لهب، والتفت الناس من حوله يسمعون أخباره، فسأله أبو لهب: يا ابن أخي، أخبرني كيف كان أمركم يوم بدر؟

فكان جواب المغيرة: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وايم الله - مع ذلك - ما لُمتُ أَحداً. فقد لقينا رجالاً بيضاً - على خَيْلٍ بُلْقٍ تبدو أمامنا بين السماء والأرض، والله ما تُبقي شيئاً، ولا يقوم لها شيءٌ!

فلم يتمالك أبو رافع - وكان مسلماً حَسَنَ الإسلام - من أن قال: تلك والله الملائكة[1].

فما كاد أبو رافع يقول ما قال حتى كانت يدُ أبي لهب تهوي على

---

(١) انظر السيرة لابن هشام، وعيون الأثر، والسيرة الحلبية.

وجهه بلطمة شديدة مُوجعَةٍ، وهبَّ أبو رافع يدافع عن نفسه ـ وكان رجلاً هزيلاً ضعيفاً ـ فما كان من أبي لهب إلا أن احتمله وضرب به الأرض، ثم انقضَّ عليه يوسعه ضرباً شديداً موجعاً.

عندئذ لم تملك أُم الفضل نفسها، وقد رأت مولى زوجها المسلم يعامل هذه المعاملة السيئة من عدو المسلمين، فتناولت عموداً كان هناك، فضربت به رأس أبي لهب فشجَّته شجةً منكرةً.

❊ ❊ ❊

وهبت نفسها لرسول الله ﷺ

استدار العام بعد صلح الحديبية، فنادى النبي ﷺ الناس كي يتجهزوا للخروج إلى مكة ـ كي يطوف بالبيت ويعتمر.

وركب عليه السلام ناقته القصواء وتبعه ألفا راكب من المهاجرين والأنصار يتلهفون شوقاً إلى أقدم بيت عُبِدَ الله فيه.

ودخل النبي ﷺ والمسلمون مكة، آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون، وصدق الوعد الحق: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾[(١)].

وكان صلح الحديبية ينص على أن يدخل المسلمون مكة لمدة ثلاثة أيام يُؤَدون فيها ما يؤدون من شعائر دينهم على أنْ يخليها لهم المشركون، وعلى أن لا يكون مع المسلمين من السلاح غير السيوف في الغمد، ودخل المسلمون إلى مكة يلبون ويكبرون.

بينما كان أهل مكة يعتلون التلال والجبال المحيطة بها، تتطلع عيونهم حائرة مستعجبة نحو عظمة المسلمين وجلال شعائرهم، كانت برَّة بنت

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

الحارث الهلالية، الشّابة المسلمة المتعبدةُ، والتي ترمّلت من زوجها أبي رهم بن عبدالعزى وهي لا تزال بعد في السادسة والعشرين، تُسِرُّ إلى شقيقتها أم الفضل بما تاقت إليه نفسها، فقدْ مال قَلب برَّةَ، وهفت روحُها، لأن تكون زوجة لنبي المسلمين ﷺ، تلمس عظمة الإسلام عن قرب وتشارك النبي الكريم حياته وجهاده.

واستمعت أم الفضل إلى أُمنية أختها بعطف ورضاً، ثم أفضت بهذا السر إلى زوجها العباس، وكان لأُم الفضل أمر أختها، ففوضته إلى العباس.

وسار العباس إلى النبي ﷺ يحدثه عن برَّة المسلمة المؤمنة، ويقول له: ولقد تأيَّمَتْ من أبي رهم بن عبدالعزى، فهل لك أن تتزوجها[1]؟

❀ ❀ ❀

الزواج المبارك

ارتضى الرسول ﷺ زواج برّة، وأرسل ابن عمه جعفراً زوج أُختها أسماء يخطبها، وجاء طلب خطبة الرسول ﷺ إلى برة، وهي على بعير لها، فكان جوابها: البعير وما عليه لله ولرسوله.

وزوَّج العباس برّة من رسول الله، وأصدقها رسول الله أربعمائة درهم[2].

وانقضت الأيام الثلاثة التي نصَّ عليها عهد الحديبية على أن يقضيها المسلمون بمكة، فأرسلت قريش إلى الرسول تقول: إنّهُ قد انقضى أجلك، فاخرج معنا.

وأحسَّ النبي ﷺ أنه لو أطال المقام بمكة لكان ذلك خيراً ولمالت إلى الإسلام قلوب كثيرة من أبناء قريش، فقال يرد على رسل قريش: «ما

(١) سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٢٣٨ وما بعدها ترجمة رقم ٢٧.
(٢) انظر طبقات ابن سعد جـ٨.

عليكم لو تركتموني فأعرست بينكم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه».

فقالوا: لا حاجة لنا بطعامك، فاخرج عنا. كان جوابهم فيه شدّة وجفاء.

فخرج رسول الله ﷺ مغادراً مكة، مخلّفاً بها مولاه أبا رافع ليصحب برّة عند خروجها من مكة لِلّحاق به.

وبسَرَفَ على مسافة قريبة من مكة، نزل رسول الله في انتظار عروسه، وخرج أبو رافع بعروس رسول الله من مكة ليلاً حتى لحق بالرسول ﷺ. ولم يرض الرسول عن اسم بَرّة اسماً لزوجته، فسماها ميمونة، تيمناً باليوم الميمون الذي دخل فيه المسلمون مكّة لقضاء عمرتهم بعد أن حُرِّمَ عليه دخولها عليهم سبع سنين، وكانت ميمونة آخر زوجة زُفَّت إلى رسول الله.

ثم انصرف عليه السلام بها راجعاً إلى المدينة.



في بيت النبي ﷺ

بعد أن بنى رسول الله ﷺ بزوجته في سَرَف، في ذلك الموضع، ضربت قبتها، في البقعة المباركة، وأعرس بها بعد أن أحل من العمرة، وفرح المسلمون والصحابة بهذه المناسبة الميمونة المباركة.

فقد روى ابن سعد وأصحاب السنن عن أبي رافع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تزوج ميمونة حلالاً، وكنت الرسول بينهما[(١)].

وروى أبو داود عن ميمونة رضي الله عنها قالت: تزوجني رسول الله ونحن حلالان بسرف[(٢)].

(١) الترمذي ٨٤١، والدارمي والمسند. وانظر طبقات ابن سعد جـ٨/١٣٤.

(٢) أبو داود في المناسك ١٨٤٣.

دخلت ميمونة البيت النبوي وهي في السادسة والعشرين من عمرها، وعاشت ميمونة في بيت النبي ﷺ، وما عُرِفَ عن حياتها إلا أنها حياة الإيمان والتعبد، وما اشتهر عنها غير العمل على مرضاةِ الله ورسوله، وصلة الرّحم، لا تنثني عن أداء عبادتها، ولا تتهاون في شيء ترى فيه خروجاً عن طاعة الله.

- دخل عليها يوماً قريب لها، فشمت منه ريح خمر، فقالت له ناهرة زاجرة: لئن لم تخرج إلى المسلمين فيجلدوك ويطهروك لا تدخل عليّ بيتي أبداً.

- وأبصرت يوماً حبة رمان ملقاةً على الأرض، فرفعتها وهي تقول: إن الله لا يُحب الفساد.



في مرض النبي ﷺ

وعندما شعر الرسول ﷺ ببوادر المرض الذي مات فيه. كان يطوف كعادته اليومية على سائر نسائه، فاشتد به المرض وهو في بيت ميمونة، فلما طلبَ أَنْ يُمرَّضَ في بيت عائشة، قبلت ميمونة ذلك عن طيب خاطر مرضاةً للرسول.

وشاركت ميمونة في تمريض الرسول ﷺ والعناية به، وعاونت أختها أسماء على صنع الدواء، أشار بصنعه العباس ليُصَبَّ في فم الرسول ﷺ وهو في غيبوبة المرض ليَسْتَشْفي بِهِ، وكانت أسماء قد تعلمت صنع هذا الدواء أثناء مقامها في الحبشة.

ولما أفاق الرسول وعَرَفَ ما صُنِعَ معه غَضِبَ وقال: **«من صنع بي هذا؟»**.

فقيل له: يا رسول الله عمُّك.

وقال العباس: خشينا يا رسول الله أن يكون بكَ ذاتُ الجَنْبِ أي مرض في الرئةِ.

فقال الرسول ﷺ: **«إن ذلك لداء ما كان الله عز وجل ليقذفني به»**.

وأمر الرسول ﷺ أن يُلَدَّ كل من البيت بالدواء الذي صنع له عقاباً لهم، ولم يستثنِ من ذلك غير عمه العباس، أي يصب في فم كل منهم مقداراً من الدواء الذي صنعوه، وصبّوه في فيه بغير إذنه.

فلُدَّ جميع من بالدار، حتى ميمونة التي كانت صائمة في ذلك اليوم.

وعاشت ميمونة رضي الله عنها تحفظ عن رسول الله ﷺ حديثه، فجاءت الثالثة في الرواية بعد عائشة وأم سلمة[1]، وقد روت ميمونة رضي الله عنها **(٧٦)** حديثاً[2].

وقد أُخرج لها منها في الصحيحين ثلاثة عشر حديثاً، المتفق عليه منها سبعة، وانفرد لها البخاري بحديث واحد، بينما انفرد مسلم بخمسة أحاديث[3].

روى عن ميمونة رضي الله عنها أولاد أختها الأربعة: وهم عبدالله بن عباس وعبدالله بن شداد بن الهاد، وعبيد بن السَّيّاف، وثريد بن الأصم وغيرهم.

ومما روى لها الإمام البخاري وغيره، بسند عبدالله بن شداد عن ميمونة، قالت: كان النبي ﷺ يصلي على الخُمرة[4].



(١) روت عائشة **٢٢١٠** حديثاً وروت أم سلمة **٣٧٨** حديثاً.
(٢) انظر أزواج النبي للصالحي ص**٢٠٥**.
(٣) سير أعلام النبلاء جـ**٢** ص**٢٤٥**.
(٤) سير أعلام النبلاء جـ**٢** ص**٢٤٥**.

في وداع ميمونة

وتركت ميمونة من بعدها ذكرى طيبة عطرة، فقال ابن أختها يزيد بن الأصم يصف حادثاً بينه وبين ابن أخت لعائشة زوجة الرسول ﷺ، ويقص ما تحدثت به عائشة إليه وإلى ابن أختها، وما ذكرته بهذا الصدد عن ضرتها ميمونة، قال يزيد:

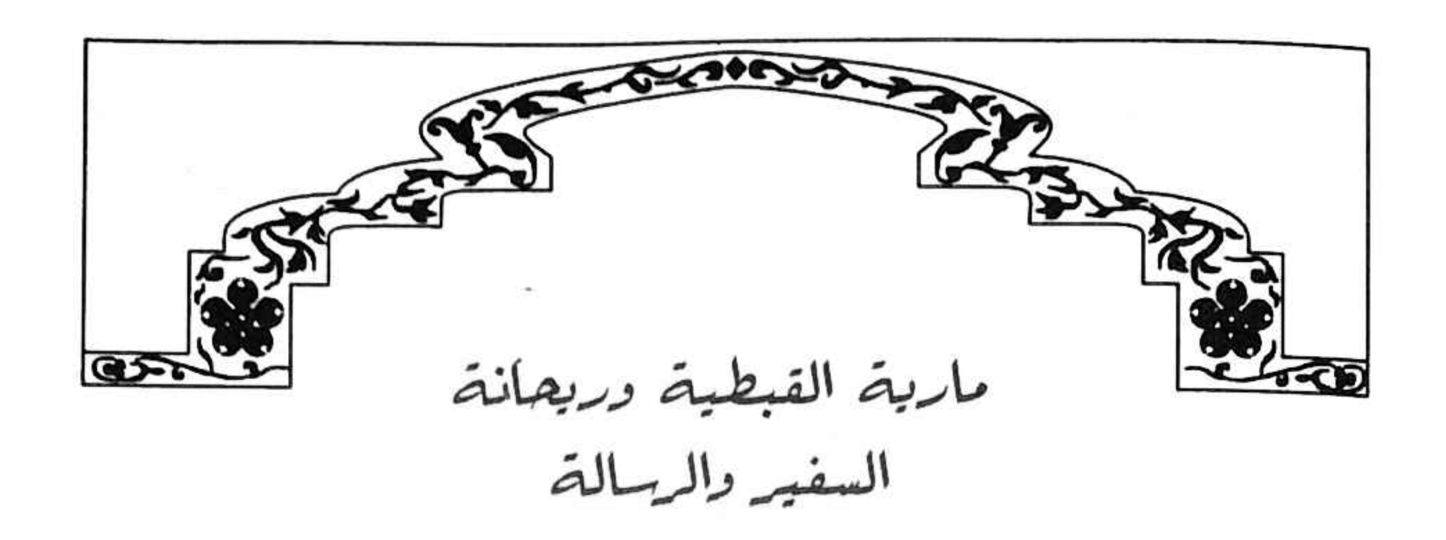
تلقيت عائشة وهي مقبلة من مكة أنا وابن طلحة بن عبيدالله، وقد كنا وقفنا على حائط (بستان) من حيطان المدينة فأصبنا منه، فبلغها ذلك، فأقبلت على ابن أختها تلومه وتعنفه، ثم أقبلت علي فوعظتني موعظة بليغة ثم قالت: أما علمت أن الله ساقك حتى يجعلك في بيت من بيوت نبيه..؟ ذهبت والله ميمونة ورمى بحبلك على غاربك، أما إنها كانت والله من أتقانا لله ومن أوصلنا للرحم.

وتوفيت أم المؤمنين - بسرف وهو المكان الَّذي تزوجت فيه رسول الله ﷺ - ودفنت فيه وصلى على جنازتها عبدالله بن عباس وكان ذلك في عام إحدى وخمسين من الهجرة[1].

رحم الله أم المؤمنين.



(١) سير أعلام النبلاء جـ٢ ص٢٤٥.



مارية القبطية وريحانة
السفير والرسالة

سفراء النبي ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد بن عبدالله إلى المقوقس عظيم القبط، سلامٌ على من اتبع الهدىٰ، أَمَّا بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[1].

[رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس عظيم القبط في مصر].

هذه الرسالة التي صدرنا بها سيرة السيدة مارية القبطية أم إبراهيم ولد النبي ﷺ، ترى ما هي قصة الرسالة، ومن هو السفير الذي حملها إلى المقوقس عظيم مصر؟

ولعلّ سيرة سرية رسول الله ﷺ والتي لم تحظَ بلقب أم المؤمنين بل حظيت بلقب أم إبراهيم، تتصل اتصالاً مباشراً بسيرة حاطب بن أبي بلتعة سفير رسول الله وحامل الرسالة إلى المقوقس عظيم مصر، ولذلك فمن

(١) تاريخ الطبري ٣/٨٥، والمحبر ٩٨، وعيون الأثر ٢/٢٦٦.

الأجدر بنا أن نتحدث عن السفير وهو حاطب بن أبي بلتعة صاحب رسول الله ﷺ وسفيرُهُ الأنشط وقبل أن نتحدث عن حاطب سنتحدث عن أشهر سفراء النبي ﷺ.

❀ ❀ ❀

١ ـ السفير وسفراء النبي

ـ كان حاطب هو سفير النبي ﷺ إلى عظيم القبط في مصر، ولكننا وجدنا أنفسنا نتعرف على بعض سفرائه ومنهم:

العلاء بن الحضرمي: أبوه حضرمي البلد، من حضرموت، واسم الحضرمي والد العلاء هو: عبدالله بن عبّاد بن أكبر بن ربيعة بن مالك بن عويف بن مالك بن الخزرج بن إياد بن صُدَيّ بن زيد بن مقنع بن حضرموت الحضرمي[(١)].

ويقال من أبيه: عبدالله بن عماد، ويقال غير ذلك، وفي نسبه بعض الاختلافات[(٢)]. ولكن المؤرخين لا يختلفون على أن أباه من حضرموت، فنسب إليها الحضرمي.

وقد سكن أبوه مكة، وحالَفَ حرب بن أُميةَ والد أبي سفيان بن حرب.

وكان للعلاء عدّة إخوة، منهم ميمون بن الحضرميّ صاحب بئر مشهورة بأعلى مكة كان اسمها الأبطح، ويقال لها: (بئر ميمون)، وهي على طريق أهل العراق إلى الحج، وقد جاء في معجم البلدان أن بئر ميمون هي بئر بالأبطح قرب مكة حضرها بأعلى مكة في الجاهلية ميمون بن الحضرمي

---

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات ٣٤١/١ وانظر الاختلاف في نسبه في جمهرة أنساب العرب ٤٦١.

(٢) طبقات ابن سعد ٣٥٩/٤، والإصابة ٢٥٩/٤، وأسد الغابة ٧/٤ والاستيعاب جـ٣ ص ١٠٥٨/٣.

شقيق العلاء الحضرمي، وعند قبر أبي جعفر المنصور.

ومن أشقاء العلاء بن الحضرمي: عمرو بن الحضرمي، وهو أول من قتل من المشركين في الإسلام، وماله أول مالٍ خُمِّسَ في الإسلام، قتله المسلمون في سرية نخلة بقيادة عبدالله بن جحش التي كانت في شهر رجب من السنة الثانية الهجرية[١].

ومن أشقائه أيضاً: عامر بن الحضرمي الذي قُتل يوم بدرٍ كافراً[٢].

وأختهم: الصعبة بنت الحضرمي التي كانت تحت أبي سفيان بن حرب، فطلقها، فخلف عليها عبيدالله بن عثمان التيمي، فولدت له طلحة بن عبيدالله أحد العشرة المبشرين بالجنّة[٣].

وذكر المؤرخون الذين أرّخوا حديثاً للعلاء بن الحضرمي: أنهم لا يعرفون شيئاً عن تاريخ العلاء في الجاهلية، متى وُلِدَ، وكيف نشأ وترعرع، وما هو نشاطه، فقد بدأ تاريخ العلاء مع الإسلام، فهو ابن من أبناء الإسلام، عُرِفَ بفضله، ولولا الإسلام ما عُرِف أبداً، أُسوة بأبيه وإخوته وغيرهم من أهله ومن غير أهله، الذين لا نعرف من أخبارهم غير أسمائهم، مجرد أسمائهم فحسب، إذا برزوا بين أقرانهم، وإلا لم تُعرف حتى أسماؤهم..

ويعد العلاء بن الحضرمي سفير النبي ﷺ وصاحبه، عربي الأصل والأرومة، من قبيلة عربية شرّفها الله بسكنى مكة، وحالفت زعماء قريش، وأشهر بطونها هم بنو أُميّة بن عبد شمس ابن عبد مناف[٤].

ومن هذه العلاقة نشعر بمكانة هذه القبيلة الحضرمية، وهذا البيت الحضرمي، عندما نعرف أنه يحالف حرب بن أمية شيخ من شيوخ قريش الزعماء والأشراف، فأي مكانة في الجاهلية، وأيُّ عِزٍّ بالإسلام.

---

(١) انظر كتابنا سرايا النبي ﷺ ط دار الإيمان دمشق - سرية عبدالله بن جحش.
(٢) أسد الغابة ٧/٤.
(٣) انظر كتابنا العشرة المبشرون بالجنة ط دار الوفاء مصر، مكتبة ابن قتيبة.
(٤) الطبقات لابن سعد جـ٤ ص٣٥٩.

وأسلم العلاء بن الحضرمي قبل فتح مكة، فشهد مع النبي ﷺ غزوة فتح مكة ويوم حنين وحصار الطائف في السنة الثامنة الهجرية وقد بعثه النبي ﷺ بعد انصرافه من «الجعرانة» وهي ماء بين الطائف ومكة[1]، بعثه إلى المنذر بن ساوى العبدي بالبحرين، وبعث معه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، وخَلّى بين العلاء وبين الصّدقة يبيتها، وكتب رسول الله ﷺ للعلاء كتاباً فيه فرائض الصّدقة في الإبل والبقر والغنم والثمار، والأموال يصدّقهم على ذلك، وأمره أن يأخذ الصَّدقة من أغنيائهم فيردها على فقرائهم[2].

وكان مما ابتعث من أجله العلاء إلى المنذر بن ساوى أخي عبدالقَيْس صاحب البحرين[3]، فصالح المنذر: على أنّ على المجوس الجزية ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم، وأسلم المنذر وأسلم جميع العرب بالبحرين، وكانت ولاية البحرين يومئذ للفرس، وأما أهل البلاد من يهود ونصارى ومجوس فإنهم صالحوا العلاء والمنذر على الجزية: من كلّ حالم دينار، ولم يكن بالبحرين قتال، إنما بعضهم أسلم وبعضهم صالح[4].

وقد كان نص كتاب النبي ﷺ الذي حمله العلاء إلى المنذر ابن ساوى:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد بن عبدالله رسول الله ﷺ.

إلى المنذر بن ساوى.

سلام على من اتّبع الهُدَى، أمّا بعد، فإني أدعوك إلى الإسلام، فأسلم تسلم، يجعل الله لك ما تحت يديك، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر».

محمد رسول الله

---

(١) معجم البلدان ١٠٩/٣.

(٢) الطبقات ٣٦٠/٤.

(٣) انظر الطبري جـ٢ ص٦٤٥ ط دار إحياء التراث بيروت.

(٤) الكامل لابن الأثير ٢١٥/٢.

وجاءت المصادر بنص آخر من النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله ﷺ، إلى المنذر بن ساوى:

سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله غيره، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: فإني أذكرك الله عز وجل، فإنه من يَنصَح فإنما ينصح نفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإنّ رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية»[1].

محمد رسول الله

وكان جواب المنذر إلى النبي ﷺ.

أما بعد: يا رسول الله، فإني قرأت كتابك على أهل (هجر)[2]، فمنهم من أَحبَّ الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كَرهَه، وبأَرضي مجوس ويهود، فأحدث إليَّ في ذلك أمرك[3].

التوقيع

المنذر بن ساوى

وأجاب الرسول ﷺ على رسالة المنذر بقوله:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد رسول الله

---

(١) طبقات ابن سعد ١/٢٦٣.
(٢) مكان نباحية البحرين معجم البلدان ٨/٤٤٥.
(٣) طبقات ابن سعد ١/٢٦٣.

إلى المنذر بن ساوى.

سلام الله عليك.. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإن كتابك جاءني، وسمعت ما فيه، فمن صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ما لنا، وعليه ما علينا، ومن لم يفعل فعليه دينار من قيمة المغافِرىَ، والسلام عليكم ورحمة الله، يغفر الله لك»[1].

وجاء في مجموعة الوثائق السياسية[2]:

- وكتب رسول الله ﷺ إلى مجوس «هجر» يدعوهم إلى الإسلام. فمن أقبل قُبل منه، ومن أبى ضربت عليه الجزية في أن لا يؤكل لهم ذبيحة، ولا تنكح لهم امرأة.

- وكتب إليهم: «**بسم الله الرحمن الرحيم.**

من محمد النبي رسول الله إلى أهل هجر..

سِلمٌ أنتم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو، أما بعد: فإني أوصيكم بالله وبأنفسكم؛ أن لا تضلوا بعد إذ هُديتم، وأن لا تغدوا بعد إذ رَشَدتم.

وكتب رسول الله ﷺ للعلاء بن الحضرمي عن الزكاة كتاباً، فيه فرائض الصدقة في الإبل والبقر والغنم والثمار والأموال يصدِّقهم على ذلك، وأمره أن يأخذ من أغنيائهم، فيردها على فقرائهم[3].

وكان رسول الله ﷺ قد كتب إلى العلاء بن الحضرمي، أن يقدم عليه بعشرين رجلاً من عبد القسيس، فقدم عليه منهم بعشرين رجلاً، رأسهم

---

(١) الطبري ٢٩/٣.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة لمحمد حميد الله، ط دار النفائس بيروت ص١٥٠.

(٣) طبقات ابن سعد ٢٦٣/١.

عبدالله بن عوف الأشج، واستخلف العلاء على البحرين المنذر بن ساوى.

وقد نجح العلاء بن الحضرمي في مهمته كسفير لرسول الله ﷺ إلى البحرين، وقد أتت سفارته بنتائج عظيمة، فاستطاع من خلالها أن يستنقذ البحرين من سطوة الفرس وسيطرتهم، وذلك بإسلام عامل الفرس عليها المنذر بن ساوى الذي أسلم وحَسُنَ إسلامه حتى توفاه الله بعد التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى وقبل ردَّة أهل البحرين، والعلاء يعد أميراً لرسول الله ﷺ على البحرين، ثم أصبح عامل رسول الله ﷺ على الصدقات في البحرين، فنجح أعظم النجاح أميراً وجابياً كما نجح سفيراً وداعياً.

لقد كان العلاء بن الحضرمي موضع ثقة الرسول ﷺ سفيراً وداعياً، وأميراً وجابياً، فأثبت العلاء أن ثقة النبي ﷺ فيه كانت في موضعها.

***

٢ ـ دحية بن خليفة الكلبي
سفير الرسول إلى هرقل ملك الروم

دحية الكلبي، عربي الأصل والأرومة، فهو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة ينتهي نسبه إلى: ثور بن كلب، وهو بطن عظيم من بطون العرب، ولذلك يقال له: دحية الكلبي.

أَسلم دحية الكلبي قديماً[1] ولم يشهد غزوة بدر الكبرى، وشهد غزوة أُحد وما بعدها من المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وفي رواية أن أول مشاهِدِهِ غزوة «الخندق»، والصَّواب أنه لم يشهد بدراً، وشهد بعدها من المشاهد، كما أجمع على ذلك كُتَّاب سيرته وأجمعت عليه المصادر

(١) طبقات ابن سعد ٢٤٩/٤.

الإسلامية المعتمدة، وهكذا نال دحية شرف الصُّحبة، وشرف الجهاد تحت لواء النبي ﷺ.

كان دحية قد تعرض في طريقه وهو قادم من عند قيصر ـ وقد أجاره وكساه ـ إلى عارض شديد، ففيما هو عائد من بلاد الشام، لقيه الهنيدي بن عاص وابنه عارض في ناس من بني جذام و «حِسمَى» فقطعوا عليه الطريق، وسلبوه ما كان معه من مالٍ ومتاعٍ ولم يتركوا عليه إلا سَمَل ثوبٍ[1].

وسمع بذلك نفر من بني الضُّبيب، فنفروا إليهم واستنقذوا لدحية ماله ومتاعه. وقَدِمَ دُحية على النبي ﷺ في المدينة، فأخبره بما أصابه، فبعث زيد بن حارثة الكلبي في خمسمائة رجل من المسلمين إلى حِسمَى، وردَّ معه دحية.

وتحرك زيد على رأس سريته إلى هدفه، يسير الليل ويكمن النهار ومعه دليل من بني عُذْرَة، فأقبل بسريته حتى هجم بهم مع الصُّبح على القوم، فأغاروا عليهم وقتلوا فيهم فأوجعوا، وقتلوا الهنيدي مع ابنه، وأغاروا على ماشيتهم ونعمهم، ونسائهم، وأخذوا من النعم ألف بعير ومن الشاه، خمسة آلاف شاة ومن السَّبي مائة من النساء والصبيان.

ورحل زيد بن رفاعة الجُذاميّ في نفر من قومه إلى رسول الله ﷺ فدفع إليه كتابه الذي كان كتب لقومه ليالي قدم عليه فأسلم، وقال: يا رسول الله لا تحرِّم علينا حلالاً، ولا تحل لنا حراماً.

فقال: «**كيف أصنع بالقتلى؟!**».

فقال أبو يزيد بن عمرو: أطلق لنا يا رسول الله من كان حيّاً، ومن قتل فهو تحت قدمي هاتين.

فقال رسول الله ﷺ: «**صدق أبو يزيد**».

وبعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى زيد بن

---

(١) سفراء النبي ﷺ ـ محمود شيت خطاب ص٢٨٩.

حارثة، يأمره أن يخلي بينهم وبين حُرمهم وأموالهم، وتوجه عليٌّ إلى زيد بن حارثة، فلقي رافع بن مكيت الجُهني على ناقة من إبل القوم، وقد أوفده زيد بن حارثة إلى النبي ﷺ بشيراً، فردَّه عَليٌّ وردَّ الناقة على القوم.

فلما التقى عليٌّ بزيد بن حارثة، قبل وصوله إلى المدينة، أبلغه أمر النبي ﷺ، وردَّ على النَّاس كُلّ ما أُخذ لهم[(١)].

ونرى من خلال هذه الأحداث أن دحية الكلبي كان يتردد على بلاد الشام وأنه يعرف قيصر الروم معرفة شخصية تجعل القيصر يجيره ويكسوه، ولربما تكون هذه المعرفة سبباً في اختيار دحية سفيراً للنبي ﷺ لدى قيصر الروم «هرقل» كي يبلغه رسالة النبي ﷺ والإسلام، ويدعوه إلى اعتناق الدين الإسلامي.

كتب النبي ﷺ كتاباً إلى قيصر الروم يدعوه إلى الإسلام وبعث بكتابه هذا مع دحية الكلبي، وكان ذلك في هدنة الحديبية سنة ست للهجرة، فآمن قيصر بالنبي ﷺ وامتنع عليه بطرياركته، فأخبر دحية رسول الله بذلك، فقال: **«ثبَّتَ الله ملكه»**[(٢)].

وفي رواية أخرى: أن قيصر أخذ كتاب النبي ﷺ، فوضعه على خاصرته ووصل دحية وقال: لو كان في بلادي لاتبعته ونصرته.

وتقول رواية أُخرى: أن دحية وجد قيصر ملك الروم بـ (حمص) يمشي راجلاً إلى بيت المقدس شكراً لله على ما منحه من الظفر والانتصار على فارس، وذلك وَعْدُ الله فيهم لقوله تعالى في مستهل سورة الروم:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ

---

(١) المغازي للواقدي ط عالم الكتب بيروت جـ٢.

(٢) أسد الغابة ٢/١٣٠، الاستيعاب ٢/٤٦١.

ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾[1].

وذكر المؤرخون أن ملك الروم «قيصر» وضع كتاب رسول الله ﷺ على وجهه ودعا النّاس إلى اتّباعه فأبوا عليه، فلما أخبر دحية النبي ﷺ، قال: «**بقي ملكهم أو ثبت**..»[2].

وذُكِرَ أن قيصر ملك الروم وشهرته «هرقل» حكم من سنة ٦١٠ - ٦٤١، وكانت الكنيسة تساعده وتعضده بشدة في حربه لعُبّاد النار من الفرس، وقد توغل في هذه الحرب إلى قلب بلاد فارس، وبعد ست سنوات من القتال والضربات المتعاقبة والحملات المتتالية أحرز نصراً مؤزراً كاملاً على الفرس، وقد اعتبر هذه الحرب حرباً دينية عقائدية، وكان للدين طيلة حكمه مكانة كبيرة.

وقد جاء نص كتاب النبي ﷺ لهرقل عظيم الروم في المراجع كما يلي[3]:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله.

إلى هرقل عظيم الروم.

سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين[4] و ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[5]».

محمد رسول الله

---

(١) سورة الروم، الآيات: ١ - ٥.

(٢) البدء والتاريخ جـ٤ ص٢٢٩.

(٣) انظر الوثائق السياسية لمحمد حميد الله.

(٤) الأريسي: هو الفلاّح أو الحراث - انظر فتح الباري ٢/١.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

وقد تحدث دحية الكلبي فيما رواه الطبري، فقال دحية:

بعثني رسول الله ﷺ إلى قيصر صاحب الروم بكتاب فقلت: استأذنوا لرسول رسول الله ﷺ، فأتى بقيصر، فقيل له: إن رجلاً يزعم أنه رسول رسول الله، ففزعوا لذلك، وقال: أدخله، فأدخلني عليه وعنده بطرياركته، فأعطيته الكتاب، فإذا فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى قيصر الرُّوم**»، فنخر ابن أخ له أحمر أزرق سبط، فقال: لا تقرأ الكتاب اليوم، فإنّه بدأ بنفسه، وكتب صاحب الروم ولم يكتب ملك الروم.

قال: فقُرىء الكتاب حتى فُرغ منه، ثم أَمرهم فخرجوا من عنده، ثم بعث إليّ فدخلت عليه، فسألني فأخبرته، فبعث إلى الأسقف، فدخل عليه، وكان صاحب أمرهم يصدرون عن رأيه وعن قوله، فلما قرأ الكتاب قال الأسقف: هو والله الذي بشرنا به موسى وعيسى الذي كُنّا ننتظر.

قال قيصر: فما تأمرني؟

قال الأسقف: أَما أنا فإني مصدِّقه ومتّبعه.

فقال قيصر: أعرف أنّه كذلك، ولكن لا أستطيع أن أفعل، إن فعلت ذَهَبَ مُلكي وقتلني الروم[1].

ولم يترك هرقل الأمر يمر بسهولة هكذا، بل أراد استقصاء أخبار النبي ﷺ، وقد جاءت أخبار هذا الاستقصاء في رواية الإمام البخاري في صحيحه عن حبر الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش كانوا تجاراً بالشام، في المدّة التي كان رسول الله ﷺ ماداً فيها أبا سفيان وكُفّار قريش، فأتوه وهم بإيلياء ـ القدس ـ فدعاهم وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم فدعا بالترجمان

---

(١) البداية والنهاية ٤/٢٦٧.

فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنّه نبي؟

قال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم.

فقال: ادنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عن ظهره، ثم قال للترجمان: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذَبني فكذِّبوه.

قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذباً لكذبتُ عنه.

ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟

قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحدٌ قَطُّ قبله؟

قلتُ: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملكٍ؟

قلت: لا.

قال: فأشراف الناس اتَّبعوه أم ضعفاؤهم؟

قلت: ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟

قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتدّ أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قلت: لا.

قال: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قلت: لا.

قال: فهل يغدر؟

قلت: لا، ونحن منه في مُدّة لا ندري ما هو فاعل فيها، ولم يُمْكِنِّي كلمةٌ أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه؟

قلت: نعم.

قال: فكيف قتالُكم إياه؟

قالت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال مِنّا، وننال منه.

قال: فماذا يأمركم؟

قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصِّلة.

فقال للترجمان: قل له، إني سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها.

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله، فذكرت أن لا، فقلتُ: لو كان أَحدٌ قال هذا القول قبله، لقلتُ: رجل يتأسَّى بقولٍ قيل قبله.

وسألتك هل كان من آبائه من مَلِكٍ، فذكرت أن لا، فقلت: لو كان من آبائه من ملكٍ؛ قلت: رجلٌ يطلب مُلْكَ أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتَّهمونه بالكذب قَبْلَ أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنّه لم يذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتّبعوه وهم أتباع الرُسل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك: أيرتد أحدٌ سَخْطَة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً، فسيملك موضع قدمي هاتين.

وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قَدَمِهِ، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بُعث به دحية إلى عظيم بُصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه (وهو ما ذكرناه سابقاً).

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب، كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات. وأُخرِجنا، فقلت لأصحابي: إنه يخافه ملك بني الأصغر، فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام[1].

وفي استقصاء هرقل لأخبار النبي ﷺ من أقاربه وأبناء قريش قومه، بل كتب إلى رَجُل بروميَّة كان يقرأ الكتب يخبره شأن الكتاب الذي حمله إليه رسول الله ﷺ، فكتب إليه صاحب رومية قائلاً: إنّه النبي الذي كنا ننتظره، لا شك فيه، فاتبعه وصدّقه.

عندئذ جمع هرقل بطرياركة الروم في قصر يجتمعون فيه ويتلهون يقال له: الدسكرة»، وغُلّقت الأبواب، ثم اطلع عليهم من عليّة وخافهم على نفسه وقال لهم: قد أتاني كتاب هذا الرجل يدعوني إلى دينه وإنه والله النبي الذي نجده في كتابنا، فهلم نتبعه ونصدّقه، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا.

فهبوا هبة رجل واحد، ثم قصدوا الأبواب ليخرجوا، فقال: «ردوهم عليّ»، وخافهم على نفسه وقال لهم: إنّما قلت لكم ما قلت لأنظر كيف صلابتكم في دينكم، وقد رأيتُ منكم ما سرّني. فسجدوا له، وأمر بأبواب الدسكرة ففتحت لهم فانطلقوا[2].

---

(١) فتح الباري ٣٠/١ ـ ٣٨، البداية والنهاية ٢٦٤/٤، ٢٦٥، والتجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح ٧/١.

(٢) الطبري جـ٢ ص٦٤٩، ٦٥٠ ـ الكامل لابن الأثير ٢١١/٢.

وأوردت المصادر[1] أنه حين قدم دُحْيةَ الكلبي بكتاب رسول الله ﷺ على هرقل، قال له: والله إني لأعلم أن صاحبك نبيٌّ مرسل، وأَنّه الذي كنّا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكنّي أخاف الروم على نفسي، لولا ذلك لاتبعته، فاذهب إلى «ضغاطر» الأسقف الأعظم في الروم، واذكر له أمر صاحبك، وانظر ما يقول لك، فهو أعظم والله في الروم مني وأجوز قولاً عندهم مِنّي.

وجاءه دحية فأخبره بما جاء به من رسول الله ﷺ إلى هرقل، وبما يدعوه إليه، فقال «ضغاطر» الأسقف الأعظم: صاحبك والله نبيٌّ مرسل، نعرفه بصفته، ونجده في كتبنا باسمه.

ثم دخل فألقى ثياباً كانت عليه سوداً، ولبس ثياباً بيضاً، ثم أخذ عصاه، فخرج على الروم وهم في الكنيسة فقال: يا معشر الروم، إنّه قد جاءنا كتاب من أحد يدعوننا فيه إلى الله عز وجل، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن أحمد عبده ورسوله[2].

وهذا هو نص الكتاب الذي حمله دحية الكلبي سفير النبي ﷺ من الرسول ﷺ يدعو «ضغاطر» فيه إلى الإسلام.

«بسم الله الرحمن الرحيم.

إلى: ضغاطر الأسقف.

سلام على من آمن.

أما على أثر ذلك، فإن عيسى ابن مريم روحُ الله وكلمته ألقاها إلى مريم الزكيّة، وإني أؤمن بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أُوتي موسى وعيسى، وما أُوتي النبيون من ربِّهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون، والسلام على من اتبع الهدى».

محمد رسول الله

---

(١) انظر المصدرين السابقين، طبقات ابن سعد ١/٢٧٦.

(٢) الطبري ٢/٦٥٠، وابن الأثير ٣/٢١١.

وما إن أسلم ضغاطر أسقف الروم الأعظم، حتى وجد رجال الدين المسيحي، يثبون عليه وثبة رجل واحد، فضربوه حتى فارق الحياة وقتلوه، فلما رجع دحية إلى هرقل فأخبره الخبر، قال: قد قلت لك إنا نخافهم على أنفسنا، فضغاطر كان والله أعظم عندهم وأجوز قولاً مني[1].

وكان نص جواب قيصر الروم إلى النبي ﷺ:

إلى أحمد رسول الله الذي بشَّر به عيسى.

من قيصر ملك الروم

إنّه جاءني كتابك مع رسولك، وإني أشهد أنك رسول الله، نجدك عندنا في الإنجيل، بشَّرنا بك عيسى ابن مريم، وإني دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك، فأبوا، ولو أطاعوني لكان خيراً لهم، ولوددت أني عندك أخدمك وأغسل قدميك[2].

بلّغ دحية جواب هرقل إلى النبي ﷺ بعد عودته من سفارته إلى قيصر الروم وإلى أسقف الروم، ويبدو أن الأسقف ضغاطر كان برفقة هرقل في رحلة الشكر والحج من القسطنطينية إلى بيت المقدس بمناسبة انتصاره الحاسم على الفرس واسترجاعه الصليب المقدس من الفرس، فأدى دحية رسالتَي النبي ﷺ إلى هرقل والأسقف، وسلم رسالة هرقل إليه أولاً، ثم سلم رسالة الأسقف بعده.

وقد نقلت هذه الأخبار لما فتح المسلمون بلاد الشام على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

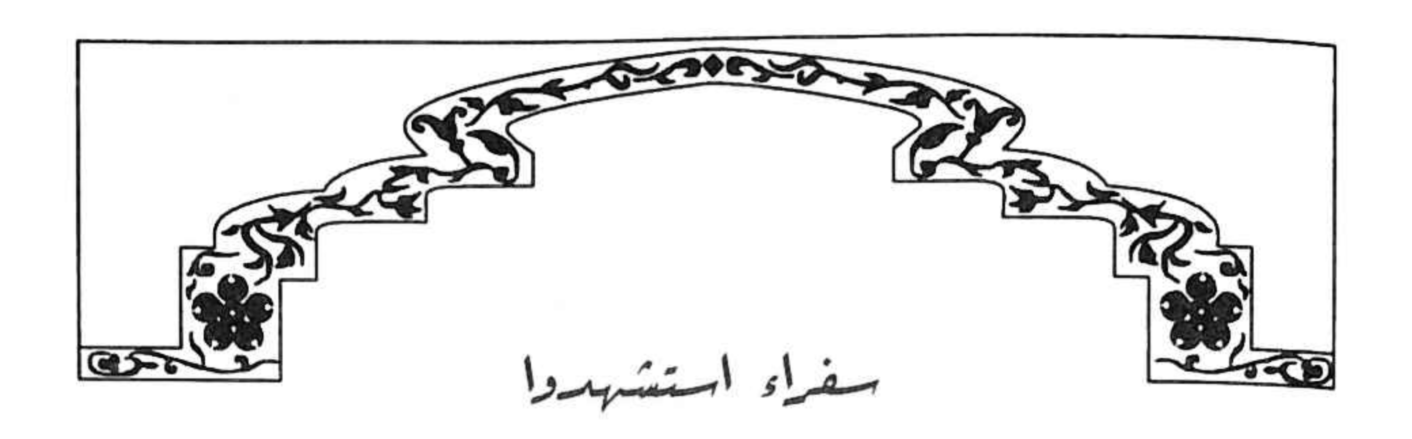
وقد نقلت عن رجال الدين المسيحي الذين عاصروا هرقل، وبهذا يكون دحية سفيراً ناجحاً من سفراء النبي ﷺ.



---

(١) الكامل لابن الأثير ٢/٢١١.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٦٢.



شجاع بن وهب الأسدي

شجاع بن وهب الأسدي، حليف لبني عبد شمس من قريش، يكنى أبا وهب[1].

أسلم قديماً، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، وعاد إلى مكة لما بلغ المهاجرين أن أهل مكة قد أسلموا، فكان من السابقين الأولين إلى الإسلام.

ولما أذن النبي ﷺ للمسلمين بالهجرة من مكة إلى المدينة، كان شجاع من أوائل من هاجر إلى المدينة من المسلمين، فقد قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة أرْسالاً، وكان بنو غنم بن دودان أهل إسلام، وقد أوعبوا مع رسول الله ﷺ هجرةً - رجالهم ونساؤهم[2].

وفي المدينة آخى النبي ﷺ بين شجاع وأوس بن خولى الخزرجي، واستقر شجاع الأسدي في المدينة، وشهد شجاع غزوة بدر الحاسمة هو وأخوه عقبة بن وهب الأسدي، وكانت غزوة بدر في شهر رمضان المبارك من السنة الثانية الهجرية.

---

(١) انظر ترجمته في الإصابة ٣/١٩٤، والاستيعاب ٢/٧٠٧، وأسد الغابة ٢/٣٨٦.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٨٠ - ٨٣.

وشهد سرية عكاشة بن محصن إلى بني أسد، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، في الغزوات والسرايا، وكان قائد لسرية وجهها الرسول ﷺ إلى جمع من بني هوازن على خمس ليالٍ من المدينة المنورة، وعاد منتصراً غانماً إلى المدينة.

وكان بعث النبي ﷺ سفراءه للملوك والرؤساء، قبل فتح مكة، وبعد الحديبية، فبعث من جملة من بعث شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغسّاني يدعوهم إلى الإسلام، كتب معه كتاباً، وقد تحدث شجاع عن ذلك فقال:

أتيت إليه وهو بـ (غوطة) دمشق، وهو مشغول بتهيئة الإنزال والأنطاف لقيصر «هرقل» وهو جاءٍ من حمص إلى القدس، فأقمت على بابه يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: إني رسولُ رسول الله ﷺ إليه.

فقال: لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا.

وجعل حاجبه ـ وكان رومياً اسمه مُرَيّ ـ يسألني عن رسول الله ﷺ، فكنت أُحَدِّثه عن صفة رسول الله ﷺ، وما يدعو إليه، فيرق حتى يغلبه البكاء، ويقول: إني قد قرأت الإنجيل، فأجد صفة هذا النبي ﷺ بعينه، فأنا أؤمن به وأُصدّقه وأخاف من الحارث أن يقتلني.

قال شجاع: وكان يكرمني ويحسن ضيافتي.

فخرج الحارث يوماً، فجلس ووضع التاج على رأسه، فأذن لي عليه فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقرأه، ثم رمى به، وقال: من ينتزع منّي ملكي؟ أنا سائر إليه، ولو كان باليمن جئته، عليَّ بالناس! فلم يزل يفرض حتى قام، وأمر بالخيول تنعل، ثم قال: أخبر صاحبك ما ترى!

وكتب إلى قيصر يخبره خبري وما عزم عليه، فكتب إليه قيصر: ألا تسير إِليه، والهَ عنه ووافني بإيلياء (القدس)، فلما جاءه جواب كتابه، دعاني فسأل: متى تريد أن ترجع إلى صاحبك؟

فقلت: غداً..

فأمر لي بمائة مثقال ذهب، ووصلني «مُرَي» حارس القيصر، وأمر لي بنفقة وكسوة وقال: أقرىء رسول الله ﷺ مني السلام.

فقدمت على النبي ﷺ، فأخبرته، فقال: «بادَ ملكه» وأقرأته من «مُرَيّ» السلام وأخبرته بما قال، فقال رسول الله ﷺ: «صدق».

ومات الحارث بن شمر عام الفتح[1].

وفي رواية أخرى: أن النبي ﷺ بعث شجاعاً إلى جَبَلة بن الأيهم الغساني، إلا أن هذه الرواية لم تصح لأن الحارث بن أبي شمر هو الذي كان على الغساسنة آنذاك، وكما أن الحارث لم يسلم كذلك لم يسلم جَبَلَة يومئذ، وقد تولى المُلك بعد وفاة ابن عمه الحارث، فكان جَبَلَة آخر ملوك غسان، وقد أسلم في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم ارتدَّ وتنصَّر بعد ذلك ولحق بالروم.

وكان سبب تنصّره أنه مرَّ في سوق دمشق، فأوطأ رجلاً فرسه، فوثب الرجل فلطمه، فأخذه الغسَّانيون وأدخلوه على أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه[2] فقالوا: هذا لطم سيدنا.

فقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: البيِّنَة أن هذا لطمك.

فقال جَبَلة: وما تصنع بالبينة؟

فقال أبو عبيدة: إن كان لطمك، لطمته بلطمتك.

قال: ولا يقتل؟!

قال أبو عبيدة: لا.

قال: ولا تقطع يده؟!

قال: لا، إنما أمر الله بالقصاص، فهي لطمة بلطمة.

---

(١) البداية والنهاية جـ٤ ص٢٦٨. تاريخ خليفة بن خياط ٦٣/١.

(٢) انظر كتابنا العشرة المبشرون بالجنة/ ترجمة أبي عبيدة ط دار الوفاء مصر، دار ابن قتيبة.

فخرج جبلة ولحق بأرض الروم وتنصر، ولم يزل هناك إلى أن هلك.

وقد جاء نص رسالة النبي ﷺ في الوثائق السياسية[1]، إلى الحارث كما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله

إلى الحارث بن أَبي شَمِر.

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدّق، فإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحدَه لا شريك له، يُبْقي ملكك[2].

محمد رسول الله

فقدم عليه شجاع بن وهب، فقرأه عليه، فقال: ومن ينتزع ملكي؟! إنّي سأسير إليه[3].

واستطاع شجاع الأسدي، هذا الصحابي النحيف الطوال الأَجْنَأ الذي أشرف كاهله على صدره، استطاع أن يصل إلى ملك الغساسنة، الحارث بن أبي شَمِر، في ظروف صعبة، إذ كان الحارث ملك الغساسنة في شغل شاغل عنه باستقبال قيصر الروم، في طريقه إلى القدس، شكراً لله على نصره المؤزر على الفرس في معارك طاحنة، فقدم إليه رسالة النبي ﷺ، ودعاه إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونجح كسفير في التأثير في حاشية الملك[4] فأسلم حاجب الحارث الذي كان من أقرب المقربين إليه، وأعلن إسلامه برسالته الشفوية إلى النبي ﷺ، التي نقلها شجاع، أما الملك، فلم يستجب للدعوة يومئذ خوفاً على ملكه، وخوفاً من الروم النصارى الذين كانوا يحتلون الشام حينذاك، وكان الغساسنة

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ٦٢/٦٣.

(٢) انظر البداية والنهاية جـ٤ ص٢٦٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) اللواء محمود شيت خطاب - سفراء النبي ص٧.

في ذلك الوقت من رعاياهم الذين يدينون لهم بالطاعة والولاء.

وقد اتسمت سفارة شجاع بن وهب الأسدي بالشجاعة لانتمائه إلى الإسلام، فانحسر ولاؤه للقبيلة أمام ولائه للإسلام وللعقيدة السمحة، وللإيمان الراسخ.

وكان شجاع سفيراً فصيحاً عالماً حسن الخلق، أخذ من قومه الفصاحة. فبني أسد من فصحاء العرب وخطبائهم، واختيار الفتاة الهوازنيّة التي اختارته على أهلها وذويها، دليلاً على حسن خلقه.

وكان شجاع سفيراً يتسم بالصبر والحكمة، فصبر على فرصته للقاء ملك الغساسنة وكان حكيماً في تصرفه عند لقائه بالملك، وكان واسع الحيلة بدليل أنه ربح صاحب الملك إلى جانبه، وأصبح صديقاً حميماً له، ورجل كهذا صاحب رسول الله، ومن المسلمين الأوائل ومهاجري الهجرتين، وقائد إحدى سرايا النبي، وبدري من أهل بدر، وشهيد من شهداء معركة اليمامة التي وقعت بين خالد بن الوليد ومسيلمة الكذاب، كل هذه الأوسمة تجعلنا نلقي التحية لأحد سفراء النبي الشهداء، في مسيرة السفارة النبوية التي جاءت بمارية القبطية.

❀ ❀ ❀

عمرو بن العاص القرشي السهمي

كان في الجاهلية سفيراً، وأصبح في الإسلام خير سفير، قال عنه رسول الله ﷺ: **«أسلم النّاس، وآمن عمرو بن العاص»**.

وهو ابن العاص بن وائل أحد أشراف قريش في الجاهلية، وقائد بني سهم من قريش في حرب الفجار الثاني قبل بعثة النبي ﷺ.

وكان يوم الفجار الثاني بعد عام الفيل بعشرين سنة[1]، وقد أدرك

(1) الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ1 من ص590 وما بعدها ـ وكان عام الفيل سنة 571 ميلادية.

العاص الإسلام ولكنه لم يسلم، إذ مات بمكة المكرمة في السنة الأولى من الهجرة[1]، وكان أحد سادات قريش الذين مشوا إلى أبي طالب يسألونه أن يكف عنهم رسول الله ﷺ، فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردّهم ردّاً جميلاً فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه: يظهر دين الله ويدعو إليه[2].

وقد أرسلت قريش سفيراً لها للنجاشي، عندما هاجر المسلمون إلى الحبشة في حماية النجاشي، كما أمرهم رسول الله ﷺ، ولكن كلمة الحق انتصرت على دهاء عمرو بن العاص وخبرته في التفاوض والسفارات.

ويدخل عمرو بن العاص الإسلام، وقاد سرية هدمت «سواع» أحد أصنام هذيل، وقد تحدث عن هدم سواع فقال:

. . .فانتهيت إليه وعنده السّادن، فقال ما تريد؟

قلت: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه.

فقال: لا تقدر على ذلك!

فقلت: ولم؟

فقال: يُمْنع.

فقلت: حتى الآن أنت في الباطل! ويحك، هل يسمع أو يبصر! فدنوت منه فكسرته، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته، فلم يجدوا فيه شيئاً، ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟!

فقال: أسلمت لله[3].

---

(١) الطبري جـ٢ ص٣٦٨.
(٢) السيرة لابن هشام.
(٣) المغازي للواقدي ٢/٨٧٠.

وشهد عمرو فتح مكة مع رسول الله ﷺ، وشهد غزوة حنين التي كانت في شوال من السنة الثامنة الهجرية، وشهد مع النبي ﷺ حصار مدينة الطائف في شوال من السنة الثامنة أيضاً.

❀ ❀ ❀

سفير الإسلام

بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص في شهر ذي القعدة سنة ثمان الهجرية إلى جَيْفَر وعَبْدٍ ابني الجُلُنْديّ - وهما من الأزد، والملك منهما جَيْفَر - يدعوهما إلى الإسلام، وكتب معه إليهما كتاباً، وختم الكتاب.

وقد تحدث عمرو بن العاص عن سفارته هذه قائلاً:

. . .فلما قدمتُ عُمان، عمدت إلى «عَبْدٍ» وكان أحلم الرّجلين وأسهلهما خُلقاً، فقلت: إني رسول رسول الله ﷺ، إليك وإلى أخيك.

فقال: أخي المقدم عليَّ بالسِّن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك.

فمكثت أياماً ببابه، ثم إنه دعاني فدخلت عليه، فدفعت الكتاب إليه مختوماً، ففض خاتمه وقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلاَّ أني رأيت أخاه أرقّ منه، فقال: دعني يومي هذا وارجع إليَّ غداً.

فلما كان الغد رجعت إليه، قال: إني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إذا ملّكت رجلاً ما في يديّ. .

قلت: فإني خارج غداً.

قال عمرو: فلما أيقن بمخرجي أصبح فأرسل إليَّ، فدخلت عليه، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً، وصدّقا بالنبي ﷺ، وخلّيا بيني وبين الصّدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عوناً على من خالفني، فأخذت

الصّدقة من أغنيائهم فرددتها على فقرائهم، فلم أزل مقيماً حتى بلغتنا وفاة رسول الله ﷺ[1].

وبسفارته الحكيمة استطاع عمرو بن العاص السهمي سفير النبي ﷺ وأحد قادة جيوشه الكبار استطاع أن يضم للإسلام أعداداً هائلة من جموع العرب، وكذلك ساهم في فتح بلاد كثيرة واسعة مترامية الآفاق، ساهم في ضمها إلى الإسلام ورفع رايته عالية عليها.

❊ ❊ ❊

سليط بن عمرو العامري القرشي
سفير النبي ﷺ إلى ملك اليمامة

سليط بن القرشي، أسلم قديماً قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم وقد أسلم بعد عشرين بين رجل وامرأة، فكان الواحد والعشرين من المسلمين الأولين، فهو قديم الإسلام بمكة[2]. أسلم قبل عمر بن الخطاب[3] رضي الله عنهم أجمعين.

هاجر إلى الحبشة ومعه امرأته فاطمة بنت علقمة، وَلدت له سليط بن سليط الذي هاجر معهما وسمي المهاجر بن المهاجر.

قيل: إن سليط شهد بدراً وأحداً، وغيرهما من المشاهد[4].

بعثه النبي ﷺ قبل فتح مكة وبعد صلح الحديبية[5] إلى ثمامة بن آثال وهوذة بن علي الحنفيين ملكي اليمامة[6].

---

(١) المحبر ٧٧، والكامل لابن الأثير ٢/٢٧٢.

(٢) طبقات ابن سعد ٤٠/٢٠٣.

(٣) الإصابة ٣/١٢٣.

(٤) طبقات ابن سعد ٤/٢٠٣، الاستيعاب ٢/٦٤٥، أسد الغابة ٢/٢.

(٥) الطبري ٢/٦٤٤.

(٦) أسد الغابة ٢/٣٤٤.

وقيل: إن النبي ﷺ بعث سليط بن عمرو إلى هوذة بن علي الحنفي لأن هوذة على ما يبدو كان أشهر من ثمامة وأوسع سلطاناً، فذكر في بعض المصادر دون سواه، وفي مصادر الحديث ذُكِرَ أن النبي ﷺ بعث سليط إلى الاثنين معاً لأنهما كانا مسيطرين على اليمامة[1].

ولكن رسالة ثمامة اختلفت عن رسالة هوذة لأن هوذة كان نصرانياً وثمامة كان مسلماً.

وكان نص رسالة[2] النبي ﷺ إلى هوذة بن علي الحنفي:

«**بسم الله الرحمن الرحيم**

من: محمد رسول الله ﷺ

إلى: هوذة بن علي.

سلام على من اتبع الهدىٰ، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخُفّ والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك.

محمد رسول الله

وقدم سليط بكتاب النبي ﷺ إلى هوذة، فأنزله وحباه، وقرأ كتاب النبي ﷺ، وردَّ ردّاً دون ردّ، وكتب إلى النبي ﷺ: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك.

هوذة بن علي

وأعطى هوذة سليط جائزة وكساه أثواباً من نسج «هجر»[3]، فقدم بذلك كله على النبي ﷺ، وأخبره بما قال، وقرأ كتابه وقال: «**لو سألني سيابة**[4] **من الأرض ما فعلت، بادَ وبادَ ما في يديه!**».

---

(١) سفراء النبي ـ محمود شيت خطاب ص٣٥٦.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية، صبح الأعشى للقلقشندي ٦/٣٧٩.

(٣) هجر: ناحية البحرين/ معجم البلدان ٨/٥.

(٤) السيابة: واحدة السياب، وهو البُسر الأخضر.

فلما انصرف من عام الفتح (السنة الثامنة الهجرية) جاءه جبريل فأخبره أنه مات[1].

وذكر أن النبي ﷺ سكت عن هوذة ومن معه تاركاً أمرهم للأيام، ويبدو أن هوذَة أخذ المبادرة بعد أن لم يحقق له النبي ﷺ أطماعه غير المشروعة، فبعث هوذة الذي كان نصرانياً وفداً فيهم مجَّاعة بن مُرارة والدجَّال بن عُنفُوة إلى النبي ﷺ يقول له: إن جعل له الأمر من بعده أسلم وسار إليه ونصرَهُ، وإلاَّ قصد حربه.

فقال رسول الله ﷺ: **«لا ولا كرامة، اللهمَّ اكفنيه»**، فمات بعد قليل.

وأمّا مُجَّاعة والدَّجَّال فأسلما، وأقام الدَّجَّال عند رسول الله ﷺ حتى قرأ سورة البقرة وغيرها، وتفقّه، وعاد إلى اليمامة فارتد عن دين الإسلام[2].

ولم يسلم هوذة، ومات على دينه، وكانت أطماعه هي التي حرمته من الإسلام، وظن أنّه سيتخذ الإسلام وسيلة لتحقيق تلك الأطماع. فلم يُفْلح في مسعاه.

أمّا ثمامة بن أثال الحنفي، الذي كان سيد أهل اليمامة، والذي روى حديثه أبو هريرة رضي الله عنه[3] فأمره يكاد يكون مختلفاً عنْ هوذة، فقد أسلم قبل هدنة الحديبية، قصده سليط كما قصد هوذة لشد أزره في الدعوة إلى الإسلام، ولم تذكر المصادر المعتمدة نص كتاب النبي ﷺ إليه[4].

وذكرت المصادر[5] قصة إسلامه فقالت: إنه خرجت خيل رسول الله ﷺ، فأخذت رجلاً من بني حنيفة لا يشعرون من هو، حتى أتوا

---

(١) الطبقات لابن سعد ٢٦٢/١.
(٢) ابن الأثير ٢١٥/٢.
(٣) الاستيعاب ٢١٣/١، والإصابة ٢١١/١.
(٤) اللواء الركن محمود شيت خطاب في سفراء النبي ﷺ ص٣٥٨.
(٥) أسد الغابة ٢٤٦/١، الإصابة ٢١١/١، والاستيعاب ٢١٣/١.

به رسول الله ﷺ، فقال: **«أتدرون من أَخذتم؟ هذا ثمامة بن أُثال الحنفي، أحسنوا إساره»**.

ورجع رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: **«اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه»** وأمر بلقمة[1] أن يُغدى عليه بها ويراح، فجعل لا يقع من ثمامة موقعاً، ويأتيه رسول الله ﷺ، فيقول: **«أسلم يا ثمامة»**.

فيقول: إِيْهاً[2] يا محمد! إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تُردِ الفداء فسل ما شئت.

فمكث ما شاء الله أن يمكث ثم قال النبي ﷺ يوماً: **«أَطْلِقُوا ثمامة»**.

فلما أطلقوه خرج حتى أتى البقيع فتطهر فأحسن طهوره، ثم أقبل فبايع النبي ﷺ على الإسلام.

ثم خرج ثمامة معتمراً، فلما قدم مكة قالوا: صبوت يا ثمام؟! قال: لا، ولكني اتّبعتُ خير الدين، محمد والله، لا تصل إليكم حبّة[3] من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ.

وخرج إلى اليمامة، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً، فكتبوا إلى رسول الله: إنّكَ تأمر بصلة الرَّحم، وإنك قد قطعت أرحامنا!!

فكتب رسول الله ﷺ إلى ثمامة أن يخلي بينهم وبين الحَمْل[4].

كل ذلك كان قبل هدنة الحديبية، وقد ضرب رسول الله ﷺ مثلاً في الإحسان إلى من أساء إليه عندما أمر ثمامة بن أثال أن يواصل مدّ قريش

---

(١) الناقة الحلوب.

(٢) إيهاً: كلمة بمعنى حسبك. انظر سيرة ابن هشام ٣١٦/٤.

(٣) كانت اليمامة هي مصدر الغلال والقمح لقريش ـ فكانت سلّة خبزهم.

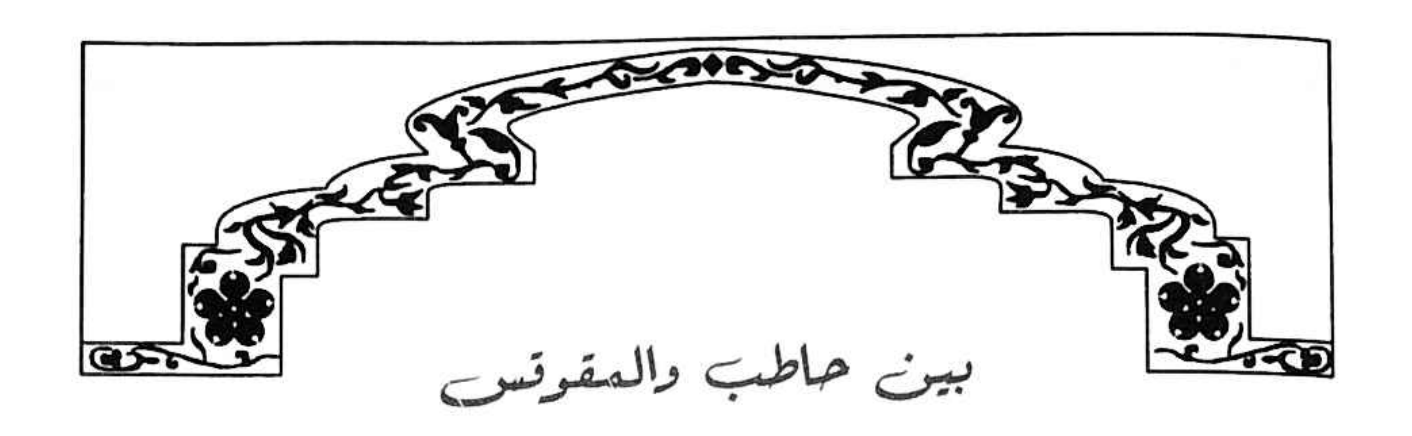
(٤) الحمل: المقصود به الحبوب التي سترسل إليهم فيطحنونها ويصنعون منها خبزهم وطعامهم. الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ٢ ص٣٦١.

بالطعام رغم كفرهم وعدم إسلامهم، كل ذلك كان أملاً في هدايتهم والتحاقهم بكتائب الإيمان.

وكان سليط رضوان الله عليه ينتمي إلى دينه أشد الانتماء، لأن تأثيره في هوذة كان واضحاً، رغم عناد هوذة، لأنه لم يطق إعراض النبي ﷺ لما وضع شروطه، وحاول أن يجدد اتصاله بالمسلمين والرغبة في الإسلام بشروطه التي رفضها النبي ﷺ، ولولا شدة تأثير سليط ونجاحه في إقناع هوذة ما كان هوذة قد وصل إلى هذه الدرجة. لكن الله يهدي من يشاء، فلم يشأ سبحانه عز وجل لهوذَةَ بالهداية فأوغل في عناده، ومضى بعيداً عن طريق الحق. ولم يكن محظوظاً بل كان عاثر الحظ.

أما سليط، فرغم أنه لم يكن بدرياً إلا أنه كان من الشهداء الذين بذلوا دماءهم في سبيل دعوة محمد ﷺ، فاستشهد في موقعة اليمامة سنة إحدى عشرة من هجرة الرسول ﷺ.





بين حاطب والمقوقس

أولاً - صورة مجملة لحاطب

قبل أَن نتحدث عن تفاصيل حياة حاطب بن أبي بلتعة ونذهب إلى أيامه ومشاهده وسفارته إلى المقوقس عظيم القبط في مصر، فإننا نجمل الصورة كما ذكرها المؤرخون إجمالاً قبل التفاصيل، فيذكر التاريخ «لحاطب» أنه كان شاعراً وفارساً مشهوراً في الجاهلية، معروفاً في قريش بشعره قبل فروسيته.

ويذكر التاريخ لحاطب، أنه أسلم قديماً، وأنّه شهد غزوة بدر الحاسمة وجاهد فيها جهاداً عظيماً، وأبلى فيها بلاءً حسناً، وكان بدرياً يحمل وسام البدريين، وما أدراك ما وسام البدريون.

وإذا كان قد شهد أعظم معارك الإسلام وأخطرها، ونصر الحق الذي كانت مظاهر قوته تبدو قليلة الإمكانات، فإنه وبالأحرى بل ومن المؤكد أنه شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وأنه كان أحد رماة الصحابة المشهورين ومن أشدهم رمياً في سبيل الله.

وكان حاطب سفيراً مخلصاً للنبي ﷺ حين أرسله إلى المقوقس عظيم القبط في مصر، وما أدراك ما مصر، مصر كنانة الله على أرضه.

وكرر سفارته للمقوقس بعد وفاة الرسول ﷺ في عهد أبي بكر

الصديق رضي الله عنه، هذا هو حاطب إجمالاً، فهو صاحب رسول الله، المجاهد السفير.

ثانياً ـ صورة مفصلة

حاطب وأيام الجاهلية

هو حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب بن سهل بن العتيك بن سَعَّاد بن راشِدة بن جَزِيْلَة بن لخم بن عدي[(١)].

وينسب إلى لخم، ولخم هو مالك بن عدي بن الحارث، ينتهي نسبه إلى قحطان، وإلى قحطان ينسب أهل اليمن[(٢)].

ولما جاء وفد قوم حاطب إلى النبي ﷺ فقال لهم: «من أنتم؟»

قالوا: بني خالفة.

فقال عليه السلام: «أنتم بنو راشدة»[(٣)]، وبذلك يعد حاطب بن أبي بلتعة من أهل اليمن[(٤)].

ويكنى حاطب بن أبي بلتعة باسم: أبا محمد، وهو حليف لبني أسد بن عبدالعزى، ثم للزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، وبنو أسد بطن من بطون قريش العشرة[(٥)]. وبطون قريش هي: بنو هاشم، وبنو نوفل، وبنو أُمية، وبنو عبدالدار، وبنو تميم، وبنو أسد، وبنو مخزوم، وبنو عدي، وبنو جُمح وبنو سهم.

---

(١) انظر أسد الغابة جـ١ ص٣٦٠، ٣٦١.
(٢) جمهرة أنساب العرب.
(٣) الطبقات لابن سعد جـ٣ ص١١٤.
(٤) انظر الإصابة جـ١ ص٣١٤، والاستيعاب جـ١ ص٣١٢.
(٥) انظر أسد الغابة جـ١، والاستيعاب جـ١ ص٣١٢، السيرة لابن هشام جـ١ ص١٤٣ وما بعدها.

كان حاطب فارساً وشاعراً مشهوراً في الجاهلية، وكان أحد فرسان قريش في الجاهلية وشعرائها، ولم يكن أحد فرسانها بالنسب بل بالولاء، ونلاحظ أن ما جاء عنه قبل الإسلام كان عاماً وقليلاً، أمّا بعد الإسلام فإنه كان نجماً مشهوراً.

وقد أسلم حاطب قديماً، شأنه شأن حليفه الزبير بن العوام الذي أسلم قديماً أيضاً، ولما أذن الرسول ﷺ بالهجرة من مكة إلى المدينة، هاجر حاطب إلى حليفه الزبير بن العوام، وكان برفقته في الهجرة مولاه سعد بن خولى الكلبي، ورغم أن الزبير رضي الله عنه قد هاجر إلى الحبشة هجرتيها إلا أن حاطب لم يهاجر إلى أرض الحبشة[١]، ولربما بقي في مكة إلى جوار أشراف قريش، وعندما وصل إلى المدينة آخى النبي ﷺ بين حاطب وبين عُويم بن ساعدة أخي بني عمرو بن عوف[٢][٣].

وقصد حاطب حليفه الزبير وظل معه في المدينة وقد استقر بهم الأمر، فشاركوا في الجهاد، وكانت غزوة بدر هي بداية جهاد حاطب رضي الله عنه، فقد انضم إلى الفئة القليلة متيقناً أن الله ينصر عباده، وقد أبلى حاطب في غزوة بدر التي جاءت في رمضان من السنة الثانية للهجرة أبلى بلاء حسناً، وأسر أحد المشركين من قريش، وهو الحارث بن عائذ بن أسد من بني أسد بن عبدالعزىٰ، فقدم في فدائه عثمان بن أبي جيش بأربعة آلاف.

وشهد بدراً مع حاطب مولاه سعد الكلبي، وشهدها عبدٌ لحاطب وذلك يدل على أن حاطب كان مسلماً وداعية لدينه.

وفي غزوة أحد كان حاطب أحد الرماة المعروفين في هذه الغزوة التي كانت في شوال من السنة الثالثة للهجرة، وكبد المشركين خسائر كبيرة في الأرواح.

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري.
(٢) انظر السيرة لابن هشام جـ٢ ص١٢٥، والدرر في المغازي والسيرة.
(٣) المغازي للواقدي جـ١ ص٢٤٣.

أما في غزوة بني المصطلق والتي كانت في شعبان من السنة السادسة للهجرة، فقد رأى رسول الله ﷺ لما مر بموضع قرب المدينة يسمى البقيع، وهو قادم من ماء لبني خزاعة يسمى «المريسيع» رأى آباراً، وعشباً وسعة في الرزق، وغُدر من الماء تصب بعضها في بعض، وجو جميل حسن من مراعي وهواء طلق وخلاء واسع لا أحد يطرقه.

فأمر رسول الله حاطب أن يحفر بئراً، وأمر بلال بن الحارث المزني أن يحمي البئر لكي يشرب منه المسلمون وخيلهم وإبلهم، وبذلك حجز الرسول ﷺ هذه الأرض المترامية الخصبة بعشبها ومرعاها ومائها لصالح المسلمين، لأنها لم تكن ملكاً لأحد.

وشهد حاطب صلح الحديبية، وبايع النبي ﷺ بيعة الرضوان في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة[١]، وكان حاطب أحد العشرة المهاجرين من المسلمين الذين دخلوا على أهليهم[٢].

وفي عام الفتح، حينما أراد النبي ﷺ فتح مكة، وفكّر في منع الأخبار عن قريش حتى لا تعلم، وتعد عدّتها له، في هذا العام وهذا الموقف كتب حاطب رضي الله عنه إلى ثلاثة نفر من قريش هم: صفوان بن أُمية، وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل: أن رسول الله ﷺ قد أذَّن في الناس بالغزو، ولا أراه يريد غيركم، وقد أحببت أن تكون لي عندكم يدٌ بكتابي هذا، ودفع الكتاب إلى امرأة من مزينة من أهل «العرج»، وهي قرية جامعة على ثلاثة أميال من المدينة بطريق مكة[٣]، وقد جعل لها ديناراً أجراً لذلك، وقال: أخفيه ما استطعت، ولا تمُريّ على الطريق، فإن عليها محرساً فجعلت الكتاب في رأسها، ثم فتلت عليه قرونها.

وبعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي الله

---

(١) جوامع السيرة.

(٢) المغازي للواقدي ٢/٦٠٣.

(٣) شرح الزرقاني ٢/٣٦٠.

عنهما، فقال: «**أدركا امرأة من مُزينَة، قد كتب معها حاطب كتاباً يحذِّر قريش**» فاخرجا فأدركاها[1].

فخرج علي والزبير في أثرها، ولما لحقا بها: قالا: أخرجي الكتاب.

فقالت: ما معي كتاب.

فقالا: لتخرجنَّ الكتاب، أو لنجردن الثياب. فأخرجته من عقاصها، فأتيا به رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**ما هذا يا حاطب؟!!**».

قال حاطب: لا تعجل عليّ يا رسول الله! إنّي كنت امرأً ملصقاً بقريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذا فاتني ذلك من نسب فيهم أن أتخذ فيهم ما يحمدون بها قرابتي، وما فعلتُ ذلك كفراً وارتداداً عن ديني ولا رضاء بالكفر.

فقال رسول الله ﷺ: «**صدق**».

فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فإنه قد نافق.

فقال رسول الله ﷺ: «**إنه قد شهد بدراً، فما يدريك! لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم**».

وفي حاطب نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١﴾[2].

وعفا عنه النبي ﷺ إكراماً له، لأنه بدري جاهد بنفسه وشهد المشاهد

---

(١) المغازي للواقدي جـ٢.

(٢) الآية الأولى من سورة الممتحنة.

الماضية كلها، وقد ذكر أن المرأة هي سارة النواحة[1] وكانت قريبة من بني عبدالمطلب.



الطريق إلى المقوقس

قبل فتح مكة وبعد صلح الحديبية، بعث النبي ﷺ رسله إلى الملوك والأمراء، وكتب معهم كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام، فقد خرج عليه السلام إلى أصحابه بعد عُمرته التي صُدَّ عنها يوم الحديبية، فقال: «**أيها الناس، إنّ الله قد بعثني رحمة وكافة، فلا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم**».

فقال أصحابه: وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله؟

فقال: «**دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه، فأمّا من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلّم، وأمّا مَنْ بُعِث مبعثاً بعيداً فكره وجهه وتثاقل، فشكا ذلك عيسى إلى الله، فأصبح المتثاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأُمة التي بعث إليها**».

فبعث رسول الله ﷺ رسلاً من أصحابه إلى الملوك والأمراء، وبعث معهم كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية، سنة ست للهجرة[2].

ومضى حاطب بكتاب النبي ﷺ قاصداً المقوقس عظيم القبط في مصر، والمقوقس هو اسم يطلقه المؤرخون على حاكم مصر في ذلك العصر، والمقصود بالمقوقس هو «قيرس» بطريرك الإسكندرية الملكاني الذي

(١) الكامل لابن الأثير.

(٢) انظر سيرة ابن هشام جـ٤ ص٢٧٨، وتاريخ خليفة بن خياط ٤١/١، وتاريخ الطبري جـ٢ ص٤٤، والكامل في التاريخ لابن الأثير جـ٢ ص٢١٠.

جمع له هرقل ولاية الدين وجباية الخراج بأرض مصر[1].

ولما وصل حاطب بن أبي بلتعة إلى الإسكندرية وجد المقوقس في مجلس قريب من البحر يطل على الشاطىء، فلما حاذى مجلسه، أشار بكتاب رسول الله ﷺ بين أصبعيه، فلما رآه المقوقس أمر بالكتاب فقبض، وأمر بحاطب أن يتقدم فأوصل إليه.

دخل حاطب مجلس المقوقس، وقرأ المقوقس كتاب رسول الله ﷺ فقال: ما منعه إن كان نبياً أن يدعو عليَّ فيسلط عليَّ؟

فقال له حاطب: ما منع عيسى ابن مريم أن يدعو على مَنْ أبىٰ عليه أن يُفْعَل به ويُفْعل؟

سكت المقوقس ساعة وساد صمت رهيب في المكان، ثم أعاد كلماته، فأعاد عليه حاطب كلماته كما هي، فسكت المقوقس[2].

وسأل المقوقس حاطباً: أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبياً؟

قال: بلى.

قال: فما له لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلدته؟

فأجابه حاطب: فعيسى ابن مريم رسول الله حين أراد قومه صلبه، لم يدعُ عليهم حتى رفعه الله.

فقال المقوقس: أحسنت، أنت حكيم جئت من عند حكيم[3].

ثم قال حاطب للمقوقس: إنه قد كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى، فانتقم الله به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك، وإن لك ديناً لن تدعه إلاّ لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافي الله به فقْد ما سواه، وما بشارة موسى بعيسىٰ، إلاّ كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إيّاك إلى

---

(١) فتوح مصر والمغرب الهامش ص٦٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات ١٥١/١.

القرآن إلاَّ كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به.

فأجاب المقوقس: إن القبط لا يتابعني على اتّباعك، وأنا أَضُنُّ بملكي[1].

وقف المقوقس وقبّل كتاب رسول الله ﷺ، وأخذه في حُقٍّ من عاج، وختم عليه، وأكرم رسول رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه وأرضاه، وأكرم نزله، فلقي حاطب ترحيباً عظيماً وتكريماً سخياً من المقوقس عظيم قبط مصر[2].

وكان نص رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس[3]:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله

إلى المقوقس عظيم القبط.

سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

محمد رسول الله».

وجاء في رواية أُخرى مخالفة لنصوص رسائل النبي ﷺ للملوك والرؤساء جاء فيها:

---

(١) البدء والتاريخ جـ٤/٢٢٩.

(٢) الواقدي في فتوح مصر والمغرب ص٦٧، الكامل لابن الأثير.

(٣) نص الرسالة ورد في صبح الأعشى للقلقشندي، فتوح مصر والمغرب ـ انظر مجموعة الوثائق السياسية ص٧٢.

من محمد رسول الله ﷺ

إلى صاحب مصر.

أما بعد: فإن الله أرسلني رسولاً، وأنزل عليّ قرآناً، وأمرني بالإعذار والإنذار ومقاتلة الكفار حتى يدينوا بديني، ويدخل الناس في ملتي، وقد دعوتك إلى الإقرار بوحدانيته، فإن فعلت سعدت، وإن أبيت شقيت، والسلام»[1].

محمد رسول الله

ونحن نميل إلى نص الرسالة الأولى، لكثرة مراجعه الموثقة، وتشابهه مع نصوص كتب النبي ﷺ إلى ملوك النصارى: النجاشي ملك الحبشة، وهرقل قيصر الروم، والمقوقس كان من ملوك النصارى أيضاً، ولفظ النص الأول يتناسب مع البلاغة النبوية الفصيحة[2].

عزم حاطب على العودة من مصر إلى الرسول ﷺ فأحس المقوقس بذلك وبعث إلى النبي ﷺ هدايا: ثلاث جوارٍ، منهن مارية القبطية لرسول الله ﷺ، وشيرين أو سيرين أخت مارية وهبها لحسان بن ثابت الأنصاري شاعر الرسول ﷺ فولدت له عبدالرحمن بن حسان، وكان حاطب قد دعاهما إلى الإسلام قبل أن يقدم بهما، فأسلمت مارية وأختها، ووهب الثالثة لجهم بن قيس العبدري[3] فهي أم زكريا بن جهم الذي كان خليفة عمرو بن العاص على مصر.

وأرسل المقوقس أيضاً، بغلته وتسمى «دلدل»، وحماره «يعفور»، وكساءً وبعث مع الجواري بعبد خصي كان معهم، وألف مثقال ذهباً، وعشرين ثوباً، ووهب لحاطب مالاً عظيماً.

---

(١) الواقدي في فتوح مصر ١٠.

(٢) اللواء الركن محمود شيت خطاب في كتابه سفراء النبي جـ١ ص٣٣٢.

(٣) هناك اختلاف في عددهن ففي الطبري وابن الأثير أربع، وفي الاستيعاب ٣١٥/١ ثلاث جواري، وكذلك .

وعاد حاطب إلى المدينة سنة سبع للهجرة، وقد حمله المقوقس رسالة جوابية إلى النبي ﷺ جاء نصها كالآتي:

لمحمد بن عبدالله،

من المقوقس.

سلام.

أما بعد، فقد قرأت كتابك وفهمتُ ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وقد كنتُ أظن أنَّه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسلك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام.

ونتبين من الرد والاستقبال الذي استقبل به حاطب أن المقوقس كان رجلاً على خلق، من سماته الأدب الجم مع سفير النبي ﷺ، فقد أحسن استقبال الرجل، وأحسن ضيافته أيضاً، وأرسل معه من يوصله مأمنه[1] حين ارتحل عن مصر، بعد أن أدى مهمته على خير وجه وبأمانته المعهودة، وحكمته المشهودة، وإخلاصه الشديد.

ويذكر المؤرخون أنه بعد أن التحق الرسول بالرفيق الأعلى، وتولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه، الخلافة بعث حاطباً إلى المقوقس بناحية قرى الشرقية، فأعطوه، ولم يزالوا على ذلك حتى جاء عمرو بن العاص وفتح مصر.



ريحانة بنت يزيد

لعل من المناسب قبل أن نتحدث عن هذه السرية التي تسرى بها

(١) تهذيب الأسماء واللغات ١/١٥٢.

رسول الله قبل مارية القبطية، وماتت قبل وفاة الرسول ﷺ وقبل مارية، لعله من المناسب أن نتحدث عن أحكام الإسلام في السَّبي.

فمن أحكام الإسلام في السَّبي: إباحة المسبيَّات المملوكات بسبب السّبي في الجهاد، أو بسبب الشراء، لأن الشراء يؤدي إلى فسخ زواجهن السابق، ما دام أزواجهن كفاراً في ديار الحرب، ولا بد من استبراء المسبية بوضع الحمل إن كانت حاملاً، وبحيضة إن كانت حائلاً غير حامل.

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: كان أصحاب رسول الله ﷺ يستبرئون المسبية بحيضة.

وروى أبو داود وصححه الحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه حديثاً في سبايا أوطاس: «لا توطأ حامل حتى تضع، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة».

وقد أجمع العلماء على: استبراء المسبية بحيضة واحدة، سواء أكانت ذات زوج أم لا زوج لها[(١)].

كان لرسول الله ﷺ صفيٌّ من المغنم ـ حضر رسول الله ﷺ أو غاب ـ قبل الخُمس: عبدٌ وأمة، أو سيف ودرع.

فأخذ يوم بدر ذا الفقار[(٢)]، ويوم بني قينقاع: درعاً، وفي غزاة ذات الرقاع: جارية، وفي غزوة المريسيع عبداً أسوداً يقال له: رَبّاح، ويوم بني قريظة: ريحانة بنت يزيد، ويوم خيبر: صفية بنت حيي، وفي يوم حنين: فرساً أشقر[(٣)].

كانت ريحانة زوجاً لرجلٍ من بني قريظة يقال له: الحكم، وكانت تعيش في سعادة مع زوجها، لأنه كان يحبها ويشملها برعايته وكرمه وحسن خلقه.

---

(١) ارجع إلى الموسوعة الفقهية ـ طبعة وزارة الأوقاف الكويتية ـ وكتب الفقه في السبايا.

(٢) وهو سيفه عليه السلام.

(٣) أنساب الأشراف ٤٤٣/١.

وقد كانت ريحانة على قدر موفور من الجمال، وكانت ذا حظوة بين أهلها وقومها، وكانت حسنة الأخلاق، حكيمة، مدبّرة، فلما وقع الغزو على بني قريظة سباها رسول الله ﷺ، ولكن ريحانة بعد السبي أبت الإسلام، فعزلها رسول الله ﷺ، وحزن من أجل ذلك حزناً شديداً.

وفيما هو عليه السلام في مجلس الصحابة الكرام، إذ سمع وقع نَعْلَيْن خَلْفَهُ، فأخبر أصحابه أن قد جاء من يُبَشِّرُ بإسلام ريحانة.

وروى ابن سعد في طبقاته أنّه لما سبى رسول الله ﷺ ريحانة بنت يزيد، عَرَضَ عليها الإسلام، فأبت وقالت: أنا على دين قومي.

فقال رسول الله ﷺ: «**إن أسلمتِ اختارك رسول الله لنفسه**» فأبت، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فبينا رسول الله ﷺ جالس في أصحابه إذ سمع خفق نعلين فقال: «**هذا ابنُ سعية يبشرني بإسلام ريحانة**».

فجاءه فأخبره أنّها قد أسلمت[1].

ومما لا شك فيه أن ريحانة سمعت عن رسول الله ﷺ وعن دعوته المباركة قبل أن يغدر به اليهود عندما قدم إلى المدينة في ضيافة الأنصار، وقد أراد الله بها خيراً حينما أسلمت وأقدمت على الإسلام، وقد كانت ريحانة مما أفاء الله على النبي ﷺ، وقد كانت امرأة جميلة وسيمة، فلما وقعت في السَّبي، كانت صفي رسول الله ﷺ يومذاك، فأمر بها فعُزِلت حتى انتهى من تقسيم الغنائم.

ولما انتهى رسول الله ﷺ من تقسيم الفيء، أرسل بها إلى منزل الصحابية الجليلة سلمى بنت قيس الأنصارية (أم المنذر) ومكثت ريحانة في بيت أم المنذر أياماً حتى انتهى رسول الله ﷺ من بني قريظة، وفرَّق السبي، ثم جاء أم المنذر، ودخل على ريحانة، فتوارت حياءً منه ﷺ ولكن الرسول ﷺ دعاها، فأتت على استحياء، وجلست بين يديه، وكلمها كلاماً

---

(١) انظر تاريخ الإسلام للذهبي المغازي ص٣١٨.

طيباً وبيّن لها محاسن الإسلام، ومن ثم قال: «**إن اخترت الله ورسوله، اختاركِ رسول الله لنفسه**».

فقالت: إني أختار الله ورسوله، ونطقت بالشهادتين وأسلمت، فأعرس بها رسول الله ﷺ في بيت أُم المنذر في المحرم من سنة ست من الهجرة النبوية، وحظيت بمكانة رفيعة عند النبي ﷺ وكان معجباً بها، لا تسأله شيئاً إلا أعطاها[(١)].

وتعد ريحانة سرية من سراري النبي ﷺ، والدليل على ذلك الرواية التي قالت أن الرسول ﷺ خيرها وسألها عما تحبه فقال: «**إِن أحببت أن أعتقكِ وأتزوجك فعلتُ، وإِن أحببت أن تكوني في ملكي فعلتُ**».

فقالت: يا رسول الله أكون في ملكك أخفُّ عليَّ وعليك، فكانت في مِلْكِ رسول الله ﷺ[(٢)].

وقد تواترت الروايات تؤكد أن ريحانة سرية من سراري النبي ﷺ وليست من نسائه، فتذكر رواية أخرى: أن رجلاً لقي ريحانة بموسم الحج، فقال لها: إن الله لم يرضك للمؤمنين أمّاً.

فقالت: «وأنت فلم يرضك الله لي ابناً»[(٣)]، فدل ذلك على ذكائها وحسن تصرفها.

وذكر الرواة نساء النبيّ ﷺ وأزواجه اللواتي توفي عنهن أو توفين في حياته، ولم يذكروا ريحانة ومارية القبطية حتى قال الشاعر:

توفي رسول الله عن تسعة نسوةٍ ... إليهنّ تعزى المكرمات وتنسب
فعائشة، ميمونة صفية ... وحفصة تتلوهن هند وزينبُ
جويرية مع رملة ثم سودة ... ثلاث وست ذكرهنَّ مهذَّبُ

---

(١) الإصابة ٤/٣٠٢، ٣٠٣، وطبقات ابن سعد جـ٨/١٢٩، ١٣٠.
(٢) انظر أنساب الأشراف للبلاذري ١/٤٥٣.
(٣) المصدر السابق ١/٤٥٣.

وظلت ريحانة في البيت النبوي بضع سنين، تنعم بالإيمان، وطهارة الإسلام وعدل النبي ﷺ.

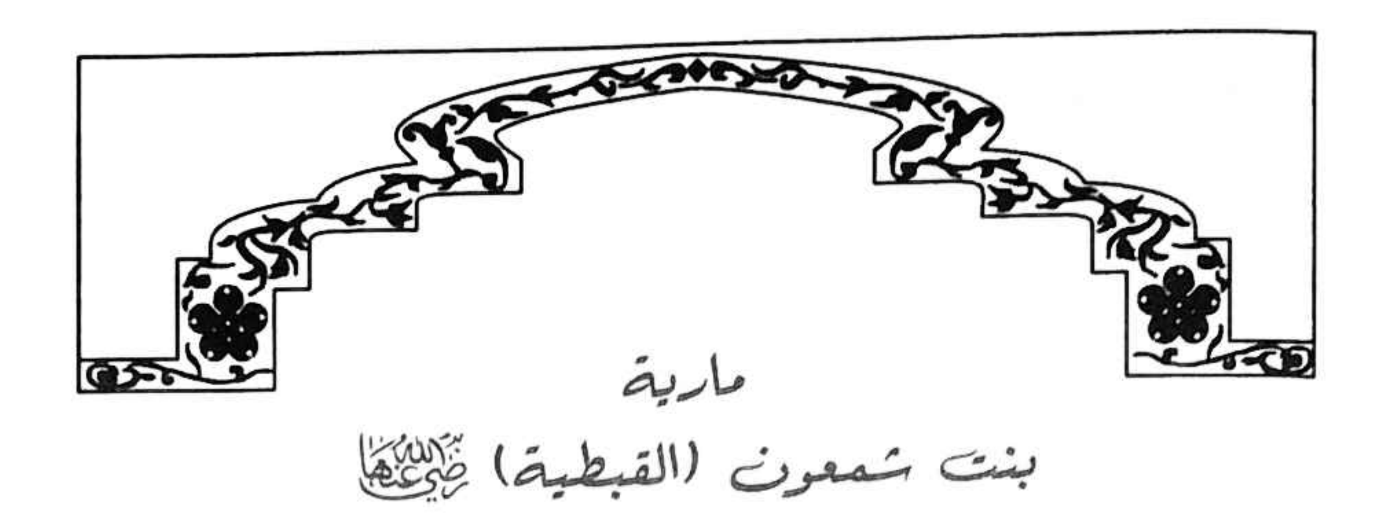
وماتت ريحانة عندما رجع رسول الله من حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة[1].

وكانت سيرة ريحانة بنت يزيد التي سبقت مارية أم إبراهيم هي استهلال لدينا لسيرة مارية رضي الله عنها.

ولذا فلنسمع ما جاء في المصادر عن سرية رسول الله مارية القبطية.



(١) طبقات ابن سعد ٨/١٣٠، أزواج النبي للصالح ص٢٣٢ ط دار ابن كثير سوريا.



مارية
بنت شمعون (القبطية) رضي الله عنها

من هي مارية القبطية قبل الإسلام؟

للإجابة عن هذا السؤال نجد المصادر تقول:

في قرية من صعيد مصر، تدعى «حفن»، قريبة من بلدة «أنصنا» الواقعة على الضفة الشرقية للنيل تجاه الأشمونين، ولدت «مارية بنت شمعون» لأب قبطي، وأُم مسيحية رومية، وقد أمضت مارية بقريتها «حفن» هذه سنوات طفولتها، وفي مطلع الشباب انتقلت مع أختها «سيرين» إلى قصر المقوقس عظيم مصر.

من هي مارية القبطية بعد الإسلام؟

- مارية القبطية رضي الله عنها الجميلة الطلعة، الباسمة المشرقة، هي سريرة رسول الله، ملك يمينه، حلّت له بملك اليمين.

- مارية القبطية سُرّية النبي ﷺ وأم ولده إبراهيم، طيبة طاهرة، صاحبة منزلة رفيعة عند النبي ﷺ.

- مارية القبطية أسلمت وحَسُن إسلامها، وعاشت في بيت النبي ﷺ عزيزة كريمة، مرعية الجانب، وهي من أهل البيت.

- اجتازت الاختبار الرباني في الصبر على الابتلاء والتسليم بالقضاء، حيثما فقدت أعز الأبناء وهو إبراهيم بن محمد ﷺ.

وقد جاءت مارية القبطية هدية للنبي ﷺ من المقوقس عظيم القبط في مصر.

فمن هو المقوقس؟

المقوقس هو حاكم الاسكندرية، ووالي الدولة البيزنطية على ولاية مصر، وما أدراك ما ولاية مصر، فهي ليست ككل ولايات الدولة البيزنطية بما تميزت به في عصر المقوقس، لقد كانت من أغنى ولايات الدولة البيزنطية على الإطلاق، أرضها أخصب الأراضي، تعطي ثماراً وإنتاجاً هائلاً ضخماً، كما أن عمرانها متسع مترامي الأطراف تدب فيه الحياة بهمة ونشاطاً.

وقد ذكر المؤرخون والفاتحون[1]: أن مصر تربة غبراء، وشجرة خضراء طولها شهر، وعرضها شهر.

كل هذه البلاد الجميلة كانت تحت ولاية جُريج بن مينا أو جريج بن متى المقوقس عظيم القبط في مصر، فقد ذكر اسمه في المصادر بجريج بن مينا أو جريج بن متى.

ونعود إلى قصر المقوقس فلربما وقفت مارية بنت شمعون رضي الله عنها خلف شرفة من شرفاته تستمع إلى سفير النبي ﷺ وهو يقول للمقوقس بعد أن سمع منه المقولة الشهيرة: يا هذا، إن لنا دِيناً لن ندعه إلا لما هو خير منه.

فيجيبه حاطب: ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه، إنّ هذا النبي دعا الناس، فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى

---

(١) ابن تغروي بردى في النجوم الزاهرة، والقائل هو عمرو بن العاص.

بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن، إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبيٍّ أدرك قوماً فهم أُمته، فالحقُّ عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركك هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنّا نأمرك به.

وتبلغ المفاجأة ذروتها عندما تسمع سيدها المقوقس وهو يرد على حاطب بعد أن أعجب بمقالته، ووافق كلاماً موقعاً في نفسه فقال لحاطب:

إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والأخبار بالنجوى[1].

وسمعت مارية بنت شمعون من المقوقس أنه في نهاية الرد المقوقسي كلمة: «وسأنظر».

أي أنّه سيرد على محمد برد جميل ليكون ثالث ثلاثة وهم هرقل والمقوقس والنجاشي الذين تلقوا رسائل من النبي ﷺ، فتأدبوا وردوا ردّاً جميلاً على رسائل رسول الله ﷺ، وقد عرفنا موقف النجاشي الذي أكرم مثوى رسول رسول الله ﷺ وآمن بدينه وأصبح أخاً للمسلمين، فعندما توفي بلغ النبأ الرسول ﷺ من السماء، فقال: «**مات أخوكم أصحمة**»، وقام معهم ليصلي عليه ويدعو له.

أما كسرى أبرويز فقد كان على عكس هؤلاء جميعاً، فلما قُرِىء له كتاب النبي ﷺ فرّقه، وقال في غباءٍ وجحود واستكبار: يكتب إليَّ هذا وهو عبدي.

فلما بلغ هذا القول رسول الله ﷺ قال: «**مزَّقَ الله مُلكه**»[2].

فلقد تمزق ملكه، وتحققت دعوة النبي ﷺ، فانهارت دولته وتمزقت، ولم تقم له قائمة بعد ذلك، فلم تمض سنوات بعيدة بعد أن

---

(١) السيرة الحلبية، وابن سيد الناس في كتابه عيون الأثر ٢/٣٣٧.
(٢) رواه البخاري ـ باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر.

دعا عليه رسول الله ﷺ إلا وقد كان ما كان، وكانت كلمات الرسول ﷺ تدل على مصيره عندما قال عليه السلام: «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده**»[(١)].

انتظرت مارية الأخبار وكانت قد سمعت بما كان من ظهور نبي في جزيرة العرب يدعو إلى دين سماوي جديد، وها هو رسوله في القصر يحاور المقوقس موفداً من النبي العربي.

وفيما هي تتسمع الأخبار وتتقصى الحقائق سمعت أن المقوقس سيبعث بهدية إلى النبي العربي مع صاحبه حاطب بن أبي بلتعة.

ولم تذهب ظنون مارية حول الهدية أبعد من الكساء والعطور وغير ذلك مما اعتاد عليه الملوك في ذلك العصر، لم تكن تعرف أن المقوقس سيكرر ما فعله فرعون مصر عندما أهدى لسارة هاجر التي أصبحت فيما بعد أُم العرب[(٢)]، وكان لها شأنٌ عظيم في بيت الخليل عليه السلام.

وكانت مارية بنت شمعون وأختها سيرين محظوظتان في قصر المقوقس تصلهما أدقّ الأخبار، وفيما هما يتسمعن الأخبار وقعت المفاجأة أنهما ضمن هدية المقوقس إلى النبي العربي، احتضنت مارية أختها سيرين وقد انتابهما شيء من الخوف.

قُرِأت الرسالة في القصر قبل أن تدفع إلى حاطب بن أبي بلتعة كي يحملها إلى النبي العربي ﷺ جاء في الرسالة: أما بعد، فقد قرأت كتابك وفهمت من ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام..

وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم، وبكسوة، ومطية لتركبها، والسلام عليك[(٣)].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) انظر كتابنا عن هاجر أم إسماعيل في هذه السلسلة.

(٣) تاريخ الطبري ٨٥/٣ والمحبر ٩٨، وعيون الأثر ٢٦٦/٢.

ونقف هنا عند عبارة المقوقس التي تقول: (وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم).

هذه هي مكانة مارية في قبط مصر أهلاً وشعباً، يدفع بها المقوقس منوهاً بمكانتها العظيمة وشرفها الرفيع في قومها.

ودفع المقوقس كتابه إلى «حاطب» معتذراً بما يعلم من تمسك القبط بدينهم وموصياً إياه بأن يكتم ما دار بينهما، فلا يسمع منه القبط حرفاً واحداً.

وانطلق حاطب عائداً إلى النبي ﷺ ومعه مارية وأختها «سيرين»، وعبد خصي يقال له «مابور»، وألف مثقال ذهباً، وعشرون ثوباً ليناً من نسيج مصر، وبغلة شهباء «دلدل»، وجانب من عسل «بنها»[1] وبعض العود والند والمسك.

مضى الموكب هادئاً ساكناً قاصداً مدينة رسول الله ﷺ، وفيما كان الموكب يمضي في هدوء وسكينة شعرت الأختان مارية بنت شمعون وأختها سيرين بوحشة لفراق الأهل والوطن، فسارتا تملآن أعينهما من كل شيء في وادي النيل الحبيب إلى قلبيهما، حتى إذا غابت عنهما رؤوس نخيله الباسقة، ومضت آخر معالمه تطويها المسافات كلما بعدت، ألقتا نظرة وداع على الأرض التي عاشا فيها أجمل أيام صباهما، ودرجت عليها طفولتهما وشبابهما.

ولربما أدرك حاطب بن أبي بلتعة ما يقاسيانه من الوحدة والغربة ووحشة الطريق، وأسى الفراق، فأقبل عليهما باسماً يحدثهما عن تاريخ بلاده العريق، ويروي لهما عن الإسلام ومكة وبلاد الحجاز، وعن دعوة النبي ﷺ وما فيها من صدق وكرامة مما يسري عنهما، وغاص حاطب بعد أن شعر أنهما نسيا مشاعر الفراق والشجن لبعض الوقت، غاص وتعمق في دعوة محمد ﷺ، حتى أخذتا بما سمعتا وانشرح قلباهما للإسلام ونبيه،

(١) مدينة مصرية تشتهر بإنتاج عسل النحل - وتقع شمال القاهرة.

فأسلمت مارية وأختها سيرين وهما في الطريق، فهداهم الله إلى الدين القيم والدعوة الطيبة، وإلى الصراط المستقيم.

وقد استغرق تفكيرهما بعد هذا كله في حياتهما الجديدة المقبلة في المدينة المنورة التي توشك أن تستقبلهما استقبالاً حانياً رقيقاً، وراح فكرهما أيضاً إلى النبي العربي ساكن المدينة المنورة والذي ينتظر رجوع صاحبه ورسوله برد المقوقس عظيم القبط في مصر، ولم يكن يعرف عليه السلام أن حاطباً عرض الإسلام على مارية ورغَّبها فيه، فأسلمت هي وأختها سيرين[(١)].

بلغ الركب المدينة المنورة سنة سبع من الهجرة، وقد عاد النبي ﷺ من الحديبية بعد أن عقد الهدنة مع قريش.

وتلقى النبي ﷺ كتاب المقوقس، وهدية مصر ومقوقسها جريج بن متى أو جريج بن مينا كما ذكرت المصادر.

وصلت مارية ومعها هدايا المقوقس إلى المدينة المنورة وكانت مارية قد أسلمت وهي في طريقها إلى المدينة على يد حاطب بن أبي بلتعة سفير رسول الله ﷺ بعد أن رغَّبها فيه، فأسلمت وأسلمت أختها سيرين ومن هدايا مصر أعجبته ﷺ مارية فاكتفى بها ووهب أُختها «سيرين» إلى شاعرِهِ حسان بن ثابت رضي الله عنه.

وفي المدينة المنورة، نعمت مارية برعاية الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه الذي اختارها لنفسه، وأنزلها منزلاً كريماً عند حارثة بن النعمان الأنصاري، وهو صاحبه الوفي الذي بشره بالجنة ﷺ.

ثم حوّلها بعد ذلك إلى مكان جميل يحمل اسمها فكان يقال لهذا المكان: مشربة أم إبراهيم في العالية، والمشربة هي الغرفة والعِلّيّة والصّفّة والأرض اللينة دائمة النبات، وإنما سميت مشربة أم إبراهيم، لأن أم إبراهيم

---

(١) طبقات ابن سعد سيرة حاطب، ومارية جـ٨.

ابن النبي ﷺ ولدته فيها، وتعلقت حين ضربها المخاض بخشبة[1] من خشب تلك المشربة، فتلك المشربة اليوم معروفة، فهي موضع بالعوالي من المدينة بين النخيل، وهو أكمه قد حوط عليها.

وطار النبأ إلى دور النبي ﷺ أن شابة مصرية حلوة ملاحة، جعدة الشعر، جذّابة الملامح، قد جاءت من أرض النيل، هدية للنبي ﷺ، فأنزلها بمنزل لحارثة بن النعمان الأنصاري قرب المسجد.

وقد أثار قدوم هذه الشابة المصرية الحلوة غيرة عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها، فقد شغلت مارية القبطية المصرية التي جاءت مسلمة إلى محمد ﷺ شغلت البيت النبوي كله وأزواجه، فتكلفت عائشة ما استطاعت من الجهد، لكي تعلل نفسها بألا خطر عليها من هذه الشابة الجديدة، فما كانت سوى جارية قبطية غريبة، وللغربة عند العرب وفي الزواج على وجه الخصوص محاذير، فسيادة العرب وشرفهم علمتهم أن يُعْنَوا بمكانة بناتهم من العزة والرفاء، فلا يسلمونهن لمن ينزل بهن عن منزله العقائل المبجلات اللواتي يغنين في بيوتهن عن الخدمة المسفة والعيش الذليل[2].

ولهذا كان سادة العرب يختارون الأزواج لبناتهم ثم لا يكتفون باختيارهم حتى يشركوهن في الرأي ويدخلوهن في المشورة، ومن أنباء ذلك ما استفاض في كتب ومصادر الأدب العربي أن الحارث بن عوف المري قَدِم على أوس بن حارثة الطائي خاطباً، فدخل أوس على زوجته ودعا ببنته الكبرى فقال لها: يا بنية! هذا الحارث بن عوف المري سيد من سادات العرب قد جاءني طالباً خاطباً وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين؟

قالت: لا تفعل!

قال: ولم؟

---

(١) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة، انظر وفاء الوفاء ٨٢٥/٣ للسمهودي.
(٢) العقاد في كتابه عائشة الصديقة ص٨ ط دار المكتبة العصرية.

قالت: لأني امرأة في وجهي ردّة، وفي خلقي بعض العهدة، ولست بابنة عمه فيرعى رحمي، وليس بجارك في البلد فيستحي منك، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني، فيكون عليَّ وعليك من ذلك ما فيه.

فصرفها ودعا بابنته الوسطى وعرض عليها ما عرضه على الكبرى، فقالت: إني خرقاء، وليست بيدي صناعة، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني!

فلما دعا بأختها الصغرى قالت: . . . ولكنني والله الجميلة وجهاً، الصناع يداً، الرفيعة خُلقاً، الحبيبة أباً، فإن طلّقني فلا أخلف الله عليه بخير.

وهذه الفتاة الصغرى، واسمها بُهَيْسة، هي التي تزوجها الحارث بن عوف وزفت إليه، فأنكرت منه أن يدخل عليها في ثياب العرس والحرب قائمة بين عبس وذبيان فلا يشغله عن الطيب والزفاف أن يصلح بينهما. . فأكبر منها زوجها هذه الحكمة، وسعى في الصلح بين الحيّين حتى استجيب له.

نعود إلى مارية وما كان من عائشة من غيرة حولها، فقد راحت عائشة رضي الله عنها ترقب في كثير من القلق، مظاهر اهتمام الرسول ﷺ بتلك المصرية الطارئة وقد أثار جزعها أن تراه ﷺ يكثر التردد عليها، فيمكث لديها طويلاً، فكان عامة الليل والنهار عندها، في ساعات فراغه[1].

وقد أفصحت عائشة عما في نفسها من الغيرة من مارية القبطية رضي الله عنهما فقالت: ما غرت على امرأةٍ دون ما غرت على مارية، وذلك أنها كانت جميلة جَعدة - أو دعجة - فأعجب بها رسول الله ﷺ، وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيت لحارثة بن النعمان، فكانت جارتنا، فكان عامة الليل والنهار عندها، حتى فرغنا لها، فجزعت، فحوّلها إلى العالية، وكان يختلف إليها هناك، فكان ذلك أشد علينا[2].

---

(١) انظر طبقات ابن سعد، والإصابة لابن حجر.

(٢) الطبقات لابن سعد جـ٨ ص٢١٢ وما بعدها.

وذكرت المصادر أنه كان هناك من الإماء مارية القبطية التي أهداها مقوقس مصر إلى محمد، وريحانة بنت عمرو سيد بني قريظة، التي أراد النبي ﷺ أن يكرمها فيتزوجها، ولكن فضلت أن تظل ملك يمينه قائلة له: بل تتركني في ملكِكَ، فهو أخفُّ عليَّ وعليك.

وفي البداية لم تقم عائشة وزناً لهاتين الأمتين في بادىء الأمر، ولم تحسب لهما حساب الزوجات الأخريات، ولكنها ما إن أحست بميل الرسول ﷺ لمارية حتى فعلت ما فعلت، وغارت في نفسها كما تحدثت في السطور السابقة بما أوردناه عنها في غيرتها من مارية القبطية رضي الله عنهن جميعاً.

وتمضي الأيام سريعة كعادتها، وتوارى عام أو نحو عام، فيما كانت مارية سعيدة برفق وحنان ورحمة محمد ولينه عليه السلام، وكانت سعيدة بحظوتها ورفافها لمحمد ﷺ طوال هذه الأيام العطرة، فقد اطمأن بها المقام في كنفه ﷺ، وأسعدها أن يُضرَبَ عليها الحجاب شأن أمهات المؤمنين.

ولم تكن «مارية» تفكر في شيء بعيد عن زوجها الحبيب سوى قصة «هاجر» المصرية التي جاءت من أرض النيل، وحملت من سيدها «إبراهيم عليه السلام» فأثارت غيرة سارة كما أثارت هي غيرة عائشة رضي الله عنها، فما زالت سارة بزوجها إبراهيم حتى مضى بتلك المصرية وابنها إلى البيت العتيق، حيث تركهما هنالك، وحيدين بواد غير زرع كما وصفه رب العزة، وهو ذلك المكان عند بيت الله المحرم.

وطاف طيف حديث هاجر حين أنجدها رب العزة بماء زمزم الذي أطل على الجزيرة بالبركة والخير، وطاف طيف حديث هاجر وسيرتها بمارية وكيف أنها أصبحت تاريخاً موثقاً حينما هرولت فأصبحت هرولتها نسكاً ومسعى بين الصفا والمروة، بل وشعيرة مقدسة من شعائر الحج الأكبر في الإسلام، ولكن شتان بين الطيف المستدعى من التاريخ على أنه حقيقة وبين الأمنية في الإنجاب من محمد ﷺ كما أنجبت صاحبتها هاجر من إبراهيم،

تلك هي المسافة التي قد تقطع الطريق على تشابه اليوم بالبارحة في غُرَف «مارية» التي لم تشعر بالحمل بعد.

وفيما هي تستقبل عامها الثاني في حياة النبي ﷺ، وطيف هاجر وإسماعيل وإبراهيم، وفيما هي كذلك حتى أحست بحركة تدب في أحشائها فصمتت وبرق الأمل في عينها، وانفرجت شفتاها عن صرخةٍ فرح مكتومة، لكنها تروت وظنّت أنه الوهم الذي ساقه طيفها الغارق في حلم هاجر وابنها إسماعيل، ولكنها تأكدت من حقيقة ما تشعر وتحس به بين أحشائها، ولربما أفضت إلى أُختها «سيرين»، وذلك أمر متوقع فالعروس لا تفضي بمثل هذه الأشياء إلا للأُم إن وجدت والأخت، وسيرين معها في مكان يعد جديداً على حياتهما.

وفي نشوة حالمة استقبلت الرسول ﷺ، وأفضت إليه بالسر الجميل، فشكر الله عز وجل على ما أفاء به عليه من نعم، وتذكر ما كان يحدث لخديجة حين كانت تحمل بأولادها وبناتها، وما يظهر عليها من أعراض لربما لحظها على مارية القبطية.

وكان الرسول ﷺ في هذه الأثناء قد بلغ الستين من عمره الشريف وفقد أولاده الذكور في حياة خديجة، والبنات بعد وفاتها، فقد ماتت السيدة زينب ورقية وأم كلثوم، وما بقي من أولاده غير فاطمة رضي الله عنها، وفي سن الستين، وفي هذه اللحظة بالذات ربما تذكر عليه السلام أباه إبراهيم عليه السلام، وزوجه هاجر المصرية التي ذكرها الله عز وجل مع ابنها إسماعيل عليه السلام.

وقد كان التاريخ يتحدث عن القصص التي جاء ذكرها في القرآن الكريم عن بشارة الملائكة لإبراهيم وزوجه سارة بالولد، وكذلك بشارة زكريا عليه السلام بشارتهم بالولد، فقال في إبراهيم عليه السلام وسارة:
﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي

صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ (١).

ومن آياته في زكريا عليه السلام حينما بشره بغلام اسمه يحيى عليه السلام، وكان زكريا رجل عجوز قد بلغ من الكبر عِتياً، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ [مريم: ٨، ٩].

كانت مارية القبطية فتاة صغيرة، وكان النبي في الستين من عمره، ولم يكن عليه السلام عقيماً.

وسرعان ما سرت البشرى في أرجاء وأنحاء المدينة المنورة بأن النبي ﷺ ينتظر مولوداً له من «مارية المصرية»، ومن المؤكد أن هذا الخبر المفرح كان له وقع جميل على عامة النّاس، ووقع أليم على نساء النبي ﷺ، فَهُنَّ اللآتي يستكثرن على هذه الغريبة الطارئة على البيت النبوي أن تحمل منه عليه السلام وتنجب طفلاً ما استطاعت إحداهن أن تعطيه هذه الهدية الربانيّة الجميلة، فكلهن يتوقعن بما فيهن من فطرة الأنثى أن النبي ﷺ سيؤثرها على غيرها بهذه النعمة الربانية، وتصبح هي المقدمة عليهن وفيهن بنت أبي بكر رضي الله عنه، وبنت عمر رضي الله عنه، وفيهن أيضاً زينب بنت جحش ابنة عمته صفية رضي الله عنهما.

عندئذ خاف رسول الله ﷺ فنقلها إلى العالية بضواحي المدينة، لكي يوفر لها الراحة والاطمئنان والسلامة والاعتناء بصحتها وصحة جنينها الذي في بطنها.

وكانت في خدمتها أختها «سيرين»، تقوم على رعايتها وتسهر على راحتها، فيما كان رسول الله ﷺ يدعو لأم ولده، ويسهر على رعايتها وبلغ الجنين أجله وحانت ساعة الوضع وأمسكت مارية بالمشربة حين ضربها

---

(١) سورة الذاريات، الآيات: ٢٤ - ٣٠.

المخاض، وتعلقت بها، وهذه المشربة كانت من الخشب[1]، وكان ذلك ذات ليلة من شهر ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة.

ودعا رسول الله ﷺ قابلتها «سلمى: زوج أبي رافع» ثم انتحى ناحية من الدار، يصلي ويدعو.

ولدت «مارية المصرية» طفلاً جميلاً شديد الشبه بأبيه النبي ﷺ، وخرجت أم رافع إلى زوجها أبي رافع مهللة بالبشرى، وأخبرته بولادة مارية، وانطلق أبو رافع إلى النبي ﷺ وبشّره بأن مارية قد ولدت غلاماً جميلاً، فوهب له ﷺ عبداً[2] لهذه البشرى.

وخف رسول الله ﷺ إلى مارية فهنأها بولدها الجميل الذي أعتقها من الرق، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما ولدت أم إبراهيم ولدها، قال رسول الله ﷺ: **«أعتقها ولدها»**[3].

ولم تكن مارية الوحيدة التي أعتقها ولدها في الإسلام بل عُمِّمَ هذا التشريع السوي في حديث ابن عباس عن النبي ﷺ: **«أيما أمَة ولدت من سيّدها فإنها حرة إذا مات، إلاَّ أن يعتقها قبل موته»**[4].

وسرت أخبار مولد إبراهيم ابن النبي ﷺ في المدينة سري النار في الهشيم، أو قل: مسرى الرياح في سرعتها.

جاءت الأخبار تقول: أن قد ولد غلام لرسول الله ﷺ من مارية القبطية.

وفرح المؤمنون بابن رسول الله فرحاً شديداً، وعلم هؤلاء ـ مجتمع الأنصار ـ الذين احتضنوا مارية بينهم وعرفوا مدى حب رسول الله ﷺ لمارية وأم ولده إبراهيم، وعلموا هواه فيها، وحبه لوليدها الجميل، فتنافسوا

(١) وفاء الوفاء للسمهودي ٨٢٥/٣.

(٢) ابن سيد الناس في عيون الأثر ٣٦٧/٢.

(٣) السمط الثمين ص١٦٠٦، وطبقات ابن سعد جـ٨، ص٢١٥.

(٤) المصدر السابق.

على رعاية ابن رسول الله ﷺ وأمه مارية، وقاموا بخدمة هذا البيت على أحسن وجه[١]. وبإنجاب مارية لوليده، تذكر الرسول ﷺ زوجه خديجة، وأثنى عليها، كما أنه أثنى على مارية وعلى وليدها.

وتصدق رسول الله ﷺ على مساكين المدينة بوزن شعر الوليد فضة، ففي اليوم السابع لمولده الكريم أقام رسول الله ﷺ عقيقة فذبح كبشاً، وكان أبو هند الحجام واسمه عبدالله قد حلق شعر إبراهيم، وأبو هند هذا هو حجّام رسول الله ﷺ، وقد شهد المشاهد كلها عدا بدراً، وله مكانة عظيمة عند رسول الله حيث قال فيه: **«إنّما أبو هند امرؤ من الأنصار، فأنكحوه وأنكحوا إليه يا بني بياضة»**[٢].

وقد وجدت مارية القبطية لنفسها مكانة كبيرة في قلب رسول الله ﷺ وبين نسائه رضوان الله عليهم، وقد اختار ﷺ مرضعاً من نساء الأنصار تُسمى أم سيف، فقد جاء في الصحيحين: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«وُلِدَ لي الليلة غلامٌ فسميته باسم أبي، إبراهيم، ودفعته إلى أُمّ سيف امرأة في المدينة»**[٣].

ولم يترك النبي ﷺ أم سيف بل أكرمها، وجعل في حيازتها سبعاً من الماعز كي ترضعه إذا شح ثدياها[٤].

وقد فرح المجتمع المسلم بميلاد إبراهيم وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ولدت مارية إبراهيم، فجاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا أبا إبراهيم، فاطمأنَّ رسول الله ﷺ إلى ذلك[٥].

أما عن عائشة فقد ثارت ثائرتها يوم ولد إبراهيم من مارية القبطية،

---

(١) المصدر السابق.
(٢) الاستيعاب ٢٠٨/٤.
(٣) انظر البخاري ومسلم - والمصدر الإصابة ٩٩/٤.
(٤) الإصابة لابن حجر جـ١ والاستيعاب ٥٥/١.
(٥) أخرجه البزار انظر كشف الأستار ١٨٩/٣. انظر السمط الثمين ص١٦٥.

فقد امتازت مارية فوق أنها أم إبراهيم أنها كانت جميلة بيضاء، تغار منها الزميلة لجمالها وصباحتها فوق غيرتها منها لهذه الأمومة التي تفردت بها بين تسع نظيرات.

قالت كتب السيرة: وغارت زوجات النبي ولا كعائشة. لأن عائشة رضي الله عنها كانت صاحبة المكانة الأُولى التي ترفعت إِليها «مارية» بأمومتها، فهي أحق بالغيرة على تلك المكانة من سواها.

ولا ريب في حب عائشة للنبي ﷺ ولا في سرورها ورضاها بما يسره ويرضيه، ولكننا نطالب الطبيعة الإنسانية، والطبيعة النسوية ـ بما يرهقها إذا نحن ترقبنا منها أن تسر بما يثير غيرتها ـ وأن تحب الرجل ثم تسر بما عسى أن يصرف حبها عنه، أو ينقص سهمها فيه.

فمن الطبيعي أن تسر المرأة بسرور الرجل لأنها تحبه.

ومن الطبيعي كذلك أن تغار من السرور الذي يحبه في غيرها، لأنها تحبه[1].

وقد يفترق القلبان في لحظة من اللحظات لأنهما مقتربان أشد اقتراب.

وهذا الذي حدث عند مولد إبراهيم من مارية القبطية، وهي فتية جميلة رضية، يدنيها من قلب النبي ﷺ شتى المزايا، وأولاها هذه المزية التي تربو على كل مزية[2].

فلما رأت عائشة فرح النبي ﷺ بالوليد المرموق وأحست شغف النبي ﷺ به جاهدت نفسها أن تغالب غيرتها فلم تقوَ على هذه المغالبة، وقال لها يوماً وهو يحمل إبراهيم: «**انظري إلى شبهه!**» فلم تملك لسانها أن تقول: ما أرى شيئاً.. وربما أعجبه نمو الوليد، ولفتها إلى بياضه ولحمه

---

(١) انظر الصديقة بنت الصديق للعقاد ص٢٤، ٢٥ طبعة المكتبة العصرية ـ بيروت.
(٢) المصدر السابق.

وترعرع جسمه، فيعز عليها أن تعجب مثل عجبه، لأنه هكذا كل طفل يشرب من اللبن ما يشرب إبراهيم!

وكان غضب النبي ﷺ من غيرتها غضب تأديب وتهذيب، لا غضب تسخط وتأنيب، فكان يعذرها فيما يمسه، ولا يعذرها فيما ينبغي لها أن تتوخاه أو تتحراه، أو فيما يحسن بالمرأة التي أحبها هذا الحب أن تقلع عنه وتعرف موضع الملامة فيه.

فقلّما لامها في شيء يمس من غيرتها.

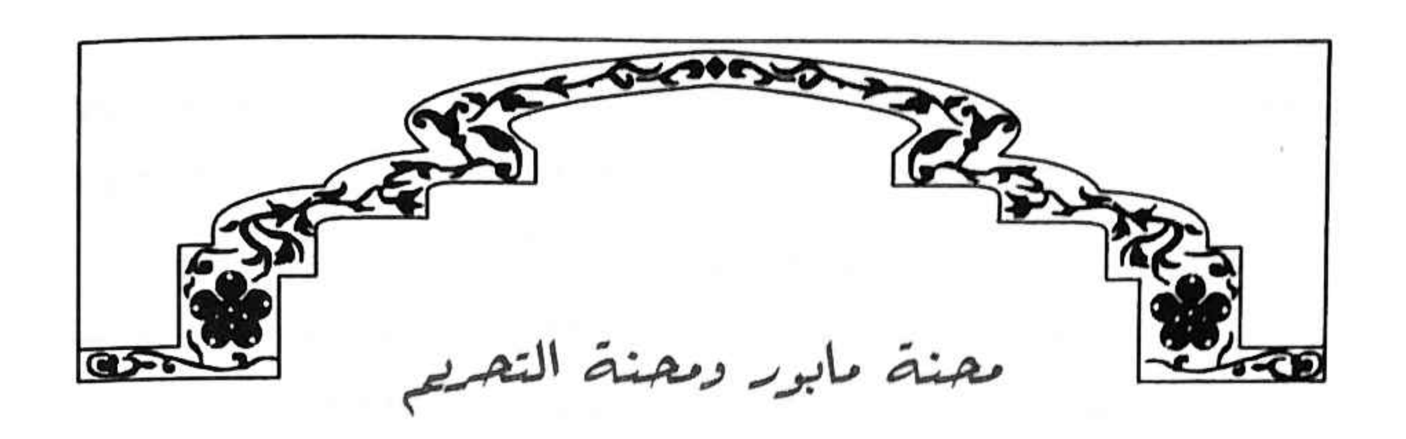
وقد خيل لمارية أنّها بلغت مناها، فهذه مارية هي التي ولدت للنبي ﷺ ولداً كما ولدت «هاجر» لإبراهيم ابنه إسماعيل، وظنت أنها نجت من غيرة النساء بعدما انتهت كل هذه الصغائر على خير لها.

وقد سعدت مارية سعادة بالغة أن وهبت بمشيئة الله للنبي ﷺ على اليأس غلاماً تقرّ به عينه، وتسري به عمن فقد من أبناء خديجة وبناتها رضوان الله عليهن أجمعين.

وعلى وجه العموم فقد تقبل الرسول ﷺ غيرة عائشة رضي الله عنها، لأنها أفصحت عما في نفسها وقالت: إن الله عز وجل رزق النبي ﷺ من مارية الولد، وحرمت هي وأمهات المؤمنين الأخريات ذلك.

وظلت مارية رضوان الله عليها تحرص كل الحرص على مرضاة الرسول ﷺ، فتعمل على إدخال السعادة إلى نفسه ومجلسه معها، وإحاطته بالبهجة من خلال علمها بحبه لابنه إبراهيم، فكانت حريصة على وجود إبراهيم معها كلما جاء عليه السلام لزيارتها في مشربتها الشهيرة. ولم تعد مارية القبطية رضي الله عنها جارية تنطبق عليها أحكام الجواري، فقد حررها وأعتقها ولدها، وذاقت حلاوة الإسلام وتشريعه.





١ ـ محنة مابور

ظنت «مارية» القبطية كما ذكرنا أنها قد نجت من غيرة النساء كما ذكرنا ولكنها لم تنج من غيرة نساء النبي ﷺ .

ورغم ما نالته مارية من غيرة نساء النبي ﷺ كما ذكرنا من قبل فيما روته عائشة في الإصابة عن طريق عَمرة بنت عبدالرحمن، عن عائشة قالت: ما غرت على امرأة إلا دون ما غرت على مارية، وذلك أنها كانت جميلة جعدة فأعجب بها رسول الله ﷺ ، وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيت لحارثة بن النعمان الأنصاري، فكانت جارتنا، فكان عامة الليل والنهار عندها.. فجزعتُ، فحولها إلى العالية، وكان يختلف إليها هناك فكان ذلك أشد علينا[١] .

وزادت في رواية: ثم رزقها الله الولد وحُرِمناه منه.

على أن غيرة النساء من أمهات المؤمنين لم تنل من مارية، ما نالته شائعة سوءٍ أرجف بها أناس من أهل المدينة، واتهموها إفكاً وبهتاناً كما اتهموا عائشة رضي الله عنها من قبل، وكأن بيت النبي ﷺ كان هدفاً للمنافقين والمرجفين.

---

(١) الإصابة جـ١.

وقد كانت مارية رضي الله عنها، طيبة القلب، طاهرة النفس، نقية السرية بينها وبين الإسلام خليط العفة والطهارة، وقد غرس الله عز وجل في قلبها التقوى، والإيمان، فأصبحت آيات القرآن تجري على لسانها رطبة خاشعة.

لذلك كانت مكرمة عند رسول الله ﷺ، عزيزة على نفسه، وكان بها عليه السلام رؤوفاً رحيماً تفيض رحمته عليها وعلى ابنها إبراهيم مما جعل بعض أصحاب النفوس الضعيفة والقلوب المريضة التي حملت شرور الحسد وأمارات الشر يتكلمون عن مارية القبطية ويرجفون ويشيعون ما يؤذي الأَمَة الطاهرة في نفسها وطهارتها ودينها.

وكما تحدث المنافقون والمرجفون بالإفك عن عائشة رضي الله عنها، وقالوا في عائشة باطلاً حينما خرجت مع رسول الله لغزوة بني المصطلق، فقد أقرع بين نسائه عليه السلام على عادته كلما خرج في سفر أو غزوة فخرج سهم عائشة[1].

وانطلقت عائشة في صحبة النبي ﷺ إلى الجهاد، وكان أن كتب الله النصر لرسول الله، فعاد إلى المدينة من غزوته منتصراً، وسار ركبه الظافر يغذ السير إلى المدينة، وفي الطريق - قريباً من المدينة - أناخ العسكر فباتوا بعض الليل، ثم أُذّن فيهم بالرحيل، فارتحلوا، وما يخطر ببال أحدهم أن السيدة عائشة قد تخلفت حيث أناخوا.

وبلغ الركب المدينة في مطلع الصبح، واقتيد بعير أم المؤمنين إلى مناخه أمام بيتها وأنزل الهودج في رفق، فإذا أم المؤمنين عائشة ليست في هودجها.

ولبث رسول الله ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم ساعة من نهار،

---

(١) تاريخ الطبري ٦٧/٣، والسيرة ٣١٠/٣، والطبقات ٤٦١٢ ط ليدن.

حائرين قلقين، وانطلق بعضهم في الطريق يجسون عن أم المؤمنين الغائبة. فبدت لهم من بعيد، تركب بعيراً، يقوده رجل عرفوه وهو «صفوان بن المعطل السلمي» واطمأن الرسول ﷺ أن زوجه عائشة بخير، وسمع منها سبب تخلفها، فما أنكر منه شيئاً.. فقد قالت: خرجت لبعض حاجتي، قبل أن يؤذَّن في الناس بالرحيل، وفي عنقي عقد لي فيه جزع «ظفار» ـ مدينة باليمن ـ فلما فرغت انسلَّ من عنقي ولا أدري، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ النّاس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته، وجاء القوم ـ وأنا بعيدة ـ فرحلوا بعيري، وأخذوا الهودج وهم يظنون أنّي فيه ـ إذ كنت خفيفة لم يثقلني اللحم ـ فاحتملوا الهودج فشدوه على البعير ولم يشكُّوا أني فيه، ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به؟[1]؟.

فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس.. فتلففت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو قد افتُقدتُ لرُجع إليَّ، فوالله إني لمضطجعة، إذ مرَّ بي صفوان بن المعطل السلمي وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس، فرأى سوادي فأقبل حتى وقف عليَّ[2] ـ فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله ﷺ! ما خلَّفك يرحمك الله؟!

فما كلّمته.. ثم قرّب البعير فقال: اركبي. واستأخر عني، فركبت، وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب النّاس، فوالله ما أدركنا الناس وما افتُقِدتُ، حتى أصبحت ونزل النّاس، وطلع الرجل يقود بي.

وعادت عائشة إلى فراشها واستراحت في بيتها مطمئنة راضية، لكن المدينة اهتزت كلها لحديث صدر من اليهود والمنافقين وعلى رأسهم

---

(١) البخاري ومسلم وكتب السنن، والسيرة، وطبقات ابن سعد وعيون الأثر، رواية ابن شهاب الزهري.

(٢) كان صفوان يرى عائشة قبل أن يضرب عليها الحجاب.

«عبدالله بن أُبي بن سلول» الذي ما برىء من حقده على الرسول وما فتىء يكيد له[1].

تلقفوا الحادثة فنسجوا حولها ما شاؤوا من مفتريات، ليشفوا وترهم وأحقادهم.

وانتقل حديث الإفك من دار «أبي بن سلول» ومن لفّ لفّهُ، إلى أحياء المدينة، وردده ناسٌ من المسلمين، فيهم «حسان بن ثابت الأنصاري» شاعر النبي ﷺ، و«مسطح بن أثاثة» قريب أبي بكر وموضع بره، و «حمنة بنت جحش» ابنة عمة النبي ﷺ وأخت زوجته زينب!

عَلِمَ رسول الله ﷺ وبلغ الحديث أُذنيه، كما بلغ مسامع أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأم رومان فحزنا حزناً شديداً، لكن أحداً منهم لم يستطع أن يواجه عائشة بالشائعة الرهيبة، إذ كانت منذ عادت من غزوة بني المصطلق، معتلة تشتكي من المرض شكوى شديدة، فظلت لا تدري ما يقول الناس عنها ولا يبلغها من ذلك شيء، إلا أنَّها أنكرت من رسول الله جفوة ظاهرة، وقد عوّدها إذا اشتكت من قبل أن يلطف بها ويغمرها بحنانه.

ولكن عائشة لاحظت في رسول الله ﷺ بروداً، فكان كلما دخل عليها وعندها أمها أم رومان تمرضها فيسأل: «**كيف تيكم؟**».

كل هذا ما كان يقوله وعائشة رضي الله عنها تتجلد ولا تسأله عما به من هموم، ولكنها في النهاية لم تجد مفرّاً من هذا الشيء الغامض في مشاعر الرسول ﷺ نحوها، إلاَّ أن تطلب منه طلباً، تقول عائشة عن هذا الطلب: حتى وَجَدْت في نفسي فقلت، حين رأيت ما رأيت من جفائه لي: يا رسول الله، لو أذنت لي فانتقلت إلى بيت أُمي فمرضتني؟

قال عليه السلام: «**لا عليك**».

---

(١) د .عائشة عبدالرحمن في تراجم سيدات بيت النبوة ـ عائشة ص٢٨٤، ٢٨٥ ط دار الكتاب العربي.

وتكمل عائشة حديثها فتقول: فانتقلت إلى أُمي ولا علم لي بشيء مما كان، حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة.. فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي «أُم مسطح» بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم، خالة أبي بكر، فوالله إنها لتمشي معي إذ عثرت في مرطها فقال: تعس مسطح!

قلت: بئس لعمر الله ما قلتِ لرجل من المهاجرين قد شهد بدراً!

فقالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟

قلت: وما الخبر.

قالت: نعم والله، لقد كان.

فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي، ورجعت فما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي، وقلت لأُمي: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدّثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً؟

قالت: أي بنية! خفِّفي عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلاَّ كثَّرن وكثر الناس عليها!

لكن عائشة باتت مسهدة لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل عيناها بنوم.

أما الرسول ﷺ فكان يعاني معاناة عائشة، يحس أن زوجه ضحية اتهام باطل ظالم فادح، وكانت أذناه تصغيان إلى شائعات المرجفين، فقام في الناس خطيباً يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«يا أيها النّاس، ما بال النّاس يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق؟ والله ما علمت منهم إلاَّ خيراً، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي»[(١)].

وحزن المسلمون حزناً شديداً تأثراً بمحنة نبيهم صلوات الله وسلامه

(١) انظر تاريخ الطبري ٦٧/٣.

عليه، وثاروا لشرف زوجةٍ كريمةٍ، وعقيلةٍ حرّةٍ، فاختلطت أصواتهم، وتماسك الأوس والخزرج متصايحين مطالبين بأعناق أصحاب الإفك من هؤلاء وأولئك حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر[1].

وتستكمل عائشة وصف محنتها فتقول: ونزل رسول الله ﷺ فدخل عليّ، فدعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد استشارهما.

فأما أُسامة فأثنى عليَّ خيراً وقال: يا رسول الله، أهلك، ولا نعلم منها إلا خيراً، وهذا الكذب والباطل..

وأمّا علي فإنه قال: يا رسول الله، إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية فإنها ستصدقك.

قالت عائشة: فدعا رسول الله ﷺ جاريتي «بريرة» ليسألها، فقام إليها «علي بن أبي طالب» فضربها ضرباً وهو يقول: أصدقي رسول الله ﷺ.

فتقول بريرة: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً إلاّ أني كنت أعجن عجيني فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتي الشاة فتأكله.

ويخرج رسول الله حزيناً، ثم يعود بعد حين إلى بيت أبي بكر، فإذا عائشة هناك مقرحة الأجفان تبكي بكاءاً مُرّاً، فتبكي لها زائرة عندها من الأنصار، وأبواها ينظران إليها في صمت وأسى.

ولأول مرة منذ شاع حديث الإفك، يجلس فيها رسول الله ﷺ ويحدث عائشة، فيقول: «**يا عائشة إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقي الله، وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول النّاس فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة من عباده**».

فما إن تحدث الرسول ﷺ بهذا الحديث، وقال لها مقولته هذه حتّى

---

(١) المصدر السابق.

جف دمعها وهرب الدم من عروقها لهول ما سمعت، وحاولت أن تتكلم فعصى لسانها، وحينذاك تلفتت إلى أبويها، منتظرة أن يجيبا عنها رسول الله ﷺ.

ولما سكتا لا يحيران جواباً، صاحت فيهما بملء حزنها وعذابها وما فيها من جرح غائر في نفسها، فقالت: ألا تجيبان؟!

فقالا معاً في صوت تخنقه العبرات: والله ما ندري بما نجيب!

وانهمكت عائشة في بكاءٍ مرير، ثم استجمعت قواها الخائرة واتجهت إلى الزوج الحبيب الرسول ﷺ وقالت في إصرار وتأكيد: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أني بريئة، لأقولَنَّ ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونني.. ولكني سأقول كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ثم سكتت، ولم تتحدث بعد[1].

لم يخرج الرسول ﷺ من دار أبي بكر رضي الله عنه بعد هذا الحوار، بل ظل في مجلسه عندها، حتى تغشاه ما كان يتغشاه من نزول الوحي، فسُجي بثوبه، ووُضِعَتْ له وسادة من أدم تحت رأسه.

وأمسك أبو بكر رضي الله عنه وزوجه أم رومان أنفاسهما حتى ظنت عائشة لتخرجن نفساهما، فرقاً وقلقاً، أما عائشة فقد سكنت وهدأت لأنها تعرف براءتها، ولن يأتيها ظلم من السماء أبداً لإيمانها الشديد.

ثم سُرِّي عن رسول الله ﷺ، فجلس يمسح العرق عن جبينه ويقول: «**أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك!**».

استراحت نفس أبي بكر رضي الله عنه وتنفس الصعداء، فقد انزاح عن صدره كابوس كئيب جثم على صدره، وهللت أم رومان فرحة ثم أشارت إلى عائشة أن تقوم إلى زوجها، فقالت عائشة في عزٍّ وإباء: والله لا أقوم

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٦٧، السمط الثمين ٦٧.

إليه، فإني لا أحمد إلاّ الله عز وجل، هو الذي أنزل براءتي.

ثم التفتت عائشة إلى أبيها، وهو يدنو منها فيقبل رأسها وعيناه نديتان بالدمع فرحاً وشكراً لله، فقالت عائشة: يا أبتاه هلا كنت عذرتني!

فأجاب: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت بما لا أعلم؟

وخرج النبي ﷺ إلى أصحابه يزف إليهم البشارة من الله وتلا على الناس ما نزل من براءة عائشة في سورة النور:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١١ - ١٩].

وقد أمر الله تعالى وعز وجل بجلد الذين تقوّلوا بالفاحشة فقال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

هذه محنة إفك عائشة وما قيل عنها من بهتان.

أما مارية فقد نالت ما هو أشد سوءاً من غيرة نساء النبي ﷺ، فقد أرجف المرجفون في المدينة، واتهموها إفكاً وبهتاناً كما اتهموا عائشة من قبل، اتهموها بخادمها العبد الخصي «مابور» الذي جاء معها من مصر في هدايا المقوقس، وكان يأوي إليها لخدمتها ويأتيها بالحطب والماء، فقال ناس، لا يؤمنون بالله حق الإيمان، ولا يتقون الله في ألسنتهم فيلقون

الحديث على عواهنه، لا يدركون عاقبة ولا يضمرون إلاّ سوءاً، قالوا عن مابور: علج يدخل على علجة.

ولكن الله عز وجل لن ولم يتخل عن رسول الله ﷺ، ولن يتخل عن مارية سريرة رسول الله ﷺ وأم ابنه إبراهيم في محنتها، بل أتاح لها دليلاً قاطعاً على براءتها من الإفك.

جاء ذلك في حديث أنس رضي الله عنه: أن رجلاً كان يتهم بأُم ولد رسول الله ﷺ، فقال لعلي: اذهب فاضرب عنقه.

فإذا هو في ركيٍّ - بئر - يتبرد فيها، فقال له علي: اخرج، فناوله يده، فأخرجه - عارياً -، فإذا هو مجبوب، فكف عنه ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّه لمجبوب..[1].

وفي رواية أخرى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانت أم إبراهيم سريّة النبي في مشربتها، وكان قبطي يأوي إليها، ويأتيها بالماء والحطب، فقال الناس: عِلْجٌ يدخل على عِلْجة.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فوجده على نخلة، ونظر عليّ إلى النخلة فرأى القبطي مجبوباً، فرجع دون أن يقتله إلى النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله، أرأيت إذا أمرت أحدنا بالأمر، ثم رأى في غير ذلك أيراجعك؟

قال ﷺ: **«نعم»**.

وأخبر علي رضي الله عنه رسول الله ﷺ، فقال رسول الله: **«أصبت، إن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب»**، ثم قال: **«الحمد لله الذي يصرف عنا أهل البيت»**[2].

❋ ❋ ❋

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن طريق زهير بن حرب، في باب براءة حرم النبي ﷺ من الريبة ٢١٣٩/٤ برقم ٢٧٧١، وأخرجه ابن عبدالبر في ترجمة مارية في الاستيعاب بسنده إلى زهير بن حرب.

(٢) مجمع الزوائد ٤٢٩/٤، الاستيعاب ٣٩٧/٤، ٣٩٨، وأحمد ٢٨١/٣.

٢ ـ محنة التحريم

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾ (١).

كانت غيرة نساء النبي ﷺ تفعل الأفاعيل بمارية القبطية وولدها، وعلى الرغم من حرص النبي ﷺ على تجنيبهن هذه الغيرة أتت حادثةٌ كانت أن حرَّم الرسول ﷺ مارية على نفسه، ثم كانت هي وغيرها سبباً في أنْ غضب الرسول على زوجاته جميعاً، فهجرهُنَّ شهراً.

وفي تفسير الآيات الكريمة التي صدرنا بها قصَّة هذه المحنة التي امتحنت بها مارية هناك روايتان: إحداهما تتصل بمارية اتصالاً مباشراً، وعلى وجه العموم فإن هذه القصة وغيرها من قصص غيرة نساء النبي ﷺ كانت سبباً في غضب النبي ﷺ على زوجاته، وإحداث موقف خطير في البيت النبوي جعله عليه السلام يهجرهن شهراً كاملاً، بل تواترت الأخبار أن النبي ﷺ سوف يطلق أو طلّق نسائه جميعاً.

والطرف الآخر في هذا المشهد المثير هو حفصة بنت عمر رضي الله عنها، فقد جاءت حفصة وأعرس بها الرسول ﷺ ولم يكن في البيت النبوي سوى اثنتان هما: سَودة، وعائشة.

---

(١) سورة التحريم، الآيات: ١ ـ ٥.

أما سودة، فرحبت بها راضية، وأما عائشة فغاظها أن يأتيها زوجها بضرة، وما فعل ذلك قط مع خديجة.

وضايقها ألاّ تجد في «حفصة» مغمزاً، فهي مَنْ هي، شباباً وتقى، وعزة نسب...

لقد كانت عائشة تزهو على سودة وخديجة من قبلها، بشبابها اليافع، وأبيها أبي بكر الصاحب الأول أحد العشرة المبشرين بالجنة، وحظ حفصة من هذين، ليس بالذي ينكر أو يجحد.

وعائشة كانت تضيق بيوم سودة التي ما اكترثت لها عائشة كثيراً، فكيف يكون موقفها حين يبيت زوجها عند حفصة؟

واختارت عائشة ماذا تفعل، إذ كانت تقدر مغزى زواج كهذا يرضي عمر ويباركه الإسلام والمسلمون[١].

انتظرت عائشة وسكتت على مضض وغيرة من زواج النَّبي ﷺ من حفصة، إلى أن وَفَدَت على بيت النبي ﷺ أزواجاً جديدات. فتناست عائشة ما كانت تجد من حفصة، وحاولت أن ترى فيها أقرب ضرائرها إليها، وأجدرهن بأن تقف معها في وجه الخطر المشترك.

وأدركت حفصة، أنها إذا جاز لها أن تنكر ضرة لها، فليس من الحق ولا من العدل أن تكون هذه الضرة هي عائشة، وقد سبقتها إلى بيت النبي ﷺ، وإلى قلبه.

وربما جرح شعورها أن تعرف حب الرسول لعائشة، لكنها حين تتابعت الضرائر وقفت دون تردد، إلى جانب بنت أبي بكر.

وكان عمر رضي الله عنه يلاحظ ويرقب موقفها في قلق مبهم، فيريبه تقارب حفصَة من عائشة، والذي يراه غير طبيعي بين ابنته وبين بنت أبي بكر، فلما استبان له ما وراء تقاربهما من ائتمار بالزوجات الأُخريات، كره

---

(١) نساء النبي، د. بنت الشاطىء.

لحفصة أن تساير صاحبتها وليس لها مثل حظها من حب الرسول ﷺ ولا مكانتها في قلبه، فأقبل على ابنته يحذرها أن تتشبه بالصبية المدللة، ويردها عن جموحها بمثل قوله: أين أنت من عائشة، وأين أبوك من أبيها؟

وسمع يوماً من زوجته أن ابنته تراجع الرسول ﷺ حتى يظل يومه غضبان، فمضى من فوره حتى دخل عليها فسألها إن كان ما سمعه حقاً؟ أجابت بأنه حق؛ فصاح يزجرها: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله، يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها وحُب رسول الله ﷺ إياها، والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك ولولا أنا لطلقك!

ويترك عمر رضي الله عنه حفصة وفي حسابه أنه قد نصحها فسمعت النصح، وردها إلى ما يبغي لها من خضوع ومجاملة، ولكن حفصة كانت معتدّة بذاتها مدلّة بشخصيتها، لا ترى في منزلة عائشة أو سواها ما يجور على مكانتها، أو ما يلزمها بأن تتكلف ما ليس في طبعها، بل تركت نفسها على سجيتها، فلم تكن تتحرج من معارضة زوجها عليه الصلاة والسّلام، حين يبدو لها من الأمر ما لا يرضيها، وربما سمعت منه حديثاً فردت عليه غير متهيبة إذا بدا لها وجه آخر فيما يقول.

فقد روى ابن سعد في حديث الحديبية وبيعة الرضوان، أن الرسول ﷺ ذكر عند حفصة أصحابه الذين بايعوه تحت شجرة الحديبية فقال: «**لا يدخل النار إن شاء الله أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها**».

قالت حفصة: بلى يا رسول الله.

فانتهرها فتلت الآية: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾.

فقال النبي ﷺ، قال الله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[1].

ولعل إباء حفصة وعزة نفسها هو الذي فرض عليها أن تداري غيرتها

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٧١، ٧٢، وانظر طبقات ابن سعد جـ٢ ص٧٣.

من عائشة، وتحاول أن تلتمس في صحبة هذه الشابة المرحة، ومشاركتها في معاركها الصغيرة، ومعارك غيرتها الذكية، ما يشغلها عن ذاك الهم المطوي في داخل الأنثى وفطرتها.

وظل الرسول ﷺ لطيفاً رقيقاً باسماً معهما، يرخي لهما ما استطاع ويشفع لهما عنده أنوثتهما الضعيفة والتي تستثير رحمته، وإنهما بنتان لأعز صاحبين له ﷺ وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

وظل الأمر هكذا إلى أن خلا النبي ﷺ يوماً «بمارية القبطية» في بيت «حفصة» التي كانت قد استأذنت لزيارة أبيها عمر بن الخطاب، في هذا اليوم جاءت مارية إلى الرسول ﷺ في أمر لها، فأدخلها مسكن زوجته حفصة التي كانت وقتئذ في زيارة لأبيها عمر بن الخطاب كما ذكرنا، وعادت حفصة من زيارة أبيها، فوجدت ستر مسكنها مسدلاً، وعلمت أن مارية مع الرسول ﷺ بداخله، فتملكتها غيرة شديدةٌ، وعصف بها غضب شديد، وكان كلما استطال الوقت ومارية بداخل مسكنها زادت غيرتها، واشتد غضبها حتى إذا خرجت مارية وتمثل لها أبوها وهو يقول: والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ولولاي لطلقك!

فأقبلت حفصة على الرسول ﷺ ثائرة النفس تقول: لقد رأيت من كان عندك! والله لقد سببتني، وما كنت لتصنعها لولا هواني عليك..

ثم استعبرت باكية، ووقعت كلماتها من الرسول ﷺ موقعاً أليماً، فما كان ليهين عمر، وقد تزوجها تكريماً لصاحبه.

ورأى النبي ﷺ مبلغ ما عليه زوجته من غيظ وقهر، وشعور بالإهانة، فأقبل عليها يترضاها مترفقاً بها بأن أسر إليها أن «مارية» حرام عليه، ثم أوصاها أن لا تحدّث أحداً بما كان، ولتعتبره كأن لم يكن، حتى أقسم لها أن مارية عليه حرام إن هي ضربت صفحاً عما حدث ولم تذكر لأحدٍ عنه.

ورضيت حفصة، بما أباح لها به رسول الله ﷺ على أنه سرّ بينها وبينه، وتعهدت ألاّ تبوح به لأحد مهما كان.

وسعدت حفصة في ليلتها هذه بقرب الرسول ﷺ وعطفه ورحمته وبره بها حتى إذا مضى عنها ولمحت عائشة قريبة منها، لم تستطع أن تكتم عنها ما تطوي من سر، ولم تستطع أن تكتم الخبر السار عن صديقتها وضرتها عائشة فنبأت به صاحبتها وأسرت إليها أَنْ: أَبشري! فإِنَّ رسولَ الله حَرَّمَ عليه وليدَتَهُ... تعني مارية القبطية.

وانتهزت عائشة الفرصة السانحة، لتنال من غريمتها «الأمة القبطية»، ولم تقدّر حفصة وهي تذيع السرَّ لعائشة، عواقب هذا الإفشاء، فهذا الحديث عن تحريمه مارية، وإفشاء حفصة إلى عائشة وتظاهرهما على النبي ﷺ هو المعروف في سبب نزول سورة التحريم كلها. والتي صدرنا بها هذه الصفحات.

ولم يقف الأمر عند عائشة وحفصة، بل سرعان ما ذاع السر والخبر بين زوجات النبي ﷺ، ولعلهن جميعاً قد لاحظن وأحسَسْنَ أن مارية القبطية أصبحت في مكانة رفيعة عند النبي ﷺ فأيدن عائشة وحفصة، وتابعن تظاهرهن على النبي ﷺ على إثر ما حدث في بيت حفصة بين النبي ﷺ ومارية.

شعر الرسول ﷺ بل نقول أنه عرف أنَّ حفصة لم تستطع كتمان السر، وأنها أنبأت عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنه بأمر مارية القبطية.

وقد أخبر النبي ﷺ حفصة ببعض ما أسرته لعائشة فتعجبت حفصة وقالت: من أنبأك هذا؟

قال ﷺ: **«نبأني العليم الخبير»**.

أما عن نساء النبي ﷺ فإنهن كما علمن بخبر حفصة ومارية، رحن يخضن في الحديث، واشتعلت الغيرة في نفوسهن، وكان لا بد أن يرد الرسول ﷺ على هذا التظاهر من نسائه بموقف شديد حازم، حتى لا يتشعب الأمر ويصبح عُرْفاً وتشريعاً خاطئاً للبيت المسلم، فأقسم ﷺ ألا يجتمع بنسائه شهراً كاملاً.

وصَعَدَ النبي ﷺ إلى غرفة له يرقى إليها بدرج، وينحدر منها عليه السلام، وغلام يقال له: «رباح» قد وقف على باب الغرفة النبوية. ومكث النبي ﷺ في غرفته لا يكلم أحداً في شأن نسائه، ولا يجرؤ أحد من أصحابه أن يفاتحه في حديثهن، حتى سرى الهمس بين المسلمين، أن النبي مطلق أزواجه، فيقال أن النبي ﷺ طلق «حفصة» فعلاً بعد الذي كان من إفشائها ما وعدت أن تكتمه[1]. وهو خبر يرويه ابن حجر من طرق شتى اتفقت على أن الرسول طلق حفصة تطليقة واحدة، ثم ارتجعها وقيل: إن هذا الارتجاع كان رحمة بعمر الذي حثا التراب على رأسه وقال: ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها.

فنزل جبريل عليه السلام من الغد إلى النبي ﷺ فقال: «**إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة بعمر**».

وفي رواية أخرى، أن جبريل نزل على النبي ﷺ فقال له: «**أرجع حفصة فإنها صوّامة قوّامة، وإنها زوجتك في الجنة**»[2].

والراجح[3] أن هذا الطلاق الرجعي قد كان قبل أن تستفحل ثورة «عائشة» ومن معها من نساء النبي ﷺ، فلما اعتزلهن الرسول، كان من الطبيعي أن يكون إحساس «حفصة» بالندم أوفر من إحساس أمهات المؤمنين الأخريات، وشعورها بالخطأ أفدح من شعورهن، فما كان لها ـ وهي النقية العابدة بنت عمر بن الخطاب ـ أن تذيع سراً ائتمنها عليه الرسول ﷺ، وأن تخلف ما وعدت به من كتمان، ولا كان لها أن تلقى ترضيته لها، وإكرامه إياها، بمثل ذاك الجحود والنكران.

وظلَّ النبي ﷺ بعيداً عن نسائه شهراً كاملاً، لا يُكَلِّمُ أحداً في شأن

---

(١) رواه أبو داود في الطلاق ٢٢٨٣ باب في المراجعة، وابن ماجه في الطلاق أيضاً ٢٠١٦ والدارمي بسنده.

(٢) انظر الإصابة لابن حجر ٨/٥٢، الاستيعاب ٤/١٨١٢.

(٣) هذا الترجيح هو رأي الدكتورة عائشة عبدالرحمن في كتابها نساء النبي.

نسائه، ولا يجرؤ أحد من أصحابه أن يفاتحه في حديثهن.

واضطربت زوجات النبي ﷺ وندمن على ما فعلن وعلى وجه الخصوص حفصة.

وفي اليوم الذي أوفى رسول الله ﷺ الشهر الذي نذر فيه هجر نسائه، أقام المسلمون بالمسجد مطرقين، ينكتون الحصى ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، ويأسون لذلك أسىً يبدو على وجوههم، قام عمر بن الخطاب من بينهم، ودخل على ابنته حفصة وهي تبكي، فقال: أطلقكن رسول الله ﷺ ؟!

فقالت: لا أدري، هو ذا معتزلاً في المشربة.

فقام عمر رضي الله عنه وقصد إلى مقام النبي ﷺ في غرفته، ونادى غلامه رباحاً كيما يستأذن على رسول الله ﷺ . انتظر عمر رضي الله عنه، ونظر إلى رباح يبغي الجواب، فإذا رباح صامتٌ لا يتكلم ولا يقول شيئاً، إشارة إلى أن رسول الله ﷺ لم يأذن، فكرر عمر النداء، ولكن رباحاً لم يجب مرّةً أُخرى، وألح عمر بالإذن مراراً وتكراراً، ولم يأت رباح بجواب.

عندئذ أحس عمر رضي الله عنه أنَّ الأمر جد خطير، فرفع صوته قائلاً: يا رباح استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ ، فإني أظُنّ أن رسول الله ﷺ ظَنَّ أني جئت من أجل حفصة، والله لئن أمرني رسول الله بضرب عنقها، لأضربنَّ عنقها.

وبلغ صوته سَمْع رسول الله ﷺ ، وأذن له عليه السلام، فدخل عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ ، ثم أجال عمر بصرَهُ فيما حوله، فرأى حصيراً قد أَثَّر في جنب النبي ﷺ ، ولم يجد في الغرفة سوى قبضة من شعير، وجلدٌ معلق، فتأثر مما رأى ومما وجد من حال رسول الله، وبكى بكاءً حاراً فقال ﷺ : «**ما يبكيك يا ابن الخطاب؟**».

فأشار عمر رضي الله عنه إلى الحصير الذي كان الرسول مضطجعاً عليه وقد أثّر في جنبه الشريف، وإلى قبضة من شعير ومثلها من قرظٍ كانتا

كل ما بالخزانة من طعام، وقال عمر: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر، فيما هم فيه من النعيم وأنت رسول الله. . . !

ثم قال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، ما يشق عليك من أمر النساء؟ إن كنت طلَّقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك. .

فابتسم له رسول الله، وردّه إلى طمأنينة الإسلام، وقال: **«أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»**.

ثم علّمه حقيقة الإعراض عن الدُّنيا، وأن الآخرة خيرٌ وأبقىٰ فقال: **« . . أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم قد عجّلتْ لهم طيّباتهم في الحياة الدُّنيا»**[1].

فقال عمر: أستغفر الله يا رسول الله.

ثم واصل عمر رضي الله عنه حديثه مع رسول الله ﷺ حتى زال عنه الغضب، وارتسمت البسمة على وجهه الكريم، ولما رأى عمر رضي الله عنه سرور نفس النبي ﷺ وطمأنينته، ذكر له أمر المسلمين بالمسجد وما يذكرون من طلاقه نسائه، فذكر النبي ﷺ أنه لم يطلقهن، ولم يحدث شيءٌ من هذا، عندئذ فرح عمر وابتسم ثم انطلق إلى جموع المسلمين الواجمين في المسجد بعد أن استأذن رسول الله ونزل من المشربة وبشر المسلمين قائلاً بأعلى صوته: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه، ففرح المؤمنون برسولهم، ونزل قول الله تعالى: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم: ١ ـ ٣].

---

(١) من حديث ابن عباس في الصحيحين، انظر صحيح البخاري ١٩٦/٦، وتفسير القرطبي ١٩١/١٨.

وتوجه القرآن بالحديث المباشر لحفصة وعائشة رضي الله عنهما لأنهما هما اللتان أفشتا السر وأذاعتا حديث رسول الله ﷺ، توجه القرآن الكريم إليهما مباشرة فقال عز وجل: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾ [التحريم: ٤، ٥].

وقال الفقهاء أنه عند ذلك كفّر الرسول ﷺ عن يمينه، وتاب نساؤه إلى رشادهن.

ولقد اختلف الفقهاء في أنّ النبي ﷺ كفّر عن يمينه؟؟ فمنهم من قال غير ذلك، مثل الحسن البصري الذي قال: إنّ النبي ﷺ لم يكفّر عن يمينه، لأنه كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، بنص القرآن الكريم: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وإنما هو تعليم للمؤمنين.

وقال بعضهم: في هذا نظر، لأن الأحكام الشرعية عامة، ولم يقم دليل على التخصيص.

لذا قال مقاتل رحمه الله: إن النبي ﷺ أعتق رقبة في تحريم مارية.

أمّا الإمام مالك رضي الله عنه فقد نُقِلَ عنه في مدونته الكبرى أنّه أعطى الكفارة.

وقد عاد الرسول ﷺ إلى نسائه عابدات تائبات إلى الله عز وجل، وقد وصف الله عز وجل أوصاف النساء اللآتي يبدله الله بدلاً عن زوجاته الحاليات في غاية الكمال، فقال عز وجل: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾ [التحريم: ٥] فهن مسلمات لأمر الله تعالى، وأمر رسوله ﷺ، مصدقات بما أُمرن به ونهين عنه، مطيعات، تائبات من ذنوبهن، كثيرات العبادة لله تعالى، أو مهاجرات ثيبات وأبكاراً.

وقد قال أبو بكر الرازي رحمه الله، فإذا قيل: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التحريم: ٥]، فأثبت الخيرية لهن باتصافهن بهذه الصفات، وإنما تثبت لهن الخيرية بهذه الصفات، لو لم تكن تلك الصفات ثابتة في نساء النبي ﷺ، وهي ثابتة فيهن.

قلنا (والكلام للرازي): المراد به، خيراً منكن في حفظ قلبه ومتابعة رضاه مع اتصافهن بهذه الصفات المشتركة بينكن وبينهن.

فإنْ قيل: كيف أخليتِ الصِّفاتُ كلّها عن الواو، وأثبتت و «الأبكار»؟ قلنا (والقول للرازي): لأنهن صفتان متنافيتان لا تجتمعان فيهن اجتماع سائر الصفات، فلم يكن بد من الواو، ومن جعلها واو الثمانية فقد خلط بينهما، لأن واو الثمانية لا يفسد الكلام بحذفها بخلاف هذه[1].

نعود إلى رسول الله ﷺ فقد عاد عليه السلام إلى زوجاته، ولا ريب أن نساء النبي أنفسهن كانت بينهن للنبأ رجة أشد عليهن من رجة إشاعة طلاقهن، وكان لهذه العقوبة التي لم يعاقبهن بمثلها وهي بعده عنهن شهراً كاملاً، كان لها أثر في قلوبهن أبلغ من هذا الأثر.

فلما انقضت الأيام التي اعتزلهن بها بدأ بالسيدة عائشة، فدخل عليها وهي أشوق ما تكون إلى لقائه، فماذا سمع منها أول ما سمع؟ قالت: يا رسول الله أقسمت أن لن تدخل علينا شهراً، وقد دخلت وقد مضى تسعة وعشرون يوماً.

فقال عليه السلام: «**إن الشهر تسعة وعشرون**».

أتراها كانت تنتظر استيفاء الثلاثين ولا تقنع بالهجر تسعة وعشرين يوماً؟ كلا. فقد عَدَّتهن يوماً يوماً، وعلمت ساعة دخول النبي ﷺ كم مضى وكم بقي على ظنّها أيام العقوبة، ولكنها الأنثى الطيبة، ولا بد للأنثى الطاهرة في هذا الموقف من مكاتمة، ولا بد لها من دلال.

---

(١) انظر تفسير الرازي ص٥١٩.

خلاصة القول: إنَّ المحنة الثانية وهي محنة التحريم والظهار لم تكن محنة مارية وحدها، فقد شملت نساء النبي ﷺ جميعاً، ووضعت حَدّاً لأنوثتهن الخالدة بما فيها من غيرة قد تأتي على الأخضر واليابس دون أن تدري هذه أو تلك.

ولكن مارية رضي الله عنها ازدادت يقيناً بالله، وراحت ترقب نساء النبي ﷺ وما يدور في بيته، غير عابئة بحديث الأنثى وغيرتها، وكل جل اهتمامها بوليدها إبراهيم.



موت إبراهيم

انتظمت حياة مارية بنت شمعون زوج الرسول ﷺ وسريرته، ومضت سعيدة هانئة ترضع وليدها إبراهيم وهي تشعر بسعادة عظيمة، لما حباها الله بهذا الطفل الأنيس الذي جعلها عزيزة أثيرة إلى نفس خاتم المرسلين صلوات الله وسلامه عليه، فما يفتأ يترك دارها حتى يعود إليها مشتاقاً لها ولوليدها إبراهيم، فجعل أمرها جُلَّ اهتمامه، وأكبر عنايته، وأشمل رعايته.

لكن سعادتها لم تطل سوى عام وبعض عام، ثم كانت المحنة الفادحة والثكل المرير.

فقد مرض إبراهيم قبل أن ينتصف عامه الثاني، مما أثار خوف مارية القبطية وجزعها، فجزعت لذلك جزعاً شديداً، ولو كانت تملك دفع المرض عن وليدها لفعلت، لكن الشافي هو الله إذ يقول عز وجل ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ الآية.

واشتد المرض بالوليد الصغير إبراهيم، فما إن بلغ الخبر بعض الصحابة حتى ذهب البراء بن أنس زوج مرضعته «أم رافع» ذهب إلى مسجد رسول الله عابس الوجه، ثقيل الخطوات، حزين النفس كأنما زاغت عيناه بحثاً عن شيء، وعندما لمح النبي ﷺ جالساً بين أصحابه في المسجد،

وعنده عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه، فتمالك نفسه واستجمع قواه لعلمه بفداحة الخبر الذي يحمله إلى رسول الله ﷺ عن ولده إبراهيم، فقال للرسول ﷺ في صوت مرتجف: يا رسول الله، إن إبراهيم ابن مارية يموت.

نهض الرسول ﷺ متكئاً على يد عبدالرحمن بن عوف وقد بدا وقع الخبر الأليم على نفسه واضحاً، ومضى لا يلوي على شيء قاصداً مشربة أم إبراهيم، وحضر الصحابة هذا المشهد الأسيف ومنهم أسامة بن زيد وأبي بكر وعمر ومعهم الفضل بن العباس ابن عم رسول الله ﷺ، وقد ساد المشربة صمت عميق، فلم تعد وجوه المسلمين محتملة لأكثر من كلمات يتبادلها الرجل مع صاحبه محاولة لقطع هذا الصمت الحزين.

ودخل رسول الله ﷺ على مرضعة ابنه إبراهيم، فإذا بإبراهيم يصارع الموت في حجرها، فأخذه منها، ومال عليه داعياً مقبلاً حزيناً، فما كانت مارية تنتظر فجيعتها في ابنها إلا بإيمان وصبر تعلمته من البيت النبوي الشريف ومن دينها الحنيف.

وقُضي أمر الله في إبراهيم، فمات إبراهيم ابن مارية رضي الله عنها وكان عمره لا يتجاوز الثمانية عشر شهراً، وكانت وفاته يوم الثلاثاء لعشر ليالٍ خلت من ربيع الأول سنة عشر من الهجرة النبوية الشريفة.

أجهشت مارية بالبكاء، وراحت في دوّامة حزن عميق تخاطب عاطفة الأم المتلهبة، ولكنها تمالكت نفسها وحزمت أمرها وامتثلت بشريعة الإسلام ودعوة محمد ﷺ في الصبر والتسليم لقضاء الله وقدره، فلا رادّ لقضائه أبداً، واسترجعت قائلة: إنّا لله وإنا إليه راجعون[١].

وذكرت المصادر[٢] رواية جابر بن عبدالله عن موت إبراهيم فقال: أخذ النبي ﷺ بيد عبدالرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ فأتى النَّخل، فإذا

---

(١) انظر أنساب الأشراف ١/٤٥١.

(٢) الاستيعاب، لابن عبدالبر.

ابنه إبراهيم في حجر أمه وهو يجود بنفسه، فأخذه رسول الله ﷺ، فوضعه في حجره، ثم قال: «**يا إبراهيم إنا لا نغني عنك من الله شيئاً**».

ثم ذرفت عيناه وقال: «**يا إبراهيم، لولا أنَّه أمرٌ حَقٌّ، ووعدٌ صدقٌ، وإن آخرنا سيلحق أولنا، لحزنا عليك حزناً هو أشدُّ من هذا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون ـ. تبكي العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الربُّ**».

وعن أنس رضي الله عنه قال عن موت إبراهيم: لقد رأيتُه ـ أي إبراهيم ـ وهو يكيد[1] نفسه بين يدي رسول الله ﷺ، فدمعت عينا رسول الله ﷺ فقال: «**تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون**»[2].

وتوفي إبراهيم في بني مازن بن النجار حيث كان يرضع، وتوفي لدى بردة[3] ابنة المنذر النجارية، وفي غسله قولان: أولهما أن التي غسلته هي أم بردة الأنصارية، وثانيهما: أن الذي تولى غسل إبراهيم ابن رسول الله ﷺ هو الفضل بن العباس رضي الله عنهما.

وحمل جثمان إبراهيم من بيت بردة الأنصارية على سرير صغير، وسارت الجنازة إلى البقيع، ورسول الله ﷺ يمشي بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وكان الجمع المشيع للجنازة يذرف دموعاً غزيرة. ولما بلغ الجثمان البقيع صلى رسول الله ﷺ على إبراهيم وكبّر عليه أربعاً وقال عليه السلام: «**ندفنه عند فرطنا عثمان بن مظعون**» وقيل: إنه قال: «**الحقْ بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون**»[4].

سيطر الحزن الشديد على مارية القبطية التي جاءت من أرض الكنانة

---

(١) يكيد نفسه: يجود بروحه وهو في النزع الأخير.
(٢) رواه مسلم في كتاب الفضائل.
(٣) دلائل النبوة للبيهقي.
(٤) ابن سيد الناس في «عيون الأثر» جـ٢ ص٣٦٧.

ولم تبلغ السنوات الثلاث منذ مجيئها إلى المدينة، وشعر الرسول ﷺ بمصيبتها وهو المصاب، ولكن رأفته بها ورحمته بها جعلته يهون عليها بكلماته الرقيقة وبدعوته المباركة ومواساته الحانية، وجعلته يقول لها: **«إنَّ له مرضعاً يتمُّ رضاعه في الجنة»**[1].

وأخرج مسلم - رحمه الله - في الصحيح أنّ رسول الله ﷺ قال: **«إنّ إبراهيم ابني، وإنّه مات في الثَّدي، وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة»**[2].

ومن شدة حزن المسلمين على إبراهيم كان أن صادف موت إبراهيم كسوف الشمس فظنوا أن كسوفها كان حزناً على موت إبراهيم، وقالوا: كسفت الشمس لموت إبراهيم.

بلغ هذا الحديث رسول الله ﷺ، فنهض في الناس خطيباً وقال: **«إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة»**[3].

وفي صحيح البخاري جاءت الرواية كما يلي: **«إنّ الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله»**[4].

مضى إبراهيم كزائر غريب ثم رحل، وصبرت مارية واحتسبت.

ونتبين من النصوص التي بين أيدينا أن الرسول ﷺ أكرم القبط في أحاديثه، وأمر المسلمين أن يحسنوا إليهم، ويستوصوا بهم، وذلك كرامةً لمارية، وإكراماً لإبراهيم.

ففي هذه النصوص يقول الرسول ﷺ: **«لو عاش إبراهيم لأعتقت أخواله، ولوضعت الجزية عن كل قبطي»**.

---

(١) أخرجه البخاري ٦١٩٥.

(٢) رواه مسلم في الفضائل وابن ماجه في الجنائز.

(٣) رواه مسلم في صحيحه.

(٤) انظر صحيح البخاري في الكسوف.

وفي صحيح مسلم بسنده عن رسول الله ﷺ، أنه قال: **«إذا دخلتم مِصْرَ، فاستوصوا بالقبط خيراً، فإن لَهُم ذمَّةً ورحماً»**[(١)].

ولربما قصد الرسول ﷺ «هاجر»[(٢)] أم العرب قبل مارية القبطية رضي الله عنها في هذه الوصية.

وفي رواية أبي ذر قال رسول الله ﷺ: **«إنكم ستفتحون أرض مصر، وهي أرضٌ يُسمى فيها القيراط، فإذا فتحتوها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمّة ورحماً»**.

وفي معجم البلدان يقول ياقوت الحموي ـ رحمه الله ـ بأن الإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما، طلب إلى معاوية في مفاوضات الصلح بينهما أن يرفع الخراج عن أهل قريته «حَفن» المصرية التي يعود أصل مارية القبطية أو مسقط رأسها إليها، وفيها أخوال إبراهيم ابن رسول الله ﷺ[(٣)].

ولما فتحت مصر، سأل عبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن قرية «حفن»، وسأل عن موضع بيت مارية، ومن ثم بنى به مسجداً، وفاءً لذكراها، ومكاناً للإسلام.

وتعد مارية ممن ذكروا في القرآن في سورة التحريم، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣﴾[(٤)].

أما رسول الله ﷺ فقد طوى أحزانه ولم تطل أيامه بعد موت إبراهيم في السنة العاشرة للهجرة، فما أهل ربيع الأول من السنة الحادية عشرة

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، ومسند أحمد ١٧٤/٥.
(٢) انظر ترجمة هاجر أم إسماعيل في هذه السلسلة لـ عبدالمنعم الهاشمي.
(٣) معجم البلدان لياقوت الحموي ٣٠٢/٣ مادة حفن.
(٤) سورة التحريم، الآيات: ١ ـ ٣.

للهجرة حتى شكا عليه السلام من المرض، ثم لحق بربه الأعلى، وترك مارية من بعده..

وجاء الصديق من بعده، فكان ينفق في خلافته على السيدة مارية القبطية برّاً بها، وتنفيذاً لوصية المصطفى عليه السلام، فأنزلها منزلاً كريماً، وأحسن إليها، وظلت عناية الصديق رضي الله عنه ورعايته لمارية رضي الله عنها حتى توفي.

وجاء بعده عمر بن الخطاب، فأكرمها أحسن إكرام، نفقة ورعايةً.

وعاشت مارية بعد وفاة الرسول ﷺ قرابة الخمس سنوات وفي المحرم من السنة السادسة عشرة هجرية، شعرت مارية بالوهن والمرض الشديد، وأحست بقرب اللقاء مع الله سبحانه وتعالى وشعرت بدنو أجلها.

ولم تمضِ أيام قليلة حتى صعدت روحها إلى بارئها راضية مرضية، شاهدة أنه لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.

ولما توفيت دعا عمر بن الخطاب الناس للصلاة على مارية[1].

وفي البقيع اجتمع عدد كبير من صحابة رسول الله ﷺ من مهاجرين وأنصار، كي يشهدوا جنازة مارية القبطية، لما كانت عليه من فضائل ومحاسن تشهد لها.

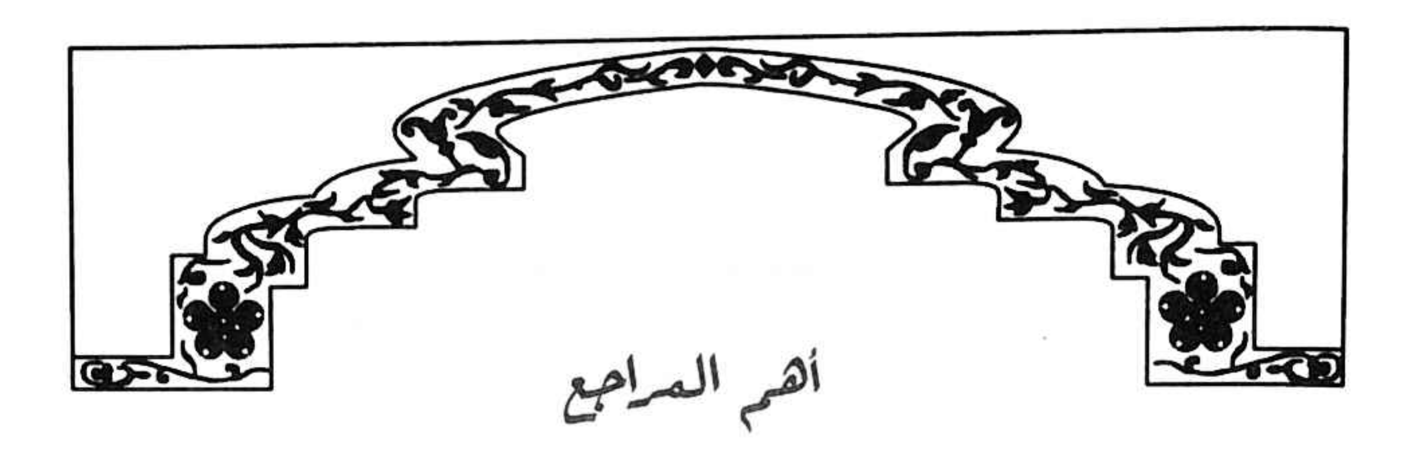
رحم الله مارية بنت شمعون هدية المقوقس عظيم القبط للرسول ﷺ.

رحم الله مارية القبطية سريرة رسول الله ﷺ.

رحم الله مارية القبطية أم إبراهيم ولد رسول الله ﷺ الحرة التي أعتقها ولدها إبراهيم.



(١) طبقات ابن سعد ٢١٦/٨.



أهم المراجع

١ ـ الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ـ للزركشي ـ تحقيق الأفغاني ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٢ ـ الأخبار الطوال ـ للدينوري ـ مصر ١٩٥٩.

٣ ـ أخبار مكة للأزرقي ـ تحقيق رشدي الصالح ملحس ـ دار الأندلس ـ بيروت.

٤ ـ أزواج النبي ﷺ ـ للصالحي ـ ط دار ابن كثير ـ دمشق.

٥ ـ أسباب النزول ـ للواحدي ـ ط دار ابن كثير ـ دمشق.

٦ ـ أسباب النزول ـ للشيخ عبدالفتاح القاصي ـ دار الندوة ـ بيروت.

٧ ـ الاستيعاب ـ بهامش الإصابة ـ لابن عبدالبر ـ دار الكتاب العربي.

٨ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ لابن الأثير ـ دار الفكر ـ بيروت.

٩ ـ الإصابة ـ لابن حجر.

١٠ ـ الأعلام ـ للزركلي ـ ط دار العلم للملايين.

١١ ـ أعلام النساء ـ لعمر رضا كحالة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

١٢ ـ أعلام النبوة ـ للماوردي.

١٣ ـ أنساب الأشراف ـ للبلاذري ـ ط دمشق ـ تحقيق محمود العظم.

١٤ ـ بهجة المجالس ـ لابن عبدالبر ـ دار الكتب العلمية.

١٥ ـ تاريخ الإسلام ـ للذهبي ـ ط العلمية ـ بيروت.

١٧ ـ تاريخ مدينة دمشق ـ تراجم النساء.

١٨ ـ تفسير الرازي ـ دار الفكر.

١٩ ـ تفسير القرآن ـ لابن كثير ـ ط مكتبة المنار ـ الأردن.

٢٠ ـ تهذيب الأسماء واللغات ـ للنووي ـ ط العلمية ـ بيروت.

٢١ ـ جامع البيان في تفسير القرآن ـ للطبري ـ دار الفكر دمشق.

٢٢ ـ الجامع لأحكام القرآن ـ للقرطبي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٣ ـ جمهرة أنساب العرب ـ لابن حزم الأندلسي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٤ ـ حلية الأولياء ـ لأبي نعيم الأصبهاني ـ دار الكتاب العربي.

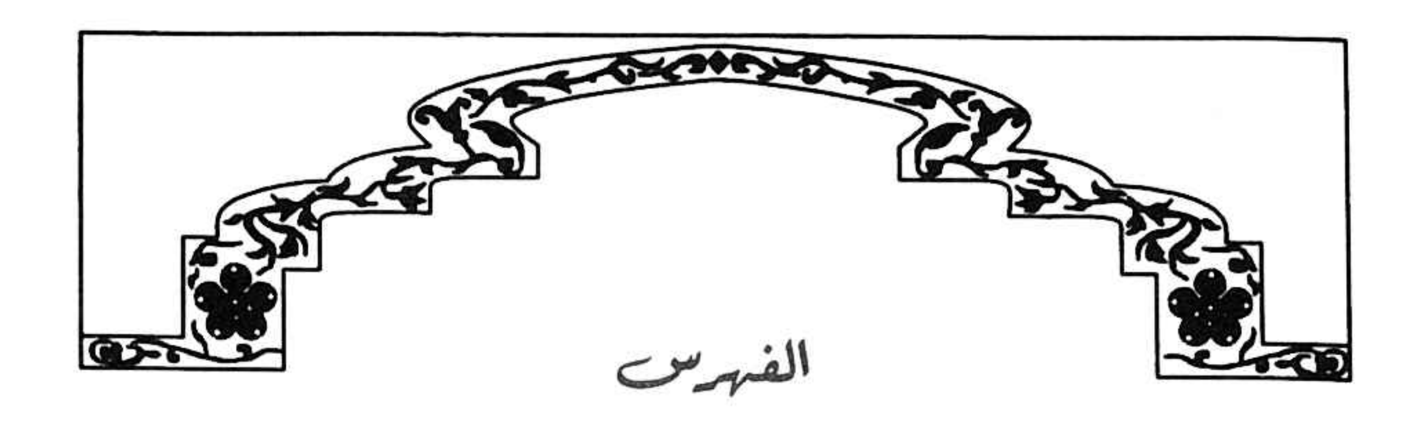
٢٥ ـ حياة الصحابة ـ للكاندهلوي ـ بعناية نايف العباس ومحمد علي دولة ـ دار القلم.

٢٦ ـ الدرر في اختصار المغازي والسير ـ لابن عبدالبر ـ مؤسسة علوم القرآن.

٢٧ ـ دلائل النبوة ـ للأصبهاني ـ تحقيق د . محمد رواس قلعجي ـ حلب ـ دار التراث.

٢٨ ـ الروض الأنف ـ للسهيلي.

٢٩ ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة.
٣٠ ـ زاد المعاد ـ لابن القيم ـ تحقيق شعيب الأرناؤوط ـ مكتبة المنار الكويت.
٣١ ـ السمط الثمين ـ للمحب الطبري.
٣٢ ـ سنن ابن ماجه ـ دار إحياء التراث العربي.
٣٣ ـ سنن أبي داود ـ إعداد وتعليق محمد محيي الدين عبدالحميد ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٣٤ ـ السنن الكبير ـ للبيهقي.
٣٥ ـ سنن النسائي ـ بشرح السيوطي وحاشية السندي ـ دار إحياء التراث العربي.
٣٦ ـ سير أعلام النبلاء ـ للذهبي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
٣٧ ـ السيرة الحلبية ـ لعلي بن برهان الدين الحلبي ـ مطبعة البابي الحلبي مصر.
٣٨ ـ السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ دار ابن كثير ـ دمشق.
٣٩ ـ سيرة دحلان ـ الأهلية ـ بيروت.
٤٠ ـ شذرات الذهب ـ لابن العماد، ط ابن كثير ـ دمشق ١٩٨٦.
٤١ ـ شرح المواهب ـ للزرقاني ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط٢، ١٩٧٣.
٤٢ ـ صحيح مسلم ـ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ـ دار إحياء التراث.
٤٣ ـ صحيح ابن حبان ـ العلمية ـ بيروت ١٩٨٧.
٤٤ ـ صحيح ابن خزيمة ـ تحقيق د . مصطفى الأعظمي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٣٩٠هـ.
٤٥ ـ صفة الصفوة ـ لابن الجوزي ـ دار المعرفة ـ بيروت.
٤٦ ـ الطبقات الكبرى ـ لابن سعد.
٤٧ ـ عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ط بيروت.
٤٨ ـ عيون الأخبار ـ لابن قتيبة ـ مصر ١٩٦٣.
٤٩ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ـ المكتبة السلفية ـ القاهرة.
٥٠ ـ فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ النهضة المصرية مصر.
٥١ ـ الفصول في سيرة الرسول ﷺ ـ لابن كثير ـ ط دار ابن كثير ـ دمشق.
٥٢ ـ الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ دار صادر ـ بيروت.
٥٣ ـ المجتبى من المجتنى ـ لابن الجوزي ـ ط عمان ـ الأردن.
٥٤ ـ مجمع الزوائد ـ للهيثمي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت.
٥٥ ـ المحبر ـ لابن حبيب ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.
٥٦ ـ مروج الذهب ـ للمسعودي ـ دار المعرفة ـ بيروت.
٥٧ ـ المسند ـ للإمام أحمد ـ دار الفكر ـ بيروت ط٢، ١٩٧٨.
٥٨ ـ المعارف ـ لابن قتيبة ـ دار المعارف مصر، ط٤، ١٩٧٧.
٥٩ ـ معجم البلدان ـ لياقوت الحموي ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٦٠ ـ المعرفة والتاريخ ـ للبسوي ـ تحقيق د . أكرم ضياء العمري ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
٦١ ـ المغازي ـ للواقدي ـ عالم الكتب ـ بيروت.
٦٢ ـ المنمق في أخبار قريش ـ لابن حبيب البغدادي ـ عالم الكتب ـ بيروت.
٦٣ ـ المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت ١٩٩١.
٦٤ ـ الموطأ ـ للإمام مالك ـ صححه ورقمه محمد فؤاد عبدالباقي ـ دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة.
٦٥ ـ نسب قريش ـ لمصعب الزبيري ـ دار المعارف ـ مصر.
٦٦ ـ نهاية الأرب ـ للنويري ـ دار الكتب المصرية.



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

